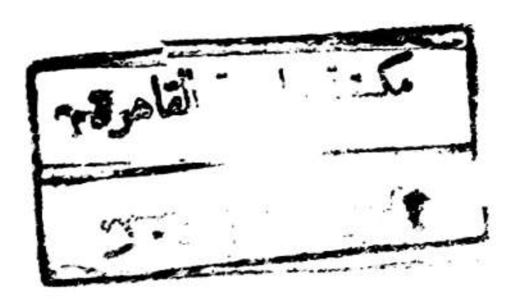
معة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ

الحياة الاجتماعية في العراق

إبان عهد المماليك

١٧٤٩ - ١٨٣١



رسالة مقدمة من الطالب

عماد عبد السلام رؤوف العطار

لنيل درجة الدكتوراه

باشراف

الأستاذ الدكتور السيد رجب حراز
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة

١٩٧٦

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمـــــــة

أدى المماليك أدوارا هامة في تاريخ العالم الاسلامي والعربي ، فكان لهم حكـــم مصر مدة تنوف على الخمسة قرون ، وتولوا مهاما رئيسية في الدولة العثمانية ، وشكلـــوا معظم مؤسساتها الحاكمة ، كما تولوا مسؤوليات أخرى في بلدان اسلامية مختلفــــة حتى بدى ، للقائمين بالحكم في تلك البلاد ، أن انشاء نظام عماده المماليك المدربين يعد حلا مناسبا لتأسيس أية حكومة قوية في هذه البلاد .

ولقد رأى ولاة العراق في أوائل القرن السابع عشر أنه لا مندوحة عن انشاء مثـــل هذا النظام المقتدر ، فاستوردوا الرقيق الأبيض من مواطنه في شرقي أوربا ، ودربـوه على أعمال الحكم والادارة . وتولى أول مملوك الحكم فعلا في منتصف القرن نفســــه ، واستمر عهد المماليك في العراق - رغم كثير من الظروف الصعبة - مدة ثمانين عامـــا تقريبا ، انتهت بسقوط حكومتهم رسميا عام ١٨٣١م .

وقد حفلت هذه الفترة بتغييرات حضارية هامة ، شملت مختلف جوانب الحيـــاة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق ، وكان لهذه التغييرات أثرها البعيـــد حتى ما بعد انتهاء عهد المماليك نفسه .

وكان من حظ هذه الفترة الحافلة من تاريخ العراق ، أن تعرض لها — في الآونة الأخيرة — بعض الدراسات الحديثة ، بيد أن منهج هذه الدراسات كان مرتكزا على تناول الحالة السياسية وحسب . ورغم أهمية البحث في هذا الجانب ، إلا أنه لا يكفي وحده — لفهم التغيير الحضاري الذي شهدته البلاد خلال الفترة المذكورة ، وتبقى الحاجة ماسة الى دراسات جديدة تعنى بذلك التغيير من جوانبه المختلفة الأخرى وخاصة من النواحي الاجتماعية ، فتتناول بالبحث حركة المجتمعات العراقية في المدن والريف والبادية ، وتدرس ظواهر العهد الرئيسية ، مثل نمو المدن ، وبروز طبقات اجتماعية جديدة فيها ، وهجرة القبائل البدوية الى الريف ، وتحولهم التدريجي الى فلاحين فيه ، وهجرة الفلاحين أنفسهم الى المدن واستقرارهم فيها ، ودراسة التنظيمات الاجتماعية للسكان وطوائفهم المتعددة ، والبحث في عاداتهم وتقاليدهم في ذلك العهد .

ولما كان كل من هذه المجالات لم يدرس من قبل ، فقد وجدت أنه من المفيد تناولها في دراسة موضوعية تكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية في العراق ابان حكم الولاة المماليك ، ورصد سمات التغيير الذي طرأ على المجتمعات العراقية خلال الفترة المذكورة ، مما يخدم الدراسات التاريخية والاجتماعية في تاريخ العراق الحديث .

ونظرا لأن كثيرا من جوانب تاريخ العراق خلال هذا العهد لم يبحث من قبل فقد كان منهجي في دراسة الحياة الاجتماعية يعتمد ، بدرجة كبيرة ، على البحث في تلك الجوانب ، وتحليلها ، لتبين جوهرها الاجتماعي ، ومدى تأثيرها على الحياة

الاجتماعية فى الوقت نفسه ، فكثير من القضايا السياسية والدينية والاقتصادية ، كان يتصل فى حقيقة أمره بالتطور الاجتماعى الذى يمر به العراق آنذاك . فكان على مثلا أن أدرس أثر صلات حكومة المماليك بالقوى السياسية المحلية على تشكيل الحياة الاجتماعية فى المدن العراقية ، وعلاقة النفوذ الأوربى المتزايد بالتكوين الاجتماعى فى تلك المدن . كما كان على أيضا ان أنظر الى صراع عنيف كالذى كان يدور بين المماليك والقوى القبلية ، على أساس أنه ، فى حقيقته ، صراع اجتماعى بين المدينة والريف بكل مالهما من قيم ومفاهيم حضارية مختلفة ، وأن أنظر – مثلا – الى تنظيمات دينيةواقتصادية مثل الطرق الصوفية والأصناف على أنها تنظيمات اجتماعية حقيقية لطبقات المجتمع وفئاته .

ويزيد من صعوبة هذا البحث ، أن المجتمعات التى تقوم رسالتى على دراستها لم تكن قد نمت ، ابان عهد المماليك ، الى حد تشكيلها مجتمعا عراقيا منسجما ، فبينما مارست مجتمعات بعض المدن نشاطات تجارية وحرفية كبيرة ، ظلت مدن أخرى متسمة بالطابع القبلى المحض ، وغلبت العلاقات العسكرية على مجتمعات مدن غيرها . هذا بالاضافة الى أن مدن العراق نفسها لم تكن قد نجحت فى تكوين وحدة سياسية منسجمة ، فقد تفاوتت تبعية تلك المدن الى مركزية بغداد المتنامية ، قوة وضعفا وفقا لظروف تطورها الاجتماعى الخاص ، وتبعا لنمو شخصيتها المحلية ، ومن هنا فقد كان منهجى فى البحث يعتمد على دراسة مظاهر الوحدة فى تلك المجتمعات بقدر اهتمامها بظاهرة التنوع والاختلاف ، كأساس هام لفهم الحياة الاجتماعية فى العراق خلال عهد المماليك .

وقد عمدت ، على ضوء المنهج المذكور ، الى تقسيم الرسالة الى تمهيد وخمسة فصول وخاتمة • وخصصت التمهيد لبيان الاوضاع السياسية للعراق في عهد المماليك بوجه عام ، بهدف تقديم فكرة واضحة عن طبيعة العهد الذى تقوم الرسالة بدراسته •

أما الفصل الأول ، فقد تناولت فيه بالبحث ظاهرة نمو المدن العراقية ابان عهد المماليك وتطور وظائفها الاجتماعية • ولغرض ايضاح مدى ذلك النمو وسرعته ، فقد تعرضت أولا الى حالة المدن المذكورة في الفترة التي سبقت حكمهم ، ثم تطرقت الى بحث عوامل نمو المدن المختلفة بعد قيام ذلك الحكم ، وبينت أهم الملامح المشتركة لخطط المدينة العراقية آنذاك •

وتناولت في الفصل الثاني الطبقات الاجتماعية في المدن ، مبينا ظروف نمو كل منها وأسبابه ، وعلاقتها بغيرها من الطبقات ، وموقعها من مصادر الثروة الرئيسية في المجتمع ، وهذه الطبقات هي : المماليك ، والأسر الحاكمة المحلية ، وعلماء الدين والتجار ، والعامة •

أما الفصل الثالث فقد خصصته لدراسة الوضع القبلي في العراق • باعتبار ان القبيلة بقيت ، طيلة عهد المماليك ، القوة الاجتماعية والسياسية الرئيسية التي تقوم خارج نطاق نفوذ المدينة ومجال سيطرتها ، فبحثت في علاقة القبائل بالريف ، وبالانتاج الزراعي وتطرقت الى دراسة علاقتها بالمدينة وبالقرى الزراعية على حد سواء ، كما بحثت في خريطة القوى القبلية المختلفة في بوادى العراق وأريافه ، موضحا ظاهرة نشوء الاتحادات القبلية القوية في تلك الفترة ، والظروف الاجتماعية المؤدية الى ذلك •

وفى الفصل الرابع ، درست أهم التنظيمات الاجتماعية للسكان ، وهى : نقابات الأشراف ، والطرق الصوفية ، والأصناف ، مبينا أثر كل من تلك التنظيمات على الحياة الاجتماعية فى العراق ، وما تمثله من مصالح الطبقات والفئات المختلفة .

أما الفصل الخامس ، فقد درست فيه طوائف السكان الرئيسية ، من مسلمين ونصارى ويهود ، كما تعرضت فيه الى بعض الأقليات الدينية الأخرى مثل صابئة الأهوار فى جنوبى العراق ، محاولا الكشف عن عناصر الحركة الاجتماعية داخل كل من هذه الطوائف ، فتطرقت الى دراسة حركة التشيع لدى القبائل العربية فى الجنوب ، كما بحثت فى حركة انتشار الكثلكة بين النصارى فى الشمال ، وبينت الأسباب الاجتماعية التى كانت تقف وراء هذه النشاطات الهامة ، كما انى لم اغفل عن دراسة مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذا العهد ، مثل دور الأسرة ، والمرأة ، والاحتفالات والمناسبات العامة ، وأزياء السكان .

ولابد — أخيرا — من كلمة فى مصادر هذه الدراسة ، حيث لا يخفى مقدار الصعوبة التى تواجه الباحث عند جمعه مواد بحثه فى مجال التاريخ الاجتماعى بوجه عام وخاصة تاريخ البلدان العربية فى العصر الحديث . ومن المؤكد ان نصيب تاريخ العراق الاجتماعى من المصادر فى العصر العثمانى ضئيل للغاية اذا ما قورن بما هو متوفر بالنسبة لتاريخ بعض الولايات الأخرى ، مثل مصر والشام وحلب ، وهى حقيقة اعترف بها غير باحث فى هذا المجال [1] . ذلك أن العراق القاصى عن مركز الامبراطورية

---

(١) جب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ٢٩ .

العثمانية ، بقى — حتى عهد متأخر — بعيدا نسبيا عن الاتصال بأوربا ومشاريعها التوسعية في الشرق ، لذا فقد بقيت الكتابة التاريخية في العراق مقتصرة ، في معظمها ، على أعمال المؤرخين المحليين ، وما يدونونه من ملاحظات عامة . ورغم وجود مؤرخين عراقيين نابهين في هذا العصر ، وخاصة في عهد المماليك ، فان السمة الغالبة على تلك المؤلفات هي الاهتمام الشديد بالمعلومات السياسية البحتة دون التعرض الى النواحي الحضارية الأخرى ، الا نادرا وباختصار شديد . ولذا فان موقف الباحث ازاء مثل هذه المصادر يبقى دقيقا ، مشوبا بالصعوبة ، حيث لا سبيل الى الاستفادة منها الا بتحليل معلوماتها السياسية ، للتوصل الى ماتخفيه من مضامين اجتماعية عامة .

ومن المؤسف أن تكون جميع السجلات والأوراق الرسمية الخاصة بحكومة المماليك قد أتلفت بسبب كارثتي الطاعون وفيضان دجلة ، اللتين أصابتا بغداد في آخر سني حكمهم (1) ، الا أنه يبدو بأن تلك السجلات كانت تهتم بالمعلومات المالية دون غيرها فهي معدة لخزانة الولاية ، لتدوين تفاصيل الانفاق والايراد . ومهما يكن من أمر فان ضياعها التام ، قد حرم الباحث من فرصة الخروج بأفكار عامة عن مدى نمو الحياة الاقتصادية ، وما يؤدي اليه ذلك من ازدهار مقابل في الحياة الاجتماعية موضوع البحث .

أما السجلات العثمانية المركزية ، الخاصة بولايات العراق ، فانها فضلا عن كونها خاصة بأمور ايرادات الأراضي والضرائب ، فان تاريخ وضعها متقدم على عهد المماليك

---

(1) نص على ذلك — صراحة — سليمان فائق ، مؤرخ المماليك ، في كتابه مرآة الزوراء في أخبار الوزراء ص ١٦٧ .

بضعة قرون من الزمن . ومن هنا فان فائدتها تقتصر - فيما يتعلق بمجال بحثنا - على تقديم تصور عام عن علاقة الأرض بالبناء الاجتماعي القائم عليها ، وخاصة مايتصل بالقبيلة في الريف . كما انها تفيد في معرفة تطور الادارة العثمانية للمدن العراقية في الفترة السابقة على عهد المماليك . والمعلومات المعاصرة الوحيدة تقدمها سجلات ولاية ديار بكر ، حيث نجد فيها أنواعا مختلفة من الأمور المتعلقة بأراضي شهرزور وماردين التابعتين لحكومة بغداد . ولقد اعتمدت على جملة مهمة من هذه السجلات الرسمية .

وتشكل مجاميع الوقفيات المحلية على المؤسسات الدينية والثقافية وغيرها ، اكثر المصادر اهمية فيما يتعلق بدراسة ثروة طبقة المماليك الاقتصادية والطبقات الرئيسية الأخرى في المجتمع ، حيث تكشف تلك الوقفيات عن عناصر الثروة ، ونوع الاستثمارات المالية التي كانت تعتمد عليها الطبقات المذكورة في تعزيز مكانتها الاقتصادية والاجتماعية .

وتقدم كتب الرحلات والمذكرات الشخصية التي دونها رحالون مختلفون ابان عهد المماليك ، فوائد جمة تتصل بشكل مباشر - بالمظاهر الاجتماعية التي تغفلها عادة المصادر التاريخية المحلية ، من أساليب معيشة ، ونشاطات اجتماعية عامة ، وأزياء .. الخ فضلا عما تسجله من أوصاف - على جانب من الدقة - لحالة المدن العمرانية ، وماتشتمل عليه من اسوار ، وحصون ، وأسواق ، مما يفيد البحث في مجالات تطور المدينة العراقية وخططها العامة أثناء العهد المذكور .

اما الدراسات الحديثة ، فانها لم تهتم بالحياة الاجتماعية على الاطلاق ، حتى يمكن القول بأن دراستى المتواضعة هذه هى أول محاولة فى مجال التاريخ الاجتماعى للعراق طيلة العصر العثمانى ، والأمل معقود على أن تعقبها دراسات أخرى ، تكشف عن جوانب خفية من ذلك التاريخ ، وتكون سبيلا الى اعادة النظر فى كثير من مسلمات تاريخنا العربى الحديث .

وختاما ، لابد لى من أن اتقدم بخالص شكرى وتقديرى وعميق امتنانى ، الى أستاذى الجليل الدكتور السيد رجب حراز ، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة ، لما شملنى من اهتمام ورعاية وارشاد طيلة فترة اعدادى لرسالتى هذه ولما منحنى من وقته وجهده ، وعطفه الأبوى ما أجد نفسى عاجزا عن ايفائه بعض حقه من الشكر والعرفان . فلايسعنى الا أن اكرر لسيادته خالص التقدير والامتنان ، داعيا من الله أن يوفقنى لأن اكون عند حسن ظنه على الدوام .

والله الموفق ، وعليه قصد السبيل .

عماد عبد السلام رؤوف العطار

تمهيـــد

أوضاع العـــراق السياسيـة
في عهد المماليـــك

يشكل ظهور المماليك في العراق ، جزءا من ظاهرة عامة اشتركت فيها معظم أرجـاء الامبراطورية العثمانية ، والولايات العربية منها بخاصة . فقد أدى الفراغ الناجم عـن ضعف السلطة المركزية ، والانحسار الفعلي للوجود العثماني من أقاليمها العديدة،الى ضرورة قيام سلطات محلية قوية تتمكن من ملء الفراغ الناشيء عن ذلك الانحسار ،فقامت في أقاليم مختلفة من الامبراطورية ، حكومات محلية وامت ، بدرجات متفاوته ، بيـن استقلالها الاداري والعسكري الفعلي ، وبين وجودها ضمن السيادة العثمانيـة الرسمية ، مثل المعنيين في لبنان ، وآل العظم في دمشق ، وآل القره مانلي فـي ليبيا ، وحكومة علي بك الكبير في مصر (1) .

أما العراق ، الذي عاني من التدهور السياسي والعسكري ، منذ سقوطه على أيدى المغول في القرن الثالث عشر (السابع الهجري) ، فان عدم وجود حكومة عثمانية مركزيـة قوية قادرة على ممارسة سلطتها فيه ، وازدياد نفوذ القبائل البدوية والريفية وتسلطهـا على المدن ، قد أدى الى تعرضه الى أخطار حقيقية ، كان يمكن أن تغير وضعـه السياسي برمته (2) .

---

(1) أنظر: Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, p. 246.

(2) في سنة ١٦٢٥ م / ١٠٣٥ هـ استطاع كاتب جند البصرة أفراسياب أن يتولـى مقاليد الحكم في ولايته بعد أن اتفق رأى أهل البصرة على هجر الحاكـم =

ولم يكن في العراق ، ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحتى قيام حكم المماليك في بغداد ، أي نوع من الوحدة المركزية لأراضيه ، فعلى الرغم من تقسيم السلطان سليمان القانوني للبلاد الى عدد من الوحدات المستقلة المتوازنة (1) فان هذه الوحدات — نفسها — فقدت من الناحية الفعلية ، وحدتها الداخلية ، اذ تمتعت كل مدينة فيها بحكومتها الوراثية واستقلالها المحلي ، بل امتدت هذه الظاهرة

= الروس (أي العثماني) " وأعلن آفراسياب استقلاله عن السلطان ، ملقبا نفسه بأمير البصرة ، وتمكن من توسيع حدود امارته بسرعة ، وأسس أسرة حاكمة تولت الحكم من بعده حتى سقوطها على يد العثمانيين سنة ١٦٦٨م /١٠٧٩ هـ ، وفي عام ١٦٢٣م/١٠٣٣ هـ أعلن بكر صوباشي ، احد قادة الانكشارية ببغداد ، عصيانه على السلطان ، وحاول أن يستفيد من الشاه الصفوي للضغط على العثمانيين ، الا أن محاولته هذه فشلت ، ودخل الشاه بغداد فاتحا ، فبدأت بذلك فترة الاحتلال الايراني الثاني ، الذي استمر حتى استرجاع مراد الرابع لبغداد سنة ١٦٣٨م/١٠٤٨ هـ . وفضلا عن هاتين المحاولتين الانفصاليتين البارزتين ، فقد كانت هناك محاولات مستمرة في انحاء العراق لاقامة سلطات محلية لا تعترف بالسيادة العثمانية الا بالاسم .

(1) قسم السلطان سليمان القانوني ، فاتح العراق ، البلاد الى ثلاث ولايات هي : ١ — بغداد ، وتنقسم الى ١٨ لواء (سنجق) ، ٢ — الموصل ، وتنقسم الى ٦ ألوية ، ٣ — البصرة ، ولم تقسم الى الوية . هذا بالاضافة الى اعتراف السلطان بالأوضاع شبه المستقلة لامارة بهدينان ، في شمالي العراق اما ولاية شهرزور (وعاصمتها كركوك) فلم تنشأ الا في وقت لاحق . انظر عين على أفندي : قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان (نشرها ساطع الحصري في ملاحق كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٠ — ٢٣٩) .

لتشمل أصغر المدن والقرى . وكانت القبائل القوية العديدة في البوادي والأريـــاف تمثل عقبة كؤودا ازاء المحاولات الرامية لفرض نوع من الوحدة المركزية . فلقد شكلت هذه القبائل اتحادات قبلية استطاعت أن تفرض سيطرتها على المدن الواقعة في منطقـــة نفوذها . في حين كانت تمثل ـ بالنسبة للمدن الأخرى ـ خطرا دائما . من شأنـــه قطع طرق اتصالاتها . وانتهاك قواها السياسية والعسكرية .

وكانت هذه الأوضاع تشكل مبررا قويا لقيام نظام حكم أكثر تماسكا من الأنظمـــــة المحلية السائدة . يعتمد على قواه الذاتية في رد الخطر الخارجي عن العراق . وفـي قمع الثورات القبلية المتكررة . وفك قبضة القبائل عن المدن والأرياف . ولم تكن حكومـــة المماليك . في أول الأمر . الا وريثة لاحدى حكومات المدن التي شهدها العراق فـــي مطلع القرن الثامن عشر . بيد أن ثقل بغداد الحضاري القديم . ومركزها المتوسط في البلاد . منح الحكومة المحلية سلطات مركزية غير عادية . فمدت نفوذها الى ولايـــة شهرزور المجاورة اليها . ثم أخضعت امراء بهدينان في شمالي البلاد اليها . وضمـــت ماردين في أقصى الشمال الغربي . ضما رسميا . وشرعت تفرض تأثيرها السياسي علـــى الموصل . آخر ولاية مستقلة من ولايات العراق . حتى غدت هذه الولاية ـ منذ القـــرن التاسع عشر ـ لا تتخطى فلك ولاية بغداد . وتابعة لها في أكثر الأمور العامة .

وكان تأسيس نظام المماليك . يمثل حلا طبيعيا لمواجهة المشاكل العراقية . ابتدعه والي بغداد القوي حسن باشا في مطلع القرن الثامن عشر[1] . وقد نمى هذا النظام في عهد ابنه . الوالي التالي . احمد باشا . وأبدت المماليك نشاطا كبيرا في هذا العهد

---

(1) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد ص ٢٥ .

أهلهم لتولى الحكم من بعده ، بتعيين سليمان باشا أبى ليلة ، أول ولاتهم ، وصهر أحمد باشا ، واليا على بغداد وتوابعها سنة ١٧٤٩ م/١١٦٢ هـ .

وكانت فترة حكم سليمان فاتحة عهد استطاع فيه الولاة المماليك المتوالون أن يغسوا من مؤسستهم الحاكمة باستجلاب أعداد مستمرة من الرقيق الأبيض ، وتدريبهم في مدارس السراى على نحو يؤهلهم لامساك دفة الحكم فى الولاية وفى المدن العديدة التى تتألف منها منطقة سلطتهم .

ولقد تعاقب على الحكم فى بغداد ، بعد سليمان ، عشرة ولاة من المماليك معظمهم كان قد ولد فى بغداد او نشأ فيها ، وكان حكمهم للبلاد من خلال جهاز حكومة غالبيته العظمى من زملائهم المماليك أيضا ، وقوات مملوكية منظمة تمثل القوة الفعالة فى جيش الولاة . وتوزعت قيادات المماليك فى المدن الرئيسية التابعة لبغداد ، وخاصة البصرة ، حيث شكلوا هناك حكومات شبيهة بما كان لهم ببغداد نفسها . وكان متسلم البصرة يعد نائبا عن والى بغداد ومنه يستمد سلطته رأسا ومثله كان حكام المدن العراقية الأخرى : ككركوك ، والحسكة ، وماردين .

وبسبب هذه القبضة المملوكية المحكمة ، فقد فشلت محاولات الدولة العثمانية لفرض ولاة أغراب على الحكم ، سواء فى بغداد أو فى توابعها ، وباءت جميع جهودها فى القضاء على نظام المماليك بالفشل ، وكانت مضطرة الى الاقرار بالوالى المملوك الذى يرشحه زملاؤه ، دون أن يكون لها دور واضح فى ذلك الترشيح . ولقد أظهر المماليك من العصبية والتكاتف ماكان يقف حائلا دون سقوط نظامهم حتى فى احلك ساعات حكمهم . وكانت سلطتهم تجد مؤيدين - دائما - بين طبقات السكان فى المجتمعات

العراقية ، كالتجار والعلماء والعامة ، وكان دور أولئك يبرز جليا عند كل محاولة تجرى للقضاء على حكومة المماليك ، مما كشف عن الصلات الاجتماعية الوثيقة التى نجح المماليك فى اقامتها مع تلك الطبقات[1] .

وكانت تشارك المماليك فى سلطتهم هذه ، أسر محلية حاكمة ، تستمد قوتها من عوامل متنوعة ، فهى قد تستند الى ملكياتها الزراعية الكبيرة[2] ، او الى أهميتها التجارية والمالية[3] ، او الى عصبيتها القبلية او الدينية[4] . وكانت هذه المشاركة تتسم على أشكال مختلفة ، ففى مدينتى كالحلة وماردين ، كانت الأسر المحلية تتولى المسؤولية الى جانب وجود الحكام المماليك ، وغالبا ما يكون هذا الوجود شكليا لتمثيل السيادة بالدرجة الأولى . وفى مدن ، كالسليمانية والعمادية وراوندوز[5] ، كانت الأسر تحكم حكما وراثيا اكثر استقلالا فى شؤونها الداخلية ، وترتبط بالمماليك فى الأمور العامة السياسية والعسكرية ، وتستمد هذه الأسر رسميا الى السلطة المخولة لها من ولاة بغداد ، نيابة عن الباب العالى .

---

(١) فصلنا هذه الناحية ، من الوجهة الاجتماعية ، فى الفصل الثانى من الرسالة .
(٢) مثال ذلك : أسرة عبد الجليل بك حكام الحلة .
(٣) مثال ذلك : اسرة الجليلى فى الموصل ، وخاصة فى الفترة الاولى من حكمها والأسر المتعاقبة على الحكم فى بلدة الزبير جنوب البصرة .
(٤) مثال ذلك : اسر السدنة والنقباء فى مدينتى النجف وكربلاء .
(٥) هى على الترتيب عواصم الامارات الثلاث : بابان ، بهدينان ، سوران ، الكائنة فى شمالى العراق .

وأما الموصل ، فكانت الأسرة الوراثية الحاكمة فيها (١) ، تمارس سلطتها مستمدة اياها من الباب العالي مباشرة ، الا أنها صارت تخضع - تدريجيا - لسياسة المماليك العامة .

وهكذا ، فقد شهد العراق ، ابان عهد المماليك ، ظاهرة كثرة الكيانات المحلية المتمثلة في حكومات المدن الأسرية الوراثية . وكانت سياسة المماليك تعتمد - أساسا - على محاولة دمج هذه الكيانات واخضاعها لمركزية بغداد المتنامية ، أو على الأقل اخضاعها الى نوع من التوازن فيما بينها بهدف تنفيذ سياستهم الرامية الى تحديد قوة كل أسرة حاكمة منها .

وكانت المشكلة الثانية التي عاشها عراق المماليك ، هي الوضع القبلي المعقد الذي كان قد أنهك - من قبل - قوى الحكومات المتوالية في العهد العثماني السابق ولقد استمرت قبائل عديدة ، في الريف والبادية على حد سواء ، في الثورة على حكومة المماليك المركزية . وشكلت تلك القبائل اتحادات قوية ناوءت السلطات الرسمية وناصبتها العداء أحيانا ، وخاصة اتحاد بني لام في حوض دجلة ، واتحاد المنتفق على الفرات ، واتحادي شمر وعنزة في أنحاء الجزيرة (٢) ، حتى عدت ظاهرة الثورات القبلية المتكررة سمة أساسية من سمات عهد المماليك .

---

(١) هي أسرة الجليليين التي تولت الحكم بين سنة ١٧٢٦ وسنة ١٨٣٤ .
(٢) الجزيرة : هي الأراضي الفسيحة بين حوض نهري دجلة والفرات ، وبين الموصل وديار بكر وحلب . أنظر ملاحق الرسالة الخريطة القبلية .

أما على صعيد السياسة الخارجية ، فقد كانت علاقات المماليك بالباب العالي علاقة ضعيفة عموما ، ليس اضعف منها سوى انفصا لهم التام عنه ، ويلاحظ ان هذه العلاقة كانت تفتر تدريجيا ، وبشكل طردى ، مع استمرار نظام المماليك واستمرار حكمهم . حقيقة أن المماليك ظلوا يستمدون حكمهم من الباب العالي بفرمانات سلطانية رسمية ، وأنهم كانوا يؤدون بعض ما عليهم من مال الى الخزينة العامة فى القسطنطينية (١) ، وان مظاهر السيادة العثمانية كانت تلقى العناية فى جميع انحاء العراق ، الا أن تأثير الدولة الفعلي على سير الأحداث ظل منحسرا الى حد كبير بل كثيرا ما أهمل الولاة المماليك سداد الأموال المفروضة عليهم ، واغتالوا مبعوثي السلطان اليهم اذا ما أحسوا منهم خطرا ، وأرسلوا رؤوسهم الى سيدهم إمعانا فى التحدي . ولم تكن حالة الضعف العام التى تعيشها الدولة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، تمكنها من اتخاذ خطوات حاسمة فى مجال تشذيب قوة المماليك الصاعدة ، خاصة وأن الاخطار التى كانت تحيق بالعراق ، فى الفترة نفسها ، كانت تفرض على أولي الأمر فى الدولة الاعتماد على المماليك احيانا - باعتبارهم أبرز القوى المحلية فيه - فى درء تلك الأخطار .

ولقد أدى المماليك ادوارا هامة فى صد محاولات التوسع الايراني فى الأراضي العراقية ، منها صمودهم فى البصرة مدة عامين أمام حصار الايرانيين لها فى عهد

---

(١) كان مقدار هذا المال المفروض (٤٠٠٠) كيس ، اى نحو ٤ ملايين فرنك فرنسي ولكن بعض الولاة لم يكن يؤدى منه اكثر من $\frac{1}{8}$ ثمن هذا المبلغ .
Olivier, G.A.: Voyage dans l'Empire Ottoman, Vol.II, p.398.

كريم خان الزندى (١) ، وصدهم حملتين ايرانيتين اخريين كانتا تستهدفان وسط العراق وشماله (٢) ، وممارسة تأثير سياسى قوى على أمراء الهابانيين للمحافظة على استمرار ولائهم لبغداد ، وعدم الميل الى الجانب المقابل . هذا بالاضافة الى أعمالهم الدائبة فى تحصين المدن والقلاع ، وتهيأة القوات العسكرية واعدادها لأعمال الدفاع والمقاومة .

ومن ناحية أخرى ، فقد برز دور المماليك السياسى والعسكرى فى أثناء فترة الحملات العسكرية الوهابية على مدن العراق وأريافه فى مطلع القرن التاسع عشر فجهز ولاة المماليك عدة حملات مضادة نجحت فى دفع الخطر الوهابى أحياناً ، وحماية المدن العراقية على حافة البادية ، وان لم تنجح فى القضاء على الحركة الوهابية نفسها او اضعافها (٣) . ولهذا فقد عمد المماليك الى اقامة عدد من المحالفات بين القبائل العراقية ، والتراجع — موقتا — عن سياسة تجزئتها ، لغرض الاستفادة من هذه القبائل كحاجز بشرى يقى الأراضى العراقية من اخطار الوهابيين وحركاتهم العسكرية

ولقد تميزت فترة حكم المماليك بظاهرة ازدياد النشاط الأوروبى بشكل عام ، فبينما كان البريطانيون يدأبون على توسيع نفوذهم الاقتصادى فى البلاد ، واقامة القنصليات والوكالات التجارية فى المدن الرئيسية ، كان الفرنسيون يفضلون نشر

---

(١) رسول الكركوكلى : دوحة الوزراء ص ١٥٤ — ١٥٥ .
Malcolm,J;: The History of Persia,Vol.II,p. 206.
وعبد القادر باش أعيان : تاريخ البصرة الكبير ج ٢٤ ص ٥١ (مخطوط) .

(٢) دوحة الوزراء ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) وذلك فى عهد والى بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢م / ١١٩٤ — ١٢١٧هـ) . الذى عاصر تعاظم قوة الوهابيين ، وحملاتهم المنيفة على مدن العراق ، وبخاصة النجف وكربلاء والزبير .
Dupré,A.:Voyage en Perse Vol.II, pp. 145, 210.

نفوذهم الثقافي المعتمد على تحويل نصارى البلاد ، من أتباع الكنائس القديمة الــى الكنيسة الكاثوليكية .

وقد حاول المماليك ، منذ بداية حكمهم ، الاستفادة من النشاطين معا ، فتعاونوا مع التجار البريطانيين [1] ، فـي نفس الوقت الذي شجعوا فيه حركة الكثلكة . وكنتيجــة لزيادة نفوذ بريطانيا في الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر ، وتدخلها فــي سياسة الدول والامارات الواقعة على سواحله ، فقد اضطر والي بغداد المملوكـــي سليمان باشا الكبير أن يتعاون مع البريطانيين دفاعا عن البصرة ضد أطماع الايرانييــن ولغرض صد التوسع الوهابي ، وحماية مصالح العراق في مسقط [2] . وزاد من هـــذا التعاون ، نشوب أزمة العلاقات الفرنسية ـ العثمانية بسبب احتلال الفرنسيين مصر سنــة ١٧٩٨ [3] ، الا أن عودة هذه العلاقات الى طبيعتها السابقة ـ بعد انتهـــــاء أسبابها ـ أدى الى تدهور علاقة البريطانيين بالمماليك ، الذين أحسوا بمـــــدى التغلغل البريطاني الدءوب في اقتصاديات العراق . ولكن البريطانيين تمكنوا من أرغـام سليمان باشا الصغير (١٨٠٨ ـ ١٨١٠م / ١٢٢٣ ـ ١٢٢٥هـ) على الاذعـــان

---

(١) وذلك بتشجيع طبقة التجار النشيطة التي كانت تستفيد من عملية تصدير السلــع المحلية الى أسواق الهند وأوربا ، واستيراد البضائع المصنعة منها .

(٢) لوريمر ، ج . ج : دليل الخليج (القسم التاريخي) ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٥ .

Longrigg, S.H.: Four Certuries of Modern Iraq, pp.197-206.

(٣) Miller, W.: The Ottoman Empire and its Successors 1801 - 1927, p. 5.

لحطا لبهم التجارية الجديدة فى آخر سنى حكمه (١) • وحاولوا ان يجدوا بين الـــولاة التالين : عبد الله باشا (١٨١٠ ـ ١٨١٣م / ١٢٢٥ ـ ١٢٢٨هـ) وسعيد باشـــا (١٨١٣ ـ ١٨١٦م / ١٢٢٨ ـ ١٢٣١هـ) (٢) وداود باشا (١٨١٧ ـ ١٨٣١م/١٢٣١ ـ ١٢٤٧هـ) مرتكزا يمكنهم من تحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية فى البلاد • الا أن تعاظم قوة المماليك فى عهد داود باشا الطويل • ومشاريع هذا الوالى فى تكوين عــراق قوى مستقل • بعيدا عن المطامع الأوربية المتزايدة • قد أدت الى أزمة عنيفة بيـــن الطرفين • حاول المقيم البريطانى ريتش Rich فى اثنائها ان يستفيد من أشـارة الخلافات بين حكومات المدن العراقية (٣) • وبخاصة حكومة الجليليين فى الموصل • ولكـن موقف هذه الحكومة غير الايجابى منه (٤) • ادى الى رجحان كفة داود فى الصــــراع الناشب • بشكل لم ينهه سوى طرد ريتش نفسه من العراق نهائيا سنــــــة ١٨٢١م/١٢٣٧هـ (٥) •

---

(١) انظر نص هذا الاتفاق فى : عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد • الملحق رقم ٧ • ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ •

(٢) توسط المقيم البريطانى ببغداد كلوديوس ريتش Rich لدى عبد الله باشا لصالح سعيد قبل ان يتولى الحكم • وأخذ له عهد الأمان منه • انظر ميخائيل بن يوسف ديمترى عبود : بيان مقتصر شرح ماحدث بأيام عبد الله باشا (نبذة نشرها يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ١ ص ١٠) •

(٣) تجول ريتش فى المناطق الكردية • وأقام فى السليمانية بعض الوقت (سنة ١٨٢٠) بغرض استمالة شعور الأمراء البابانيين ضد والى بغداد • ضاربا على وتر العواطف القومية والقبلية وقد نشر يوميات جولاته هذه • فى كتابه :

Narrative of a Residence in Kurdistan (London 1836).

(٤) Rich, C.: Op. cit., II, p. 24

Alexander, C. Bagdad Bygone Days , pp. 283 - 292.

(٥) وعماد عبد السلام رؤوف : الموصل فى العهد العثمانى ص ١٥٤ •

Rich, C.: Op. Cit., II, P. 184

وعلى الرغم من التحسن النسبي للعلاقات البريطانية ـ المملوكية في أواخر عهـــد داود (السنوات ١٨٢٢ ـ ١٨٣١) ، فان سياسة المماليك كانت تميل بوضوح الـــى الأخذ بجانب فرنسا ، والاستعانة بخبراتها في تجهيز جيش عراقي قوي حديـــث التدريب والأساليب ، على أن سقوط داود وانهيار حكم المماليك أدى الى انتهـــاء سياسة مقاومة النفوذ البريطاني في البلاد ، وانفتح العراق أمام نفوذ القناصل السياسي ودور الوكالات التجارية الاقتصادي والمالي ، على نحو مكن بريطانيا من تعزيز مكانتها في العراق بسرعة أكبر ، وربط شؤونه ـ فعليا ـ بامبراطوريتها الاستعمارية في الهند .

وعلى العموم فقد نجح المماليك في تأسيس حكومة تولت مهاما سياسية وادارية واسعة ، الا أن شكل هذه الحكومة بقي تقليديا ، يشبه حكومات الولايات العثمانية الأخرى في الامبراطورية ، فكان الوالي المملوكي يرأس الجهاز الحكومي للولايات الـــتي تتألف منها منطقة حكمه المباشر ، وهي بغداد والبصرة وشهرزور ، ويرأس أحيانـــا الحملات العسكرية الهامة ، ويساعده في أعماله " الكتخدا " ، وهو نائبه عند غيابـــه والمرشح لتولي منصبه عند فراغه (1) ، ويتولى الأمور المالية عدد من الموظفيـــن أعلاهم " الدفتردار " ويتصل بالجانب المالي رأسا ، وكاتب الخزينة ، وصاحب الجزية والصراف باشي ، أما شؤون التحريرات الرسمية فكان يتولاها " ديوان الانشاء " الذي يضم عددا من الكتاب والمترجمين المختصين بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغـــات

---

(1) وكان من المحتمل ابان عهد المماليك ـ أن يتولى منصب " الكتخدائية " اكثر مـــن رجل في وقت واحد ، فبلغ عدد كتخداوات سليمان باشا ، أول ولاة المماليـــك سبعة كتخداوات .
انظر : رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الـــزوراء ص ١٣٢ .

المتداولة . وشكل أولئك الموظفين ديوانا ، أو مجلسا للشورى ، يعقد في السراى دوريا ، ويضم في عضويته الكتخدا ، وآغا الانكشارية ، ورئيس ديوان الانشاء (ديوان أفنديسى) والمفتي ومتسلم البصرة وحاكم الحلة وماردين [1] ، ورغم هذا التشكيل الكبير ، فان المجلس كان — على الأغلب — صوريا فقط ، لا ينعقد الا في المناسبات الرسمية والتقليدية .

وفي الوقت الذي حافظ فيه المماليك على شكل الحكومة العثمانية التقليدي ، فان أسس هذه الحكومة قد تغير تماما في عهدهم ، فأصبح جميع هؤلاء الموظفين أو جلهم من المماليك المحليين ، حتى أصحاب المناصب التي تحتم النظم العثمانية ان يكون معينا من السلطان مباشرة كالدفتردار ، وآغا الانكشارية . وهكذا فقد أصبحت حكومة المماليك — في هذا العهد — حكومة عراقية ومحلية محضة ، ترتبط بظروف البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، أكثر من ارتباطها بالسلطة المركزية في القسطنطينية .

ومثلما " استعرقت " حكومة بغداد ، فقد شملت هذه الظاهرة حكومات المدن الأخرى ، فشكلت الأسر الوراثية في تلك المدن هيئتها الحاكمة . ففي الموصل ، وهي آخر ولاية احتفظت بكيانها المحلي ضمن الكيان العراقي العام ، تحولت مؤسسات الحكم والادارة الى مؤسسات محلية يتولاها الموصليون أنفسهم [2] .

واحتفظت حكومة بغداد في عهد المماليك بقوات كبيرة نسبيا ، قدرت في أيام ولاية داود بنحو عشرة آلاف مقاتل ، يمكن أن تضاعف بسرعة الى

---

(١) علاء موسى نورس : حكم المماليك في العراق ص ١١٧ — ١١٩ .
(٢) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ص ٤٦٠ .

٤٠,٠٠٠ مقاتل (١) . وتوزعت هذه القوات على هيئة حاميات في المدن العراقية الرئيسة مثل ماردين والحلة والحسكة والبصرة ، فضلا عن بغداد ذاتها . في حين بلغت قوات ولاية الموصل نحو ثلاثة آلاف مقاتل (٢) .

وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، كان نظام المماليك في العراق قد نمى الى الحد الذي مكن داود باشا ، آخر ولاتهم وأقواهم ، من رفض الانصياع لرغبة السلطان بعزله ، وقتله مبعوثه (٣) ، وبهذا فقد أعلن المماليك ولأول مرة تمردهم الصريح على الدولة . وقيل ان داود كان ينهج خطى محمد علي باشا والي مصر حيث أفصح عن رغبته في الدفاع عما حققه من أعمال ازاء رغبة الدولة في اسقاطه (٤) .

وكان من المتوقع أن ينجح المماليك ، بما حققوه من قوة عسكرية ، وولاء شعبي في أن يتصدوا لأي تقدم عسكري يستهدف الاطاحة بحكمهم . وأن يكفلوا لسيادتهم بقاءها على الرغم من ارادة السلطان ، الا أن كارثتي الغرق الذي حل ببغداد ، والطاعون الجارف الذي شمل أغلب مدن العراق ، أديا الى تدمير قوة المماليك تدميرا هائلا

---

(١) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie et en d'autres Pays Circonvosins , Vol. II, p. 267.
Heude, A.: A Voyage up the Persian Gulf, p. 185.

(٢) رحلة تافرنييه ص ٥٩ .

(٣) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكولة مند في بغداد ، ص ٥٨ ــ ٥٩ .

(٤) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Mesopotamia, Vol.1, p. 257.

وتشتتت قواهم العسكرية (١) ، بالاضافة الى حدوث ضائقة اقتصادية فادحة أضعفت من وحدة البلاد الداخلية ، وتمكنت الجيش على رضا باشا العثماني سنة ١٨٣١ من القضاء على نظام المماليك برمته ، وطرد داود ، وتدبير مذبحة قضت على القيادة المملوكية السابقة (٢) . وفي السنوات التالية ، تم تصفية آخر القوى الحليفة للمماليك في العراق ، فأسقطت حكومة الجليليين في الموصل سنة ١٨٣٤م/١٢٤٩هـ ، والعباسيين في بهدينان سنة ١٨٤١م/١٢٥٨هـ ، والبابانيين في شهرزور سنة ١٨٥٠م/١٢٦٧هـ وأعيد تنظيم هذه الولايات على أسس مركزية جديدة ، فكان سقوط حكم المماليك وتوابعهم نهاية لمرحلة متميزة من تاريخ العراق في العصر العثماني ، وبداية لمرحلة أخرى مختلفة ، من تاريخه الحديث .

---

(١) Groves, A.N.: Journal of Residence at Bagdad, PP.215-216.
Fraser, J.B.: Op. Cit., Vol. 1, PP. 243 - 249.
عباس بن جواد البغدادي : نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ص ٢٧٩ (مخطوط) .

(٢) Fraser: Op.Cit., Vol. 1, PP. 265 - 267.
وثائق : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٨٠ ــ ٨١ .

الفصل الأول

المدينة العراقية

المدن العراقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر :

كان سقوط العراق في أيدى المغول في القرن الثالث عشر بداية التدهور العمراني المستمر الذى حل بالمدن العراقية ، ونهاية للحركة العمرانية التى شهدتها تلك المدن ابان العهود العباسية .

وكنتيجة لفقدان الأمن في البلاد ، وشيوع الاضطراب في النظم الادارية أخذت المدن المذكورة بالانكماش تدريجياً الى الى داخل أسوارها القديمة . فهجرت بذلك الضواحى المحيطة بها ، واندثر كثير من معالمها الحضارية كالمساجد والأديرة والأسواق والبيمارستانات .

وكان من أبرز النكبات تأثيرا على الحياة المدنية في العراق ، تلك الحروب الوحشية المريعة التى شهدتها مدن العراق وقراه على أيدى جيوش تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر[1] وانفتاح العراق أمام غزوات الدول القبلية المختلفة ، مثل دولتى التركمان

---

(١) فتح تيمورلنك العراق مرتين الاولى سنة ١٣٩٣م/٧٩٦هـ والثانية سنة ١٤٠١م/٨٠٤هـ . وخربت معظم ما مر به من مدن ونهبها . انظر ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٥٠ ــ ٩٠ .

القره قوينلو والاق قوينلو (١) ، وحكومة موصلو الكلهرية الكردية (٢) ، كما ساهمت حروب المشعشعيين (٣) في جنوبي العراق ووسطه مساهمة كبيرة في تخريب معالم المدنية في تلك الانحاء طيلة القرن الخامس عشر ، وما أن حل القرن السادس عشر ، حتى كانت البلاد قد انتهت لتكون ساحة حرب بين دولتين قويتين مختلفتين ، هما الدولة العثمانية ، والدولة الصفوية الفارسية ، وهي حرب غطت معظم القرن السادس عشر .

ولعل أهم ما نتج عن هذه الفوضى السياسية والعسكرية ، هو الضعف الشديد في سلطة المراكز المدنية في البلاد ، التي كانت تفرضها على الريف ، وهو الذي يمثل في الوقت نفسه المجال الحيوي لتلك المراكز ذاتها .

---

(١) القره قوينلو : دولة تركمانية حكمت ايران ، وجزءا من الاناضول في القرن الخامس عشر ، وضمت اليها بعض أراضي العراق بين سنتي ١٤١٠ و ١٤٦٨م ، وكان أول أمرائها قره يوسف . والاق قوينلو دولة تركمانية أيضا ورثت سابقتها في أمد والموصل ، واستطاع اميرها طور علي أن يضم اليه معظم العراق . احمد القرماني أخبار الدول ص ٣٣٦ ومرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ١٧٢ .

Hammer, J.: History de l'Empire Ottomane , Vol. 3, p. 151, vol. 4, p. 80.

(٢) موصلو : قبيلة كردية شهيرة استطاع رئيسها (ذو الفقار) ان ينتزع بغداد من يد الفرس في عهد الشاه طهماسب ، وان يعلن نفسه حاكما عليها نيابة عن السلطان العثماني ، الا أن الشاه تمكن من استعادة بغداد سنة ١٥٢٩م/٩٣٦هـ مرتضى نظمي زاده : المصدر السابق ص ١٨٦ ــ ١٨٨ .

(٣) أنشأ المشعشعيون دولة قوية في منطقة عربستان جنوب ايران ، واستولوا في القرن الخامس عشر على معظم العراق الجنوبي .

وكان اضطرار المراكز المدنية في العراق الى الكف عن ممارسة دورها الاداري والحضاري على الريف ، قد أدى الى قيام القوى الريفية نفسها بملء الفراغ الناجم عن ذلك الانحسار. ولظروف العراق التاريخية والجغرافية (١) ، كانت القوة الاجتماعية الوحيدة المؤهلة للعب ذلك الدور هي القبيلة ، باعتبار أن القبائل تلي بقوتها العسكرية قوة المدن مباشرة ، فضلا عن أن العصبية الاجتماعية في المجتمع القبلي أقوى مما هي عليه في المجتمعات الحضرية المتمدينة ، ذلك أن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء المجتمع القبلي الواحد كانت -على الدوام- أبسط واكثر ترابطا منها في مجتمع المدينة المعقد القائم على تعدد الطوائف والطبقات . وعلى هذا ، فان ازدياد أهمية القبيلة على حساب المدينة ، كان في حقيقته غلبة المجتمعات البسيطة على المجتمعات المعقدة ، المتعددة الطبقات والمسؤوليات . وكان تغير البنية الاجتماعية هذا قد أفسح المجال أمام القبائل للظهور على المسرح السياسي العراقي ، لتلعب دورها في مقدرات المدن العراقية ذاتها . وكان هذا -في الواقع- عودة الى مرحلة متخلفة سابقة ، حين كانت القبائل تشكل القوة الاجتماعية الرئيسية قبل قيام المدن ونموها .

ومع هذا الوضع الاجتماعي ، كان على العثمانيين أن يتعاملوا ، وأن يقيموا سلطتهم السياسية في البلاد المفتوحة . ولم يكن للفاتحين الجدد من الرصيد الحضاري ما يمكن أن يقدموه للحياة المدنية في العراق ، حيث كان الحكم العثماني يقوم على قاعدة بقاء الأوضاع بصفة عامة على ما كانت عليه قبل الفتح العثماني ، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة (٢)

(١) انظر الفصل الثالث .
(٢) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ ص ٥٣ .

وتكشف لنا أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل في العراق عن طبيعة نظرتهم الى المدينة العراقية ، وهي نظرة ترتكز على تصور أن المدينة ليست الا حصنا او قلعة مهمتها الرئيسية حفظ الأراضي التابعة للسلطان (١) ، ومركزا لجمع الضرائب من تلك الاراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية . وطبيعي أن هذا التصور لمهمة المدينة كان يستلزم ــ نظرا لامكانيات الدولة العثمانية ومركزها ازاء القوى السياسية المتاخمة للعراق ــ أن تمضي في سياسة اقرار الاوضاع القائمة فعلا مع محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى أقصى حد ممكن . وعلى هذا ، فقد ترك السلطان سليم الأول مدن شمالي العراق : شهرزور والعمادية وأربيل وروانذوز وغيرها بيد الأسر والسلالات القبلية الموجودة في عهده (٢) ، فاستمرت هذه القوى ــ وأغلبها قبلي تماما ــ في السيطرة على مقدرات تلك المدن عدة قرون من بعده . ولم يغير السلطان سليمان القانوني عندما فتح العراق في الثلث الأول من القرن السادس عشر ، شيئا من هذه القاعدة ، فظلت مدن الشمال على وضعها السابق ، واستمر شيوخ قبائل آخرون وزعماء عشائريون ريفيون يسيطرون على المدن العراقية الواقعة في منطقة نفوذهم ، فعندما

= وانظر Lewis,B.:The Emergence of Modern Turkey, p. 27.
ومحمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٩٠ والمؤلف نفسه : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ص ١٣ ــ ١٤ .

(١) يرد اصطلاح قلعة بغداد ، او الموصل ، أو البصرة ، في المدونات الرسمية العثمانية في هذه الفترة ، وخاصة في الفرامين السلطانية وفتاوى الجهاد .

(٢) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ وشرفخان البدليسي : شرفنامه ص ٢٥٠ ــ ٢٧٠ .
وانظر : جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ ص ٢٨٨ .

عرض زعيم قبيلة المنتفق القوية المسيطرة على البصرة ولاءه للسلطان العثماني سنـــة ٩٤٥/١٥٣٨ هـ ، أقره في حكمه على الرغم من أهمية البصرة كمدينة ذات موقع عسكـــري واقتصادي هام [١] . وتركت مدن كثيرة ومراكز تجمعات سكانية مختلفة في جنوبي العراق ووسطه تحت سيطرة القبائل المجاورة ، التي سرعان ما أعلنت خضوعها الاسمي للسلطـــة الجديدة [٢] .

وبلغ من خضوع المدن العراقية الى قوى القبائل والريف ، ان اميرا قبليا واحـــدا ، هو المعروف بأبي ريشة ، كان يحكم مدينة هيت على الفرات ، ويمد سلطانه حـــتى مدينه بيره جك فـــي أعالي هذا النهر ، ويفـــرض ظله على سياسات مدن مهمة شــــمال بغداد وحلب وديار بكر [٣] وامتد نفوذ اولاده من بعده جنوبا حتى أطراف مدينـــة الحلة [٤] . وعند ما كتب السلطان مراد الرابع ــ بعد فتحه بغداد سنه ١٦٣٨م/١٠٤٨ مجددا الأمان لسكان مدينة النجف ، كان ذلك باشارة من الشيخ مدلج بن أبي ريشـــة

---

(١) كلشن خلفا ص ٢٠١ .
Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 9, P.165.

(٢) ومن تلك المدن يمكن ان نذكر : المدن الواقعة في منطقة الجزائر (البطائـــح) والغراف ، وهيت وعانة على الفرات .
Longrigg, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, P. 25.

(٣) Della Valla, P. : The Travels of Sig Petro Della Valla, p. 266.
Rauwolff, L. : Intineray into the Eastern Countries, as Syria, Palestine..., Vol. 1, p. 178.
Teixeria, P. : The Travels of Pedro Texeira, P. 84.
Parry, V.J. : Materials of War in the Ottoman Empire (in Studies in the Economic History of the Middle East, by M. A. Cook) P. 300.

(٤) Teixeira, P. : Op. Cit., p. 72.
يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ٢ ص ٣٤١ .

" ملك العرب " (١) ، وذلك أن كلا من النجف وكربلاء ، كـــان يعد جزءا مـــن ديرته " القبلية الواسعة (٢) .

ورغم أن العثمانيين استطاعوا في سنة ١٥٤٦م/٩٥٣ ، فك البصرة من يـــد المنتفق ، الا أن المدينة بقيت ـ عمليا ـ خاضعة الى حد بعيد الى نفوذ هذه القبيلة القوية . وكان أمر رجوع المدينة الى قبضة المنتفقين يعد احتمالا قائما في كل وقت ، وقد سقطت البصرة فعلا بيد الشيخ مانع أمير المنتفق عام ١٦٩٠م/١١٠٢ هـ وأسس فيهـــا حكومة ضمت اليها مدن مهمة في جنوبي العراق ووسطه ، على شاطيء دجلة والفرات (٣)

وفي أوائل ١٧٤١م/١١٥٤ هـ قام المنتفقيون بمحاصرة البصرة والاستيلاء علـــى المدن المجاورة من القرنة (على ملتقى دجلة بالفرات شمال البصرة) وحتى مدينـــة النجف ذاتها (٤) . وكان في البصرة ـ دوما ـ أراض وعقارات مملوكة الى زعماء هـــذه القبيلة ، تديرها وتجبي أموالها (٥) .

---

(١) المصدر السابق عن الأب باسفيك الكبوشي الذى قدم العراق سنه ١٦٢٨ .
Pacifique de Provins: Relation du Voyage de Perse, p.239.

(٢) Longrigg, S. H.: Op. Cit. p. 38.

(٣) تاريخ راشد ج ٢ ص ١٨١ وكلشن خلفا ص ٢٩٨ وكاتب جلبي : تقويم التواريخ ص ١٣٨ ـ ١٤٤ Hammer, J.: Op. Cit. Tome 13, 174, 287,

(٤) سليمان عزي : تاريخ عزي ص ١٩٨ ورسول حاوي الكركوكلي : دوحة الـــوزراء ص ٤٣ ويذكر الأخير أن المنتفقيين بزعامة الشيخ سعدون تمكنوا من حصار الحلـــة " وبث الدعاية له بين الناس قائلا : انا السلطان الثاني فما الوزير والعسكـــر العثماني " .

(٥) تحدث أحمد نور الانصاري قاضي البصرة عن تفاصيل هذه الأراضي والعقارات فـــي كتابه " النصرة في أخبار البصرة " ص ١٩ ـ ٢٢ .

ويمكن القول بأن خضوع المدينة المراقبة للقبائل البدوية والريفية ، كان – رغم بعض النواحي الايجابية القليلة – يعد تدهورا خطيرا لتلك المدينة ، وترديا واضحا في أنشطتها الحضرية . واذا ما استثنينا الحكومات المؤقتة التي أقامها المنتفقيون في البصرة ، والتي حظيت ببعض التأييد والاحترام من قبل تجار المدينة وسكانها ، فان أغلب المدن كانت تعاني من ضغط القبائل عليها . او فقدانها الأمن اللازم لاستمرار نشاطها الحضاري . وكان الاختلاف القائم بين قيم القبيلة ومثلها وما تمثله من روح عسكرية متنقلة لاتعرف الاستقرار ، وبين قيم المدينة المرتكزة على نشاطاتها التجارية والانتاجية المستقرة ، يمثل هوة اجتماعية كبيرة يصعب تجاوزها الا على حساب المدينة ذاتها . وبقيت المدن في نظر القبائل تمثل عالما غريبا غير مألوف بالنسبة لهم ولم تجد أغلب القوى القبلية آنذاك حرجا في استغلال الفرص السانحة التي تمكنها من الاستيلاء على المدن المجاورة ، أو – على الأقل – نهب مايمكن نهبه منها ، ففي أثناء عصيان حسين باشا والي البصرة على سلطات بغداد سنة ١٦٦٥/١٠٧٦ هـ(١) انتهز اعراب شط العرب الفرصة " فنهبوا اموال التجار وهجموا على البيوت "(٢) . وعندما داهم الطاعون بغداد سنة ١٦٩٠م/١١٠٢ هـ دخل بعض أعراب البادية الى المدينة " وقاموا بأعمال النهب والسلب والغارات هنا وهناك "(٣) . وحينما طغى نهر دجلة

(١) وكان نزاع قد حدث بين والي البصرة المذكور ووالي الاحساء ، وكلف والي بغداد آنذاك الوزير ابراهيم باشا الطويل بعزل والي البصرة ، مما دفع بالاخير الى العصيان والاعتصام بالبصرة والحصون المحيطة بها . انظر كلشن خلفا ص ٢٦٤ – ٢٦٨ وياسين العمري : عنوان الشرف ص ٩٦ (مخطوط) .
(٢) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٦٧ .
(٣) كلشن خلفا ص ٢٩٨ .

وأحاطت مياهه ببغداد اغتنمت القبائل الفرصة فاستولت على مدن : المرجة والسماوة وبني مالك والرماحية والجوازر [١] ، وزادت نشاطها فاحتلت الحسكة ومدينة النجف ذات الأهمية الدينية الكبيرة [٢] .

وواضح من خلال تتبع هذه الأحداث ، أن نصيب المدن العراقية كان دائما مزيدا من الاضطراب والضعف ، وكان عجز القوى القبلية والريفية عن تشكيل حكومات مدنية مستقرة قد أدى – في أغلب الأحيان – الى كوارث جسيمة ، فعندما استولى الشيخ ناصر امير المنتفق على البصرة سنة ١٦٩٨م/١١١٠هـ " لم يتمكن من ضبط النظام ، وأخيرا سيطر عليها حاكم الحويزة فرج الله وتمكن من اخراج العربان منها بمختلف الطرق ولكن بغير حرب " [٣] وزاد من خطورة الموقف تبعية حاكم الحويزة هذا الى الشاه الايراني المجاور .

وكنتيجة لتدهور سيادة المدينة وضعفها ، اهملت الأراضي الريفية الواقعة حولها ، وسرى الاهمال الى شبكة الانهار والمصارف اللازمة للري والزراعة ، وكان هذا – بدوره – سببا في تعاظم أخطار فيضانات الأنهار ، وحدوث المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها البعض وعن القرى وتدميرها ، او هجرة سكانها منها تدريجيا [٤] .

---

(١) كلشن خلفا ص ٣٠١ وتاريخ راشد ج ٢ ص ١٨١ .
(٢) كلشن خلفا ص ٣٠٩ .
(٣) كلشن خلفا ص ٢٩٨ والعزاوي : العراق بين احتلالين ج ٥ ص ١٥٣ .
Hammer, J.: Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 13, PP. 174 - 287.
(٤) عن أنهار العراق وريه في هذه الفترة أنظر :
Al-Feel, M.R.: The Historical Geography of Iraq Between the Mongolian and Ottoman Conquests, Vol. 1, PP. 138-173.

ومن أهم المدن العراقيــة التى اندثرت فى أوائل العصر العثمانى ، مدينــــة " واسط " الشهيرة ، ذات التراث الزاهر فى القرون الوسطى ، وذلك حين أدى اهمــال شؤون الرى الى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة ، وتحوله الى مجراه الشرقى المنحدر الى بلدة " القرنة " ، فعم الخراب سائر المدينة ، وما أن حل القرن السابع عشر حــتى كانت هذه المدينة تقوم وحدها وسط البريــة[1] ، وكان النهر - الذى طالما اشتهـــر بقصبه الذى تتخذ منه الاقلام - قد جف[2] ، ولم تمض الا سنوات حتى هجرت المدينــة برمتها ، وسجل اديب واسطى - هو السيد نعمة الله الجزائرى - تاريخ نزوحه منها فـى عام ١٦٩٥م/١١٠٧ هـ ، وذلك " لفقد أهلها وعامريها "[3] .

وللسبب نفسه ، اضطر أغلب سكان مدينة النجـف على حافة الصحراء ، الى الجـلاء عن مدينتهم ، حتى لم يبق من دور المدينة - فـى القرن السادس عشر - الا عشـــر ماكانت عليه من قبل ، ولم يبق من سكانها الا الخطيب والامام والموظفون وقليل غيرهـم بينما تركها الآخرون ، وكانت اسعار مياه الشرب باهظة الثمن[4] ، حيث يضطر سكــان البلدة الى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة[5] .

---

(١) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ٢ ص ٤٠ .
(٢) ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٦٠ عن كاتب جلبى : جهان نما .
(٣) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ٢/ ٤٠ .
(٤) من سنان باشا والى بغداد الى السلطان مراد الثالث ، عريضة ارسلت الـــى استانبول بين ١٥٨٦ و١٥٩٠ ووردت فى (دستور الانشاء - مخطوط) ، انظر مباحث عراقية ٣/ ٤٠ .
(٥) Rousseau, L.J.: Description du Pachalick de Bagdad, P. 78.

ومثل ذلك ، ماحدث لمدينة " الرماحية " القريبة من النجف ، وهي من المدن القديمة التي يرتقي تاريخ انشائها الى القرن الرابع عشر [1] . فقد أدى اهمال العناية بمجرى الفرات ، الى تشعب نهر جديد منه في سنة ١٦٨٨م/١١٠٠هـ عرف بنهر ذياب وأخذ يخترق تلك الانحاء متوسعا شيئا فشيئا ، ولما لم تكن ثمة سدود تمنع ذلك التوسع ، فقد أدى الى تحول مجرى الفرات نفسه ، وابتعاده عن نهر الرماحية الذي كان يأخذ مياهه منه . فأجدبت تلك الانحاء ، واضطر سكان الرماحية الى هجر مدينتهم ، ولجأوا الى الجزر التي نشأت في المناطق المجاورة ، ومنذ ذلك الحين خمل ذكر الرماحية وقل شأنها ، حتى زالت من الوجود تماما [2] .

وفي أواخر القرن السابع عشر ، قلت المياه في نهر ذياب ، فاضطر أهل القرى التي تعتمد على مياهه الى ترك قراهم والهجرة الى مناطق أخرى . وكان من بين ماهجروه ، مدينة الحسكة " التي طالما اشتهرت بخصب أراضيها ووفرة انتاجها حتى وصفت بأنها " أحسن ضياع العراق ، وأنفع القرى على الاعناق " [3] ، ففدت بعد انخفاض مستوى الماء في نهر ذياب ، الذي تقع عليه ، وتحول مجرى الفرات ، أرضا قاحلة مجدبة ، تخضع لسلطة القبائل المجاورة [4] .

---

(١) ورد ذكر الرماحية لأول مرة عام ٦٩٣ هـ(١٢٩٤م) ، والظاهر أنها انشئت في أخريات القرن الثالث عشر ، وترددت أخبارها بكثرة منذ القرن الخامس عشر ، ومر بها رحالون عديدون ، واعتبرها العثمانيون لواء (سنجقا) تابعا لولاية بغداد وهي اليوم من المدن الدارسة في العراق . انظر مجلة لغة العرب البغدادية (١٩١٣) ص ٤٦١ .

(٢) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٣٠٧ .

(٣) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء (مخطوط) .

(٤) وداي العطيه : تاريخ الديوانية ص ٢٦ .

ومثلما أدى التحول المستمر فى مجارى الأنهار فى جنوبى العراق الى اندثار مئات المدن والقرى ، مما حفلت بذكر أوصافها كتب الجغرافيا العربية فى القرون الوسطى ، فقد ادت عوامل اخرى فى شمالى البلاد الى تدهور عدد كبير من المراكز المدنية هناك • وكان من اهم تلك الأسباب ، الاضطراب السياسى الذى شهدته المنطقة باعتبارها ساحة للصدام المباشر بين العثمانيين والصفويين ، وظهور عدد من القوى القبلية ، والامارات العشارية ، وسقوط البلاد فريسة تطاحن مرير بين تلك القوى غير الحضرية •

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ، اندثار مدينة شهرزور ، ذات الماضى الزاهر فى القرن السابع عشر • فقد نجم عن الحروب المستمرة بين العثمانيين والفرس ، وسيطرة امارة اردلان الكردية القبلية ، تدهور المدينة ثم اندثارها ، حتى لم يعد من الممكن تعيين موقعها الآن (١) •ولم يتبق منها سوى اسمها الذى اخذ يطلق على الاقليم فحسب •

وأدت النزاعات العشائرية الدموية بين القبائل الكردية القاطنة فى سهل شهرزور والجبال المحيطة بها ، وتعرض المنطقة الى غزوات الفاتحين المستمرة ، الى انحطاط مدن اخرى كان لها شأن فى العصور الوسطى ، من أهمها مدينة اربل ذات الماضى الزاهر وقد بلغ من تدهور احوال هذه المدينة انها أمست فى القرن العاشر بلدة صغيرة يتنازع عليها حكام الامارات العشائرية الكردية القاطنة فى

(١) عن دور شهرزور فى الحروب العثمانية ــ الصفوية ، وحكم الاردلانيين فيها : انظر كلشن خلفا ص ٢٩٦ والعراق بين : احتلالين • الجزء الرابع •
Hammer,J. de.: Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 9, P. 138.

المنطقة ، ثم اصبحت لتكون احدى توابع امارة سوران [1]، الامارة الصغيرة التى كانت تنافس امارة اردلان سيادتها على اقليم شهرزور القديم .

ولحق التدمير مدن التخوم العراقية القريبة من ايران ، فاندثرت مدينة " حلوان " الشهيرة [2] ، وتضاءل شأن " البندنيجين " [3] ومدن منطقة " النهروان " التى طالما اشتهرت بالخصب والثروة الزراعية ، مثل بادرايا ، وباكسايا ، وغيرها [4] .

وامتد الخراب والاهمال ليشمل مدن العراق الرئيسة نفسها ، فبقيت أسوار المدن الفخمة شاهدة على ازدهارها فى العصور السابقة ، بينما انكمشت مساحة الرقعة المسكونة داخلها ، الى حد أن نصف الموصل كان حتى أوائل العصر العثمانى خرائب خالية

---

(١) المكريانى : تاريخ أمراء سوران ص ٩ وزبير بلال اسماعيل : اربل فى ادوارها التاريخية ص ٢٥٩ .

(٢) من اكبر مدن العراق فى العصر العباسى ، وقد وصفها ياقوت بقوله " مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسرمن رأى اكبر منها " (معجم البلدان ٢٩١/٢) ، وقد اندثرت هذه المدينة ونشأت قربها بلدة صغيرة عرفت بـ " درتنك " مازال قائمة ، الا انها فى الاراضى الايرانية اليوم .

(٣) قال ياقوت (٤٩٩/١) عنها انها بلدة مشهورة فى طرف النهروان من ناحية الجبل من اعمال بغداد " خرج منها خلق من العلماء ، محدثون وشعراء وفقهاء وكتاب " . وتعرف هذه البلدة اليوم بمندلى .
انظر يعقوب سركيس : مباحث عراقية ٢٦٢/١ وقاموس اعلام ٤٤٤٦/٦) .

(٤) محمود شكرى الالوسى : أخبار بغداد . الورقة ٧٥ (مخطوط) .
Al-Feel, M. R.: Op. Cit., Vol. 1, PP. 138 - 178.
كان النهروان يتألف من ثلاثة انهار الاعلى والاوسط والاسفل ، وعدت فى العصور الوسطى " من أجل نواحى بغداد واكثرها دخلا واحسنها منظرا ، وابهاها مخبرا " ياقوت / معجم البلدان ج ٨ ص ٢٤٧ (القاهرة ١٩٠٦) .

من السكان . ووصفها بعض الرحالين في النصف الاول من القرن السابع عشر ، بأنها تبدو للمرء من خارجها فخمة بأسوارها الحجرية ، بينما هي في داخلها تكاد تكون برمتها خربة ، فليس فيها سوى سوقين معقودتين وقلعة صغيرة مطلة على دجلة يقيم فيها الباشا الوالي ، وخانين حقيرين ، وهي لا تحتوي -بوجه عام- على مايستحق المشاهدة والالتفات.(١)

أما بغداد ذاتها ، فقد أدى تكالب الدول الغازية عليها الى أن تفقد مجدها العباسي القديم كعاصمة لأهم اقليم من أقاليم الخلافة الاسلامية ، لتصبح منذ أواخر القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) مبلدة مدمرة ، تعيث بها الأقوام الغازية خرابا وتدميرا ، وكان فتح تيمور لنك لها سنة ١٣٨٣م/ ٧٩٥ هـ بمثابة " قتل حقيقي لها ، على حد تعبير معاصريه (٢) . واستمرت النكبات تترى على بغداد طيلة القرون التالية (٣) .

وفي خلال القرن السادس عشر ، كانت بغداد مسرحا للصراع الدامي بين الصفويين والعثمانيين ، وهو صراع أودى بكثير مما تبقى للمدينة من آثار ومساجد

---

(١) مذكرات دومنيكولا نزا ص ١٢ ورحلة تافرنييه ص ٥٨ (حاشية) .
(٢) عبد الله الغياثي : التاريخ الغياثي ص ٢١ (مخطوط) .
(٣) ومما شهدته بغداد من كوارث ذلك العهد ، حادثة حصارها وتخريبها على يد شاه محمد بن قره يوسف من امراء القره قوينلو ، وهو اول من حكمها من امراء هذه القبيلة التركمانية ، وكانت قبل ذلك بيد المغول الجلائريين .
انظر مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ١٧٠ والعزاوي : العراق بين احتلالين ٣/ ٣٠ .

ومعالم ، وعندما استولى الفرس على بغداد اثناء فتنة بكر صوباشي الشهيرة عام ١٦٢٢م/١٠٣٢هـ ، كانت المدينة قد هوت الى الحضيض، فقد أصاب الحصار كثيرا من المباني الكبرى فيها ، ولم يصلح من شأنها الا القليل (١) ، وزال بعض ما أبقى عليه الدهر من منشآت عهد الخلفاء من قصور ومدارس (٢) ، وتقلصت حدود الأماكن الآهلة بالسكان ، وهجر الناس المحلات الواقعة في الجانب الشرقي من المدينة وتركوها أخربة وركاما ، وكان الرحالة راوولف Rauwolf قد لاحظ بأن المدينة غدت في عهده (اواخر القرن السادس عشر) مجموعة من الأزقة الضيقة والبيوت المتهدمة ، والعديد من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى السواد (٣) .

ولبثت بغداد على هذا الوضع طيلة القرن السابع عشر ، يجللها الركود والخمول والانزواء ، وقد وصفها الرحالة الفرنسي تيفنو Thévenot وصفاً مؤلماً عند مروره بها عام ١٦٦٥م ، اذ ذكر بأنها اصبحت قليلة السكان بالنسبة الى سعتها ،

---

(١) Hammer, J.: Op. Cit., Tome 9, P. 342.

(٢) محيي الدين العباسي : تاريخ بغداد (مخطوط نشر نبذا منه الشيخ محمد صالح السهروردي في جريدة العراق البغدادية ٢٧ يونيو ١٩٣٠) والمؤلف معاصر للاحداث ، وقد ابدى أسفه على الآثار العباسية المدعوة ، وقدر عدد اهل الجانبين واهل الأرياف والضواحي بنحو ثلاثة وخمسين ألف نفس ، بينما يقدرهم العمري في غاية المرام (ص ١٧٢) باكثر من أربعين الف نفس .

(٣) Rauwolff, L.: Intineray into the Eastern Countries, as Syria, Palestine ..., Vol. 1, P. 179.

تتخللها مساحات واسعة عديدة تخلو من السكان ، وفيما عدا السوق ، فان مابقى من المدينة لايعدو ان يكون شبيها بالصحراء (١) .

وفى البصرة ، أدت اعمال العنف والتدمير التى تعرضت لها المدينة ابان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واهمال العناية بأنهارها المديدة ، الى شح المياه فـــى تلك الانهار . ومن ناحية أخرى ، فقد ادى انكسار سد الجزائر (فى منطقة الهطائمع الاهوار ـ شمال البصرة) الى احاطة مياه المستنقعات بها ، وانتشار الامراض فيهـــا وخاصة وباء الطاعون (٢) . فأخذ أهلها يهاجرون تدريجيا ميممين وجههم شطـــر أرض البصرة الجديدة ، فى ناحية "المعشار" (الابلة القديمة) ، وكان ذلك فى حـــدود القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) فبنيت هناك ، على بعد سبعة أميال من البصرة القديمة ، البيوت والمساجد والمدارس (٣) .

وعلى الرغم من أن القرن السابع عشر كان بالنسبة الى ماسبقه من قرون ، يعد فـــترة استقرار نسبى وثبات فى نظم الحكم لم تشهده البلاد من قبل ، الا أن الضعف الشديد الذى كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية فى العراق ، وغياب حكومات محلية قويـــة

---

(١) Thévenot,M.D.: Relation d'un Voyage fait au Levant, Tome 11, P. 211

(٢) ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد والبصرة ونجـــد ص ١٥٩ وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ١٢ .
وانظر : فتح الله الكعبى : زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر ص ١٤ــ١٧ .

(٣) رحلة تافرنييه ص ٩٤ .
Mignan, R.: Travels in Chaldea, P. 287.
وعبد القادر باش أعيان : البصرة فى أدوارها التاريخية ، ص ٥٥ .

فى مدلصه الرئيسية ، لم يتغير من أوضاع المدينة العراقية كثيرا . بل يمكن القول ان هذا القرن كان استمرارا للفترات السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق ونموها ماعـدا ان العثمانيين اهتموا فى هذا القرن بتحصين المدن والعناية بمرافقها العسكرية من أبراج وخنادق تحسبا من غزو ايرانى مرتقب فى كل حين [1] . فكان ذلك المظهر العمرانى الوحيد الذى شهدته مدن العراق منذ اول العصر العثمانى ، وحتى قيام نظام المماليك فى العراق ، ونهوض الأسر المحلية فيه .

عوامل نمو المدينة العراقية :

تكتنف دراسة مدن العراق فى العصر العثمانى ، وفى عهد المماليك بوجه خاص ، صعوبات جمة ، لاسيما تلك التى تتعلق بتقديم احصاءات أو تقديرات علمية ، لعدد المدن العراقية ابان ذلك العهد ، وعدد سكانها ولو على سبيل التقريب . وهكذا فان اجراء اية مقارنة احصائية عن نمو المدن فى العهد الذى ندرسه تعد محاولة يجانبها كثير من التوفيق ، وترجع اسباب هذه الصعوبات الى ان فترات التدهور الحضارى التى تلت العصر العباسى لم تترك مجالا لقيام تلك الاحصاءات المهمة ، وان افترضنا اجراء احصاءات من هذا النوع ، فان الظروف العصيبة التى مرت على البلاد حالت دون وصول الوثائق المذكورة الينا .

(1) نصوح مطراقى زاده : صورة بغداد سنة ١٥٣٧ (نشرها احمد سوسة : أطلس بغداد ص ١٢) ورحلة تافرنييه ص ٨٩ .

Thévenot, M. D.: Op. Cit., Tome II, P. 211,

وتعد السجلات التي وضعت في عهد السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر ، والخاصة بالتنظيمات العثمانية للولايات العراقية الثلاث : الموصل وبغداد والبصرة [١] ، أول محاولة رسمية لتسجيل الملكيات الزراعية والعقارات المختلفة، الا أن اهتمام واضعي السجلات المذكورة بالنواحي المالية دون غيرها ، جعل تلك السجلات غير مفيدة لمعرفة عدد المدن والقرى ،اذ لم يميز بينها وبين المقاطعات الزراعية على نحو واضح ، كما أن المحاولات العثمانية التالية لم تخرج عن هذا الاتجاه [٢] .

وكان افتقار العراق الى ادارة مركزية موحده تضم اجزاءه ، قد أدى الى أن تجيء محاولات المؤرخين المحليين مبتورة وناقصة ، فبينما نجد مؤرخا موصليا مثل ياسين العمري يقدم قائمة بالمدن والقرى التابعة لمدينته في أوائل القرن التاسع عشر [٣] ، فان

---

(١) هي المعروفة باسم Tapu defteri ، ومحفوظة في Basvekalet Arsiv Daires1 في استانبول - تركيا ، ومنها عدة نسخ مصورة في الجامعات العراقية ، وفي المكتبة القادرية ببغداد.

(٢) انظر قائمة عين علي افندي المسماه " قوانين آل عثمان درمضامين دفتر ديوان - وقد ألفها سنة ١٦٠٩م/١٠١٨هـ مستندا الى سجلات " الدفتر الخاقاني " . (نشرها ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٥ - ٢٣٨) .

(٣) ياسين العمري : منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ص ١٢٨ - ١٦٨ .



أحدا فى الولايات العراقية الأخرى لم يقدم لنا ما يمكن اعتباره مكملا للقائمة المذكورة هذا فضلا عن أن ياسين العمرى نفسه لم يكن يعنى بالتمييز بين المدن والقرى القائمة فى عهده ، وبين تلك التى اندثرت منذ عهد بعيد (١) .

ومن ناحية أخرى ، فان عدم توفر احصاءات عن سكان كل بلدة ، جعل من العسير التمييز بين المدينة والقرية على أساس عدد السكان ، وهو ما دعى بعض الباحثين (٢) الى اتخاذ نوع الانتاج الاقتصادى الذى تقوم به البلدة ، أساسا لتصنيفها فكلما طغت الأعمال الزراعية فى نشاطها كانت أميل لأن تكون قرية ، وهى مدينة طالما كانت مجالا للتبادل وأعمال التجارة . على أننا لا نملك – أيضا – من المعلومات ما يغطى انتاج جميع بلدان العراق فى ذلك العهد ، كما ان كثيرا من القرى والتجمعات البشرية على الطرق التجارية كانت تمتهن تجارة القوافل ، الا أن وصف الرحالين لها لم يمكن يخرجها من طور " القرى " أو " القلاع " لا أكثر .

وفى تقديرنا ، أن عدد المدن العراقية ، مما تتوفر فيه صفة " المدينه " من أسوار وحصون وأسواق وأحياء اضافة الى تنوع نشاطها الحضرى ، كان يبلغ نحو ثلاثين مدينة . وهذا التقدير أقرب الى ماذكره ياسين العمرى حين عد من مضافات بغداد (وتشمل العراق برمته فيما عدا مدينه الموصل) اربعا وعشرين بلدة كل منها

---

(١) ذكر فى صدر الفصل الخاص بهذه القائمة ، أنه " ذكر ما كان للموصل من القرى والحصون فى الزمان القديم ، مما ذكر فى معجم البلدان ، وكذا ما فى عصرنا هذا " (منية الأدباء ص ١٢٧) .

(٢) على الوردى : دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى ص ١١٩ .



يشبه أن يكون مدينة عامرة " [1] . وقريب مما أحصاه نيبور سنة ١٧٦٦ من المـــدن المهمة فى باشوية بغداد (أى العراق ماعدا الموصل) ، ويبلغ نحو خمس وثلاثيـــن مدينة [2] ، مع ملاحظة أن عددا غير قليل منها كان لايحقق صفة المدينة بأى حال .

ويمكننا ان نعد مدن العراق فى عهد المماليك ، على النحو الاتى :

١ ـ بغـــداد	٢ ـ الموصـــل	٣ ـ البصـرة	٤ ـ كركـوك
٥ ـ اربيـــل	٦ ـ ماردين [3]	٧ ـ الديوانية	٨ ـ الرماحية
٩ ـ النجـف	١٠ـ كربـــلاء	١١ـ الكوفـــة	١٢ـ الحلـة
١٣ـ سامـراء	١٤ـ تكريـــت	١٥ـ عانـــة	١٦ـ هيـت
١٧ـ كبيســة	١٨ـ آلوســة	١٩ـ بندنيجين (مندلى) .	
٢٠ـ بـــدرة	٢١ـ خانقين	٢٢ـ العمادية	٢٣ـ عقـــرة
٢٤ـ زاخـــو	٢٥ـ راوة	٢٦ ـ تلعفـــر	٢٧ـ السليمانية

(١) غاية المرام فى تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٥٠ ـ ١٠٠ .

(٢) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, Vol. II, P. 260.

(٣) كانت ماردين جزاء مهما من ولاية بغداد . انظر عبد السلام الماردينى : تاريـخ ماردين . الورقة ١٣٨ (مخطوط) .

وتتفاوت أعداد السكان بين هذه المدن على نحو كبير ، فقد تراوح عدد سكـــان بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين ٥٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة[١] وبلـغ عدد سكان الموصل ، في الفترة نفسها ، مابين ٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ نسمة[٢] وقـــدر عدد سكان مدينة البصرة بين ٤٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة[٣] وسكان الحلة نحـــو ٥٠,٠٠٠ نسمة[٤] ، وفيما عدا المدن الأوسع المذكورة ، فان سكان اية مدينة مـــن

---

(١) لا نملك من تقدير لعدد السكان ، سوى ماذكره السياح الاوربيـــون انظر :
Rousseau, L.: Description du Pashalik de Baghdad, P8
و Olivier, G.: Voyage dans L'Empire Ottoman, II, P.380
و Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia, II, P.193.
و Porter, K.: Travels in Georgia, Persia, Armenia, P.260
و Dupre, A.: Voyage en Perse, I, P. 174.
ويظهر ان عدد السكان ازداد زيادة كبيرة في الفترة الاخيرة من عهد المماليـــك حيث يذكر اكثر من سائح ان هذا العدد بلغ مابين ١٢٠,٠٠٠ و ١٥٠,٠٠٠ نسمة
Wellested, J. R.: Travels to the city of the Caliphs, Vol. 1, P. 295.
و Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Vol.II, p.224.

(٢) Sestini, J.: Voyage de Constantinople à Bassora, P.149
و Heude, A.: Voyage up the Persian Gulf, P. 218
و Buckingham, J.: Op.Cit., II, P. 33
و Grant, A.: The Nestorians, P. 28.
و Badger, G. P.: The Nestorians, P. 84

(٣) Niebuhr, K;: Op. Cit., P. 180
Buckingham, J.: Travels in Assyria, Media, Persia, Vol.11, P. 145.
ويذكر زويمر ان عدد سكان البصرة كان يقل ، سنة ١٨٢٥ ، عن ٦٠,٠٠٠ ، الا أن هذا العدد انخفض سنة ١٨٣١ (بعد طاعون هذه السنة) الى النصف .
Zwemer, S.M.: Arabia, The Cradle of Islam, P. 129.

(٤) محمد بن أحمد الحسيني : رحلة المنشي البغدادي ص ٩٠ ، حيث يذكر ان عدد بيوتها نحو ثمانية آلاف بيت (البيت = ٥ أو ٦ أشخاص) .

المدن الأخرى لم يكونوا يتجاوزون بضعة آلاف ، فكان سكان السليمانية في مطلع القرن التاسع عشر زهاء ٥٠٠٠ نسمة [١] ، وبلغ عدد سكان خانقين (قرب الحدود الايرانية) ٠٠٠ر١٠ نسمه [٢] ، وسكان كركوك نحو هذا العدد [٣] .

ولقد أدى قيام قوى البلاد المحلية ابان عهد المماليك بتأسيس سلالات حاكمة في المدن المختلفة ، الى تشكيل نوع من " حكومات المدن " تتمتع كل منها باستقلال شبه ذاتي في أغلب أمورها الخاصة . فدفع ذلك الوضع — من ثم — الى حيوية عمرانية جديدة ، ونشاط مدني متميز بدت آثاره على مدن العراق ابتداء منذ أوائل القرن الثامن عشر .

ولعبت عوامل عديدة ، اجتماعية واقتصادية وعسكرية دورا في نمو مدن العراق وتطورها في هذا العهد ، فكان منها ما يتعلق بتشجيع الحكام ، ومنها ماجاء نتيجة لحوافز خارج سيطرة السلطة الحاكمة [٤] . وربما اجتمع اكثر من سبب في نشوء المدينة العراقية أو نموها ، وهو ما حدث بوجه خاص لمدينة بغداد ، والموصل والبصرة ، ومدن أخرى أقل أهمية مثل السليمانية والعمادية وراوندوز في شمال العراق ، والحلة والنجف والديوانية على شاطئ الفرات الأوسط .

---

(١) Fraser,J.B.: Op. Cit., Vol. II, P. 153.

(٢) Buckingham,J.:Travels in Mesopotamia,Vol.II,P.520

(٣) Ibid.

(٤) عبد الرزاق عباس : نشأة مدن العراق وتطورها ص ٤٩ .

ويمكن القول بأن عهد المماليك ، كان في أحد جوانبه الرئيسية ، عهد نمو وتطور للمدينة في العراق . وشملت هذه الظاهرة مختلف أنحاء البلاد تقريبا ، في المناطق الجبلية ، وعلى حافة الصحراء على حد سواء ، ويمكن تحديد عوامل هذا التطور الجديد بما يلي :

أ - العامل الاداري :

وكنتيجة لازدياد أهمية الحكومات المحلية ومحاولاتها الدائبة لفرض سيادتها الادارية على الريف ، ظهرت لدى السكان في هذا العهد ميول واضحة للتجمع حول المراكز الحكومية لما تتمتع به تلك المراكز من نفوذ متزايد على مجريات الأحداث حولها . فبالنسبة لبغداد مثلا ، ترتب على تأسيس حسن باشا وابنه احمد باشا لنظام المماليك فيها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقيام أول حكومة مركزية عراقية تأخذ على عاتقها توحيد العراق ، ازدياد أهمية بغداد وتعاظم حيويتها الحضرية ، باعتبارها مركزا اداريا رئيسا ، ومقرا لأكبر سلطة سياسية في المنطقة ، وما يستتبع ذلك من وجود مؤسسات حكومية ودوائر رسمية عامة ترتبط بها مصالح عدد كبير من السكان . وينطبق هذا القول على كثير من المدن العراقية القديمة التي أخذت تستعيد أهميتها الادارية السابقة .

ومن أبرز الامثلة على أهمية العوامل الادارية في نشأة المدن في هذا العهد تأسيس مدينة السليمانية في منطقة سهل شهرزور شمالي العراق ، حين أقام البابانيون سرايا

للادارة والحكم سنة ١٧٨٢م/١١٩٦هـ[1] ، سرعان مانمت حوله المرافق الحضارية الأخرى من دور وأسواق وخانات ومدارس علمية ، فتكونت بذلك مدينة السليمانية الحديثة ، وانتقل اليها الناس تدريجيا حتى صارت من أهم المدن العراقية في شمالي البلاد [2]

وتعتبر مدينة " الديوانية " على الفرات ، من المدن التي نشأت ـ في هذه الفترة ـ بدافع اداري حكومي . حقيقة أنها قامت أول الأمر كدار ضيافة (ديوان) لرؤساء الخزاعل وليقيم بها وكيلهم لجباية الضرائب[3] ، الا أن حكومة المماليك في بغداد اتخذتها مركزا اداريا لها ، يقيم فيه نائب للوالي ويشرف على جمع الضرائب في منطقة واسعة تمتد من الحلة حتى البصرة ، وليكون رقيبا قويا ازاء مشيخة الخزاعل القائمة هناك[4] . ولقد تحول هذا المركز الاداري المحض ليكون مدينة وعاصمة لحكومة الحسكة .

---

(1) Rich, C.: Narrative of a Residence in Kurdistan, Vol. I, P. 119.

ومحمد أمين زكي : تاريخ السليمانية ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(2) تاريخ السليمانية ص ٩٥ ومحمد الخال : معروف النودهي البرزنجي ص ٦١ . ويذكر المنشى البغدادي أن السليمانية " قاعدة حكومة ديار الكرد ، وباشوات بابان هم حكام الكرد " . رحلة المنشى البغدادي ص ٥٩

Heude, A. Voyage, up the Persian Gulf, P. 200.

(3) عبد الرزاق الحسني : العراق قديما وحديثا ص ٧١

(4) Ives, E.: Voyage from England to India, P. 252

ولنفس الأسباب المتقدمة ، نشأت مدينة " كوى سنجق " التي يفصح اسمها عن طبيعة مهمتها ، فهي " قرية أمير السنجق " الذي يحكم الأراضي الزراعية جنوب مدينة أربيل ، ويتبع اداريا والي بغداد ، وقد استطاعت أن تكون مركزا مشرفا على منطقة سهل شهرزور المهمة(١) .

ب – عامل التجمع القبلي :

ومثلما كانت المدينة تمثل في حقيقة وجودها ، مظهر سيادة الدولة ، فان القلاع الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، كانت تمثل – في واقع الأمر – مظهر سيادة القبيلة على الريف ، ذلك أن القبيلة بتكوينها مجتمعا مستقلا يمارس سلطات متنوعة عسكرية واقتصادية ، كانت تحتاج الى شيء من مظاهر تلك السلطات ، فكان للقبيلة قلعة أو قلاع يتحصن فيها شيخها وأتباعه عند الطلبات ، و" دار ضيافة " يستقبل فيها ضيوفه وضيوف قبيلته ، وفيها تنعقد المحالفات وتدبر الأمور ، وسجن يلقى فيه

(١) كوى سنجق ، بلدة ما زالت قائمة حتى اليوم ، وكان فيها في عهد المماليك قلعة منيعة ، أشار اليها المنشي البغدادي في كتاب رحلته (رحلة المنشي ص ٦١) . وتقع هذه البلدة بين مدينة أربيل وبلدة الطون كوبري التي على الزاب ، وكان الباشا الحاكم فيها يخضع لوالي بغداد ويقدم له الجزية سنويا .
Niebuhr, K.: Voyage en Arabie et en d'autre Pays, Vol. II, P. 277.
وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٢٨٠ – ٢٨٦ .

بخصومه أو أسراء من القبائل الأخرى . ومن هنا فقد ظهرت " القلعة " كضرورة ملازمة لوجود القبيلة ذاتها ، وهي تكشف في الوقت نفسه عن جوهر التركيب القبلي للريف حيث كانت القبيلة الواحدة تشكل مايكاد يكون شبيها بوضع الطبقة الاجتماعية في المدينة ، ولذلك فانها كانت تحتاج الى مايستلزمه هذا الوضع ، من أدوات حكم ومظاهر سلطة[1] .

وليست ثمة معلومات دقيقة عن مباني تلك القلاع ، وان كنا نعلم أن بعضها كان يشيد بالطين ، أو بالآجر[2] ، وأن قسما منها كان يحصن بالمدافع[3] . وكانت مواقعها تتسم دائما بالمناعة الطبيعية ، كأن تبنى بين فروع الأنهار ، أو على التلال والروابي المرتفعة ، أو عند ضفاف المستنقعات[4] . فمن تلك القلاع المشهورة ، يمكن أن نذكر قلعة " لملوم " على الفرات ، بالقرب من منطقة المستنقعات (البطائح) ، وكان شيخ الخزاعل في بناها في القرن الثامن عشر لتكون عاصمة له[5] . وقد وصفها نيبور عام ١٧٦٦ بأنها قرية كبيرة ، وأن بيوتها ليست الا أكواخا من الطين والقصب[6].

---

(١) سنأتي الى تفصيل التركيب الاجتماعي الطبقي للقبائل العراقية في الفصل الثالث .

(٢) ماتزال بعض آثار تلك القلاع ماثلة في أنحاء مختلفة من الريف العراقي .

(٣) عبد الكريم الندواني : تاريخ العمارة وعشائرها ص ١١٤ .

(٤) اشار خورشيد باشا الى عدد من تلك القلاع في جنوبي العراق ، مثل : قلعة المنيدة ، وقلعة الخضر ، وغيرها (انظر سياحتنامه حدود ص ٥٠ ومابعدها ويلاحظ أن جميع سكان المناطق التي تقع فيها تلك القلاع هم من الفلاحين .

(٥) Ives,E.:A Voyage from England to India,P.322
وخورشيد باشا : سياحتنامة حدود ص ٥٤

(٦) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, II, P. 207.

وفى حوالى سنة ١٨١٦م/١٢٣٢ هـ أسست مدينه " الحى " الحالية-بالقرب من آثار واسط القديمة -على أيدى آل على خان ، احد زعمائها ، وأهل النفوذ فيها (١) وفى عام ١٨٤٨م/١٢٦٥ هـ شيد الشيخ مجيد الخليفة قلعته التى عرفت فيما بعد " ببلدة سويميده " (٢) .

وتعد مدينه " الكوت " نموذجا للقلاع القبلية (٣) ، فقد أسسها بنولام فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لتكون عاصمة لحكمهم ، وكان موقعها على شاطئ دجلة حصينا الى درجة كافية للسيطرة على الطرق النهرية فى دجلة . ولقد ترك لنا الرحالة الانجليزى كيبل Keppel فى كتاب رحلته سنة ١٨٢٤ وصفا لهذه البلدة حين قال " الكوت قرية صغيرة حقيرة مبنية من الطين يحميها سور ارتفاعه لا يتجاوز ستة أقدام وهى الموقع الوحيد الثابت الذى رأيناه بعد القرنة وفيها يقيم شيخ بنى لام القوى الذى يمتد نفوذه من القرنة الى بغداد (٤) . وقد ازدادت أهمية هذا الموقع خاصة بعد أن أمر والى بغداد سليمان باشا الكبير بتحصينه فى اواخر القرن الثامن عشر (٥) ، وظلت

---

(١) عبد الرزاق الحسنى : العراق قديما وحديثا ص ٢٠١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الكوت : كلمة هندية الأصل ، يراد بها القلعة ، او مخزن الذخيرة مبنى من القصب والبوارى ، أو من الطين واللبن ، وقد يبنى وحده ، او تبنى حوله بعض الأكواخ . انظر : الحسنى ص ١٩٧ .
(٤) Keppel,G.:Personnal Narrative of a Journey...,
Mignan,R.:Travels in Chaldea,Vol.I,PP.24-25.
(٥) ابن سند : مطالع السعود (مخطوط) ومختصره لأمين الحلوانى ص ٧٧ .

الكوت مركزا قبليا مهما حتى بعد نزوح بنى لام عن المنطقه ، اذ اتخذتها قبائل ربيعة عاصمة لامرائها ، وعرفت بكوت الامارة نسبة لامارتهم ، التى كانت تبسط نفوذها على الأراضى الواقعة بين جهة الكوت الشمالية وحتى نهر الغراف جنوبا [1] .

وشبيه بما تقدم ، كان وضع قرية السماوة " على الفرات ، حيث كان شيوخ الخزاعل يجبون فيها الضرائب على السفن المارة ، وكانت بيوت هذه البلدة ـ فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ـ مشيدة بالطين المجفف فى الشمس ذات منظر مزرى للغاية [2] ، وهى محاطه بسور من الطين " [3] .

أما مدينة العمارة ، فكانت " قرية تسكنها الاعراب ، وفيها قلعة [4] " ومثلها بلدة " البغيلة " (وتعرف اليوم بالنعمانية) التى نشأت حول قلعة من الآجر شيدها شفلح شيخ قبيلة زبيد ، وقد وصفها كيبل فى سنه ١٨٢٤ بأنها قلعة مبنية بالآجر يقيم فيها شيخ زبيد الزعيم العربى القوى الذى تمتد ديرته من الضفة اليمنى لشط الحى (الغراف) الى بغداد) [5] .

---

(١) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٢) Niebuhr, C.: Voyage en Arabie, II, P. 250.

ورحلة المنشى البغدادى ص ٩٢

(٣) Ives, E.: A Voyage from England to India, P. 250

وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٥٠

(٤) مباحث عراقية ج ١ ص ٢٦٧ .

(٥) Keppel, G.: Personal Narrative ..., P. 114

ويذكر ريتش الذى زار القلعة سنة ١٨٢١م/١٢٣٧ هـ أن لشفلح مضارب خيم خاصة به خارج أسوارها ، وان وجود القلعة الى جانب الخيمة ، هو فى جوهره

وكانت للقبائل الكبرى قلاع عند حدود أراضيها تدافع منها عن ملكيتها وسيادتها ازاء غزوات القبائل الاخرى ، فعندما أعلن فيصل ابن خليفه رئيس عشيرة آل أبو محمد الثورة على بني لام ، أمر الحدادين " فصنعوا له أثني عشر مدفعا وألف ومائتين قنبلة ووزع هذه المدافع على قلاع الحدود " (١) .

ج ـ العامل التجاري :

ان استقرار الحياة الحضرية في المدينة العراقية منذ مطلع القرن الثامن عشر وتعاظم أهمية أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية ، قد زاد من حدة التباين والاختلاف بين الانتاج الريفي البسيط ، المرتكز على الزراعة والرعي ، وبين انتاج المدينة القائم على الصناعة والتجارة . وكلما ازداد هذا التباين ، ظهرت الحاجة الى أسواق تباع فيها منتجات الريف والمدينة على حد سواء ، وتتوفر فيها ما تحتاجه القبائل الرعوية والمزارعة ، وما يحتاجه التجار والصناع في المدينة ذاتها .

ولقد ساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئه على تشييد مخازن الحبوب والاصواف والمقاهي ، والمنشآت الدينية كالمساجد ، فأدى ذلك الى ظهور بعض المدن داخل

= نموذج على تطور المجتمع القبلي من حياته البدوية المتنقله الى الحياة الريفية الاكثر استقرارا .
Rich , C.: Narrative of a Residence in Kurdistan ..., II, P. 164.

(١) عبد الكريم الندواني : تاريخ العمارة وعشائرها ص ١١٤ .

المناطق الزراعية وعلى الحدود بينها وبين البادية [1] وشجع استقرار بعض القبائل التدريجي على نمو هذه الأسواق وازدهار الحركة التجارية فيها . ومن الأمثلة على المدن التي نشأت بهذه الطريقة ، مدينة " سوق الشيوخ " التي مازال اسمها يدل على الوظيفة التي كانت أساس وجودها . وقد عرفت هذه المدينة أول الأمر بسوق النواشي ، حيث كان أفراد قبيلة " النواشي " وبعض القبائل الرعوية الأخرى يحصلون على مايحتاجونه من الطعام والبضائع من هذه السوق قبل رحيلهم الى البادية .

ويبدو ان هذه السوق كانت موسمية ، فقد خلت كتابات الرحالين من أى ذكر لها [2] وعندما استقر آل السعدون ، وهم شيوخ المنتفق ، فى المنطقة ، وأخذوا يترددون عليها اشتهرت هذه السوق باسم " سوق الشيوخ " نسبة اليهم . وقد اتخذها هؤلاء على عهد الشيخ ثويني فى أواخر القرن الثامن عشر مركزا ثابتا لهم ، ومخزنا لذخيرتهم ومكانا لتجمعهم [3] حتى قيل ان ثويني كان يقرض تجار مدينته مبالغ كبيرة لغرض تشجيع تجارتهم وانعاشها [4] . وآتت هذه السياسة أكلها ، حين بلغ عدد بيوت

---

(١) عبد الرزاق عباس : نشأة مدن العراق وتطورها ص ٥٤ .

(٢) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ١ ص ٣٩ وفى الخريطة التى رسمها ايفز Ives لطريق رحلته من البصرة الى بغداد سنة ١٧٥٢ اشارة الى " سوق النواشي" هذه .

Ives,E.:A Voyage from England to India, P. 242.

والنواشي عشيرة تتبع قبيلة بني سعيد احدى القبائل الثلاث المكونة لاتحاد المنتفق (خورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٤٩) .

(٣) عبد الرزاق الحسني : العراق قديما وحديثا ص ١٦٧ .

(٤) سليمان الدخيل : سوق الشيوخ (مجلة لغة العرب البغدادية ٢ ـ ١٩١٢ ص ٢٤٥)

وتشير بلنت الى وجود قبائل ، فى سوق الشيوخ ، تحترف التجارة دون غيرها .

Blunt, A.: Bedouin Tribes of the Euphrates, Vol. II,P.200

المدينة المذكورة زهاء ٢٠٠٠ بيت ، منتشرة على جانبي نهر الفرات[1] ، ثم سرعان ما نمت واتسعت حتى غدت مركز المنتفقيين الرئيسي قبل انشاء مدينة الناصرية .

وبالاضافة الى نمو الأسواق باعتبارها مراكز تبادل تجاري بين الريف والمدينة فان حركة التجارة هذه ، قد ادت ايضا الى احياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص والمعتدين ، وتوفير الخانات اللازمة لنزول التجار ، وخزن بضائعهم . وكانت حركة القوافل الدائبة تقتضي توفير أعداد من الأدلاء والحراس والدواب لعدد كبير من التجار والمسافرين ، كما تتطلب توفير وسائل الراحة من ماء وطعام ومأوى ، فكان طبيعيا ان تنشأ بعض القرى والمدن حول عدد من خانات الطرق ، في أماكن مناسبة لتستطيع تقديم مثل هذه الخدمات الضرورية .

ويمكن القول بأن عهد المماليك في العراق كان فترة ازدهار ورعاية لهذا النوع من الخدمات ، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق ، وخاصة في الأماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى ، فكانت على طريق النجف - وهو طريق الحجاج ايضا - مجموعة متصلة من الخانات الكبيرة ، مثل خان الكهيا في الجنوب من بغداد[2] ، وخان آزاد ، الذي انشىء ليتسع لنحو خمسمائة شخص . وقد أحاطت بالخان الأخير قرية

---

(١) مباحث عراقية ج ١ ص ٣٩ .

(٢) Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia, II, PP. 242 - 253.

صغيرة سكنها الاعراب من أهل الناحية [١]، ومانزال هذه القرية عامرة [٢]. ومن تلك الخانات المهمة ايضا ، خان الاسكندرية المشيد في حدود سنة ١٨٠٠م [٣]، وهو يتسع لالف شخص مرة واحدة ، وتتوفر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد ، من حظائر ضخمة للماشية ، وغرف للمسافرين ، ومصطبات مرتفعة ، واسطبلات للخيول ، وأماكن للطبخ ، وبئر [٤]. اما خان المحمودية ، فيرتقي الى القرن السابع عشر [٥] ويماثل خان الاسكندرية من حيث الضخامة والاتساع [٦]، ومثله خان الحاصل [٧]. وفي اوائل القرن التاسع عشر كانت هذه الخانات قد تحولت جميعها الى قرى تجارية مهمة يسكنها العرب ، ويديرون فيها أمورهم دون تدخل يذكر من جانب الحكومة المركزية [٨].

---

(١) Buckingham, J.: Op. Cit., II, P. 240

ويذكر بعض المصادر أن عمر باشا والي بغداد (١٦٧٧-١٦٨١م/١٠٨٨-١٠٩٢هـ) شيد في هذا الخان مخفرا للشرطة . وقيل انه أعاد عمارته .
انظر Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 93.
وللخان والبلدة وصف حسن في
Mignan, R.: Travels in Chaldea, P. 112.

(٢) وتعرف اليوم بقرية الحرية

(٣) الحسني : العراق قديما وحديثا ص١٤٨ .

(٤) Buckingham, J.: Op. Cit., II, P. 248.

(٥) Longrigg, S.: Op. Cit., P. 36.

ويذكر الحسني انه شيد سنة ١٨٦٨ مع ان اخباره وردت قبل ذلك .
انظر رحلة المنشي البغدادي ص ٣٢

(٦) Budge, W.: By Nile and Tigris, Vol. II, P. 248.

(٧) Buckingham, J.: Op. Cit., II, P. 251 ,
Ussher, J.: Journey from London to Persepolis, P. 481

(٨) Buckingham, J.: Op. Cit., P. 251

وعلى طريق بغداد - كرمنشاه التجارى المهم ، شهدت مجموعة من الخانات والمحطات ، من أهمها خان بنى سعد الذى انشأه والى بغداد عمر باشا سنة ١٦٨٨م/١١٠٠هـ لمتوسط المسافة بين مدينتى بغداد وبعقوبة [1] ، وهو شبيه بالخانات السابقة [2] ، وقد احاطت به ، فيما بعد ، بلدة صغيرة يعمل اهلها على توفير الراحة للمسافرين .

ومثلما أدى النشاط التجارى الى حركة ملموسة فى مجال انشاء المحطات والقرى والمدن على طول طرق القوافل البرية ، فأنه ادى فى الوقت نفسه الى قيام عدد كبير من التجمعات البشرية على ضفاف الانهار ، حيث كانت المواصلات النهرية تمثل ركنا أساسيا فى النشاط التجارى آنذاك . وكانت هذه المحطات تقدم للسفن التجارية ماتحتاجه من خدمات ، كما تقوم بدور السوق المحلى الذى يتم فيه تبادل ما تحمله السفن بمنتجات الريف . ومن الملاحظ أن أغلب مدن وسط العراق وجنوبه يقع على ضفاف الانهار .

تخطيط المدينة :

امتازت المدن العراقية فى العصر العثمانى ، وخاصة فى عهد المماليك ، بعدة ميزات واضحة اقتضتها طبيعة الظروف العسكرية والاجتماعية والاقتصادية للعهد المذكور كما اقتضتها ايضا النظرة العثمانية لتخطيط المدن ، المرتكزة اساسا على الجانب

(١) عباس العزاوى : العراق بين احتلالين ج ٥ ص ١٢٦ .
(٢) مازالت آثار هذا الخان ماثلة حتى الآن .

العسكرى الدفاعى فيها [1] • ولقد انعكست هذه المؤثرات على تخطيط المدينة العراقية فشملت بذلك أهم مرافقها الرئيسية ، كالقلاع والأسوار وسراى الحكم والأسواق والـدور والميادين العامة •

وسنحاول فيما يلى ان نستعرض أهم سمات هذا العهد بالنسبة لمرافق المدينة العراقية ، محاولين بذلك استخلاص الأمور المشتركة لأساليب تخطيط المدن آنذاك •

١ ـ القـلاع :

وتعتبر القلاع فى المدن العراقية من أهم المرافق واكثرها حيوية ، ولقد تميزت فى العصر العثمانى بأنها انشئت على ضفاف الأنهار التى تقع عليها مدنها ، وذلـك لتسهيل اتصالها بالمدن الأخرى ، ولتيسير خطوط دفاعها فى حالات الحصار والحروب او انها كانت تنشأ فى اكثر اركان المدينة منعة وحصانة [2] • ففى بغداد مثلا كانـت القلعة تشغل موقعا كبيرا فى ركن المدينة الشمالى ، يحدها سور المدينة من أعلاهـا

---

(١) ثمة تشابه كبير فى النواحى الدفاعية بين مدن العراق فى هذا العهد والمـدن الاخرى فى انحاء الامبراطورية العثمانية ، وخاصة فى الأناضول ، مما يشير الـى اهتمام العثمانيين بالمدن العراقية كان قائما على أساس اتخاذها مواقع دفاعية اصلا هذا فى حين كان التأثر بأنماط العمارة الفارسية يجد مجالا أوسع فيما يتعلق بطرز الابنية الدينية ، والأسواق خاصة • وللمقارنة ، لاحظ التفاصيل التى أوردها الرحالة اوسلى عن المدن الايرانية فى مطلع القرن التاسع عشر ، فى كتابه :

Ouseley,W.:Travels in various countries of the East; more particularly Persia, (London 1819)

Lockhart,L.:Famous Cities of Iran,P.50,55.(London 1939).

(٢) ويمكن ملاحظة هذا الأسلوب العثمانى فى تخطيط المدن فى العديد من المـدن الأناضولية ، مثل ديار بكر مثلا ، حيث تقع القلعة فى ركن المدينة ، مثل بغداد تماما

انظر : Islam Ansiklopedisi, Vol. 3, P. 612.

ونهر دجلة من غربها وأما القلعتان الآخران فحصنان بسور خاص معزز بعدد من الابراج ، يفصلها عن أحياء المدينة نفسها ، ويمتد فيحيط بالقلعة من ناحية النهر ايضا [1] .

ومن المفترض أن تكون القلعة أكثر الاماكن في المدينة تحصينا ومنعة ، الا أن تدهور الأوضاع العسكرية العامة في الدولة العثمانية وتفسخ نظام الانكشارية ، أدبا الى تدهور احوال تلك القلاع وفقدانها مكانتها الكبيرة في المدن العثمانية آنذاك ، ووصف أوليا جلبي [2] قلعة بغداد ، بأنها جميلة مربعة الشكل ، مشيدة بالحجر والآجر وحولها خندق ولها باب في جانب القبلة يواجه داخل المدينة ، وباب آخر مقفل ، كان قد تسلل منه جنود بكر صوباشي في فتنة سنة ١٠٣١ هـ ، فأغلق بعد ذلك ، وفي القلعة مخازن الأسلحة والبارود وأرزاق الجنود [3] ، وتوجد فيها بيوت مكشوفة يبادرون الى تغطيتها بالتراب اثناء حوادث الحصار .

وكان في القلعة مسجد قديم عرف بجامع القلعة ، وحمام عمومي ، ومجار لتصريف المياه [4] .

---

(١) انظر خريطة مدينة بغداد كما رسمها الرحالة الدانيمركي نيبور في ملاحق هذه الرسالة .

(٢) أوليا جلبي سياحتنامه سى ج ٤ ص ٤١٩ .

(٣) يذكر أن القوة الموكل اليها أمر الدفاع عن القلعة لم تكن تزيد على ثلاثمائة انكشاري . رحلة تافرنييه ص ٧٩ .

وانظر . Thévenot,M.:Relation d'un Voyage fait au Levant; Vol.II,P.211,
Evers,S.:A Journal Kept on a Journey from Bassora to Baghdad, P. 48.

(٤) أولياجلبي : سياحتنامه سى ج ٤ ص ٤٢٠ .

ويذكر نيبور الذى زار بغداد سنة ١٧٦٦ أن مهمة القلعة الفعلية اقتصرت ـ على أيامه ـ على أن تكون دارا للصناعة ومخزنا للبارود ، ولم يكن يقيم فيها الاحرس من الانكشارية . وكان من الممكن ان يدخلها اى شخص دون صعوبة تذكر[1] . ولاحظ ايفرز ، الذى زار بغداد بعد ذلك ، أن أبراج القلعة مزودة بمدافع طويلة جدا ومزاغل لاطلاق الرصاص . وان اتصالها بسور بغداد يجعل من السهل الاستيلاء ، عليها عند الاستيلاء ، على المدينة[2] .

ولا تختلف مهمة القلعة فى الموصل عن مثيلتها فى بغداد ، فقد انشأها العثمانيون فى وقت واحد تقريبا . وكانت قلعة الموصل ـ كالتى ببغداد ـ تقع على ساحل دجلة وتحميها اسوار عالية من أطرافها الأربعة ، وخاصة من ناحية النهر . ويحيط بها من الغرب والجنوب خندق يأخذ مياهه من دجلة عند باب شط القلعة ، ثم يصب فى دجلة ثانية شرقى جامع الاغوات[3] ، فيفصل الخندق بذلك القلعة عن مدينة الموصل ، على خلاف الامر بالنسبة الى قلعة بغداد . وتضم القلعة ، كسابقتها ، مخزنا للذخيرة وثكنات للمدفعية ، ومسجدا كبيرا ، ومرافق اخرى مهمة[4] .

---

(1) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie..., II, P.266 , Wellsted, J.: Travels to the City of Caliphs, Vol.1, P.254.

Porter, K.: Travels in Georgia, Persia, Armenia..., II, P.10[illegible]

(2) انشأها أمر من العثمانيين ـ والى الموصل بكر باشا بن اسماعيل بن يونس الموصلى سنة ١٦٢٥م/١٠٣٥هـ . انظر امين العمرى : منهل الاولياء ج ١ ص ١٣٦ .

(3) ذكر وقفية جامع الاغوات المؤرخة سنة ١٧١٦م/١١٢٩هـ ما يشير الى أن هذا الجامع كان يقع على حافة الخندق تجاه القلعة" . انظر وقفية جامع الاغوات والمدرسة الخليلية (مخطوطة) .

(4) سعيد الديوه جى : قلعة الموصل (مجلة سومر ١٠ (١٩٥٤) ص ١٠٧ ـ ١٠٨) .

ولقد كان الغرض من انشاء هذه القلعة ، كما هو الحال في بغداد ، أن تكــــون مقرا لحامية المدينة ، وللوالي نفسه • وقد أقام فيها الولاة فعلا ابان القرن السابع عشر على مايؤكده تافرنييه [١] • ورغم كثرة التعميرات التي شهدتها هذه القلعة في عهـــد حسين باشا الجليلي سنة ١٧٤٤م/١١٥٧هـ وعهد أحمد باشا الجليلي سنــــة ١٨٢١م/١٢٣٧هـ [٢] ، الا انها فقدت مهمتها الأساسية ، فقد فضل الولاة الجليليــون الاقامة في " السراي " التي أقاموها خارجها ، في نفس الوقت الذي ترك فيه ولاة بغداد من المماليك الاقامة في قلعة مدينتهم ، مفضلين الاقامة في قصورهم الفارهة خارجهـا [٣] وكان هذا يعني أن عهد المماليك في العراق كان يمثل في احد جوانبه فقدان السلطة الحاكمة لصفتها العسكرية البحتة ، والانتقال الى الصفة المدنية العادية • ومن الملاحظ أن هذه القلاع بقيت حتى قيام الحكم العثماني المباشر بانتهاء عهد المماليك والاســر الحاكمة ، رمزا لهيبة الجيش الينكجري العثماني السابقة ، وان كان تأسيس جيش المماليك ببغداد ، وتحول أورطات الينكجرية في الموصل الى فرق محلية موصلية ، قد حــــولا الثقل العسكري الى مؤسسات السراي ومرافقه خارج أسوار القلاع التقليدية [٤] •

---

(١) رحلة تافرنييه ص ٥٨ •

(٢) امين العمري : منهل الأولياء ج ١ ص ١٥٨ ، وزبدة الآثار الجلية ص ٩٩ •
عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ص ٤٣٣ •

(٣) ذكر الرحالة هوول Howel عند وصفه قلعة الموصل سنة ١٧٨٨ قائلا : ان رداءة مواد بنائها جعلها غير قادرة لأن تكون حصنا قويا •
انظر : Howel, T.: Voyage en Retour de Inde, P. 54.

(٤) يذكر Thévnot في كتاب رحلته أن حراسة القلعة كانت منوطة بفرقــــة قابوقولي ، أي حرس الباب ، وهي فرقة ينكجرية كانت ترسل من استانبول كل سنة وتتميز عن الجنود الوطنيين الذين يسكنون في المدينة ذاتها •
و Thévenot, M.D.: Op. Cit., Tome 11, P. 211

٢ ـ السـراي :

لقد تميزت مدن العراق في عهد المماليك ـ بصفة خاصة ـ بازدياد اهميـة "السرايات" الرسمية ، حتى غدت أهم مؤسسات المدينة على الاطلاق . ويلاحظ فـي هذا الصدد أن انشاء سرايات الحكم كان قريبا من القلاع الداخلية ، كما هو الحال فـي بغداد والموصل . فسراي بغداد مثلا ، الذي انشيء في النصف الأول من القـرن السادس عشر[1] كان بجنوب القلعة على شاطيء دجلة ، واصبح مقرا هاما للوالي وأتباعـه تتجمع فيه دور الحكم ، ودوائر الدولة ، وكان متسع الارجاء يضم مرافق كثيرة[2] .

ويذكر أوليا جلبي أن سراي الباشا كان أشهر قصور وجهاء المدينة وأعيانها ، ففيـه نحو مائتي غرفة ، وحمام ، وحديقة تتخللها أشجار الصنوبر[3] ـ ووصف روسو سـراي بغداد في حدود سنة ١٨٠٩ بانه "فسيح ، يحتوي في داخله على منازل جميلـة والبذخ الظاهر في تأثيثها لايكذب ما يعتقده الأوربيون عن الأبهة الآسيوية"[4] .

---

(١) وكان قد شيده حاكم بغداد من قبل الشاه الفارسي ، أيام احتلالين الصفويـين لبغداد للمرة الثانية ، وشيد بقرب السراي حماما ، وانشئت امامه حديقه (كلشـن خلفا ص ٢٣٣ Huart,C.:Histoire de Baghdad dans les temps modernes,PP.68-73.,

و

(٢) Niebuhr, K.: Op. Cit., Vol. II, P. 302

(٣) اوليا جلبي سياحتنامه سي ج ٤ ص ٤١٩ .

(٤) Rausseau,J.: Description du Pachalik de Baghdad,P.25.

وكانت قصور السلاطين العثمانيين فى القسطنطينيه تمثل دائما نموذجا جديرا بالاحتذاء عند كل محاولة للعناية بفخامة سراى بغداد ، وهو أمر انعكس فى كتابات الرحالين المعاصرين .

ويمكن ان نتصور سراى ماليك بغداد على النحو الاتى : مجموعة من القصور الفخمة المشيدة فى فترات مختلفة دونما تخطيط مسبق (١) ، ويشغل بعض هذه القصور أسر المماليك من الولاة السابقين ، فى حين تشغل القصور الأخرى دوائر الحكومة نفسها ، وتتخلل هذه المؤسسات حدائق جميلة ترويها قنوات خاصة تأخذ مياهها من نهر دجلة (٢) .

ويعد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ – ١٨٠٢) من المماليك الذين أولوا السراى اهتمامهم ، فقد اثر عنه أنه " هدم دار الامارة ،وعمرها تعميرا لائقا بالوزارة " (٣) .

وفى سنة ١٨٢٠م/١٢٣٦هـ أصلح والى بغداد داود باشا بناية السراى ، مراعيا فيها النقوش والزينات (٤) ، وافتتح السراى بأبهة كبيرة وسط احتفال حضره الوالى نفسه (٥).

---

(١) Wellsted,J.:Travels to the City of Caliphs,I,P.254

(٢) Buckingham,J.:Travels in Mesopotamia,Vol.II,P.181.

وناجى معروف : خطط بغداد او طبوغرافيه بغداد (مجلة كلية الآداب جامعة بغداد عدد ٤ (١٩٦١) .

(٣) عباس بن جواد البغدادى :نيل المراد فى احوال العراق وبغداد ص٢٨٣ (مخطوط)

(٤) اطنب ولستيد فى وصف تلك الزينات ، من ارائك مذهبه ، وستائر وسط نفيسة وسقوف مطليه
Wellsted, J.: Op. Cit., I, P. 255.

(٥) الكركوكلى : دوحة الوزراء ص٢٩٣ والعراق بين احتلالين ج ٦/٢٦٨–٢٦٩ .

ومثلما اهتم مماليك بغداد بالسراى باعتباره، المركز المدنى الجديد فقد اهتم الجليليون فى الموصل بسرايهم ، وكانوا قد شيدوه فى جنوبى المدينه ، قرب السور الاسفل . ولقد اثبت نيبور فى مخططه للموصل عام ١٧٦٦م/١١٨٠هـ موقع هذا السراى بالقرب من باب لجش[1] . ووصفو سيستيني عام ١٧٨١م/١١٦٩هـ بأنه مكون من عشرين حجرة مستطيلة الشكل ، عرض كل منها ثمانية أمتار[2] .

وذكر الرحالة الفرنسى دوبريه Dupré الذى زار الموصل آنذاك انه " كان بعد وآية فى الجمال "[3] .

اما فى البصرة ، حيث لم تكن ثمة قلعة داخلية ،كما هو الحال فى بغداد والموصل فقد شيد العثمانيون فيها بعد فتحها سنه ١٥٤٦م/ ٩٥٣هـ سرايا خاصا اختير موقعه على الضفة الجنوبية من نهر العشار داخل مدينة البصرة ، وقد عرف فيما بعد ب(حوش الباشا) . وكانت تحيط بهذا السراى بعض بيوتات الجاليات الأجنبية بينهما

---

(١) انظر مخطط الموصل من عمل نيبور فى ملاحق هذه الرسالة .
وباب لجش من ابواب الموصل الجنوبية ،وهو يلى الباب المعروف بباب جديد ، وقد فتح الجليليون فى اواخر القرن الثامن عشر بابا يلى باب لجش عرف بباب السراى ، لانه يجاوره . انظر عماد عبد السلام الموصل فى العهد العثمانى ص ٤٣٢ .

(٢) Sestini: Voyage de Constantincple, P. 128.

(٣) Dupré,A.:Voyage en Perse, P. 147.

داران للقنصل الانجليزي ودار القنصل الفرنسي ، وتحيط به من جهته الجنوبية ثكنات عساكر المدفعية ، ومن جهته الشمالية دائرة جمرك البصرة[1] .

وتبرز اهمية مؤسسة (السراي) في السليمانية ، المدينة التي اتخذها البابانيون عاصمة لامارتهم سنة ١٧٨٤ ــ ١٧٨٥ م/١١٩٩ ــ ١٢٠٠هـ[2] ، حيث سبق أنشاء السراي ، المدينه ذاتها . وكان محمود باشا البابانى قد شيد سرايا سنة ١٧٨١م/١١٩٦ على حدود قرية ملكندي[3] القديمة ، ثم سرعان ما أصبح هذا البناء نواة لمدينة السليمانية ، فقد قام قرينه ابراهيم باشا البابانى أمير الامارة البابانية ببناء بعض الدور حوالى السراي المذكور ، وجامع ، وحمام ، وسوق ، ونزل[4] . فوضع بذلك أسس عاصمة بلاده الجديدة ، وانتقل اليها من (قلعة جوالان) العاصمة القديمة التي لم تكن تزيد على كونها موقعا عسكريا فحسب[5] .

---

(١) Buckingham, J.: Travels in Assyria, Media and Persia, II, P. 191.

وعبد القادر باش اعيان البصره في ادوارها التاريخيه ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(٢) Rich, C.: Narrative of Residence in Kurdistan, Vol. I, P. 119.

Heude: Voyage up the Persian Gulf, P. 200

ومحمد أمين زكي : تاريخ السليمانيه ص ٩٤ ــ ٩٥ .

(٣) ملكندي : قرية قديمه كانت ، كما يظن بعض الباحثين ، مركزا لطائفة كردية قديمة اعتنقت مذهب الملكانية النصراني ، ثم اعتنقت الاسلام ، واشتق اسم قريتهم من اسم مذهبهم السابق . امين زكي : تاريخ السليمانيه ص ٩٥ .

(٤) تاريخ السليمانيه ص ٩٥ ومحمد الخال : معروف النودهي البرزنجي ص ٦١ .

(٥) كان سبب ترك قلعة جوالان أن موقعها في واد صخري ضيق جدا . وهذا يمنع تحولها من قلعة الى مدينه ادارية متسعة .

Rich, C.: Op. Cit., Vol. I, P. 119.

٣ ـ السوق :

وكان من مظاهر الحيوية التى اتسمت بها مدن العراق فى عهد المماليك ذلك النشاط المتزايد للسوق ،الذى كان غالبا مايكون قريبا من منطقة سراى الحكم ، وتتفرع من السوق ـ عادة ـ مجموعة من الأسواق المتخصصه فى ضروب التجارة المختلفة، وتؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيرا ، فكان فى بغداد مثلا أسواق عديدة يختص كل منها بتجارة نوع أو أنواع معينة من البضائع وهى تحمل اسماءا كثيرة ، مثل سوق الجبوقجية ، وسوق التوتونجية ، (باعة التبغ) ، وسوق التحميص ، وسوق الطول ، وسوق الجوخجية وسوق الصباغين ، وسوق اليمنجية (صناع الخفاف) ، وسوق الكبابجية وسوق الجايف وسوق القز ، وسوق البزازين ، وسوق الخياطين ، وسوق السريوجية (باعة الأسرة) (١) ، وكلها موزعة حوالى الميدان والسراى وتمتد جنوبا حتى وسط المدينة . وتكتظ هذه المناطق عادة بخانات التجار ، والمقاهى ، والجوامع ، والمدارس الدينية ، وباعة الكتب والوراقين .

ويفسر حورانى سبب تقارب المؤسسات التجارية والدينية بأن الطبقة الاجتماعية التى كانت تسيطر على التجارة فى المدن الاسلامية ، كانت بثرائها مسيطرة ايضا على النفوذ الدينى (٢) . ولايخلو هذا الرأى من دقة اذا ما لاحظنا أن أغلب تجمع السكان فى

---

(١) Jones, F.: Selections from the Record of Bombay Government, P. 313

(٢) Hourani, A.H.: The Islamic City in the Light of Recent Research (in The Islamic City, Oxford 1970), P.22)

المدينة العراقية ـ كبغداد مثلا ـ كان في منطقة الأسواق وحواليها ، وأن كثافة السكان تقل تدريجيا كلما ابتعدنا عنها ، باستثناء مناطق المزارات الدينية الكبرى وهي قليلة ، ويعزز هذا الرأي أن جميع أسواق الموصل كانت ، ابان عهد الجليليين ، محصورة بين ميدان القلعة شرقا ، وسراي الحكم جنوبا والجامع النوري (الكبير) شمالا أي في الركن الجنوبي الأيمن من المدينة ، حيث تتجمع المراكز العسكرية والادارية والتجارية والدينية سويا وتكتظ اكتظاظا شديدا [1] ، فكان سوق السراي ، وهو من اكبر اسواق المدينة ، واقع أمام سراي الحكومة ومنه اشتق اسمه ، وكانت هناك أسواق أخرى لسائر أصناف التجار والحرفيين ، مثل سوق السراجين ، ويقع ضمن السوق الأول [2] ، وسوق اليمنجية (صانعو الأحذية) ، وسوق العطارين ، وسوق باب الجسر وسوق الصفارين وسوق الطلاحين (قرب باب الطوب) ، وسوق الملوة (قرب الجامع المنسوب اليه) ، كما كان هناك سوق عند ميدان القلعة الداخلية ـ كما هو الحال في بغداد ـ يعرف بسوق الميدان ، وغير ذلك [3] .

أما في البصرة ، فتتجمع الأسواق والخانات في المنطقة المحصورة بين السراي من جهة ، ودار الجمرك من جهة أخرى ، وتعتبر اماكن تفريغ السفن من المواقع ذات الأهمية التجارية في المدينه ، فمنطقة (السراجي) التجارية المهمة لم تكن الا محلا لرسو السفن القادمة الى البصرة وتفريغ شحناتها ، وتحميل البضائع الى خارج العراق [4] ، وكان

(١) انظر خريطة الموصل من رسم جونز ، المصدر السابق .
(٢) نيقولا سيوفي : مجموع الكتابات المحررة على أبنية مدينة الموصل ص ١٢٣ .
(٣) انظر سيوفي : مجموع الكتابات ص ١٢٣ ـ ١٣٣ .
(٤) حامد البازي : البصرة في الفترة المظلمة ص ٤٢ .

العثمانيون قد بنوا بقربها قلعة كبيرة مزودة بالمدفعية للدفاع عن المنطقة[1] ، وكان كل من سوق السيحو ، وسوق كاظم أغا ، مملوء بالبضائع الافريقية ، وكان السوق الأخير من أحسن الأسواق وأكثرها تنظيماً ، وفي وسطه يقع أحد جوامع البصرة الكبيرة[2] .

وفي المدن الدينية ، كالنجف وكربلاء ، حيث تكون المراقد المقدسة محث تجمع السكان ومحور حياتهم ، تحيط الأسواق بالمنشآت الدينية التابعة لتلك المراقد ، وتمتد أمام مداخلها ، بحيث لا يمكن للزائر الا أن يمر من خلالها ، وكان لصحن مرقد الامام علي بالنجف أيام المماليك أربعة أبواب ، أكبرها الذي من جهة الشرق ، وينتهي الخارج منه بخط مستقيم الى خارج البلد[3] ، وتحيط بهذا الطريق الدكاكين والأسواق وتكتظ عنده ، وبذلك تتجمع المؤسسات التجارية والدينية معاً ، واذا ما لاحظنا أن السلطة الادارية للمدينة هي نفسها السلطة الدينية ، لاحت لنا الطبيعة الاقتصادية التي كان يقوم عليها مجتمع المدينة العراقية في عهد المماليك .

---

(1) Texeira, P.: The travels of ..., P. 35.

(2) البازي : البصرة في الفترة المظلمة ص ١٢٥ .

(3) جعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٥٦ .
وانظر Loftus, W.K.: Travels and Researches in Chaldea, Suseana, Vol. II, P. 49

وكان لوفتس قد زار النجف في منتصف القرن التاسع عشر .

٤ ـ المساجد والمشاهد :

نشطت حركة تشييد الجوامع الكبرى وتعمير المساجد والمشاهد القديمة في عهد المماليك ، دون ان يقتصر نطاق ذلك النشاط على مدينة أو فئة معينة . ولا ريب أن المدن الكبيرة كانت اكثر من غيرها تأثرا بهذه الحركة العمرانية . ففي بغداد مثلا ، اهتم ولاة المماليك والطبقة الموسرة من السكان بانشاء جوامع كبيرة ذات مظاهر باذخة لم تكن تعرفها المدينة منذ زمن طويل . وكان أغلب تلك المنشآت في الجانب الشرقي من بغداد ، وخاصة في المنطقة الشمالية منها ، حيث تقع المؤسسات الحكومية وتحتشد الأسواق ، ويعتبر جامع السراي الذي جدده ووسعه حسن باشا سنة ١٧٢٢م/١١٣٣هـ تقريبا (١) "وصرف مبلغا وافرا على عمارته" (٢) ، فاتحة أعمال عمرانية مشابهة شهدها حكم المماليك ببغداد ، فقد أثر عن سليمان باشا المعروف بالكبير (١٧٨٠ـ ١٨٠٢م/١١٩٤ـ١٢١٧هـ) اهتمامه الشديد بالعمران ، من ذلك تعميره لجامع الامام الأعظم ، وطلاء منارته بالذهب ، واصلاحه لمساجد القهلانية والفضل والخلفاء وكلها في شرقي بغداد (٣) .

(١) Budge, E. A.: By Nile and Tigris, P. 194.
وقد صور بكنجهام موكب الباشا ، وهو خارج من هذا الجامع . انظر
Travels in Mesopotamia, Vol. II, P. 400.
وظل جامع السراي المصلى الرسمي لولاة المماليك حتى انشاء داود باشا جامع الحيدرخانه . عماد عبد السلام :تاريخ جامع السراي . جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١٩/٩/١٩٦٩ .

(٢) محمود شكري الآلوسي : مساجد دار السلام ببغداد ص١٨ (مخطوط) .

(٣) الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٢١٩ .

وحفل عهد والى بغداد الشهير داود باشا بأعمال عمرانية فخمة متعددة ، منها تشييده لجامعة الكبير الذى عرف بجامع الحيدرخانه (١) ، ولجامع الأزبك قرب القلعة (٢)، وجامع الآصفية عند جسر بغداد من الجانب الشرقى (٣) ، وجامع السيف فى الكرخ (٤)، وجامع الأحسائى (التكية الخالدية) قرب محكمة بغداد (٥) ، فضلا عن اصلاحه لعدد كبير من المساجد والمعاهد الأخرى (٦) .

ونشط آخرون ، من مماليك وتجار وأعيان ، فى تشجيع مثل هذه الحركة ، فشيد أحمد أفندى ، وكان يشغل منصب (صرف) (٧) فى حكومة داود باشا جامعا عرف باسمه (٨) ، وأنشأ خضر بك من آل عبد الجليل أمراء الحلة مسجدا ببغداد وأوقف

---

(١) الآلوسى : مساجد دار السلام بغداد (مخطوط) .
(٢) مساجد دار السلام ص ٤٧ .
(٣) مساجد دار السلام ص ٥٨ .
(٤) مساجد دار السلام ص ١٣٠ وجريدة البلد البغدادية : بحث للمؤلف عن " تاريخ مسجد السيف القديم " بتاريخ ١٠/١١/١٩٦٦ .
(٥) مساجد دار السلام بغداد ص ٨٧ .
(٦) انظر : الآلوسى (المصدر السابق) ، ووقفية داود باشا على جوامعه التى أنشأها ببغداد ، المؤرخة فى غرة رجب سنة ١٢٤٣ هـ . وابراهيم الدروبى : أخبار قضاة بغداد ص ٢٢٤ ـ ٢٣٧ (مخطوط) ، والبغداديون ، أخبارهم ومجالسهم للدروبى ص ٢٩٧ ـ ٣٤٥ وعباس بن جواد : نيل المراد فى أحوال العراق وبغداد ص ٢٩٠ (مخطوط) و Mignan, R.: Travels in Chaldea, P. 92.
(٧) الصرف : من الوظائف المالية فى الولاية ، وليس ثمة ما يدل على حدود واجباته بدقة .
(٨) وقفية جامع الصرف ، مؤرخة سنة ١٢٢٥ هـ ، وأخبار قضاة بغداد ص ٢٠٤ ـ (مخطوط) .

عليه أوقافا عديدة سنة ١٧٨٥م/١٢٠٠هـ[1] . وعمرت عائشة خانم بنت أحمد باشا وزوجة عمر باشا والى بغداد جامع "قمرية" العباسى القديم بغربى بغداد[2] ، وشيد آل الباججى تجار بغداد جامعيهم الكبيرين ، جامع أمين الباججى سنة ١٨٢١م/١٢٣٧هـ ، وجامع نعمان جلبى الباججى سنة ١٨٢٠م/١٢٣٦هـ . وكلاهما فى حى الأسواق والخانات ببغداد[3]. وشاركت نساء المماليك فى حركة تشييد المساجد والمدارس والوقف لها ، من أمثال منورة خاتون زوجة سليمان باشا الصغير ، ونابى خاتون زوجة سليمان باشا الكبير ، ونازنده خاتون زوجة على باشا[4] .

وكانت مساجد بغداد - حسب ماذكره نيبور سنة ١٧٦٦م/١١٨٠هـ - تبلغ ٢٠ مسجدا ذوى منائر ، عدا المساجد التى لا منائر لها[5] ، ويؤكد ولستيد وفريزر اللذان زارا بغداد فى أواخر حكم داود باشا أن عدد مساجد بغداد كان يزيد على المائة[6] .

---

(١) وقفيه جامع خضر بك ، والدروبى : البغداديون ص ٣٤٠ .
(٢) كتابة على القاشانى فى صدر الجامع .
(٣) جريدة البلد البغدادية ، بحث للمؤلف : مسجد نعمان الباججى ١٩٦٧/٣/٧ .
(٤) الآلوسى : مساجد بغداد دار السلام (مخطوط) وأخبار قضاة بغداد (مخطوط) وجامع الخاتون فى بغداد ، بحث للمؤلف ، فى جريدة البلد البغدادية ١٩٦٧/١/١٧ .
(٥) Niebuhr, K.: Voyage en Arabia, II, P. 250.
(٦) Wellsted, J. Travels to City of the Caliphs, I, P. 254
Fraser, J; B.: Op. Cit., I, p. 219.

اما في الموصل ، فقد كثرت المنشآت الدينية والثقافية في هذا العهد بسرعة بالغة وقام الولاة الجليليون – باعتبارهم قمة الهرم السياسي والاجتماعي في الولاية – بنصيب كبير في ذلك المجال ، فكانت أغلب المدارس الكبيرة والمساجد الضخمة من منشآتهم ، كما ساهمت الاسر الغنية في المدينة بانشاء مساجد كثيرة أخرى ، حتى صار التسابق بين الاسر في حقل العمارة الدينية والوقف عليها ، احدى سمات هذا العهد المتميزة ،

وأول جامع بناه الجليليون في الموصل ، كان جامع الاغوات سنة ١٧٠٣/١١١٤ هـ ، أي قبل تولي اسماعيل باشا ، أول ولاتهم السلطة في الولاية [1] ، وانشأ الوالي محمد أمين باشا عام ١٧٥٥م/١١٦٩ هـ بوصية من أبيه حسين باشا الجليلي جامعا كبيرا عرف بجامع الباشا ، وتبرز أهميته خاصة لموقعه المتوسط بين أسواق الموصل الكبيرة [2] .

ثم سرعان ما نشطت هذه الحركة العمرانية ، فأنشأت رابعة خاتون بنت اسماعيل باشا الجليلي سنة ١٧٦٦م/١١٨٠ هـ جامع الرابعية [3] .

وشيد سليمان باشا الجليلي سنة ١٧٧٩م/١١٩٣ هـ جامع الزيواني ، وهو جامع كبير ، " غرم عليه اموالا كثيرة " [4] . وبنى أحمد باشا الجليلي سنه ١٨١٥م/١٢٣١ هـ

---

(١) سعيد الديوه جي : جوامع الموصل ص ١٧٥ ووقفية جامع الاغوات (مخطوط) .

(٢) جوامع الموصل ص١٨٠ وداود الجلبي : مخطوطات الموصل ص ٤٦ .

(٣) سيوفي : مجموع الكتابات ص ١٠ وجوامع الموصل ص ١٩٦ ومخطوطات الموصل ص ١٦٨ ، ومجموعة وقفيات الموصل للمرحوم محمد الجليلي (مخطوط) .

(٤) منهل الاولياء ج ٢ ص ٢٠٠ ومنية الادباء ص ١١٣ وأحمد بن الخياط : ترجمة الاولياء في الموصل الحدباء ص ٩٨ .

جامعا كبيرا فخما على المشهد المنسوب للنبي شيت خارج سور الموصل [1] ، وفي عام ١٧٩٧م/١٢١٢ هـ هدم نعمان باشا الجليلي مسجد السراجخانة الصغير ووسعه حتى غدا من أكبر جوامع المدينة ، وبنى فيه مدرسة وأوقف عليها الكتب [2] .

وساير كثير من الأسر الغنية ووجهاء البلدة وأصحاب المناصب الرفيعة في الولاية هذه الروح التي عمت عصرهم ، فنشطت حركة تشييد المساجد والمدارس بشكل لم يسبق له مثيل ، قام حسن افندي ابن الحاج شعبان الراوي (كتخدا محمد أمين باشا الجليلي فيما بعد) بهدم مسجد صغير وبناه جامعا كبيرا ، ثم أكمله من بعده ابنه بكر افندي سنة ١٩٧٢م/١٢٠٧ هـ [3] .

وقام التاجر الحاج عبد الحافظ الموصلي سنه ١٧٦٧م/١١٨١ هـ بهدم جامع سوق العلوة شيدا مكانه جامعا كبيرا وأوقف عليه مايكفيه [4] . وفي سنة ١٧٩٧م/١٢١٢هـ جدد بكر افندي بن يونس افندي كاتب ديوان الانشاء بناء جامع جشعمه العتيق [5] . وفي عام ١٨١٤م/١٢٣٠ هـ جدد عبد الله بطال جامع باب الطوب تجديدا شاملا وبنى فيه مدرسة [6] ، وعمر الحاج عثمان الخطيب مسجد الخلوتي سنه ١٨٢٠م/١٢٣٦ هـ واتخذه

---

(1) جوامع الموصل ص ٢٤٣ ووقفيه جامع النبي شيت (مخطوط) .
(2) جوامع الموصل ص ٤٦١ ، ومجموعة وقفيات الموصل (مخطوط) .
(3) مخطوطات الموصل ص ١٨٨ والديوه جي : " مدارس الموصل " في (مجلة سومر ج ١٨ عام ١٩٦٢) .
(4) ياسين العمري : الدر المكنون : ص ٦١٢ (مخطوط) .
(5) مخطوطات الموصل ص ٧٨ والديوه جي : المقالة المذكورة ص ٥٨ .
(6) جوامع الموصل ص ٢٣٢ ومخطوطات الموصل ص ٤٥ .

مدرسة يدرس فيها (١) ، وقام آخرون بأعمال عمرانية مشابهة ، من بناء مسجد ، او تجديد آخر ، او تشييد مدرسة ، او اقامة مشهد .

ويقدر المؤرخ الموصلي أمين العمري عدد دور العبادة والثقافة بـ ١٨ جامعا و٣٠٠ مسجدا ، و ١٤ مدرسة (٢) . في حين يذكر بكنجهام انها تبلغ زهاء خمسين مسجدا ، منها ثلاثون صغيرا ومتوسطا ، وعشرون كبيرا (٣) ، ويذهب بادجر الى أنه كان يوجد في الموصل -على ايامه- اكثر من ١٩ جامعا و ٢٥٠ مسجدا و ١٢ مدرسة (٤) .

وشهدت مدن الفرات الاوسط ، وخاصة مدينة النجف وكربلاء ، في عهد المماليك نشاطا حضريا خاصا ، وذلك أن الاستقرار النسبي الذي شهده العراق في هذا العهد وتوفر حد أدنى من الأمن وضعف الادارة العثمانية المركزية ، قد أدى ذلك كله الى زيادة الفعالية المحلية للمدينتين ، وخاصة النجف ، وتمتعها بالتالي بنوع من الحكم الذاتي (٥) . وقد زاد من ثراء المدينة وتحسن أوضاعها الاقتصادية ، تلك الجموع المستمرة من الزوار الآتين من بلاد الشرق : ايران والافغان والهند ، وقد آثر بعضهم الاستيطان في الاماكن المقدسة والاقامة فيها . وكان منهم عدد كبير من

---

(١) مخطوطات الموصل ص ١٨٨ .

(٢) منهل الاولياء ج ١ ص ٦٢ .

(٣) Buckingham,J.:Travels in Mesopotamia,II,P.31

وفي ذلك تشابه مع ما أورده سيستني

Sestini:Voyage de Constantinople ...,P. 120.

(٤) Badger,G.P.: The Nestorians, I, P. 81

(٥) وخاصة في عهد حكومة الملالي التي دام حكمها في النجف من اواخر القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر .

انظر : Loftus,W.K.:Travels and Researches in Chaldea, Susiana,..,in 1849-52, Vol.II,P.57,59.

أسر الملوك والايرانيين والهنود ، وكان لسكناهم الاثر البليغ في تطور وتحسين الحالة العمرانية والتجارية والعلمية حيثما اقاموا (١) ، فليس غريبا اذن ان يكون اكبر مساجد النجف وافخمها هو الذى عرف بمسجد الهندى ،نسبه الى عائلة هندية شريفة ثرية تقطن النجف منذ زمن ، وقد شيد هذا المسجد في أوا ئل القرن الثامن عشر وسط منطقة تجارية مكتظة بالاسواق والخانات ، عرفت بسوق الهنود ، فجاء " فخم البناء ، واسع الساحة ، كثير الاسطوانات ، عام النفع ، كثير الفائدة ، وهو جامع البلد لم يفرغ من العبادة ليلا ونهارا ، وهو معتكف النجفيين ومحل عباداتهم وهو اجل مكان عندهم بعد الحرم العلوى " (٢) .

وفضلا عن ذلك ، فقد عمرت او انشئت مساجد أخرى في أماكن متعددة ، الا انها كلها تقريبا – متصلة بالاسواق الرئيسية في المدينة ، منها مسجد سوق المشابيج الذى عمر سنة ١٨١٥م/١٢٣١هـ ، وهو أحد شعب السوق الكبير (٣) ، ومنها ايضا مسجد الشيخ الطريحى ،وهومن المساجد الكبيرة الشهيرة في النجف وقد عمر في عام ١٧٩٨م/١٢١٣هـ (٤) ، ومسجد صفة الصفا الذى جدد ووسع في القرن الثامن عشر (١٢هـ) (٥) ،ومسجد الشيخ باقر قطان ، وهو من المساجد القديمة

---

(١) محمد حسن الكليتدار : مدينة الحسين ص ١١٩ (كربلاء ١٩٦٩) .
(٢) جعفر آل محبوبة : ماضى النجف وحاضرها ج ١ ص ١١٧ – ١١٩ .
(٣) ماضى النجف وحاضرها ج ١ ص ١٢٢ – ١٢٣ .
(٤) ماضى النجف وحاضرها ج ١ ص ١٢٣ – ١٢٤ .
(٥) ماضى النجف وحاضرها ج ١ ص ١١٢ .

المشهورة في النجف[1] ، ومسجد الشيخ الدلوس الذي يرقى الى القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد عمر سنة ١٧٨٣م/١١٨٩هـ[2] ، وغير ذلك من المساجد .

٥ ـ الشوارع العامة والأزقة :

وقد أدى العمران المتزايد ، في مدن العراق أثناء هذا العهد ، مع عدم نشوء وعي مدني حديث يعنى بشؤون المدن وتنظيمها تنظيما يتفق وتلك الزيادة ، الى تكدس واضح في المؤسسات الدينية والرسمية واكتظاظ التجمعات السكنية وازدحامها في بقع معينة داخل المدن ، دون أن يكون ثمة اتجاه نحو توسيع الرقعة المسكونة الا قليلا . وتثبت مقارنة خرائط الرحالين للمدن العراقية قبل هذا العهد وبعده، أن حدود المدن نادرا ما تغيرت ، وأن ما بقي غير مأهول في القرن الثامن عشر ـ على ما رسمه نيبور ـ ظل كذلك حتى القرن التاسع عشر ، كما يظهر ذلك من خرائط جونس ورشيد الخوجة وغيرهما من أهل هذا القرن[3] .

وكان ازدياد كثافة المناطق المأهولة بالسكان قد أدى بطبيعة الحال الى تلاصق دورها وحاراتها ، كما أدى ببعض الناس الى اقتطاع أجزاء من الطرقات العامة

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ١١١ .
(٢) ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .
وحسين علي محفوظ : موسوعة العتبات المقدسة (قسم النجف) ج ١ ص ١٩٠ .
(٣) انظر خريطة نيبور لبغداد المثبتة في ملاحق هذه الرسالة .

والبناء فيها ، أو توسيع دورهم على حساب الميادين والساحات (1) ، حتى لم يبق في بغداد شارع مستقيم تقريبا .

ويفسر الامام الآلوسي هذه الظاهرة بأنها نتيجة لشروع الناس باختطاط مساكنهم على حسب مايشتهون دون أن تتمكن الحكومة من تدارك الخلل (2) . وفي الواقع يمكننا أن نضيف الى ذلك سببا آخر ، هو أن ضيق الطرق والتواءها له صفة دفاعية حيث يعطي المدينة شكلا محتشدا يساعد على صد الغارات وحصر الاعداد في أوقات الازمات كما أن من شأن الطرق الضيقة أن تحمي السكان من أشعة الشمس المحرقة التي يتصف بها المناخ الصحراوي في العراق خلال أشهر الصيف . أما صفة الازقة غير السالكة أو المغلقة ، فيمكن أن تعزى الى سهولة حصر الغزاة والسيطرة عليهم اذا ما تعرضت المدينة الى هجمات خارجية أو تمرد داخلي (4) .

وكانت شوارع بغداد ، كغيرها من المدن الشرقية الأخرى ، ابان القرن التاسع عشر ، ضيقة غير مبلطة (5) ، تقوم على جانبيها بوجه عام جدران صماء ، تخلو غالبها من

---

(1) احمد سوسة : أطلس بغداد ص ١٥ و ١٦ .

(2) يبدو ان هذه الظاهرة لم تتغير طيلة العهد العثماني :

Rauwolf, P.: Op.Cit., Vol.I, P.179
Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia, II, P. 181.

ومحمود شكري الآلوسي : أخبار بغداد وما جاورها من البلاد . والورقة ٤٩ - (مخطوط) .

(3) اخبار بغداد الورقة ٤٩ (مخطوط) .

(4) عبد الرزاق حسين : نشأة مدن العراق وتطورها ص ٣٩ .

(5)
Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 253.
رفوف : عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة ص ١٢٩ (مخطوط) .

اية نوافذ مطلة على الطرق ، بينما تكون أبواب الدخول المؤدية الى المساكن صغيـرة حقيرة (١) . وفيما عدا بعض الأسواق وخطوطها التي غيـر المنتظمـة ، وبعض الفسحات المكشوفة ، فان داخلية المدينة عبارة عن متاهة من الأزقة والممرات (٢) .

٦ ـ المحلـــة :

تعتبر " المحلة " الوحدة الأساسية المكونة للمدينة العراقية ، فيها تظهر ملامـح التضامن الاجتماعي ، وتتجلى العصبية المدنية . وتتكون كل مدينة ـ عادة ـ من عـدد من المحلات (٣) ، وتتألف المحلة الواحدة من شارع عريض نسبيا ، وأزقة ضيقة تابعة لـه ومتصلة به ، تعرف " بالعقود " ، ودور تتجه مداخلها الى هذه العقود ، او الـى الشارع الرئيسي نفسه ، وفي نهاية هذا الشارع ، بوابة قوية تغلق كل ليلة (٤) .

وعلى هذا النحو لعبت " المحلة " دور قلعة داخل قلعة ، وكانت لكل منهـا مهامها الدفاعية في حالات الطوارئ ، وخاصة في حالات الصدامات الناشبة بينها .

وعلى الرغم من أن كثيرا من تلك المحلات احتفظ ، لفترة طويلة ، بملامح التجمعات الحرفية القائمة فيها ، وأن تقاليد العون والمساعدة المتبادلة كانت تنتقل في المحلـة

(١) Texeira, P.: Op.Cit., P. 63.

(٢) Buckingahm, J.:Travels in Mesopotamia, II, P. 180.
Fraser, J.: Travels in Koordistan and Meropotamia, Vol. II, P. 218.

(٣) عماد العمري : بغداد كما وصفها السواح الأجانب ص ٨٥ .

(٤) Texeira, P.: Op. Cit, P. 66.

من جيل لآخر ، فان نظام المحلات هذا لم يكن منطبقا على نظام الأصناف[1] الا نادراه بمعنى أن أهل المحلة الواحدة لم يكونوا يختصون بحرفة معينة ،ولا يجمعهم صنف بذاته ، وانما كانت المحلة تشكل وحدة اجتماعية أعم من الصنف وأشمل منه[2] ، ويمكن القول بأنه اذا كانت المحلة تشكل الوحدة الاجتماعية في المدينة فان الصنف كان يمثل الوحدة الاقتصادية فيها ، وأن المحلة قد تشمل عدة أصناف ، بحسب ضخامتها وكثافة سكانها .

ويختص الصنف -عادة - " بعقد " معين في المحلة ، التي تتكون من مجموعة من " العقود " ، فتضم كل محلة بذلك عدد من الأصناف داخلها ، وهو ما يعكس الطبيعة المستقلة للمدينة في العراق ، واكتفائها النسبي بذاتها في كثير من الأمور. ويمكننا - في هذا الصدد - أن نلاحظ كثرة عدد العقود المنسوبة الى مهن معينة مثل ، عقد السقاقي (جمع سقاء) ، وعقد العلاوي (جمع علوة ،وهي مكان عرض المحاصيل الزراعية بالجملة) ، وعقد التبانة (المشتغلون بالتبن) ، وعقد المجارية (المكارين) وعقد الصابونجية (صانعي الصابون) . وعقد النجاجير (النجارين) ، وعقد الصندوكجية (صانعي الصناديق) ، وعقد الحياج (الحاكة) ، وعقد

---

(١) الأصناف : هي نقابات الحرفيين في الاصطلاح الاسلامي . انظر الفصل الرابع .

(٢) انظر العلاقة بين الصنف والحارة في المدينة الاسلامية في كتاب جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢ ص ١١٥ .

الاكمجية (باعة الطعام) ، وعقد التنكه جية (صانعي القلل) ، وعقد المعاججيــــة (صانعي المباءات) ... الخ (١) .

وكان في كل محلة ، أو عقد ، مسجد ، ومقهى خاص بأهل الحرفة المجاورة ، تتــم فيها الصفقات التجارية ، وتتوثق العلاقات الحرفية . كما كانت توجد في أغلب المحــلات سقايات (سبيل خانات) عامة ، تأخذ مياهها ـ كما في بعض أحياء بغداد ـ من قنـوات في قناطر تجري فوق العقود ، ويرفع اليها الماء بدواليب خاصة من شاطئ النهــر (٢) وفي السقايات الأخرى ، البعيدة عن تلك القناطر ، كان يكتفى بتخصيص سقاء معيــن يقوم بملء حوض السقاية يوميا .(٣)

(١) لقد وضع الكوماندر فيليكس جونز قائمة مفصلة بأسماء محلات بغداد وعقودها وسائـر معالمها في كتابه المهم :

Jones, Felix: Selection from the Record of Bombay Government (Bombay 1857).

وعنوان الفصل الخاص عن بغداد: Memoir on the Province of Baghdad submitted to Government on the 19th April 1855, PP. 312 - 339.

(٢) كانت في الجانب الشرقي من بغداد قنطرتان (ساقيتان) من هذا النوع ، الاولى انشأها السلطان مراد الرابع عند فتحه بغداد سنة ١٦٣٨م/١٠٤٨ هـ لتوصــل المياه الى سقاية عند جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني . والثانية انشأها والــي بغداد السلاحدار حسين باشا سنة ١٦٧٤/١٠٨٥ هـ ، وتنقل المياه من شاطــئ دجلة جنوب القلعة ، حتى مرقد الشيخ عمر السهروردي عند السور الشرقــي لبغداد ، مغذية في طريقها عددا من السقايات الفرعية ، المنشأة على فــترات متفاوتة ، عماد عبد السلام رؤوف : سقاية الشيخ عبد القادر الكيلاني ، جريــدة التآخي البغدادية ١٩٦٨/٨/٢٢ ، وسقاية جامع الشيخ عمر السهروردي فــي الصحيفة نفسها بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٣ .

(٣) حفلت بغداد بعدد كبير من هذه السقايات ، وكانت لها أوقاف خاصة ـ أوقفهـا أهل الخير ـ لادارتها ، ودفع رواتب السقائين ، منها سقاية جامع الأزبك ، وجامع العاقولية ، وجامع النعمانية ، وجامع سوق الغزل وغيرهـــــا =

وكان من المحتمل أن تنسب " المحلة " برمتها الى مهنة معينة غالبة على نشاطها الاقتصادي ، فكان ببغداد ، مثلا ، محلات منسوبة الى الطوبجية (القائمين على المدافع) ، والدنكجيه (صانعي الأعمدة المستعملة في البناء ، والصفافير (صانعي الأواني) ، والشواكة (باعة الأشواك المستعملة في الوقود) [1] . وفي البصرة ، كانت هناك محلات ، مثل محلة الحدادة (المشتغلين بأعمال الحديد) ، ومحلة الحكاكة (المشتغلين بصقل المعادن) ، وقد نشأت هاتان المحلتان ، وهما من اكبر محلات البصرة ، في القرن الثامن عشر [2] .

ومن المحتمل أن تنسب المحلة أو العقد ، الى العشيرة أو الجماعة التي سكنتها وقد قسم العثمانيون بغداد ، منذ أول فتحهم لها في منتصف القرن السادس عشر ، على هذه القاعدة [3] . ويكشف هذا التقسيم عن تأثير النظام القبلي على تركيب الاحياء السكنية ، حيث أن كل عشيرة أو قبيلة تحتل محلة خاصة بها من المدينة ، وبهذه الطريقة تصبح كل محلة وحدة ادارية ذات سمات مدنية - قبلية في الوقت نفسه . وكان الهدف من اقرار هذا الوضع ، هو بالدرجة الاولى ، الرغبة في تسهيل الادارة وجمع الضرائب من السكان ، اذ كان من المعتاد أن تصبح كل جماعة مسئولة بالاجماع عن منطقتها برعاية أحد الأشخاص البارزين [4] . ويلاحظ في هذا الصدد ، أن النظام

- انظر : محمود شكري الآلوسي : مساجد بغداد دار السلام (مخطوط) ، وعباس ابن جواد : نيل المراد في أحوال العراق وبغداد (مخطوط) .

(١) Jones, F.: Op. Cit., PP. 312 - 339.

(٢) عبد القادر باشي أعيان : البصرة في أدوارها التاريخية ص ٧٢ .

(٣) سجلات ولاية بغداد . السجل المرقم ١٢٥٦ .

(٤) عبد الرزاق حسين : نشأة مدن العراق ص ٣٩ .

المذكور هو نفسه النظام المطبق في الريف ، حيث يتولى رئيس كل عشيرة ادارة عشيرتـــــة المتضامنة في زراعة الارض أو الرعي فيها ، كما أنه ينسجم الى حد كبير مع نظام الملــــل العثماني ، الذي يجعل للرئيس الديني حق الاشراف والادارة لطائفته من الناحيـــــة الاجتماعية البحتة ايضا . وكانت كل محلة يرأسها شخص يتمتع بلقب " كتخدا " [1] . واذا ما زاد عدد أبناء العشيرة على أن تضمهم محلة واحدة ، قسمت الى أكثر من قســـــم ومنح لكل رئيس منها اللقب نفسه ، فجماعة شهرلو شاه مثلا كانت تنقسم الى ثلاث محـلات يرأس كل محلة منها كتخدا [2] ، وغالبا ما نسبت المحلة الى اسم رئيسها ، فمحلـــــة عبد الرحيم ابن سلمان ، كان يرأسها كتخدا يحمل الاسم نفسه [3] ، ومثلها محلة يوسف ابن بدر الدين [4] ، ومحلة زين الدين كوردكجي [5] ، ومحلة سعدى قباط [6] ومحلـــــة ناصر حسام [7] ، ومحلة غولو [8] ، ومحلة سالم بن جمعة " [9] ... الخ .

وواضح أن هذه الاسماء لم تبق معروفة في العهود التالية ، والظاهر أن تسميـة المحلات بأسماء روساء الجماعات والعشائر كان للاغراض الرسمية والمالية التي ذكرناهـا ،

(١) سجلات ولاية بغداد ، السجلان ١٢٥٤ و ١٢٥٦ .
(٢) سجلات ولاية بغداد ، السجل ١٢٥٦ لوحة ٣٦٢ .
(٣) السجل السابق .
(٤) السجل السابق والموضع .
(٥) السجل السابق .
(٦) السجل السابق .
(٧) السجل السابق لوحة ٣٦٣ .
(٨) السجل السابق . لوحة ٣٦٣ .
(٩) السجل السابق . لوحة ٣٦٦ .

وأنها لم تستعمل على النطاق العام . وعلى أية حال ، فان بعض المحلات والعقـــود ظلت ــ حتى القرن التاسع عشر وما بعده ــ محتفظة بأسماء الأقوام التي سكنتها ، مثل عقد الدجيلاويين ببغداد (نسبة الى دجيل بالقرب من سامراء) ، وعقد الجنابييـــن (عشيرة عربية) ، وعقد العجيليين ، وعقد المهدية (عشيرة عربية كانت تمتهن جــزارة اللحوم) [1] ، وعقد الدوريين (نسبة الى الدور ، بلدة بين بغداد وسامراء) ، وعقـــد الكرد ، ومحلة التسابيل (نسبة الى دسفول بايران) ، ومحلة الهيتاويين (نسبـــة الى هيت بلدة على الفرات) ، وعقد أهل برشت (بايران) ، ومحلة الجعيفر (نسبـــة الى عشيرة الجعافر العربية) [2] .

وكانت الموصل ، نموذجا واضحا لهذه الظاهرة الاجتماعية ، فلقد عرفت فيهـــا منذ أول العصر العثماني ــ هذه التسميات ، فكانت هناك " محلة آل طارق [3] ، ومحلة آل يتيم [4] ، ومحلة متفرقة [5] (اسم لفرقة عسكرية عثمانية) ، ، كما حافظت علـــى التسميات القديمة مثل محلة الخزرج ، ومحلة الحديثيين (نسبة الى حديثة على الفرات) ومحلة التكارتة (نسبة الى تكريت في شمال بغداد على دجلة) [6] .

---

(١) قال الحيدري (عنوان المجد ص١٠٩) عند حديثه عن عشائر العراق : " ومنهـــم المهدية ، وهم القصابون في بغداد ، وهم من زبيد الحميري " ، فهي مـــن المحلات التي تجتمع بها صفة العشيرة ، والصنف معا .

(٢) Jones, F.: Op. Cit., PP. 312 - 339.

واحمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد المفصل ص ٢٥٦ــ٢٧٢ .

(٣) سجلات ولاية الموصل ، دفتر ٦٦٠ ، لوحة ١٨٢ .

(٤) سجلات الموصل ، دفتر ٦٦٠ ، لوحة ١٨٣ .

(٥) سجلات الموصل ، دفتر ٦٦٠ ، لوحة ١٨٢ .

(٦) نيقولا سيوفي : مجموع الكتابات المحررة على أبنية مدينة الموصل ص٣٥ ، ١٥٢ ، ٨٢ .

وفي النجف ، كانت هناك اكثر من محلة تنسب على هذا النحو ، منها واحدة خاصة بالفرس القادمين الى المدينة عرفت بمحلة " العجم " ، كما عرفت احدى محلات كربلاء ، بمحلة " البلوش " ، وهي قبيلة ايرانية استوطنت المدينة سنة ١٨٠٢م/١٢١٧هـ (١) وعرفت أخرى بمحلة " الكهيس " نسبة الى عشيرة الكهيسات العربية التي هاجرت الى كربلاء " في أوائل القرن السادس عشر (٢) .

ومن المحتمل أن تنسب المحلة أو العقد ، الى أي شيء بارز فيها ، كقبر احد الأولياء ، أو مسجد مهم ، أو دار كبيرة معروفة ، أو سوق ، وفي المدن العراقية أسماء كثيرة تدل على هذه الظاهرة (٣) .

ولم تكن ثمة قاعدة محددة تنقسم المدن على أساسها الى محلات ، فبغداد مثلا كان فيها في القرن التاسع عشر ، على ما لاحظ بيترمان ، ثماني عشرة محلة ، لكنها غير متساوية في السعة ، فمنها ما يتألف من ألفي دار ، ومنها ما لايزيد عدد دوره عن خمسين فقط (٤) ، وفي الوقت نفسه نجد أن جونز يجمل عدد محلات بغداد نحو ستين محلة ، بعضها في الجانب الغربي ، والباقي في الجانب الشرقي منها (٥) .

---

(١) محمد حسن الكليدار : مدينة الحسين ص ٢٣٠ .
(٢) مدينة الحسين ص ٢٣٣ .
(٣) انظر قائمة جونز مثلا
(٤) عماد العمري : بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٨٥ .
(٥) Jones, F.: Op. Cit., PP. 312 - 339.

أما البصرة ، فكان فيها كما رأى نيبور في القرن الثامن عشر ، زهاء سهمين محلة يتراوح عدد بيوت كل منها بين ٢٠ و ٤٠٠ بيتا (١) . ومن الواضح أن عدد هذه المحلات كان يزيد أو ينقص بحسب تغير الظروف .

٧ — الميادين العامة :

ومن المظاهر العمرانية التي اتسمت بها مدن العراق في ذلك العهد ، وجود فسحات مكشوفة داخل أسوار المدن ذاتها ، وقد عرفها ، العراقيون باسم " الفضوات " (٢) . وكانت هذه الفسحات تمثل مجالا رحبا لمختلف النشاطات الاجتماعية فكانت تباع فيها بعض أنواع السلع ،حتى عدت — أحيانا — أسواقا قائمة بذاتها ، مثل سوق الموسلين ، وسوق الحنطة وكلاهما ببغداد (٣) ، وغير ذلك . وهذه الفسحات تمثل — فضلا عن أهميتها التجارية — مجمعا لأهالي الأحياء المجاورة ومتنفسا لهم ففيها تجتمع النساء ويلعب الأطفال ، وتنصب ادوات التسلية في أيام الاعياد (٤) .

ومن " الفضوات " الشهيرة ببغداد آنذاك ، فضوة " الصدرية " القريبة من جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وفضوة عرب القريبة منه

---

(١) Niebuhr,K. Op. Cit., II, P. 179.

(٢) الفضوة : اشتقاق عامي من (الفضاء) ، ويراد بها : الأرض الفضاء .

(٣) Fraser,J.B.: Travels in Koordistan and Mesopotamia, Vol. 1, P. 115.

(٤) وقد أسهب الأب أنستاس ماري الكرملي في وصف تلك المناسبات الاجتماعية ودورها في حياة المدينة العراقية ، في كتابه " مزارات بغداد " الذي ألفه بلهجة بغداد العامية (مخطوط) .

أيضا (١) . وأكبر تلك الفضوات مساحة وأهمية " ميدان القلعة " ، وهو ميدان المدينة الكبير (٢) ، حيث تعرض فيه الخيول للبيع ، ويجلس الناس على اختلافهم للاستمتاع بشرب القهوة والتدخين في المقاهي المحيطة به (٣) ، وهو في الوقت نفسه الميدان العام لاستعراض الجيش ، وتنفيذ عقوبات الاعدام ، ولكل شيء تقريبا ، ويشغل اكثر من ٦٠٠٠ متر مربع (٤) .

ويطل على الميدان جامع فخم شيده أحمد باشا الكتخدا سنة ١٧٩٥م/ ١٢١٠هـ ، وكان أمامه فسحة متسعة من مرافقه ، تحتوى على سقاية وحوض كبير ، الا أن الاهمال سرعان ماخرب هذه المرافق ، فبقيت الساحة - على مايذكر الالوسى - " خالية من البناء ، فلم تزل كذلك الى أن أحدث عليها بعض الناس اكواخا ونحو ذلك ، وشرعت الباعة تجلس فيها حتى صارت مجمعا للاقذار والانذال .. وقد جلس السوقة والباعة على قارعة الطريق منها ، ووضع باعة التبن أحمال التبن ، وباعة الحطب حطبهم فيها والدواب ، تعرض على البيع هنالك " (٥) . وفي وسط هذا الميدان ، كان ثمة مدفع ضخم قديم ، من المدافع التي استخدمها السلطان مراد الرابع في فتح بغداد سنة ١٦٣٨ ، وهو - لهذا السبب - محل تقديس من البغداديين ، ولهم فيه عادات وطقوس خاصة (٦)

---

(١) الكرملي : مزارات بغداد ص٤٧ (مخطوط) .
(٢) يطلق اسم " ميدان " في مدن العراق ، منذ العصور العباسية ، على ميدان استعراض الجيش فقط ، في حين لايختلف هذا الميدان عن سائر الفضوات بشيء يذكر .
(٣) Fraser,J.B.: Travels..., Vol. 1,P.216.
(٤) Ibid.
(٥) محمود شكرى الالوسى : أخبار بغداد وماجاورها من البلاد . الورقة ٤٩ (مخطوط) .
(٦) وقد سجل الامام الالوسى كثيرا من تلك العادات في كتابه الذى أسماه " القول الانفع في النهى عن زيارة المدفع " (مخطوط) في مكتبة الاوقاف ببغداد) .

٨ – الـــدور :

تتميز الدور العراقية ، بوجه عام ، بخصائص انشائية وتخطيطية ذات طابع واحـــد يتمثل فى توزيع المسقفات السكنية حول الساحة الوسطية المكشوفة التى يطلق عليها اســم " الحوش " وهو الفناء المكشوف أو الرحبة الداخلية للدار ، وتتألف المسقفات عـادة من طابقين ، فى كل منهما صف من الغرف التى تطل على الباحة المذكورة . وفى وســط هذه الباحة حديقة مظللة بأشجار الليمون والبرتقال أو بأشجار النخيل (١) . وتحــت حجرات الطابق الأسفل ، توجد حجرات واسعة تحت مستوى الأرض ، تعرف بالسراديب وتستخدم صيفا للوقاية من الحر ، فى حين تستعمل سطوح الدور ، لتناول العشــاء مساء ، وللنوم عليها ليلا . وعلى الرغم من التأثيرات الواضحة التى تركتها تقاليد فـــن العمارة الفارسية والتركية ، والتى كانت أقرب ، فى نظر بعض الرحالين ، الى طـــراز العمارة القوطى (٢) ، الا أن التخطيط الأساسى للبيت فى بغداد والمدن العراقية الأخرى ، لم ينله التغيير خلال العهود المتعاقبة ، بل ظل محافظا على سماتـــه الأصيلة (٣) .

(١) فوك : عربستان أو بلاد الف ليلة وليله ص ١٢٧ .
وعن وصف البيت البغدادى فى القرن التاسع عشر : انظر

Ross,H.J.:Letters of Ross,1837-1857,P.32.
Layard,H.:Autobiography and Letters,Vol.,1, P.328.

(٢) Buckingham,J.:Op.Cit., Vol. II, 191

(٣) محمد مكية : تطور فن العمارة فى بغداد . بحث ضمن كتاب " بغداد " الـــذى اصدرته جمعية المهندسين العراقية ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

وتميزت دور الموصل ، في عهد الجليليين ، بأنها كانت ذات طراز واحد تقريبــــا وأن بعض دور سراتها كان على النسق الذى عرف فى ديار بكر . وكانت المادة الـتى تستعمل فى بناء المنشآت المدنية تتكون عادة من الصخر والطابوق (الآجر) والجص . وقد استخدم الرخام فى الموصل بكثرة نظرا لقرب محاجره منها ، وكان يتخذ فى تزييــــن المداخل وفى صناعة الأعمدة الرخامية داخل الدور ، وفى رصف الحجرات ، وصنـــع المحاريب ، أما الجدران الخارجية فكانت تبنى بالآجر الأحمر(١) .

ومن الملاحظ أن معظم مدن العراق الأخرى ، وخاصة تلك التى تقع فى وسطــــه وجنوبه ، كان مشيدا بمواد أقل جودة وأردأ حالا ، فكانت السماوة مثلا مبنية باللبـــن غير المحروق ، ومثلها الرماحية والديوانية والمرجة ، وسوق الشيوخ ، بل ان عامـــة دور البصرة نفسها كانت مبنية باللبن ، وجذوع النخيل ، مما يجعلها أشبـــــه بالأكواخ (٢) .

وبينما تتصل منشآت المدن العراقية بناحية من سورها الخارجى ، تبتعد عنه مــــن نـواح أخرى ، وذلك نتيجة لانكماشها عن تلك المناطق ، وظهور مناطق فضاء بيـــن مراكز التجمع السكنى وبين الأسوار . ففى بغداد تتجمع الدور والمنشآت فى المنطقـــة

(١) Sestini, J.: Voyage de Constantinpole, P. 146
و Dupré, A.: Voyage en Perse, P. 148.
(٢) Hawel, T.: Voyage en Retour de L'Inde, P.29,35.
و Zwemer, S.M.: Arabia, The Cradle of Islam, P. 139
Ivis, E.: A Voyage from England to India, P.232.
Buckingham, J.: Op. Cit., Vol. II, P. 249
ورحلة أبى طالب خان ص٤٠٨ .

المجاورة لسور المدينة الشمالي ، وسبب ذلك يرجع الى وجود القلعة الداخلية هناك وما يليها من منشآت الحكومة كالسراي ودور الموظفين [1] . اما في الموصل فقد كان مسار الحركة العمرانية — خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر — يتجه جنوبا . ففي الوقت الذي أغلق فيه الحاج حسين باشا الجليلي الباب العمادي في أعلى البلدة سنة ١٧٣٤م/١١٥٦هـ [2] ، كانت المساعي مبذولة لفتح أبواب جديدة في الأجزاء الجنوبية من المدينة ، كما أنشئت المباني الحكومية ، وكثير من القصور والمساجد في تلك النواحي ، في حين بقيت الأقسام العليا مهجورة . وكانت الدور تزدحم عند اسوار المدينة الجنوبية حتى أصبحت تشكل قسما من السور نفسه [3] .

اما في البصرة ، فقد كان اتجاه العمارة يسير نحو النهر — في هذا العهد — على نحو ملحوظ ، ذلك أن البصرة التي نشأت أول مرة في منطقة بعيدة عن النهر قريبة من البادية ، وازدهرت هناك طيلة العصور الوسطى ، بدأت بالاضمحلال التدريجي واخذ الخراب يزحف اليها سريعا حتى لم يبق منها سوى آثار جامعها الشهير ، وقبر الزبير بن العوام وسط الصحراء (حيث ستقوم بلدة الزبير فيما بعد) [4] ، وهاجر من

(١) انظر خريطة مدينة بغداد من عمل Jones (اطلس بغداد ص ١٥) .
(٢) Niebuhr, K.: Op. Cit., 11, F. 292
، Sestini, J.: Voyage de Constantinople, F. 148
(٣) Niebuhr, K.: Op. Cit., Tab XLVI.
(٤) رحلة ... ص ٩٤ — ٩٥ ودائرة المعارف الاسلامية ، مواد " البصرة " بقلم : S.H.: Longrigg, Ch. Pellat, R. Hartmann Islam Ansiklopedisi
، Basra, by: C. Huart, Vol. 11, PA ...

بقى من أهل البصرة القديمة تدريجيا نحو منطقة تبعد عن مدينتهم نحو سبعة أميـــال . وفى حدود القرن الخامس عشر كانت البصرة الجديدة قد برزت الى الوجود ، فبنيـــت فيها البيوت والمساجد والمدارس[1] . وفى القرن التالى ، شهد الاقراسيابيون ســـور البصرة الحديثة موصلين اياه الى النهر ، فدخلت ضمن الاسوار كل الحدائق والحقـــول التى كانت خارجة عنها قبلا[2] .

وما لبثت المدينة الجديدة أن ضمت اليها قرية " المناوى " الصغيرة الواقعة علـــى ضفة شط العرب مباشرة . فتشكل من ذلك تجمع سكنى أمتد على ضفتى قناة البصـــرة المتفرعة من شط العرب ، بغير كثافة كبيرة . وكان مركز ذلك التجمع يبعد عن الشـــط زهاء ميل تقريبا[3] . حيث تحتشد الدور فى القسم الجنوبى من القناة[4] .

---

(١) رحلة أبى طالب خان الى العراق وأوربة ص ٤٠٩ .
وعبد القادر باش أعيان : البصرة فى أدوارها التاريخية ص ٥٥ .

(٢) Della Valla, P.: The Travels of Sig Petro Della Volla, P. 244.

و Buckingham, J.: Travels in Assyria, Media, Persia, Vol. II, P. 137.

و Mignan, R.: Travels in Chaldea, P. 287.

(٣) وقد واصلت عمارة البصرة زحفها نحو شاطىء شط العرب فى العهود التاليـــة وخاصة فى القرن الحالى ، فاتصلت بمنطقة المشار على الشاطىء ، ثم اصبحت هذه المنطقة مركز ثقل البصرة الحديثة وما زالت .

(٤) Fontanier, V.: Voyage dans L'Inde, P. 258.

Wellsted, J. R.: Travels to the City of the Caliphs, Vol., 1, P. 141

و Zwemer, S. M.: Arabia, PP. 129 - 130.

Buchingham, J.: Op. Cit., II, P. 138.

٩ ـ أسوار المدن :

وكانت مدن العراق فى هذا العهد ،كغيرها من مدن الشرق ، محاطة بأسوار تحميها من الغزوات المتكررة ، وتطيل فترة صمودها فى أثناء الحصارات المتعاقبة .

ولقد اهتم العثمانيون ، منذ أول عهدهم بالبلاد فى القرن السادس عشر ، بتعزيز تحصينات مدن العراق وأسوارها ، فكانت بغداد على مارآه الرحالة التركى محمد ظلى المعروف بأوليا جلبى : قلعة تدخل الرعب والهيبة فى نفس كل من نظر اليها من جوانبها الأربعة ، وأن أسوارها تشمخ بالمتانة وقوة البنيان ، تدعمها من الداخل دعائم قوية ، ويبلغ ارتفاع الأسوار زهاء ستين ذراعا ،وعرضها من أعلى عشرة أذرع الى خمسة عشر ذراعا ، ويحيط بالمدينة من جهة النهر سور أيضا معزز بالدعائم (١) .

ويلتف حول أسوار المدينة ، من جهاتها الثلاث عدا جهة النهر ، خندق عميق يبلغ عرضه ستين ذراعا تقريبا ، ويأخذ مياهه من نهر دجلة (٢) .

---

(١) اوليا جلبى : سياحتنامه سى ج ٤ ص ٤١٩ .

(٢) المصدر نفسه . ويذكر ولستيد أن خندق المدينة ليس الا حفيرا غير مبنى بشىء من الآجر أو غيره .

انظر : Wellsted,J.:Travels... , Vol. 1, P. 254.

ومازالت بقايا من هذا الخندق موجودة عند الباب " الوسطانى " (متحف الاسلحة القديم سابقا) ، وعند الباب الشرقى ، (فى الجنوب) حيث تحول الخندق هناك الى حديقة غناء تنخفض عن مستوى الأرض العادية بأكثر من ثلاثة امتار تقريبا .

وللمدينة أربعـة أبواب، الأول في الشمال الغربي يدعى "باب المعظم" لانـه يفضي الى الطريق المؤدى الى ضريح الامام الاعظم ابى حنيفة النعمان [١] ، والثاني في أعلى السور الشرقي ، هو الباب الأوسط [٢] ، والثالث في الجنوب منه ، ويعرف بباب الطلسم [٣] ، وقد اغلق بعد فتح مراد الرابع لبغداد في أواسط القرن السادس عشر ثم باب في الجنوب الشرقي يعرف بالباب الشرقي . وبين كل باب وآخر يوجد عدد كبير من الأبراج والاستحكامات اختلف الرحالون في تقدير عددها [٤] .

ولقد شهد عهد المماليك اهتماما خاصا باحكام أسوار بغداد والمدن العراقية الأخرى . ففي عهد والى بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠=١٨٠٢م) تم تعمير

---

(١) كان هذا الباب يعرف ابان العهود العباسية بباب السلطان نسبة الى السلطان طغرلبك السلجوقي ، وقد ظل باقيا حتى سنة ١٩٢٣ حين هدمته الحكومة العراقية ليتسع الدخول الى بغداد . انظر ناجي معروف : خطط بغداد ص ٤٣ .

(٢) ويعرف ايضا بالباب الأبيض (آق ـ قابو) ، ويذكر Huart أنه كان على مقربة من هذا الباب محل للمدفعية الضخمة شيده احمد باشا .
انظر : خطط بغداد ص ٤٥ .

(٣) من الأبواب العباسية ، وكان يسمى قديما بباب الحلبة ، وقد سمى برج الفتح لدخول السلطان مراد الرابع منه عند ما فتح بغداد . وفي سنه ١٠٦٨ أصلحه محمد باشا السلحدار والى بغداد . انظر : ناجي معروف : تعليقة على المقدمة الخططية لـ Huart (خطط بغداد ص ٤٥) .

(٤) سعاد العمري : بغداد كما وصفها السواح الاجانب في الخمسة قرون الأخيرة ص ١٥ عن جهانتما للحاج خليفة Porter,K.:Travels..,Vol.11,P.266.

سور بغداد وترميم ما تهدم منه ، كما استحدث لضاحية الكرخ في الجانب الغربي من دجلة سور من الآجر واللبن عرضه نحو خمسة أذرع[١] .

وشملت حركة التسوير مدن عراقية أخرى ، كانت قد تعرضت لغزوات الوهابيين ، أو لمضايقات الايرانيين ، فبني سور لمدينة مندلي (بعقد نيجين) القديمة ، الواقعة قرب الحدود الايرانية ، وعمر سور مدينة الحلة على الفرات ، وجدد بناء سور ماردين ، وكان قد تخرب منذ غزوات تيمورلنك[٢] ، واستحدث سور قوي لمدينة الزبير الواقعة جنوب البصرة على حافة البادية[٣] .

وكان للبصرة سور من اللبن يحيط بها من جميع جهاتها ، وشيده حكام البصرة من آل أفراسياب في القرن السادس عشر ، ثم أصلح وجدد في عهد سليمان باشا الكبير[٤] وكان فيه خمسة أبواب ، أهمها باب بغداد ، الذي يؤدي الى وسط المدينة ، والى اعظم قسم مأهول فيها[٥] .

---

(١) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء ، الورقة ١١٨ (مخطوط)
Jones,F.:Selection from Record of Bombay,Government,
P. 309.

وكان طول هذا السور ٥٨٠٠ ياردة .

(٢) عبد السلام الماريني : تاريخ ماردين ، الورقة ١٤٥ (مخطوط) .

(٣) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ج ١ ص ٨٤ .

(٤) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٢١٩ وعباس بن جواد البغدادي نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ص ٢٨٣ (مخطوط) .
وقد وصف بكنجهام هذا السور في كتاب رحلته سنه ١٨١٦ .
Buckingham,J.:Op.Cit., I, P. 138.

(٥) Wellsted,J.R.: Op.Cit., I,PP. 141-143 و
Buckingham,J:: Op. Cit., Vol. II, P. 177.

أما الموصل ، فقد تولى الولاة الجليليون العناية بتعمير سورها وصيانته ، ففي عام ١٧٤٤م/١١٥٧هـ شرع الوزير حسين باشا الجليلي ببناء سور جديد للموصل "مكين البناء ، راسخ الجوانب ثابت القواعد والأساس" (١) . وتوالى تعمير الولاة لهذا السور ، وخاصة في عهد محمد باشا الجليلي سنة ١٨٠١م/١٢١٦ ، وعهد احمد باشا الجليلي سنة ١٨٢١م/١٢٣٧ (٢) . وكان للسور عدد كبير من الأبواب ، أهمها الابواب الجنوبية ، حيث تزداد كثافة التجمع السكاني ، والمؤسسات الحكومية في القسم الجنوبي من البلدة (٣) .

---

(١) سيوفي : مجموع الكتابات المحرره على أبنية مدينه الموصل ص ١١٤ والدر المكنون ص ٥٩٥ (مخطوطة) وزبدة الاثار الجلية ص ٩٩ .

(٢) ياسين العمري : غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر ص ٦٠ ومجموع الكتابات المحررة ص ١٣٧ ومحمد الغلامي : الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد ص ١١ من المقدمه ، وسعيد الديوه جي : قلعة الموصل ص ١٠٩ .

(٣) عماد عبد السلام : الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

الفصل الثاني
طبقات المجتمع في المدن

ان تحديد التركيب الطبقي لمجتمعات مدن العراق في عهد المماليك ، يستلزم دراسة تطور عدد كبير من مدنه ، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، للخروج بمقارنات متوازنة يمكنها أن تكون مفهوما عاما عن تركيب البلاد الطبقي خلال عصر بأكمله . وبما أن معظم تلك المدن كانت تتبع في تطورها ونموها مسارات مستقلة في أكثر أمورها الحضارية ، بل وحتى السياسية منها ، فان عقد مثل تلك المقارنات ليس بالأمر اليسير ، خاصة وأن مصادر العصر لا تمدنا بمعلومات متكافئة عن كل مدينة عراقية آنذاك ، فانها ان أسهبت في وصف أوضاع مدينة ما ، فليس ضروريا أن تصف هذه الأوضاع في مدينة أخرى بنفس ذلك التفصيل . وربما سكتت تماما عن الاشارة اليها عند تطرقها الى مدن عراقية أخرى . ومن هنا فان حكما ينطبق على مدينة كبغداد مثلا ، لا ينطبق بالضرورة على مدن اخرى ، كالموصل او النجف أو البصره فلكل منها سماتها الاجتماعية المتميزة ، التي تشكلت حسب مراحل تطورها وظروفها الخاصة .

وسنحاول ، فيما يلي ، أن نحلل الفئات العديدة من سكان المدن العراقية المختلفة الى طبقاتها الرئيسة على أساس موقعها من مصادر الثروة القومية الأساسية : الأرض ، والتجارة ، والصناعة .

أولا ـ المماليك

يقف المماليك[1] على رأس الهرم الاجتماعي في منطقة واسعة من العراق ، في ضمنها بغداد نفسها ، ففي أيديهم القوة العسكرية ، والادارة والحكم ، وبمعنى آخر جهاز الحكومة كله . وبما أن هذا الجهاز مستند بطبيعته الى قاعدة اقتصادية ، تتمثل فيها نشاطات مختلفة ، زراعية وتجارية وحرفية ، فان وضع أولئك المماليك الطبقي غير محدد تماما ، فهم اكبر من أن يعدوا فئة ، وأقل من أن يكونوا طبقة ، بمفهومها الاقتصادي ، منفصلة عن سائر طبقات المجتمعات العراقية .

ويمكن القول بأن انفصال المماليك عن أهل البلاد ، لم يكن ـ في أحيان كثيرة ـ انفصالا طبقيا يرجع الى أسس اقتصادية ، وانما كان انفصالا تشترك في تكوينه عوامل اجتماعية أخرى متعددة ، أهمها تحدرهم من عرق واحد غريب عن أعراق أهل البلاد وحتى هذا العامل لم يكن دائما حاجزا يمنع امتزاجهم بجمهور السكان ، فانهم سرعان ما ارتبطوا بعدد من الأسر المحلية بعلاقات المصاهرة ، والارث . حقيقة أن علاقاتهم الجديدة لم يفسح لها المجال الكافي لافقادهم صفتهم المشتركة ، كجماعة متضامنة ، لها عصبيتها العنصرية الخاصة ، الا أنها ذوبت كثيرا من الفوارق التي كانت تفصلهم عن الطبقات العليا من المجتمع . وعلى هذا النحو أخذ مماليك العراق يتحولون تدريجيا من كونهم فئة بيروقراطية بحتة ، منعزلة عن السكان ، الى قسم من أبرز أقسام الطبقة الارستقراطية الاقطاعية في البلاد .

(١) يعرف المماليك في التاريخ العثماني باسم (كوله مند) وهي كلمة تركية تعني الأرقاء ، وتطلق ـ خاصة ـ على البيض منهم .

ينتمى المماليك منصريا الى سكان منطقة تفليس التابعة لبلاد الكرج ، فهم بذلك من الجنس القوقازى الذى طالما كان مصدرا لا ينضب لتجارة الرقيق الابيض . وقد عرف المماليك القوقازيون فى الاناضول منذ عهود قديمة ، كما أنهم أسسوا فى مصر السلالات الشهيرة التى أزالها السلطان سليم الأول عن الحكم ، واستعادت عزتها على عهد خلفائه من بعده ، وقد ظهروا فى مختلف الأزمنة فى سرايات استانبول والمدن الصغيرة الأخرى . اما فى ايران فكان منهم من ارتقى المناصب الرفيعة على الرغم من اسلامه احيانا . ويمكن ارجاع هذه الظاهرة الى التساهل الملحوظ الذى تميزت به أحوال الرق فى البلاد العربية والاسلامية عن غيرها من بلاد العالم ، واذ لم تكن للنبل والمنصب صفة وراثية فى فلسفة الحكم العثمانى ، فانه لم يكن مستغربا ان يرتقى الكثير من أحط دركات الخمول الى أرفع المناصب ، وكان جميع المسلمين ، بما فيهم المماليك ، متساوين بين يدى السلطان [1] .

ويمكن القول بأن استخدام المماليك فى حكم البلاد ، كان منسجما تماما مع روح الدولة العثمانية وفلسفتها ، اذ لم يكن جهاز الدولة نفسه فى فترة قوته وعزته الا جهازا كاملا من المماليك ، منهم يتم اختيار قوات الجيش النظامى "الانكشارية" ، ومنهم من كان يتولى أخطر المناصب السياسية والعسكرية فى الدولة [2] . وكانت فكرة اصلاح هذا

---

(1) Longrigg,H.:Four Centuries of Modern Iraq,PP.165-166.

وجب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

و محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٧٦ ـ ٧٧ .

النظام ، واعادة الحيوية اليه ، مازال تراود الكثير من المصلحين كوسيلة وحيدة في تقوية ساعد الدولة . وايقاف تدهورها العسكري المستمر .

ولاريب في ان افكارا كهذه كانت تبحث عن تطبيق مناسب عندما تولى حسن باشا من اشهر ولاة العراق العثمانيين ، مقاليد الحكم في ولاية بغداد عام ١٧٠٤م/١١١٦هـ ذلك ان قوات " الانكشارية " التقليدية كانت قد فسدت في ذلك العهد فسادا خطيرا أخذ يهدد البلاد بالسقوط عند اي غزو ايراني محتمل ، فضلا عن ان هذا النظام اصبح عبئا ثقيلا على كاهل الولاة المتعاقبين بسبب ضعفه ، فقد توقف ارسال جند انكشارية جدد الى الولايات الا في حالات قليلة [1] ، وكثرت ثورات الجند في ثكنات المدن وزاد شغبهم على الولاة انفسهم . ومن ناحية أخرى فان حالة الفرسان الاقطاعيين " السباهية " لم تكن احسن من ذلك كثيرا ، فقد تهرب معظمهم عن تقديم ما يتوجب عليهم من جند ومال ، وأخذ نظام " التيمار " وهو الاقطاع العسكري العثماني يتحول الى نظام للملكية الزراعية ليس الا [2] ، وفي سنة ١٦٠٨م/١٠١٧هـ شهدت بغداد أول ثورة محلية يقودها رئيس كتيبة خيالة (بلوك باشي) [3] ، ولم تمض سنوات معدودات حتى اعلن آغا الانكشارية فيها عصيانه على الدولة ، مؤديا ذلك الى سقوط المدينة بيد

---

(١) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ ص ٢٧٥ . ونوار ، عبد العزيز داود باشا والي بغداد ص ٢٣ .

(٢) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ .

(٣) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢١٢ واحمد بن عبد الله الغرابي : عيون اخبار الاعيان : ورقة ٩١ (مخطوط) وياسين العمري : الدر المكنون : ص ٤٦٤ (مخطوط) .

الفرس المتربصين بها (١) . ثم زادت حوادث العصيان والثورات المحلية ، فأطمع ذلك القبائل العربية وغيرها بالانتقاض على سيادة المدن ، وشكلت أعمالها العسكرية خطرا يهدد المراكز المدنية فى العراق ، ويقطع سبل مواصلاتها (٢) .

وهكذا ، فقد بدأ واضحا للدولة ، ان وضعا رخوا كهذا يمكن ان يؤدى فى وقت الى كارثة تؤدى بالعراق برمته . وكان على الولاة الذين كانوا يتولون مناصبهم ببغداد ان يوجدوا القوة التى يمكن بها السيطرة على الاوضاع المتأزمة . ومن هنا نشأت الحاجة الى ايجاد فئة بيروقراطية عسكرية جديدة ، تحل محل القوى التقليدية ، من فرسان سباهية ، ومشاة انكشارية ، وتخفف من اعتماد حكومة الولاية على قوى القبائل القوية المجاورة .

ولم يكن أمام حسن باشا من سبيل الى تكوين جيش نظامى مجوس مخلص له ، يحقق به اهدافه فى ايران وفى العراق ، سوى ان يتبع ماسبق للدولة العثمانية ان اتبعته فى أول نشأتها ، وهو ان يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين تكون الادارة المنفذة لأوامره ، فيستطيع ان يستخدمها بحرية ، وفى الازمات التى قد تمر بالبلاد ، وخاصة

---

(١) كلشن خلفا ص ٢١٢ ــ ٢٢٢ . وكاتب جلبى : تقويم التواريخ ص ١٣٨ ــ ١٤٤ اهـ
Hammer, J.de.: Histoir de L'Empire Ottoman, Tome 13, P. 174

(٢) سليمان فائق بك : تاريخ المماليك الكوله مند ص ١٤
Hammer, J.: Tome 13, P. 287.
و
Heude: Voyage up the Persian Gulf, P. 143.

في اثناء عصيان فرق الانكشارية ، محاولا من وراء ذلك وضع حد لتحكم تلك الفرق بالولاة والدولة(١) .

وكانت حياة حسن باشا الاولى ، ونشأته في السراى العثماني بالعاصمة القسطنطينية(٢) قد مكنته من دراسة النظم العثمانية الخاصة بتنشئة الجند والقواد والموظفين ، وملاحظة مراحل اعداد مماليك السلطان ، وتهيأتهم لتولى اعلا مناصب الدولة ، وعلى ضوء هذه الدراسة انشأ حسن باشا في بغداد نظاما على غرار النظام الداخلى لسراى السلطان ، واشترى عددا كبير من المماليك من تفليس وعشائر القوقاز كون منهم فرقا وجماعات ، وكانت كل جماعة تقيم في تكنة مخصصة لها ، ولكل فرقة اسم مثل فرقة " الخاص " و " ووكلاء الخزينة .

ولم يكن عمل حسن باشا هذا مرتجلا بأية حال ، فقد آمن بأن تكوين مثل هذا النظام يستلزم أولا ارساء قيم خاصة ، وتربية معينة ، لم تكن البلاد عرفتها من قبل

---

(١) العزاوى : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٤ .

(٢) كان ابوه سباهيا في (قترين) من (الروميلي ايلي) ، ونشأ هو في سراى السلطان بالعاصمة ، وتولى عدة مناصب اولها كان تعيينه بمنصب (جيغرجي باشي) فلبث بشغله ست سنين ، ثم ضمت اليه (امارة العلم) ، ثم جعله السلطان مصطفى بن محمد رئيسا للبوابين (وهو منصب رفيع) ،وتولى بعد ذلك ولاية قونيه ، فحلب ثم الرها ،وآمد ، ثم بغداد ، انظر : عبد الرحمن السويدى : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ص ٤ ـ ١٧ .

لذلك فقد اتجه الى انشاء المدارس الخاصة في بغداد ، وضم اليها ما استطاع شراءه من الاطفال المماليك المشترين من الخارج (١) .

ويبدو لنا ان حسن باشا لم يكن ينوى ان يخلق من اولئك الارقاء طبقة حاكمة وحيدة في البلاد ، تنفرد بشؤون السياسة والادارة وحدها ، وتعلو على النظام الاجتماعي السائد ، كما اعتيد عليه في السوابق التي حدثت في مصر من قبل ، وفي الدولة العثمانية ذاتها ، وانما كان يهدف - بالدرجة الاولى - الى ايجاد عناصر عسكرية مثقفة ، يمكنه الاعتماد عليها في امور الحرب وفي امور السلم معا ، دون ان تشكل تلك العناصر احتكارا للحكم نفسه ، ويبدو ان ادراكه لخطورة الاحتمال الاخير وما ينجم عنه من نواح سلبية سبق ان عانت منها تجارب مماثلة سابقة ، دفعه الى اتخاذ خطوة جديدة هامة ، هي فتح مدارس المماليك وثكناتهم امام عدد من ابناء الاسر الكبيرة من اهل البلاد ، ليدخلوا فيها ابناءهم (٢) وليتلقوا فيها من التربية العسكرية والتدريب على شؤون الادارة ، ما يؤهلهم لتولي المناصب المهمة ، كالمماليك سواء بسواء ، وبهذا فقد ادخل الوالي الحصيف ، لاول مرة ، تجربة جديدة لم يلتفت الى اهميتها حاكم

---

(١) تاريخ جودت ج ١ ص ٣٧٧ (ترجمة عبد القادر الدنا) وسليمان فائق بك : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٤ - ٢٥ .

Huart, C.: Histoire de Baghdad dans les Temps Modernes, P. 128.

(٢) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٥ .

مالمسق ، فرتكسز على محاولة اشراك العناصر العليا من أهل البلاد في الادارة والحكم [١] .

وليست ثمة معلومات محددة عن تلك الأسر التي أدخلت أبناءها في مدارس المماليك كما لا تقدم لنا المصادر شيئا عن أصولها الاجتماعية والطبقات التي تمثلها ، ويكتفي سليمان فائق بك ، مؤرخ المماليك ، بالاشارة الى انهم كانوا من "أولاد الكبراء" [٢] وهو وصف عام يشمل فئات عديدة من أهل البلاد ، ولكنه يدل على أن أولئك المنضمين الى نظامه الجديد لم يكونوا — بأية حال — من طبقة العامة ، بما تشمله من حرفيين وصناع ومتكسبين وغيرهم من أصحاب الدرجات الدنيا والمتوسطة في السلم الاجتماعي ، وهي الفئات التي طالما تمكنت من قبل من النفاذ الى داخل النظام العسكري السابق .

---

(١) ويلاحظ في هذا الصدد ان المماليك في مصر حكموا البلاد دائما بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا الى الاهالي على أنهم اقل منهم درجة او درجات . وكانت تربيتهم تعتمد على فصلهم التام عن سائر طبقات المجتمع ، بل وفصل كل طائفة منهم عن غيرها من طوائف المملوكين ، وكان لكل منها موضع خاص تقيم فيه وتنسب اليه ، كالمماليك البحرية والمماليك البرجية وقد دأبت حكومة المماليك دائما على تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع الى احد من غير مملوك من طبقة المماليك ، وبذلك لم يكن لأهل البلاد أي نصيب في ادارة شؤون بلادهم ، مما احدث فجوة كبيرة بين طبقة المماليك من جهة وسائر طبقات المجتمع المصري من جهة أخرى ، وهذا ما حاول حسن باشا تلافيه في تجربته المذكورة في العراق . (انظر للمقارنة بين نشأة النظاميين : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٠٨ — ٣١١) .

(٢) تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد ص ٢٥ .

الذى شكله أوجاقات الانكشارية المقيمة فى بغداد وسائر انحاء المدن العراقية ، وكانوا فى احيان كثيرة سببا فى فقدانها ضبطها العسكرى ، وتحولها الى شبه قوات غير نظامية (١) .

ومن المرجح ان أولئك " الكبراء " لم يكونوا الا من الاسر المحلية المدنية ، التى تحتفظ بثروتها على شكل ملكيات زراعية كبيرة ، فان اطلاق هذا التعبير كان يقصد به بوجه عام — طبقة الارستقراطية الاقطاعية ، دون ان ينسحب ذلك الى طبقة كبار التجار من سكان المدن ، ومن المهم ان نذكر ان نفوذ هذه الطبقة الاخيرة ببغداد لم يكن قد نمى فى عهد تأسيس النظام (اوائل القرن الثامن عشر) الى الحد الذى يمكنها من فرض وجودها كطبقة قوية بين طبقات المجتمع البغدادى كما فعلت أختها فى الموصل حين تشكل نظام حكومة آل الجليلى فى التاريخ نفسه .

---

(١) جب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ٢٧٥ .

نشأة المماليك وبروز أهميتهم :

وتشبه طرق اعداد المماليك ، التي سنها حسن باشا واستمرت من بعده ، ماكان متبعا فى مدارس البلاط العثمانى الى حد كبير ، فكانت أسماء الجماعات التى ينقسمون اليها مماثلة لتلك التى أسسها السلاطين العثمانيون الأوائل فى عاصمة الدولة . وكان المماليك الصغار من نصارى الكرج ، وصبيان المسلمين ، يرسلون بعد وصولهم سن معينة ، الى مدارس خاصة أنشئت ضمن مبانى سراى بغداد ، أعدت لتدريبهم وتنشئتهم ولم يكن عددهم فى كل دفعة يقل عن مائتى مملوك[1] . وكان لكل مجموعة منهم مؤدب يسمون من المماليك السابقين ، يعرفون باسم " لا لا "[2] ، وهو نفس الاسم الذى يطلق على أمثالهم فى القسطنطينية[3] . وهم ملزمون بتأديبهم وتعليمهم القراءة والكتابة ، وركوب الخيل ، والفنون الحربية ، و " يؤمرون بتحصيل آداب الخدمة "[4] ، وفضلا عن ذلك فانهم يتلقون دراسة دينية منتظمة على أيدى طائفة مختارة من علماء البلاد فيلقنون الاسلام ، ويتعلمون شيئا من علومه . وقد يتاح لبعض المماليك الاستمرار فى الدراسة

---

(١) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٥ .

(٢) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie et en d'autres pays Vol. II, P. 265.

(٣) جب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ١١٧ .

(٤) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٥ .

وطلب العلم ، فيدرس بعض علوم القرآن ، والتصوف والعقائد والفقه وأصوله والنحو والصرف والمناظرة وغير ذلك[١] ، فقد ظهر منهم من عرف بسعة ثقافته ، وكان لأمثال هؤلاء دور بارز في تشجيع الحركة الثقافية في البلاد .

وينضوي المماليك ، بعد اتمامهم لدراستهم وتدريبهم ، الى صفوف أغوات الداخل (ايج آغاسي) ، حيث يكونون تحت امرة " الخزنة دار " في حالة السلم ، وتحت قيادة السلحدار (حامل السيف) في أثناء الحروب ، وهو نظام يشبه مثيله في القسطنطينية بدرجة كبيرة[٢] .

ويؤلف المماليك الحرس الخاص بالباشا نفسه ، وعددهم زهاء مائة كرجي[٣]، فاذا خرج الباشا راكبا ساروا خلفه على أجمل هيئة وأفره خيل ، ولكل منهم سائس يسوس فرسه ، ولا يرسل اغوات الداخل من المماليك لحاهم ، لكنهم اذا ما بلغوا الرتب العالية ، فانهم يسمون " صقاللي آغاسي " ويستطيعون حينئذ أن يرسلوا لحاهم الى أحناكهم[٤] .

---

(١) من الذين أتيحت لهم هذه المعرفة الواسعة ، داود باشا ، آخر المماليك في العراق . أنظر قائمة العلوم التي درسها ، ومشايخه العديدين فيها ، في الحلواني : مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ص ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٢) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ ص ١١٧ .

(٣) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Mesopotamia Vol. 1, P. 245.

(٤) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 265.

وقد استمرت مدارس المماليك مفتوحة لاستقبال دفعات جديدة من صبيان الكرج على القواعد مارة الذكر ، فترة حكم حسن باشا وابنه أحمد باشا (١) ، أى زهاء نصف قرن تقريبا . وليست لدينا معلومات بشأن عدد من تخرجوا من هذه المدارس ، وعن وضعهم الاجتماعى عند توليهم مناصبهم (٢) ، كما ليس ثمة مايوضح علاقتهم بمالكيهم بعد توقيتهم فى وظائفهم الجديدة (٣) ، خاصة وأن من بينهم من لم يكن مملوكا قط ، من أبناء الطبقة العليا فى البلاد . وأغلب الظن أن أمر تملكهم لم يكن الا أمرا من الوجهة الفنية فقط (٤) ، وأنهم أقرب لأنْ يكونوا ملك الحكومة من أن يكونوا ملكا شخصيا لوال بشخصه .

ورغم طول فترة حكم الواليين المذكورين ، فان أولئك المماليك لبثوا عند حدود وضعهم الذى خطط له ، بمعنى أنهم نجحوا فى أن يكونوا الفئة الأكثر قوة وفعالية فى حكومة ولاية بغداد وتوابعها وجيشها ، دون أن يؤدى ذلك الى استحواذهم على مقاليد الحكومة نفسها . ومن الواضح أن احدا منهم لم تكن له موارد خاصة باستثناء

(١) فائق : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٥ و Islam Ansiklopedisi, Baghdad, by M.Cavid Baysun, Vol.2, P.208

(٢) يشير لونجريج عدة تساؤلات بشأن عدد هذه المدارس ، ومدى اختصاصها بالمماليك . انظر Longrigg, S.: Op. Cit., P. 170.

(٣) يقدم آيفز بعض الايضاحات بشأن هذه النقطة ، فهو يشير الى ضرورة تمسك المملوك باحترام سيده ، والوقوف بحضرته ، حتى ولو بلغ منصبا ارقى من منصب سيده " اذ لايمكن مطلقا أن يصبح غافلا عن وضعه الأصلى " ويذكر أن مملوكا لرجل كان يشتغل بصناعة الأزرار فى البصرة ، أصبح حاكما لهذه المدينة ، لكنه بقى حريصا على احترام سيده القديم الذى كان لايزال يمارس هذه الحرفة . Ives, E.: A Voyage from England to India, P. 57.

(٤) جب وبوين : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ١١٩ .

ما كانوا يتسلمونه من رواتب من خزانة الولاية . ولم تعرف بينهم أسماء لامعة ، رغم أنهم كانوا — في الواقع — يؤلفون نخبة جيش الولاية وأحسن عناصره . وقد بقوا على ولائهم التام بحيث لم يسمع أنهم قاموا بأي تمرد أو عصيان خلال تلك الفترة الطويلة من الزمن ، التي حكم فيها حسن باشا وأحمد باشا .

وتكشف حروب حسن باشا الناجحة في ايران ، وفتحه العديد من المدن والنواحي هناك ، وخوضه لأكثر من معركة في ظروف قاسية ، وفي أماكن نائية عن بلاده ، عن مدى صلابة جهازه المملوكي الشديد وعن صدق اخلاصه لقيادته [٢] . وفي عهد احمد باشا [٣] ، استطاع المماليك أن يبرهنوا لمولاهم أهميتهم أثناء محاولات السلطان لعزله من بغداد ، ولا شك في أن وجودهم كان من العوامل القوية التي أحبطت تلك المحاولات . ووصف مؤرخ معاصر رجال جيشه بأنهم " توزن آحادهم بالآلاف ، وأفرادهم بأضعاف ، يرون الملاحم ولائم .... رتبتهم الحروب في حجورها ، وأرضعتهم التجارب من شطورها " [٤] .

وسرعان ما نمت في سراي الولاية العلاقات المناسبة بين المماليك والأحرار منهم وتولى نفر منهم مناصب هامة تفوق مناصب الأحرار أنفسهم ، عدا منصب سيدهم القديم ، فلم يكن مستبعداً أن يتزوجوا من بنات ساداتهم وأن يعينوا حكاماً في مختلف

---

(١) Dupre, A. Op. Cit, 11, P. 142.

(٢) مرتضى نظمي زاده ، كلشن خلفا ص ٣٣٠ والكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٢٦ والسويدي : حديقة الزوراء ص ٩٠ — ١١٠ (مخطوط) .

(٣) تولى احمد باشا الحكم في ولاية بغداد من ١٧٢٣ الى ١٧٣٤ ثم عزل عنها واعيد اليها من ١٧٣٦ الى ١٧٤٧ .

(٤) محمد بن عبد الرحمن الرحبي : بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان الورقة ٤٠ (مخطوط)

أجزاء الولاية وتوابعها [1] ، وهو ماحدث فعلا لسليمان آغا ، المملوك الذى اشتراه حسن باشا وتعهده بالتربية حتى حصل على حريته بخدماته الجليلة لابن سيده أحمد باشا ، وشجاعته التى أظهرها أثناء حصار الايرانيين بغداد سنة ١٧٣٢م/١١٤٥ [2] ، فقد نال سليمان أولا منصبا وسطا ثم أرتقى لأن يكون " خزنه دارا " . وأخذ يترقى فى المناصب من رتبة الى أخرى حتى جاوز جميع المناصب السامية الى وظيفة " الكتخدا " ، وهو ثانى منصب فى الولاية كلها [3] . وقد تتوج نجاحه الباهر بتزويج أحمد باشا اياه ابنته الكبرى " عادلة " ، فكان بذلك أول مملوك ينال مثل هذا الشرف الكبير . واستطاع سليمان أن يتزعم طبقة المماليك الفتية فينال حبهم وتقديرهم ، كما نجح فى كسب ثقة الطبقة العليا فى بغداد ، و"توثقت بينه وبين البغداديين عرى الألفة وتمكنت أسباب المحبة . واتخذ بغداد وطنا مقدسا لأنه نشأ فيها من أول عمره وغضاضة سنه" [4] . وصار ملاذا للخاصة والعامة فى كل مايعرض لهم من الأحوال [5] ، ووجد فيه النصارى وكثير منهم من التجار ، حاميا لطائفتهم [6] ، فكان من الطبيعى أن يتخذه المماليك زعيما وممثلا لطبقتهم الصاعدة .

---

(1) Ives, E.: Op. Cit., P. 258

(2) Longrigg, S.: Op. Cit., P. 166

(3) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, 11, P. 256.

(4) تاريخ المماليك الكوله مند ص ١٦ .

(5) المصدر نفسه ص ٢١ .

(6) Ives, E.: Op. Cit., P. 282.

سيطرة المماليك على الحكم :

وكشفت فترة الولاة الذين أعقبوا احمد باشا عن أهمية هذه المؤسسة المملوكيــــة وعدم جدوى تجاهلها ، فقد حاول ثلاثة من الولاة النابهين أن يسيطروا على مقاليـــد الأمور ببغداد دونما فائدة [1] . واثبتت الحوادث للولاة المتعاقبين أنه من العسيــر الاستمرار في الحكم دون مساندة طبقة المماليك القوية ومساندتها ، ولم تفلح حركـــة تغيير الولاة والمتسلمين بين ولايات العراق في انقاذ الوضع المتأزم [2] ، في الوقت الذي بدأ فيه المماليك يجمعون صفوفهم — بزعامة سليمان — بصورة شبه علنية [3] . ولم تنجـــح خطة الباب العالي في ابعاد سليمان المذكور عن حكومة بغداد بتعيينه متسلما للبصرة ، فقد استطاع الزحف بحيث شبه المؤلف من مماليك سيده الى بغداد حيث انضمت اليـــه قيادات المماليك " واختلفت اليه عيون البلاد وعظماؤها لما بينهم من أواصر المحبـــة الراسخة وعرى المصافاة الأكيدة " [4] .

---

(١) دوحة الوزراء ص ١٠٣ — ١٠٦ وياسين العمري : غاية المرام ص ١٨٣ .
و Huart, C.: Histoire de Baghdad, PP . 146 - 152.

(٢) تاريخ عزى ، ورقة ٧٧ و ١٤١ و ١٥٨ و ١٦٨ ويذكر مؤرخ موصلي معاصر أنه لمــا ولي احمد باشا على بغداد عقب وفاة سميه أحمد باشا بن حسن باشا " خــرج من بغداد سليمان باشا ومعه اتباع مخدومه ومماليكه وتوجه الى البصرة وأقام الى ان ولي بغداد سنة أثنين وستين ، فقدم الى بغداد ودخلها " مجهول : روضــــة الاخبار في ذكر أفراد الأخيار الورقة ١٦٦ مخطوط) . ولا ندري ما اذا كان سليمان قد اصطحب معه معظم مماليك الواليين السابقين ، حسن باشا واحمد باشا ، أم أنه اقتصر على أتباعه من اولئك المماليك ، ومن المرجح ان أغلب اتباعه كانوا من مماليـــك احمد باشا فقط ، الذي هو صهره .

(٣) Longrig, S.: Op. Cit., P. 167, Niebuhr, K.: Op. Cit., Vol. II, P. 257.

(٤) تاريخ المماليك الكوله مند ص ١٩ ، وتاريخ عزى ص ٢١٤ .

وسرعان ما فشلت محاولات محمد باشا ، والى بغداد الجديد ، وفى الوقوف بوجه سليمان باشا ، فاضطر الى الانسحاب من بغداد ، ليدخلها من بعده المملوك المعتق ، سليمان باشا ، زعيم المماليك [1] ، فكان قدومه –على حد تعبير احد المعاصرين –يوما مشهودا ، أجرى فيه نوافذ أحكامه [2] .

النموالاجتماعى لطبقة المماليك :

وتعد الفترة التى حكم خلالها سليمان باشا من أحسن الفترات التى توالت على العراق العثمانى . وقد أثبت فيها للجميع أهمية طبقة المماليك ومدى ضرورتها فى استتباب الأمن والنظام فى البلاد . فأعاد فتح مدارس المماليك القديمة التى ألغيت فى عهد خلفاء أحمد باشا ، واعتنى بتنظيم شؤونهم ، وأكثر من شراء مماليك جدد فتدفق سيل من الأرقاء البيض ينحدر على بغداد من تفليس . ونمت بين أولئك المجلوبين من الأماكن النائية روح عصبية قوية لم تكن ملحوظة من قبل ،ولدها شعورهم بأقليتهم فى

---

(١) دوحة الوزراء ص ١٠٦ وقد أورد احمد واصف نص فرمان تعيينه (محاسن الآثار ج ١ ص ١٣٧) وذكره ايضا عبد الله الفخرى : تاريخ نشاطى ، الورقة ٥٥ – (مخطوط)

و Baysun, C.: Baghdad(Is. Ans., 2, P. 209.)

(٢) ويقدم المؤرخ الرسمى شمعدانى زاده تفصيلات مهمة بشأن ظروف تولية سليمان باشا ، فيذكر ان المماليك نجحوا فى اثارة فتنة بين الانكشارية وسائر العسكر بحجة تأخر العلوفات (المرتبات) ، مما ادى الى حدوث قتال بين الطرفين ، عزل على أثره الوالى العثمانى المعين حديثا (مرأى التواريخ . الورقة ٢٢٩ . (مخطوط) . ويلاحظ ان هذا الأسلوب فى احراج السلطة المركزية ، هو الذى كان يتبعه الجليليون فى الموصل عند تعيين وال غريب فيها . انظر لانزا ، د ومنيكو : الموصل فى الجيل الثامن عشر حسب مذكرات د ومنيكو لانزا ص ١٧ – ١٨ .

وسط المجموع العراقي الكبير ، فضلا عن تلك الحياة المشتركة التعاونية التي عاشوها في مدارسهم وثكناتهم " فاستحكمت قواعد المصافاة في قلوبهم ، واشتد تعرى عصبيتهم "(١).

وعمل سليمان باشا على جمع أخوانه من المماليك الذين فرقتهم سياسة سابقيه من الولاة ، ومنحهم المناصب والوظائف الادارية والعسكرية ، حتى احتكروا - تقريبا - المراكز العليا في الولاية كافة ، فكان منهم الموظفون العاليون والكتاب وكبار ضباط الجيش(٢) ، مما أدى الى حرمان الأسر التركية والعراقية من نصيبها في تلك الوظائف فكان ذلك انعطافا خطيرا في وضع المؤسسة المملوكية ، وبعد أن لبثت طوال نصف قرن تقريبا اداة طيعة بيد حكومة الولاية ، أصبحت الآن تؤلف هذه الحكومة نفسها وبذلك فقد انتقل المماليك - في هذا الطور - من كونهم " فئة " الى وضعهم الجديد باعتبارهم " طبقة " حاكمة فعلا .

وفي هذه الفترة ، تمكن المماليك لأول مرة من النفوذ الى قيادة المؤسسة العسكرية التقليدية (الانكشارية) ، فتولى احدهم منصب رئيس القوات النظامية في بغداد وتولى آخر منصب " ضابط البلدة " (٣) ، وهي مناصب عسكرية هامة كانت يشغلها دوما ضباط انكشاريون عثمانيون . وتوزعت قيادات المماليك في مدن الولاية الأخرى ، كالبصرة

---

(١) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٢٥ وعبد العزيز نوار : داود باشا والي بغداد ص ٢٥ .

(٢) احمد جودت : تاريخ جودت ج ١ ص ٢٧ .
Longrigg, S.: Op.Cit., P. 166. و

(٣) سليمان فائق : مرآة الزوراء في أخبار الوزراء ص ٧٩ .

والحلة والحسكة وكركوك ، فكان ضبطهم العسكرى الشديد ، وخبرتهم بفنون الحرب ودرايتهم بالأوضاع المحلية ، مثارا لاعجاب فئات واسعة من سكان المدن ، وهم الذين طالما عانوا — من قبل — من ضعف الادارة ، وانعدام السيطرة على الطرق التجارية .

وكشفت وفاة سليمان باشا سنة ١٧٦١م/١١٧٥هـ عن قوة العصبية المملوكية واستقطابها لرغبات عدد كبير من رجال الطبقة صاحبة النفوذ ببغداد [1] ، كما أنها كشفت ، فى الوقت نفسه ، عن طموح قادة المماليك الكبار فى الاستئثار بالحكم ، وبداية تنافسهم على تولى السلطة .

وقد بدأت بوادر الصراع تظهر على قيادة المماليك ، المؤلفه من الكتخدا وات [2] السبعة ، المرشحين بحكم مناصبهم لتولى الحكم ، حال وفاة سليمان باشا ، فكان " كل واحد من هؤلاء يتمنى من قلبه أن يكون هو الخلف لسليمان باشا " [3] . وكان لتدخل علماء الدين من أهل البلد دور أساسى فى الحفاظ على وحدة القيادة المملوكية فنصحوا المتنافسين بالتريث ، وأرسلوا محضرا الى الباب العالى فيه أسماء المرشحين السبعة طالبين تعيين أحدهم [4] .

---

(١) دوحة الوزراء ص ١٣٢ و Huart, C.: Op. Cit., P. 152
و Longrigg, S.: Op. Cit., P. 173.
والعزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣٢ .
(٢) جمع : كتخدا ، وهو نائب الوالى ومساعده ."
(٣) دوحة الوزراء ص ١٣٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢ ، واحمد واصف : محاسن الآثار ج ١ ص ١٣٦ و ١٥١ .

ولما لم يعد ممكنا في الدوائر العثمانية المركزية تجاهل نحو طبقة المماليك ودورهـا في حكم العراق ، وكانت محاولات فرض ولاة من غير هذه الطبقة قد سبق لها أن فشلت بعد وفاة احمد باشا ، فقد اضطر الباب العالي الى القاء أمره الى والي الرقة الـذي كلف اولا بتولي حكومة بغداد (١) ، واسناد هذه الحكومة الى علي باشا ، زوج عادلـة خانم بنت احمد باشا الكبرى ، ومتسلم البصرة ، وضابط الحسكة فكان توليه لمنصبه فـي سنة ١٧٦٢ م/١١٧٦ هـ (٢) .

ورغم الاستقبال الحافل الذي استقبله به البغداديون واليا عليهم (٣) ، فان قيـادة المماليك السابقة لم تكن راضية عن ماحدث ، وثارت شكوك حول أصله اذ تبين انه لـم يكن مملوكا . وانما كان قد ولد في ايران من أبوين مسلمين (٤) . وسرعان ما فسـر مناوئوه ذلك بأنه كان يميل الى الشيعة ، أو أنه كان شيعيا فعلا (٥) . وزادت متاعبـه بتحرشا الانكشارية في بغداد (٦) ، في الوقت الذي وحد فيه الكتخدا وات الستة قواهـم

---

(١) يذكر الكركوكلي ان هذا الأمر بقي مجالا للمداولة " الى ان ورد التماس أهـل العراق " (دوحة الوزراء ص ١٣٣) .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٥ ومحاسن الاثار ص ١٥١ وغاية المرام ص ١٨٤ . ومجهول : روضه الاخبار في ذكر أفراد الأخيار . الورقة ١٦٧ (مخطوط) .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٣٣ ومجموعة شعرية في مكتبة البغدادي في النجف (مخطوط) . و Heude, A.: A Voyage up the Persian Gulf, P.154
(٤) Niebuhr, K.: Op. Cit., 11, P. 261
(٥) Ibid والعمري : الدر المكنون ص ٦٠٩ (مخطوط) . و Huart, C.: Op. Cit., P. 155
(٦) دوحة الوزراء ص ١٣٨ . Longrigg, S.: Op. Cit., P. 172.

ضده . وتمكن عمر باشا ، زعيم المماليك الجديد ، من استمالة الرأى العام عليه ، واخيرا القضاء على خصمه فى أواسط ١٧٦٣م/١١٧٧هـ(١) .

واضطر الباب العالى ، من جديد ، الى تأييد الزعيم المملوكى ، عمر باشا مظهـــرا اقتناعه بأسباب واهية واعتذارات بعث بها عمر نفسه ، وبعث بمثلها أعيان بغـــداد ووجهائها (٢) .

ويقول جودت : ان انتصار المماليك فى تعيين عمر باشا ، وشعورهم بقوتهـــم ، جعلهم يعملون على تقليد سياسة المماليك فى مصر ، فقد اجتهدوا فى السيطرة علـــى الجهاز الادارى والعسكرى لباشوية بغداد ، وفى تقوية أواصر الترابط فيما بينهـــم بمصاهرة ذوى الشكية منهم ، وترقية الاصهار الى منصب الكتخدائية ، وهو المنصـــب الممهد للحصول على منصب الباشوية(٣)

وتمكن المماليك ، ابان هذه العهد ، من التغلغل فى شتى مرافق الولاية ، فجعلوا أحد رجالهم " دفتردارا " ، وهو أهم منصب مالى فى الحكومة ، ومعنى ذلك أنهـــم

---

(١) دوحة الوزراء ص ١٥٢ وتاريخ أحمد واصف ص ١٥١ والعمرى : غاية المرام ص١٨٦ وروضة الأخبار ، الورقة ١٦٨ (مخطوط) .

(٢) دوحة الوزراء ص ١٣٩ والعزاوى : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣٧ .

(٣) عبد العزيز نوار : وداود باشا ص٣٠ ويأتى " الكتخدا " أو " الكهية " فـــى الدرجة الثانية من سلم المناصب المملوكية ببغداد ، وهو نائب الوالى ومعاونه الأول وأهم شخصية سياسية وادارية بعده ، وكثيرا ماكان يتولى قيادة الجيش ، ويسنـــد اليه ادارة المدن الاخرى فى الولاية ، وأهمها مدينة البصرة .

اختاروا أنفسهم ليراقبوا أنفسهم [1] ، واستأثر قادة المماليك بالمناصب العليا والوسطى في حكومة بغداد وتوابعها حتى البصرة ، بينما شغل سائر المماليك وظائف الحرس الخاص بالباشا ، وضباط السراى ، وآمرى القلاع والحصون ، وغير ذلك [2] .

وبوفاة عمر باشا سنة ١٧٧٥م/١١٨٩هـ ، لم يبق من أسرة حسن باشا أحد يمكن أن يلي الحكم ، وكان لابد للمماليك من زعيم جديد يستطيع أن يوحد صفوفهم ويقف في وجه محاولات الدولة العثمانية الرامية في تعيين ولاة أغراب على الولاية ، وجاء تعيين حسن باشا ، وهو مملوك معتق كان يلي حكم ماردين التابعة لولاية بغداد سنة ١٧٧٨م/١١٩٤هـ [2] ، نوعا من الحلول الوسط ، أريد به أبعاد مرشحي مماليك بغداد عن الحكم من جهة ، وعدم التمادي في سياسة اثارة اولئك المماليك ، خاصة بعد أن فشلت محاولات الدولة في القضاء على مؤسستهم فشلا ذريعا .

ولم يبق حسن باشا بمنصبه الا قليلا ، اذ سرعان ما ثارت عليه فرق الانكشارية وأعلنت عن عدم رغبتها صراحة في حكمه ، فاضطر الى ترك البلدة نهائيا [3] ، وفي عام ١٧٨٠م/١١٩٤هـ تولى زعيم المماليك الجديد سليمان باشا المعروف بالكبير ولاية

---

(١) يمثل الدفتردار رقابة الدولة المركزية على مالية الحكومة المحلية ، وبيده حق منح براءات تمليك الاقطاعات ، وتوقيع عقود المزارعة ، وكل مايتعلق بأمور الأراضي .

(٢) دوحة الوزراء ص ١٦٣ وعبد السلام الماردينى : تاريخ ماردين ، الورقة ١٤٤ (مخطوط) .

والسويدي : زبدة الآثار الجليةص ١٤٣ ومحمد ثريا : سجل عثماني ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) دوحة الوزراء ص ١٧٠ وياسين العمري غاية المرام ص ١٨٩ والدر المكنون ص ٦٢٨ (مخطوط) ، وقرة العين في تراجم الحسن والحسين ، ورقه ١٧ (مخطوط) . و

Huart, C.: Op. Cit., P. 160.

بغداد والبصرة وشهرزور ، فأضاف تعيينه نصرا جديدا مهما الى طبقة المماليك في العراق ، واستقبل عند مشارف بغداد (وكان قبل تعيينه متسلما للبصرة) أحمل استقبال ، شارك فيه العثمانيون والمماليك على حد سواء ، (١) .

اصلاح المؤسسة المملوكية الحاكمة :

ولقد استطاع سليمان ، منذ تسلمه مقاليد منصبه ، أن يعيد الى الأذهان مجد المماليك في عهد سميه أول ولاتهم . فكان – على حد تعبير سليمان فائق – : " باعثا لها من العدم ، ومجددا فيها ما تهدم عبر الدهر " (٢) . وافتتح عهده بتشتيت قوى الانكشارية المشاغبة ، وذلك باستبدالهم بغيرهم ، ونقلهم الى مدن مختلفة في العراق بحجة المحافظة على الأمن هناك ، ولم يلبث أن اختلق لهم من الأسباب ما يبرر معاقبتهم ، فاعدم بعضهم وشرد البعض الآخر ففروا نحو الشام والحجاز (٣) . وبهذا تم لسليمان التخلص من خطر تلك القوات الخطرة ، التي طالما حاول سابقوه ان يحتووها بتعيين قادة لها من أتباعهم ، فأثبت للملأ مدى قوته وشدة بطشه ، وأظهر – بجلاء – أن طبقة المماليك التي يتزعمها ، لم تعد من الضعف بحيث تحاول استحالة القوى الأخرى لصالحها ، وانما تسعى الى ضربها والتخلص منها ، وبذلك لا يبقى في الميدان سواها .

---

(١) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٣٣ .
و Heude, A.: Op. Cit., P. 147.
(٢) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٣٥ .
(٣) سليمان فائق : مرآة الزوراء في أخبار الوزراء ص ٢٠ .

وكانت الخطوة التالية التي التفت اليها سليمان باشا ، محاولته لاصلاح المؤسسة المملوكية الحاكمة اصلاحا حقيقيا ، وتشذيبهـــا من العناصر الفاسدة والعاجزة . وقد لاحظ أن جهاز الحكم مازال يدار بأيدي جماعة من مماليك سليمان باشا الأول وبقية من أتباع الوزراء (١) . وتبين له صعوبة اقصاء هؤلاء أو حملهم على تعديل خطط حكمهم مرة واحدة ، فعمد الى اضعاف تأثيرهم بأن اشترى مايزيد على ألف مملوك من الكرج وغيرهم ، وسعى سعيا حثيثا في أمر تعليمهم وتدريبهم على أساليب الحكم ، وهيأهم لادارة مناصب الدولة التي تناط بهم . ولما أكمل المماليك الجدد تدريبهم ، قام عندئذ باخراج القدماء والعجزة من الدوائر الرسمية وعينهم بأمكنتهم ، ثم أبعد غير المرغوب فيهم عن بغداد (٢) .

وتجلى وفاء مماليك سليمان باشا لسيدهم ساعة وفاته ، عام ١٨٠٢م/١٢٢٢هـ ، اذ ما أن انتشر خبر الوفاة ، حتى تقدموا ، هم وجمع غفير من الأهالي والانكشارية ، باقتراح الى مبعوث السلطان ، حالت افندي (٣) ، لكي يتعهد بولاية العراق الى ابن الوالي المتوفى سعيد أفندي (باشا فيما بعد) بن سليمان باشا الكبير بالوكالة . غيران دسائس متصرف السليمانية عبد الرحمن باشا البابانى ، ورغبته في ضرب تكتل المماليك

(١) المصدر نفسه ، وانظر Longrigg,S.:Op.Cit., P. 201.

(٢) مرآة الزوراء ص ٢٠ .

(٣) حالت أفندي : من رجال السلطان محمود الثاني ، ترقى في المناصب ، ثم أوفد الى بغداد اكثر من مرة ، وكان يتهم بموالاته للانجليز ، وقتل سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م تاريخ جودت ج ٧ ص ٢٧٤ وج ٨ ص ٢١٧ وج ١١ ص ٥ ، ١٥٢ ، وشاني زاده ج ١ ص ٢٤٩ وسامي : قاموس أعلام ج ٣ ص ١٥ ، ١١٩ .

ببغداد ، مكنته من اقناع رؤساء المماليك وغيرهم بتقديم مرشحه عبد الله آغا ، وهو صهر سليمان باشا الكبير ، لتولى منصب الولاية ، مع ابقاء سعيد افندى مرشحا للوكالة بصفة مؤقتة . ويذكر سليمان فائق أن ضعف المماليك آنذاك وتفرق كلمتهم هى التى أدت بمعظمهم الى الانحياز الى جانب عبد الرحمن باشا (١) .

على أن أهدا ف عبد الرحمن المذكور سرعان ما تكشفت حينما طلب من مبعوث الدولة تعيينه واليا على بغداد لقاء دفعه سنويا مبلغا كبيرا من المال ، فكان من أسباب احجام المسؤولين العثمانيين عن اجابة مثل هذا الطلب خوفهم من اثارة خنق المماليك ، فضلا عن مخاوفهم ميل البابانيين الى جانب ايران ، ان هم تولوا امر بغداد (٢) .

ويبدو أن الفتن التى أعقبت وفاة سليمان باشا الكبير نبهت الوالى المملوك الجديد على باشا ، الى ضرورة تقوية أحكام القبضة المملوكية على مرافق البلاد العسكرية خاصة ، فانتخب عددا من الضباط المتعلمين ورتبهم لتعليم أبناء المماليك وتدريبهم ، واتخذ من هؤلاء ضباطا لجيش المتطوعين المحليين ، فكان لديه ثمانية آلاف جندى من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة والمدفعية . (٣) .

---

(١) مرآة الزوراء ص ٤١ .
(٢) تاريخ جودت ج ٧ ص ١٤١ ـ ١٤٣ .
(٣) مرآة الزوراء ص ٣٣ .

ولم تصدم اجراءات كهذه ملاوثين وناقمين ،فقد أغتيل على باشا فى ظروف غامضة [1] ، وقامت مظاهرة متجهة نحو السراى تطالب بتنصيب نصيف آغا [2] ، وهو أحد مدبـــرى الاغتيال ، وكيلا للوالى ، الا أن تحرك قادة المماليك وأحلافهم من الوجهاء والاعيـــان والعلماء ، قطع الطريق على اولئك المتآمرين ، وبايعوا سليمان باشا المعروف بالصغير وهو صهر الوالى السابق وكتخداه ، واليا على بغداد وتوابعها ، وذلك سنـــة ١٨٠٧م/١٢٢٢هـ [3] .

على أن سليمان الصغير لم يكن كقادة المماليك السابقين يتصف بالحنكة والحكمـــة فقد أدت تصرفاته غير المتسمة بالروية الى تبرم عدد من المماليك وانضمامهم الى سعيد بك (باشا فيما بعد) ابن سيدهم القديم سليمان باشا الكبير ، وحاول هذا التجمع المملوكى تدبير مؤامرة لتنصيب مرشحهم سعيد فى عهد الوالى التالى على باشا ، الا أن فشل المؤامرة أدى الى فرار سعيد الى حليفه القوى حمود الثامر شيخ المنتفق فـــى جنوبى العراق [4] .

والظاهر أن على باشا لم يقدر الدور الذى يمكن أن تلعبه عصبية المماليك فـــى التضامن ضده ، فجهز حملة عسكرية للقضاء على خصمه ، الا أن رؤية جنده من المماليـــك

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٣٩ و Longrigg,S.:Op.Cit.,P.224
والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ١٧٩ .
(٢) وكان يشغل منصب : كتخدا البوابين .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٤٠ وياسين العمرى : غرائب الاثر ص ٧٤ .
(٤) تاريخ المماليك الكوله ص ٤٢
و Baysun,C.:Baghdad (Is. Ans. Vol. 11, P. 209).

ابن سعيد هم القديم غير كفة ميزان القتال ، فقد " عرفوه وتذكروا نعمته عليهم ، ومالوا نحوه والتحقوا به لنصرته ومعاونته " فأدى ذلك الى أسر علي باشا وقتله وتولي سعيد باشا الحكم مكانه سنه ١٨١٣م/١٢٢٨هـ .

وجاء حكم سعيد المذكور مخيبا لآمال المماليك أنفسهم ولسكان الولاية فقد عمد اطاعة لأمه المسيطرة ، الى احداث حركة تنقلات واسعة بين صفوف المماليك . مما نجم عنه عزل بعضهم وتخفيض درجة البعض الآخر[1] ، وبذلك أفسح المجال لزعمائهم بالتجمع حول قائد جديد هو داود باشا ، صهر سليمان الكبير ، الذى بدأ ينظم حملة قوية من مقره فى كركوك لاسقاط سعيد باشا وتولى الولاية مكانه .

واستطاع داود باشا أن يستقطب حوله طبقة المماليك وأحلافها من أعيان المدن العراقية والعشائر العربية . وأن يحمل هؤلاء على ترشيحه واليا لدى السلطات العثمانية فى استانبول . فكان للاجماع المعقود عليه دورا اساسيا فى نزول الباب العالى الى تلك الرغبة . فتم تنصيبه فى منصب الجديد سنه ١٨١٦م/١٢٣٢هـ . ثم تمكن بعد ذلك من القضاء على خصومه جميعا ، وقتل سعيد باشا بطريقة وحشية وهو أمر بقيت ذكراه تؤلم ضمير بعض المماليك حتى عهود متأخرة[2] .

---

(١) رسول حاول الكركوكلى : دوحة الوزراء ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ . وسليمان فائق مرآة الزوراء ص ٥٠ ـ ٥٢ وتاريخ المماليك الكوله مند ص ٤٣ ـ ٤٥ .
و Heude, A.: Op. Cit., PP. 164 - 166.

(٢) دوحة الوزراء ص ٢٧٦ وعثمان بن سند : مطالع السعود (مخطوط) . ومختصره لامين الحلوانى ص ١٢٧ .
و Longrigg, S.H.: Op. Cit., P. 238, Heude, A.: Op. Cit., P. 170

طبقة المماليك في آخر عهدها :

ويعتبر عهد داود باشا من أكثر عهود المماليك في العراق تقدما ، وازدهارا ، فقد استطاع هذا الوالي البارع أن يضم قوى البغداديين الى جانب قوى مماليكه ، وأن يوحدها في اثناء الأزمات ، ويظهر بمظهر الزعيم القوي للمماليك والأهالي على حد سواء . ولقد عمد بجد الى زيادة عدد المماليك وتنظيمهم وتدريبهم على نمط حديث يتفق مع طموحه السياسي في تشكيل كيان عراقي موحد في وسعه الوقوف بوجه الباب العالي نفسه[1] .

ويذكر فائق[2] في قائمته ، ان عدد أغوات الداخل (الايچ آغاسي) من المماليك الفرسان ، يبلغ في عهد داود ١٢٠٠ فارس ، في حين بلغ عدد الجوقدارية[3] والمهترلية[4] ، وهم من المماليك أيضا حوالي ٣٠٠ شخص . وبلغ عدد أتباعه وحاشيته المتقلديين للأسلحة المختلفه ، " وهم من خيرة المقاتلة الفرسان " ، زهاء ١٧٠٠ مقاتل . هذا فيما عدا سائر الأسلحة الأخرى ، كاللوند[5] ، والقالباقلي[6] ، والتفنكجية[7]

---

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا والي بغداد ص٨٧ ـ ١٥٧ .
(٢) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٨٢ .
(٣) الجوقدار أو الجوخدار (بفتح الخاء) اسم لوظيفة ، مركب من (جوخ) وهو النوع المشهور من القماش ، ودار الفارسية بمعنى صاحب ، محافظ ، فيكون المعنى : الموكل بالجوخ ، وقد يطلق الاسم على الموظف المكلف باداء المهام الطارئة (داود الجلبي كلمات فارسية في عامية الموصل ٦٤) .
(٤) المهتر : هو الموسيقي باصطلاحات ماقبل التنظيمات العثمانية .
(٥) اللوند : جيش شبه نظامي ، كان يتألف في العراق من الأكراد غالبا .
(٦) القالباقلي : فوج من الجنود النظاميين المحليين الذين يرتدون (القالباق) في رؤوسهم . والقالباق : لباس الرأس الخاص بالانكشارية .
(٧) التفنكجي : نسبة تركية الى (تفنكجه) اي بندقية ، وهم حملة البنادق .

والمدفعية ، وقوات قليل العشائرية المحلية ، فيصير الجمع زهاء
(١٢٠٠٠) جندي وفارس .

ويعطي المنشي البغدادي في قائمته المؤرخة سنة ١٨٢٠ أرقاما مختلفة عن قوات المماليك ، فهو يذكر ان عدد الخيالة من أرباب المناصب من غلمان الوالي (أي مماليكه) كان في حدود ٢٠٠٠ فارس . ويبلغ مماليك الكتخدا ٥٠٠ فارس وأغوات بغداد ٢٠٠ فارس ، هذا عدا القوات المحلية الأخرى[1] ، فيبلغ عدد المماليك وحدهم زهاء ٢٧٠٠ جندي ، أغلبهم من الفرسان . ويذكر بورتر سنة ١٨١٨ ان هناك في سراي الباشا قوة منظمة من المماليك لا يستخدمها الوالي الا نادرا ، وهي تلازمه وتتبعه دائما[2] .

وبلغ من نفوذ داود وثقته بمؤسسته المملوكية الحاكمة والعسكرية أنه بدأ بالتخطيط الجاد لاقامة دولة عراقية موحدة الأطراف . ولم يثر خبر توجه علي رضا باشا على رأس جيش عثماني كبير للقضاء عليه ، سوى استهانته[3] . غير أن الكوارث الطبيعية الهائلة التي حدثت في آخر سني حكمه سنة ١٨٣١ ، من طاعون مهلك ، وغرق عام جارف[4]

(١) محمد بن احمد الحسيني : رحلة المنشي البغدادي ص٣٣ ــ ٣٥ .
(٢) Porter,R.K.:Travels in Georgia,Persia,Armenia, Vol. 11, PP. 253 - 254.
(٣) تاريخ لنلفى ج ١ ص ٢٠٤ ومرآة الزوراء ص١١٧ .
(٤) تاريخ المماليك الكوله مند ص٧٠ و Fraser,J.B.Op.Cit.,PP.233-253
و Groves,A.N.:Journal of Residence at Baghdad,P.243

لم تمكنه من تحقيق أحلامه تلك ، فقد قضت الكوارث على معظم جهشه المملوكى العظيم وشتت شمل البقية الباقية منه[1] ، فكانت تلك ضربة قاضية على زعامة المماليك ومستقبلها المأمول فى حكم البلاد .

وتكشف أحداث حصار قاسم العمرى ، مبعوث على رضا باشا ، ودخوله بغداد عن تماسك المماليك فى الدفاع عن مدينتهم . فقد تنوسيت الأحقاد القديمة ، والتف الجميع حول احد الزعماء السابقين ، هو صالح بك ابن والى بغداد الأسبق سليمان باشا الكبير[2] .

وعند ما بدأت بعض عناصر المجتمع البغدادى بالميل الى اسقاط داود تنفيذا لأمر السلطان ، صمدت طبقة المماليك على الصمود ، مجتمعة ، فى وجه كل المحاولات الرامية الى اسقاطها . ورغم وجود بعض الفئات المنشقة من المماليك أنفسهم ، الا أن قيادة المماليك أستطاعت أن توحد صفوف طبقتها على نحو فريد ، كما استطاعت أيضا أن تضم اليها جانبا كبيرا من الطبقات الأخرى . فكان منهم نقيب الأشراف[3] . وجمهرة كبيرة من سكان حى " الشيخ عبد القادر الكيلانى " . وكان منهم قاضى بغداد نفسه

---

(١) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, II, P. 245
و Longrigg, S.H.: Op. Cit., P. 249
و Coke, R.: Baghdad, The City of Peace, P. 250

(٢) مرآة الزوراء ص ٨٩ .

(٣) وكان يومذاك : محمود أفندى الكيلانى وكان قد تولى النقابة سنة ١٨١٥م/١٢٣٠ وعزل عنها سنة ١٨١٩م/١٢٣٤هـ ، وأعيد اليها أثناء حصار بغداد سنة ١٨٣٠م/ ١٢٤٦هـ ليبقى فيها الى سنة ١٨٤٢م/١٢٥٨هـ (ابراهيم الدروبى : مجموعة خطية).

وعدد غفير من الطبقات الدنيا فى المجتمع البغدادى ، بلغ من حماسها أنها فتحت أبواب المدينة " وخرجوا يقتحمون المدافع ولا يبالون " (١) .

على أن اليأس ، والضيق الاقتصادى ، وفقدان الأمل بالمستقبل ، أدوا الى تصدع الجبهة الداخلية تدريجيا ، فتزعم أحمد أفندى خطيب جامع أبى حنيفة ، وأحد وجوه بغداد ، حركة التمرد ، والتف حوله عدد من الأهالى ، كما غير معظم المماليك ولاءهم وانضموا الى على رضا باشا ، ظانين أنه سوف يعيد مجد المماليك الى سابقه (٢) فأدى ذلك كله الى استسلام داود الى الوالى الجديد سنة ١٨٣٢م/١٢٤٧هـ . وبذا انتهت زعامة المماليك السياسية فى العراق تماما (٣)

نهاية السلطة المملوكية :

ورغم الاكرام والتقدير غير المتوقع الذى ناله داود من على رضا ، فان الأخير شعر بمدى الخطر الذى يمكن أن تسببه طبقة المماليك صاحبة النفوذ فى بغداد ، خاصة وأنه رأى بنفسه بسالتها فى المقاومة ، وتأييد طبقات واسعة من البغداديين لقيادتها فلم يجد بدا من التخلص من هذه القيادة نهائيا . وكانت مذبحة محمد على باشا الشهيرة

---

(١) مرآة الزوراء ص ٨٤ وتاريخ المماليك الكوله مند ص ٧٦

(٢) Longrig, S.: Op. Cit., P. 272.

(٣) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٨٠ و Groves,A.N.:Op.Cit.,P.284.
Huart, C.: Op. Cit., P. 120
وعماد العمرى : بغداد كما وصفها السواح الأجانب ص ٦٤ .

للمماليك فى القاهرة عام ١٨١١م/١٢٢٦هـ ماتزال ماثلة فى الأذهان فوجد على رضا فيها خير أنموذج لوضع نهاية مماليك بغداد . وفى الوقت الذى كان داود يتجه فى طريقه صعدا الى الاستانة ، كان على رضا باشا يدبر مذبحة لأتباعه من المماليك فقد دعاهم اليه فى سراى بغداد لقراءة فرمانات التولية لأرباب المناصب ، واتخذت الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الأمن ، وامتلأت شرفات السراى وسطوحه وأروقته بالجند ، وما أن التئم الحضور ، حتى " سلت السيوف من أغمادها ، وهوت على رؤوس المماليك ، وراحت تحمل عطلها فى أعناقهم "(١) .

أما الذين لم يحضروا فقد أرسلت بعض المفارز للتحرى عنهم ، ونالوا ماكان ينتظرهم من مصير ، فضرب صالح بك بن سليمان باشا ، زعيم المماليك الشهير ، وقتل فى " الميدان " جهارا ، وقتل غيره فى أماكن أخرى(٢) . ونجا بعض الذين كانوا قد

(١) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٨١ .

(٢) مرآة الزوراء ص ١١٤-١١٦ . ويذكر عبد المحسن السهروردى المعاصر للأحداث أن على رضا باشا قتل جل المماليك ، وجعل جثثهم أكداسا ، وأجرى على بسيطة بقعة الميدان دمائهم (نبذة من تاريخ حوادث ولاة بغداد . مجلة المورد البغدادية السنة ١٩٢٩) ، وقد قدر عدد الذين قتلهم على رضا بأكثر من ثلاثين (الوثائق القومية : محفظة ٤ برا بحرا رقم ٨٧ بتاريخ ٢٥ صفر (ديسمبر) ١٢٣٢ من مجهول الى محمد على) ، وهذا التقدير أقل من الواقع بكثير ، حيث يذكر قنصل فرنسا فى البصرة ، فونتانيه ، فى رسالة له عام ١٨٣٦ ان على رضا باشا حينما دخل بغداد " لم يقلد قط أصدقاء وخدام داود باشا أرديه العفو البيضاء : بل قطع رؤوسهم جميعا . وكانوا يعدون مائتين أو ثلثمائة من الجيورجيين الذين نجا منهم اثنان فقط فهربا بجلديهما الى فارس . وقد نجم عن بيع نسائهم وأولادهم مبلغ ضخم جسيم " (بيير دى فوصيل : الحياة فى العراق منذ قرن ص ٩١) .

حضروا الى السراى متأخرين ، واحسوا بما يجرى فيه ، فهربوا واختفوا حيث لايدركهم أحد (١)

بيد أن الظروف المحيطة بنهاية مماليك مصر ، لم تكن كالتى أحاطت بمصرع مماليك بغداد ، ذلك أن الاخيرين كانوا أكثر اندماجا بطبقات السكان صاحبة الشأن فى بغداد وفى المدن الرئيسية الاخرى فى الولاية ، فلم يكن من السهل اذن تصفيتهم جميعا ، والا فان ذلك سيمتد الى أسر مهمة عديدة لها من النفوذ مايمكن أن يشكل خطرا على الوضع الجديد ، وكان معظم المماليك قد تصاهر مع أسر عريقة لها مكانتها فى البلد ، وولد بعض آخر من والدين لم يكن احدهما مملوكا قط . وفى أثناء مذبحة المماليك وما أعقبها من اجراءات ضدهم ، تمكنت فئات عديدة من مماليك بغداد من الافلات من قبضة السلطة الجديدة ، وهو أمر لم يكن ليتحقق لولا الصلات الوثيقة التى نمت بين المماليك وبين عدد كبير من البيوتات البغدادية المتعاطفة معهم .

وقد استطاع بقايا المماليك أن يثيروا صعوبات جمة فى وجه حكم على رضا باشا منذ لحظة تسلمه السلطة فى سنة ١٨٣٤ م/١٢٤٧ هـ فتمكن محمد افندى ، وهو مملوك أصبح (صرفا) (٢) فى عهد داود باشا ، أن يثير روح العداء للحكومة المركزية فى بغداد ، وأن يحرض العشائر والاهلين على التمرد ، ثم تمكن من لم شمل المشردين من المماليك والفارين من بغداد من العثمانيين وتأليف جمعية منهم ضد الحكم القائم فى بغداد (٣) .

---

(١) مرآة الزوراء ص ١١٦ وتاريخ لطفى ج ٣ ص ١٤٢ .
(٢) الصرف : وظيفة مالية فى ديوان الباشا . مرآة الزوراء ص ١٢٦ .
(٣) مرآة الزوراء فى تاريخ الوزراء ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .



ومن ناحية أخرى ، استطاع مماليك آخرون من الاتفاق مع الامير محمد باشا ميركـــور أمير راوندوز ، وكانت خطتهم تقضي بالاستيلاء على بغداد والبصرة وسائر العـــراق[(١)] وتمكن آخرون ، في الوقت نفسه ، من الفرار الى البصرة والالتحاق بمتسلمها عزيز أغـــاه وكان هذا من أتباع داود باشا ، فشكلوا هناك قيادة جديدة حاولت ازاحة على رضـــا باشا عن حكم بغداد بالقوة[(٢)] ، الا أن هذه الحركة فشلت كما فشلت حركات المماليـك الأخرى ، بعد أن كلفت القيادة العثمانية في العراق خسائر كبيرة . وأحرجت موقـــف العثمانيين في حربهم ضد مصر ببلاد الشام (١٨٣٢م/١٢٤٨هـ) الى حد كبير[(٣)] .

تجمعات المماليك السكنية وملكياتهم الاقتصادية :

ثمة صعوبة ظاهرة في دراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لطبقة المماليك فـــي بغداد ، يرجع سببها ـ كما ذكرنا من قبل ـ الى امتزاجهم ، من الناحيتين المشـــار اليهما ، بالطبقة العليا من المجتمع البغدادي . فهم ـ كسائر أهل هذه الطبقـــة ـ كانوا يسكنون الجانب الشرقي من المدينة ، ولكنهم ـ فيما يبدو ـ لم يكونوا يتجمعـــون

---

(١) الوثائق القومية . محفظة ٢٣٥ عابدين . الوثيقة رقم ٨٤ بتاريخ ١٢ محـــرم ١٢٤٨م / ٢ يونيو ١٨٣٢ .
(٢) الوثائق القومية . محفظة ٢٣٥ عابدين . الوثيقة ١٩٨ بتاريخ محرم ١٢٤٨ / مايـو ١٨٣٢ ومجهول : تاريخ امارة كعب العربية ص٢٦ (النجف ١٩٦٨) .
(٣) عماد عبد السلام : ولاية الموصل في العهد العثماني ص١٩٢ـ١٩٧ .

فى حى واحد ، كما هى عادة الولاة والموظفين العثمانيين من قبلهم [١] ، وانما كانت دورهم وقصورهم منتشرة نسبيا فى جملة من أحياء المدينة الرئيسية . وأغلب تلك الأحياء كان فى النصف الأعلى من بغداد ، أى فى المنطقة الممتدة من جسر المدينة العائم ، جنوبا ، حتى اسوارها الشمالية شمالا ومن نهر دجلة غربا الى مناطق تبعد عنه زهاء الكيلومترين شرقا ، وهى المنطقة التى تكثر فيها دوائر الدولة ، وتوجد فيها القلعة والسراى . فكانت دار آل الصرف ، فى محلة الباروديه ، قريبة من السور الشمالى [٢] ، وكانت دار الحاج طالب آغا ، من مماليك سليمان باشا الكبير ، وكتخدا داود باشا فى احدى أزقة محلة السراى ، ولا يبعد عن السراى نفسه الا قليلا [٣] . أما عمر باشا ، والى بغداد ، فكان يقيم فى دار تقع فى محلة " الدنكجية " قريبة من جسر بغداد ، وسرايها معا [٤] .

وسكن بعض قادة المماليك فى أحياء بعيدة نسبيا عن مركز المدينة ، فكانت دار اسماعيل كتخدا عمر باشا ، فى محلة رأس القرية فى آخر القسم المأهول من بغداد جنوبا [٥] . وكانت هذه المحلة تؤيده فى نزاعه مع منافسيه أثناء الأزمات [٦] .

---

(١) كان أغلب الولاة العثمانيين يسكنون فى مبانى السراى ذاتها ، فى حين يسكن الموظفون فى الحى المجاور لها ، يعرف بـ " محلة السراى " . انظر ملاحق الرسالة . خريطة التكوين الطبقى لأحياء بغداد .

(٢) مرآة الزوراء ص١٢٧ وابراهيم الدروبى : البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ١٢٦ .

(٣) وقد عمرت هذه الدار فيما بعد مسجدا ، ومازال قائما ، خلف مبنى محافظة بغداد .

(٤) دوحة الوزراء ص ١٦٢ والدنكجية هى شارع المأمون الحالى المؤدى الى جسر الشهداء .

(٥) البغداديون اخبارهم ومجالسهم ص ٧٢ .

(٦) دوحة الوزراء ص ١٦٠ .

ورغم عدم وجود نصوص تاريخية توضح صفة دور المماليك هذه ، فلاريب أنها كانت من أفخم قصور بغداد وأكثرها سعة وبذخا ، على نحو يتناسب وثراء أصحابها واتساع نفوذهم • وقد لبثت بعض تلك الدور أو بقاياها حتى زمن متأخر ، تشهد على عزها التالد ، ومجدها القديم •

ويظهر لنا من دراسة ثروة المماليك وأوضاعهم الاقتصادية ، ان تحولهم من فئة بيروقراطية تعتمد في معاشها على ما تتقاضاه من خزينة الولاية من رواتب ، الى طبقة مالكة لها مواردها الاقتصادية من ملكياتها الواسعة ، قد جرى في فترة مبكرة من حكمهم ، وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بعد أن ترسخ حكمهم ، وتبوءوا قمة النظام السياسي والاداري والعسكري في الولاية •

ويمكن القول بأن فترة تولي أسرة سليمان باشا الكبير ، الممتدة من ١٧٨٠ الى آخر عهد المماليك سنة ١٨٣١م [1] ، كانت — في الواقع — المرحلة التي تم فيها ظهور المماليك كطبقة مالكة فعلا ، وزاحمت خلالها الطبقات المالكة الأخرى ، وخاصة تلك التي تمثل الملكيات الزراعية الكبيرة مصدر ثروتها الرئيسي •

ويفهم من استقراء الوقفيات العديدة التي وقفتها أسر المماليك على المساجد الكائنة في بغداد ، وعلى ذراريهم ، أن تلك الأسر كانت تتجه في استثمار أموالها في اتجاهين رئيسيين : الأرض ، والتجارة • وكان معظم أصحاب الأموال يوزعون

(١) وتشمل : ١ — سليمان باشا نفسه ٢ — عبد الله باشا صهره ٣ — سعيد باشا ابنه ٤ — داود باشا صهره •

استثماراتهم تلك بنسبة متعادلة تقريبا بين الملكيات الزراعية ، والملكيات العقارية المتعلقة بأعمال تجارية بحته .

وكانت الملكيات الزراعية تشتمل - اضافة الى الأرض نفسها - على " البكرات " أى آلات رفع المياه الى المزارع ، و " الرحى " وهى طواحين الحبوب ، والآبار للسقى والشرب ، وجميعها يؤدى ربحا اضافيا لابأس به . هذا فى حين تشمل الملكيات العقارية كل مايتصل بالتجارة ، كالخانات ، والدكاكين ، والأسواق ، و " المغازات " (أسواق الأقمشة) ، والأسكلات (أسواق الخشب) . وقليلا ما تشمل العقارات السكنية كالدور والفنادق مثلا .

وكانت ثروة بعض الأسر المملوكية طائلة جدا بحسب مقاييس عصرها . وهى تفوق ثروات الأسر المحلية الأخرى ، وأغلبها كان يتألف من ملكيات مختلفة داخل بغداد وخارجها . ويلاحظ أن معظم تلك الملكيات تحول بارادة أصحابها الى أوقاف على بعض المساجد والمدارس فى بغداد ، أو الى أوقاف ذرية يتقاسم ايرادها أبناء الواقف وأحفاده من بعده ، بصفة شرعية مؤبدة .

ففى وقفية مؤرخة سنة ١٧٥٦م / ١١٧٠ هـ نجد أن الواقف ، وهو سليمان بك بن دفتردار بغداد الحاج محمد باشا يذكر أملاكه الموقوفة على قراءة القرآن الكريم ، وتتألف من ٣٠ دكانا ، وأسكله حطب ، ومغازتين (لبيع الأقمشة) (١) .

---

(١) ابراهيم الدروبى : اخبار قضاة بغداد ص ١٨٤ (مخطوط) .

أما أملاك والى بغداد سليمان باشا الكبير ، فكانت تتألف ، كما نصت عليه وقفيــة على مدرسته المؤرخة سنة ١٧٩١م/١٢٠٦هـ ، من ستة خانات ، اثنين منها فـــى كربلاء ، والباقيات فى بغداد ، و٤٨ دكانا فى بغداد ، وداربن توجران خـــارج المدينة ، وبزرخانتين [١] (تحتوى كل منهما على مخازن وخانات وآبار وغرف) وســوق فى كربلاء أيضا [٢] .

وكان لوالى بغداد سعيد باشا ابن سليمان باشا الكبير ، اراض فى الجانب الغربى وقفها على جامع قمرية ، من أقدم جوامع بغداد ، فى الكرخ [٣] .

واستطاع داود باشا والى بغداد وآخر المماليك أن يحوز على ملكيات زراعيــة وتجارية واسعة ، جعلته فى مصاف أكبر أصحاب الاقطاعات الزراعية فى الريف ، وأصحـاب العقارات التجارية فى المدن ، بل أكبرهم على الاطلاق . فكان من أملاكه الزراعيـة أراض فى داخل أسوار بغداد ذاتها ، وأراض زراعية وحقول جنوب المدينة علـــى ضفتى دجلة اليمنى واليسرى ، وفى الدجيل شمالها ، وبساتين غناء فى نواحـــى الخالص فى الشرق من بغداد ، وفى قصبة الأعظمية قرب بغداد ، تبلغ ١٧ بستانـا وتعد من أجود الأراضى وأخصبها ، فضلا عن ارحاء وكرود [٤] يملكها فى قرية قرة تبه ، وفى قصبة الأعظمية .

---

(١) وهى أهواء الحبوب الكبيرة

(٢) وقفية المدرسة السليمانية (مخطوط) .

(٣) الدروبى : البغداديون ص٣٤٣ .

(٤) طواحين الحبوب وروافع الماء .

أما ملكيته العقارية ، فكانت تشمل ما مجموعه ٨٦ دكانا موزعة في أسواق بغـــداد المهمة ، وعدد من الأسواق ، والخانات ،بعضها في مدينة أربيل ، والباقي فـــي بغداد ، اضافة الى خمسة مقاهي تؤجر[1] .

وتسابقت أسر مملوكية بارزة في وقف املاكها الواسعة ، وتحويلها الى أوقاف ذريـــة فكشفت بذلك عن كثرة تلك الأملاك ، وتعددها ،فكان لمنورة خاتون ، زوجة سليمـــان باشا الكبير والي بغداد ، أراض في الحلة وقفتها على عتقاء ولدها صادق بك وعلـــى مماليكه بتاريخ ١٨٢٥م/١٢٤١هـ[2] .

وكان لنابي خاتون بنت عبد الله ، زوجة سليمان باشا الكبير الأخرى ووالدة سعيد باشا ، أراض زراعية واسعة تشتمل على عدة بساتين في منطقة الخالص شرق بغــداد وعلى بساتين ومزارع في طريق الحلة ، و " بكرتين " (لرفع الماء) على نهر المسعـــودي بالجانب الغربي من بغداد ، اضافة الى بعض الدكاكين • وقد وقفت جميع هـــذه الأملاك على مدرستها التي شيدتها ببغداد ، وعلى معتقات ابنها سعيد باشـــا وجواريه وعلى العلماء والصلحاء والفقراء سنة ١٨٢١م/١٢٣٧هـ .[3]

وكان لنازندة خاتون ، زوجة والي بغداد علي باشا (المتوفى سنة ١٨٠٧م/١٢٢٢ أملاك واسعة موزعة في مدينتي الحلة والبصرة ، تشتمل على بساتين وخان للتجـــار

---

(١) وقفية جامع الحيدرخانة ببغداد ، من أوقاف داود باشا (مخطوط) •
(٢) عماد عبد السلام رؤوف : جامع الخاتون في بغداد (جريدة البلد البغداديـــة ١٩٦٧/١/١٧) •
(٣) وقفية مدرسة نابي خاتون ببغداد (مخطوط) •

وعدد من المتاجر . وقد وقفتها جميعا على مدرستها ببغداد وعلى مماليكها بموجب الوقفية المؤرخة سنة ١٨٤٦ م/١٢٦٣ هـ[1].

ثانيا : الأسر الحاكمة

لقد كان ظهور الأسر الحاكمة في المدن العراقية من أهم سمات عهد المماليك وابرزها ، ففيما عدا بغداد والبصرة وشهرزور[2] ، وهي الولايات العثمانية الثلاث التي اندمجت في حكومة حسن باشا وابنه احمد باشا في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ومارس فيها المماليك فيما بعد سلطتهم السياسية والادارية كاملة بصفة مباشرة ، كانت المدن العراقية الأخرى تتمتع بحكومات ذاتية محلية ، تتفاوت في درجة ارتباطها او استقلالها عن سلطة المماليك في بغداد . ومن الواضح أن هذه الأسر كانت تؤلف قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي في كل ولاية أو مدينة ، فضلا عن دورها السياسي فيها.

وعلى الرغم من أن ظهور كل أسرة على مسرح السياسة كان مرتباط بعوامل متعددة خاصة بها ، الا أن هناك أكثر من صفة مشتركة تجمع بينها وتجعلها تظهر كطبقة واحدة ذات خصائص متميزة ، تتمثل في استئثارها بالسلطة السياسية من جهة

---

(١) وقفية مدرسة نازنده خاتون ببغداد (مخطوط).

(٢) وبالاضافة الى هذه الولايات ، كان المماليك يسيطرون سيطرة تامة على منطقة ماردين فيما وراء ولاية الموصل ، وكان حكامها يعينون بارادة ولاة بغداد الا أن أمور البلد الداخلية كانت بيد فئات من المسلحين شبه الرسميين.
انظر : عبد السلام الماردينى : تاريخ ماردين . ورقة ١٤٧ .

وارتكازها على قاعدة اقتصادية تكون الملكية الزراعية الكبيرة نصيب أساسي فيها . وبهذا كانت هذه الأسر حاكمة ومالكة في الوقت نفسه ، وهي تختلف عن طبقة المماليك في بغداد وتوابعها اختلافات رئيسية ، يمكن اجمالها في الأمرين الاتيين :

أ — ان طبقة المماليك غريبة في أصلها عن البلاد ، بخلاف أبناء تلك الأسر فهي تمثل أرستقراطية المدن المحلية ، ولأغلبها تراث عريق في تاريخ المدن والأقاليم التي حكمتها .

ب — ان تبوء تلك الأسر مكانها في الحكم ، كان نتيجة للأهمية الاجتماعية والاقتصادية التي اكتسبتها خلال الفترة السابقة لتاريخ توليها السلطة ، بخلاف المماليك الذين تمكنوا من النفوذ الى الطبقة العليا في المجتمع وحصلوا على أهميتهم الاجتماعية وملكياتهم الاقتصادية نتيجة لصعودهم الى السلطة واستئثارهم بالحكم . ولم يكونوا ، قبل تاريخ توليهم الحكم ، طبقة أو جزءا من أية طبقة مالكة .

ويمكننا ان نختار من هذه الأسر ، خمسا تتمثل فيها أهم خصائص الطبقة الاجتماعية التي ينتمون اليها ، وهي :

أ — الجليليون في الموصل :

يرتقي تاريخ هذه الاسرة في الموصل ، شمالي العراق ، الى القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) حين نزح مؤسس الاسرة ، وهو تاجر كبير من أهل ديار بكر

الى الموصل ليتولى أعماله التجارية هناك (١) ، وكانت هذه الاعمال قد اتسع نطاقهـــا نتيجة لدمج العراق بمنطقة الجزيرة والاناضول بعد فتح السلطان مراد الرابع بغداد فى منتصف القرن المذكور (٢) .

ولقد عزز الجليليون ثروتهم النامية برصيد ضخم من الشعبية لدى سكان المدينـــة وخاصة طبقة التجار الفعالة ، وطبقات الفقراء . ولاشك أن لانتماء الأسرة الاقتصـــادى أثر كبير فى كسب ولاء التجار ومن يتعلق بهم ، وهم من أهم الطبقات الاجتماعية وأكثرهـا تأثيرا على الأوضاع الاقتصادية فى الولاية .

ويقول المؤرخ أمين العمرى الموصلى : " كان لهم عناية بالفقراء وأرباب الصنائـــع يدافعون عنهم ويحامون ، ويسعون لهم بالصالح وازالة المظالم وتبديل الهدم " (٣) .

وفى الوقت الذى كانت فيه الأسرة الجليلية تستميل اليها طبقة التجار النشطـــة وتثير أمل الفقراء ، كانت السلطة السياسية فى الولاية قد غدت مجال نزاع عنيف بيـــن الوالى العثمانى ، وبين الطبقة الارستقراطية المحلية ، التى تقف على قمتها أســـرة العمرى الموصلية ، حتى آل الأمر الى أن يكون نزاعا سلحا ضاريا يضر باقتصاديـــات الولاية وأمنها . ولقد أدى تكرر وقوع الصادمات بين القوتين الرئيسيتين فى الولايـــة

---

(١) على أميرى : تذكرة شعراء آمد ج ١ ص ٢٥٨ وبطرس نصرى الكلدانى : ذخيـرة الاذهان ج ٢ ص ٣١٧ وسليمان الصائغ : تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٧٣ .
و Lorgrigg, J.: Four Centuries..., P. 158.
(٢) يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما وحديثا ص ٧٣ .
(٣) أمين العمرى : منهل الأولياء ج ١ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

الى جعل المسرح السياسى مهيئا لظهور قوة ثالثة تستند الى طبقة نشيطه ، هى اكثر الطبقات تضررا من فوضى الصراع الناشب ، ومن هنا برز آل الجليلى كأسرة تجاريـة ذات نفوذ واسع (١) .

ولقد ساعد على زيادة نفوذ هذه الأسرة أمران مهمان ، أولهما اشتراكهم فى عمليات مالية كبيرة ، كضمان رسوم الاحتساب المعروفة فى العراق بـ " التمغا " وهو ضمان سنوى يعطى بالالتزام لأحد أصحاب النفوذ ، والغرض منه جمع الضرائب من المرافـــق الإقتصادية فى البلد (٢) . وثانيهما استفادتهم من نظام السباهية العثمانى (٣) فحازوا على حق التصرف فى قرية قره قوش الغنية ، مما أهلهم للارتقاء فى سلم المناصـب العثمانى (٤) .

وفى عام ١٧٢٦م/١١٣٩ هـ اختارت الدولة العثمانية اسماعيل الجليلى واليـــا على الموصل ، وبذلك بدأ عهد الولاة الجليليين الذى استمر اكثر من قرن كامـــل ونجحوا خلاله ، فى دحر كل محاولة استهدفت انتزاع السلطة من أيديهم ومنحها لولاة أغراب ، وحتى فى السنين القليلة المتقطعة التى تولى فيها ولاة غيرهم ، كانوا هـــم اصحاب السلطة الحقيقية دونما منازع (٥) .

---

(١) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل فى العهد العثمانى ص ٤٩ ــ ٥٠ .
(٢) ياسين العمرى : الدرر المكنون ص ٥٨٠ (مخطوط) وعباس العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية ص ٥٠ ــ ٥١ .
(٣) هو نظام الفرسان الاقطاعيين .
(٤) وقفية قرية قره قوش (مخطوط) .
(٥) عماد عبد السلام : الموصل فى العهد العثمانى ص ٥٩ ــ ٦١ .

ولقد استطاع الجليليون وقد بلغ عددهم فى منتصف القرن الثانى عشر خمسة عشر بيتا [١] ـ أن يتحولوا الى الملكيات الزراعية الكبيرة ، فكانت لهم قرى عديدة وضياع مثل قرية كرمليس ، وقرية شاقولى [٢] . وكنتيجة لتدهور نظام السباهية الاقطاعى وفقدانه الضبط العسكرى ، استطاعت القوى المحلية ـ وعلى رأسها الأسرة الجليلية ـ النفوذ الى داخل النظام وامتلاك وحدات التيمار الاقطاعية [٣] ، وغدا أغلب افراد آل الجليلى فرسانا يزيد دخل أحدهم على المائة الف آقجة [٤] .

وكان لنشاط الحركة التجارية فى الموصل ، وتحول الانتاج الريفى من طابعه البسيط الى نمط جديد من الانتاج المركب هدفه التصديع والتجارة ، وهى السمة الظاهرة على التطور الاقتصادى العراقى فى القرن التاسع عشر ، دورا رئيسيا فى خلق ظروف جديدة ساعدت على انهاء حكم الجليليين عام ١٨٣٤م/ ١٢٤٩هـ . وتفسير ذلك أن اتجاه أرباب الحرف والمعامل الى زيادة دخولهم عن طريق الخروج من نطاق العمل المنزلى الى العمل الجماعى ، والاتجاه نحو " مكننة " الانتاج ، قد أدى الى خلق فئات جديدة من العامة ذات مستوى معيشى منخفض ، ولا تجد لها مكانا داخل تنظيمات الأصناف التقليدية ، فساعد ذلك الوضع الجديد بعض الأسر الموصلية القوية على

---

(١) مذكرات دومنيكو لانزا ص ٤٩ .
(٢) ياسين العمرى : زبدة الآثار الجلية ص ١٥١ .
(٣) التيمار : اسم يطلق على الوحدة الصغرى لدرجات الاقطاع العسكرى العثمانى وقد يطلق على النظام الاقطاعى العثمانى نفسه .
(٤) تاريخ جودت ج ١ ص ٩٨ـ٩٩ والاقجة : نقد عثمانى فضى ، عرف فى الموصل باسم الدرهم العثمانى .



الاستفادة من غدمو تلك النشاطات للوصول الى أهداف سياسية بحتة ، تتركز فى ازاحة الجليليين من الحكم ، فكان ذلك سببا قويا فى خلق معارضة فعالة ضد الحكم الجليلي داخل الموصل ذاتها [1] .

ب — البابانيون فى قلعة جولان والسليمانية :

نشأت امارة بابان فى أوائل القرن السادس عشر (العاشر الهجرية) فى المنطقة المجاورة لبحيرة أورمية ، وضمت اليها — خلال حكم أواخر أمرائها — ولاية لارجان وشياكرد السورانية [2] ، واستفادت من ظروف النزاع الايراني العثماني آنذاك ، فضمت اليها أجزاء من الامارات المجاورة ، ومنها كركوك التابعة لبغداد . ثم ضمت موقتا كل من " كفرى " و " مركه " التابعتين أيضا لحكومة بغداد المركزية [3] .

(١) فصلنا هذا التطور فى كتابنا " الموصل فى العهد العثماني " الفصل الخامس من الباب الأول " نهاية حكم آل الجليلي " ص ١٨٢ — ١٨٧ .

(٢) تعتبر امارة السوران ، أو الصوران ، من الامارات الكردية التى نشأت فى أعالي العراق فى القرن الثاني عشر للميلاد ، وكانت عاصمتها مدينة راوندوز الحصينة . وفى عهد السلطان سليمان القانوني ألحقت الامارة بولاية أربيل (شهرزور) ثم مالبث أن أعلن الصورانيون استقلالهم عنها ، وأخذت الامارة فى التوسع والانكماش حتى تولى الحكم فيها الأمير " ميركور " الذى حقق انتصارات سريعة على البابانيين والباشوات العثمانيين ، الا أن العثمانيين تمكنوا من القضاء عليه وانهاء حكمه فى أواسط القرن التاسع عشر . .
انظر : حسين حزنى المكرياني : موجز تاريخ أمراء سوران ص ٥٦ وأمين زكى تاريخ الدول والامارات الكردية ص ٤٠٠ وعبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ١٠١ — ١١٠ .

(٣) شرفخان البدليسى : شرفنامه ص ٢٧٧ .

وعلى الرغم من النظم الادارية المتقنة التي أوجدها أمراء الأسرة البابانية (والتي تشبه الى حد بعيد نظم العثمانيين) فان قبضتهم سرعان ماتراخت ، فحكم البلاد من بعدهم أمراء من أتباعهم وقوادهم . وعندما ضم العراق للدولة العثمانية عام ١٥٣٤م/٩٤١هـ ، أعلن حكام الامارة انضواءهم رسميا تحت سيطرة الباب العالي[١] وصاروا يدفعون الضرائب السنوية لخزانة ولاية شهرزور ، وعدت " أراضي ولاية البابان داخلة في الأملاك الخاصة الهمايونية "[٢] .

ولقد استمرت هذه الامارة في الوجود حتى أوائل القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) . وفي أواخر القرن المذكور ظهرت امارة بابان الثانية[٣] ، وليست ثمة نصوص تكشف عن حقيقة الصلة بين الامارتين . وأغلب الظن أن سلالة البابانيين الثانية انحدرت من بعض قواد أو اتباع البيت الباباني الأول ، ممن كانوا يقيمون في قرية (داره شمانه) في (بيشدر) مركز البابانيين القديم[٤] .

وتنتمي أسرة البابانيين الثانية الى جد لها هو (احمد الفقيه) كان يقيم مع أخ له في بيشدر ، وتروي المأثورات المحلية أن هذا الفقيه غادر بلدته مضطرا بسبب مضايقة قبيلة البلباس[٥] الكردية التي كان لها نفوذ كبير في بيشدر ، ثم التحق بالجيش

---

(١) شرفنامه ص ٢٨١ .
(٢) شرفنامة ص ٢٨٢ .
(٣) تاريخ جودت ج ١ ص ٩٢ ومرآة الزوراء ص ١٣٥
(٤) Rich,C.J.:Narrative of Residence in Kurdistan, Vol. 1, PP. 291 - 294.
(٥) البلباس : من القبائل الكردية القوية التي نزحها البابانيون عن مواطنها في شمالي العراق . انظر الفصل الثاني .

العثمانى ، حيث نال لقب (بك ومنح هو ملكية قريته ملكا أبديا (١) . وبهذا تحولت الأسرة من النظام العشائرى الى نظام اقطاعى مستقر ، وهو التحول الذى تميزت به أغلب الحكومات التى قامت فى المنطقة الكردية من شمالى العراق .

ولقد كان عهد بابا سليمان بن أحمد الفقيه ، عهد ترسيخ وتوسع للامارة الصغيرة فاستولى على شهر بازار والأقضية المجاورة وقلعة جوالان وماحواليها سنة ١٦٦٩م/١٠٨٠هـ (٢) واتخذ البابانيون الأخيرة عاصمة لامارتهم ، حتى انشائهم السليمانية سنة ١٧٨٤م/١١٦١هـ .

ونظرا لخدمات الأسرة للعثمانيين فى عمليات حسن باشا واحمد باشا العسكرية فى ايران ، فقد أسند حكم تلك المنطقة الى أحد أبناء سليمان بك مع منحه لقب باشا وبذلك أصبحت بابان " باشوية " ذات حكم محلى مستقر .

جـ ـ العباسيون فى بهدينان :

ينتسب البيت الحاكم لامارة بهدينان فى شمالى العراق الى أصغر أبناء الخليفة العباسى الأخير المستعصم بالله ، وتشترك معهم فى هذا النسب مجموعة من الأسر الحاكمة المجاورة لها ، كأسرة شمدينان فى حكارى ، وغيرها (٣) .

---

(١) تاريخ جودت ج ١ ص ٣٨٣ (ترجمة عبد القادر الدنا) وسليمان فائق : مرآة الزوراء ص ١٣٥ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) لقد وردت تفاصيل هذا النسب وتفرعاته فى الوثيقة المعروفة بمخطوطة زيحو كان ، وهى وثيقة قديمة جددت آخر مرة سنة ١٧٩٥م/١٢١٠هـ ، وتوجد اليوم لدى =

ويتضح من تتبع تطور الامارة السياسي ، انها نشأت أولا في أعالي حوض الزاب الاعلى على تخوم امارة شمدينان ، ثم امتدت غربا ، فاستولت على قلعة العمارية الحصينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام ، واتخذتها عاصمة لها (١) .

ويمكن تفسير صعود هذه الاسرة ، وهي غريبة عن أهل البلاد جنسا وثقافة ولسانا ، واستقرارها في مركز الحكم لمدة قرون ، نظرا الى طبيعة المجتمعات الكردية العشائرية x في المناطق الشمالية من العراق ، ذلك أن هذه المجتمعات تعيش ، منذ ضمور السلطة الادارية المركزية في المدن العراقية بعد نهاية العصر العباسي ، حياة قبلية محضة بعيدة كل البعد عن أي تنظيم حضري تعترف به وتلتزم بقيمه (٢) . ولما لم تكن ثمة قبيلة كردية قد استطاعت أن توحد تلك القبائل المتنقلة في اطار حكم واحد ، لأسباب

= أحفاد الاسرة في قرية زيوه كان من أعمال العمادية ، وقام الاستاذ محفوظ العباسي بنشرها في كتابه " امارة بهدينان العباسية " (الموصل ١٩٦٨) .

(١) البدليسي : الشرفنامه ص ١٠٢ . وفيه أن أجدادهم كانوا قائمين ــ قبل نزوحهم الى العمادية ــ بأعباء قلعة (طارون) من أعمال شمدينان ولقد اعتبرت بهدينان في القرنين السادس عشر والسابع عشر وحدة سياسية قائمة بذاتها ، لا ترتبط الا مع الباب العالي ، الا انها تأثرت منذ الربع الاول من القرن الثاني عشر بسياسة توحيد العراق ، فخضعت الى نفوذ بغداد السياسي منذ عهد احمد باشا (١٧٢٣ ــ ١٧٣٤) انظر : ياسين العمري : غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام ص ٩٣ ودوحة الوزراء ص ٦٣ وأنور المائي : الاكراد في بهدينان ص ٥٣ ــ ٥٤ والعزاوي : عشائر العراق ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) شاكر خصباك : الاكراد دراسة جغرافية اثنوغرافية ص ٢٥٠ . وعباس العزاوي عشائر العراق ج ٢ ص ٤٠ .

Hay, W.: Two years in Kurdistan..., P. 120 x

يعود أغلبها الى تكافوء تلك القبائل وعدم وجود ما يفضل بعضها على بعض ، فان مجيء أسرة دينية ذات تواشحاثل الى حكم البلاد كان من شأنه أن يخضع جميع القبائل الى قيادتها ، ويجعل لها مركزا سياسيا يعلو على الزعامات القبلية المتنافرة[1]

ومن هنا كان على الأسرة العباسية أن توفق بين صفتها كأسرة ارستقراطية حاكمة ذات طابع حضري ، وبين واقعها كزعامة مختارة لمجموعة من القبائل المتنقلة غير المستقرة. وعلى هذا كانت جميع نظم الامارة تمثل توفيقا بين هاتين الصفتين المختلفتين ، فالأمير (الباشا) بوصفه حاكما أعلى لمدن امارته كان عليه أن يعين على كل من تلك المدن امراء من أسرته المالكة ، فكان على زاخو ودهوك ونيروه والزيبار وبقية القلاع امراء عباسيون من البيت الحاكم نفسه[2] .

وفي الوقت الذي كان القضاء يتولون تطبيق الشرع في المدن ، كان على الأمير النظر في الدعاوى العشائرية بنفسه ، أو بواسطة واحد من أهل بيته وكان هذا هو مظهر سيادته العشائرية[3] .

---

(١) وكان أحد زعماء العشائر الكردية قد ذكر (ملك عز الدين) من امراء العباسيين في حكاري بفضل قومه عليه (على الامير) ، لانهم نصبوه على كرسي الملك ، بعدان كان حافيا عاريا ، فذكر الامير العباسي مخاطبه بانه انما يجلس على الكرسي بفضل عدله (المخطوطة الزيبوكية) أي بفضل سياسته المتوازنة بين القبائل التي يحكمها .

(٢) محفوظ عمر العباسي : امارة بهدينان العباسية ص ٢٣٥ وأنور المائي : الاكراد في بهدينان ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٣) امارة بهدينان ص ٢٢٦ .

Rich, C. J.: Op. Cit., P. 181 و

ولقد مارست الأسرة البابانية حكمها باعتبارها أسرة اقطاعية مالكة ، ورغم غموض أوضاع الملكية الزراعية في الامارة ، فاننا نعلم أن اقطاعات واسعة ، منها قرى زراعية برمتها [1] ، كانت ملكا لافراد من البيت المالك البابانى ، وما أن أغلب فلاحى الاقطاعات الزراعية كانوا من أبناء العشائر الكردية ذاتها ، أو من أتباعها أو من المستأمنين بها ، فقد كانت حقوق جباية الضرائب الزراعية مفروضة لرؤساء العشائر الذين كانوا يدفعون حصة منها الى الأمير البابانى بوصفة رئيسا للبلاد [2] . وهذا الوضع هو الذى دفع بالقنصل البريطانى رتيش Rich الى القول بأن الأمير لايجبى أى مورد من موارد مقاطعاته ، ولكنه اذا أراد مبلغا من المال لأى غرض طارئ طالب بروءساء القبائل الذين يقومون له بالمبالغ كهدية له [3] . وواضح أن هذه الهدية ليست الا حصة الحكومة من واردات اراضى الامارة المفوضة الى العشائر [4] .

ولقد نجحت الأسرة البابانية طيلة فترة حكمها الممتدة أكثر من أربعة قرون ، فى الاستئثار بالسلطة السياسية والادارية فى بلادها الواسعة دون أن يشاركها أحد من أبناء البلاد ذاتها ، فتحولت بذلك الى طبقة حاكمة ارستقراطية ، تتولى بنفسها حكم جميع مدن الامارة . ويمكن القول بأن هذا النظام كان شبيها الى حد كبير بالأنظمة

---

(١) امارة بهدينان العباسية ، ص ٤٨ .

(٢) Edmonds: Kurds, Turks, and Arabs, PP. 223-224.

(٣) Rich, C. J.: Op. Cit., P. 190

(٤) انظر : Edmonds, Op. Cit., P. 224.
حيث يذكر تفصيلات مهمة عن طبيعة موارد طبقة زعماء العشائر المزارعة .

الأخرى القائمة فى امارات العراق الشمالية ، كامارة بابان ، والصوران ، وان اختلف معه فى بعض التفصيلات .

د ـ آل عبد الجليل فى الحلة :

ليست ثمة معلومات موكدة توضح منشأ هذه الاسرة القوية التى حكمة الحلة طيلة عهد المماليك تقريبا ، غير أنها تنتسب الى قبيلة شمر العربية . ولسنا نعلم ـ على وجه التحديد ـ تاريخ استقرار هذه الاسرة فى الحلة ، وتحولها من النظام العشائرى الى تأسيسها سلالة حاكمة ذات سلطة سياسية على الحلة وأطرافها ، وتشكيلها بالتالى ـ احدى حكومات المدن العراقية فى ذلك العهد .

وتكشف بعض الوثائق[1] أن الحاج يوسف بن الحاج محمد ياسين موسس الاسرة ، كان يتولى التزام أنحاء من أراضى منطقة " العرجا " فى جنوب العراق ، فى حدود ١٧٢٢م / ١١٣٥ و١١٣٦ هـ ، وأن الايراد السنوى المتحصل من هذه الاراضى كان يبلغ شيئا طائلا ، مكنه ـ فيما يبدو ـ من اكتساب أهمية كبيرة فى ريف الفرات ومدنه آنذاك . وهى أهمية رشحته لأن يكون موضع ثقة والى بغداد أحمد باشا ابن حسن باشا فمنحه حكم مدينة الحلة[2] ، وصار الحاج يوسف بذلك متسلما لمدينة من أهم مدن

---

(١) تذكرة ديوان بغداد ، الصادرة بتاريخ أول ايلول (سبتمبر) سنة ١١٣٦ هـ ، نقلها يعقوب سركيس فى (مباحث عراقية ٢/٣٨٦) .

(٢) Otter,M.:Voyage en Turquie et en Perse,Vol.2,P. 215
وكان قد زار الحلة سنة ١٧٤٣ .

وسط العراق ، ونال رتبة "بك" باعتبار أن الحلة كانت تمثل سنجقا تابعا لولاية بغداد (١) .

ولقد أظهر هذا المتسلم من الاخلاص والمقدرة خلال فترة حكمه مادفع بأحمد باشا الى ابقائه فى منصبه فترة طويلة دامت زهاء نصف قرن (٢) . وساعدت هذه الأحوال المستقرة الحاج يوسف على تأسيس أسرة حاكمة قوية ، تعتمد فى قوتها على ملكياتها الزراعية الكبيرة المنتشرة فى الحلة وأطرافها (٣) . وكان تعيين يوسف بك أميرا للحج على الطريق العراقى قد زاد من هيبة الأسرة ومكانتها فى العراق باكمله (٤) ، وهو أمر حافظت عليه فى السنوات التالية وأحاطته بكل ما من شأنه أن يحيطها بالجلالة وسمو القدر .

وقد تعاقب على حكم الحلة منذ منتصف القرن الثامن عشر أبناء الحاج يوسف المذكور وأفراد من أسرته ، فتولاها أولا حفيده عبد الجليل بك بن سلطان بك ، ثم تعاقب

---

(١) ابراهيم الدروبى : البغداديون ص ٦٠ .

(٢) Otter,M.:Op.Cit.,P.215 ويوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) وقفية عبد الجليل بك بن سلطان بك ، المؤرخة سنة ١١٧٧ هـ (مخطوط) . والدروبى : اخبار قضاة بغداد (مخطوط) .

(٤) وكان الرحالة الأديب عباس بن على الحسينى المكى (المتوفى سنة ١٧٦٦م/١١٨٠هـ) قد التقى بالحاج يوسف باشا ، وأشاد بدوره فى حماية الحجاج من أذى قبائل الاعراب . نزهة الجليس ومنية الأديب الانيس ج ١ ص ٥٦ ، ٢٧٣ . وانظر مباحث عراقية ج ١ ص ٣٨٦ وشعراء الحلة ج ١ ص ٣٢ .

على الحكم من بعده أفراد من الأسرة ذاتها (١) ، الا أننا لا نعلم بالتحديد علاقتهم النسبية ببعضهم ، ويبدو ان بعضهم حاول اضفاء مزيد من الهيبة على أسرتهم بادعاء نسب علوى ، كما أشيع عن نسب علي بن السيد مراد (١٧٧٣ـ١٧٧٩) (٢)

وسرعان ما تنامت ملكيات الأسرة ، فكان لها املاك في كربلاء ، وفي بغداد ، فضلا عن أملاكها في الحلة ذاتها ، وتكشف بعض وقفيات الأسرة عن أن اغلب ثرواتها كانت متمثلة في الملكية الزراعية دون غيرها ، وأن ممتلكاتها لم تكن الا بساتين أو حصص في بساتين عديدة (٣) .

ويبدو أن قسما من الأسرة انتقل الى السكنى ببغداد منذ أوائل القرن التاسع عشر (٤) حتى أن الحيدري عدهم من أشهر بيوتات هذه المدينة في عهده (منتصف القرن التاسع عشر) ، اذ يقول : " هو بيت عز ودولة وخير ، ومن أعظم بيوت بغداد ، بل لايحاذيهم أحد في اطعام الطعام .. وبيت عظيم القدر ، جليل الشأن ، ورثوا الجاه والنجابة كابرا عن كابر .. " (٥) .

---

(١) أشار آيفز Ives الى أن حاكم الحلة في عهده هو (خضر بك) من ال عبد الجليل وأشاد بمكانته ومنزلته، Ives, E.: A Voyage from England to India, I. 57.

(٢) محبوبة : ماضي النجف ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) وقفية عبد الجليل بك المؤرخة سنة ١١٧٧هـ ، ووقفية عائشة خاتون أم عبد الجليل بك ابن سلطان بك (مخطوطة) وأخبار قضاة بغداد ص١٨٣ و١٩٤ (مخطوط) .

(٤) وقد عد المؤرخ سليمان فائق ابراهيم بك آل عبد الجليل " احد اعاظم رجال بغداد ومن أشرافها الكبار " (تاريخ المنتفق ص ٢٥) .

(٥) الحيدري : عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد ص ٩٨ .

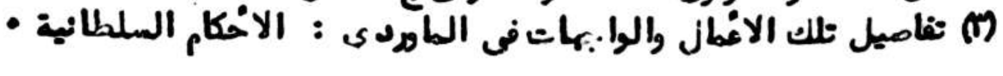
وكان لأسرة عبد الجليل هذه ، دورها هي ايضا ، في تشجيع الحركة الأدبية في عهدهم ، حتى كان كثير من الشعراء يقصدونها من بغداد حيث ينزلون في ضيافتهم [١] وينشدون فيهم القصائد المديدة ، أمثال الشيخ حسين بن علي العشاري (ت حدود ١٧٨٥م / ١٢٠٠هـ) والشيخ محمد كاظم الأزري (١٧٩٦م / ١٢١١هـ) وغيرهما ، وتتسم تلك القصائد غالبا بالاشادة بمحتد الأسرة العربي ونسبهم الرفيع [٢] .

هـ ـ النقباء والسدنة في النجف :

كانت مدينة النجف تتمتع منذ العصر العباسي بنوع من الحكومة المحلية برئاسة بعض الأسر الكبيرة البارزة فيها ، وتبرير ذلك الوضع أن النجف غدت منذ تلك العهود مركزا لتجمع العلويين ممن ينتسبون الى النبي محمد (ص) ، وهو واقع كان يفرض على الدول بحسب التقاليد الاسلامية ـ أن تولي على أولئك العلويين الأشراف رجلا من بينهم يرعى صالحهم ، ويدبر أمورهم ، ويحفظ أنسابهم ، وينزههم عن المكاسب الدنيئة .. الخ فكان نقيب الأشراف اذن في المدينه هو المتولي الفعلي لادارتها بحكم ان تلك الوظائف الدينية ـ الاجتماعية ، تعد في الواقع جزءا من أعماله الرسمية المكلف بأدائها من السلطة السياسية في البلاد [٣] .

---

(١) الدروبي : البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ٦٠ ـ ٦١ .
(٢) ديوان حسين العشاري (مخطوط) ، وديوان كاظم الازري . ومباحث عراقية ج ٢ ص ٣٨٦ والعزاوي : عشائر العراق ج ١ ص ١٤٤ .
(٣) تفاصيل تلك الأعمال والواجبات في الماوردي : الأحكام السلطانية .



وكان بعض الرحالين في القرن الثالث عشر الميلادي قد لاحظ أن للنقيب " حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه ، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره " (١) ، وليس ثمة مايدل على تبدل هذا الوضع حتى العصر العثماني ، وكانت النقابة منحصرة ، ابان تلك العهود ، في بيوت معروفة بالشرف وعلو النسب على حسب نظام الوراثة (٢) .

وفي أواخر القرن السابع عشر ، انفصلت النقابة عن السدانة (٣) ، وذلك لاسباب غير واضحة ، يرجع أغلبها الى سياسة التوازن بين الاسر القوية في المدينة ، وفقدت نقابة الاشراف أهميتها الادارية السابقة ، وبرزت أسرة محلية قوية من غير العلويين ، كانت تتولى منصب السدانة ، الى مسرح الحياة السياسية ، باعتبارها من أقوى الاسر وأكثرها ثروة ونفوذا .

وقد عرفت هذه الاسرة بآل الملالي ، جمع : ملا ، وهي وظيفة ذات طابع ثقافي ديني ، تتعلق باقراء القرآن الكريم ، وتحفيظ شيء من الحديث النبوي . ورغم غموض منشأ هذه الاسرة ، فانها استطاعت ، كما يظهر ، أن تبرز في الحياة الثقافية التي كانت ملامحها قد بدأت تبين في النجف منذ القرن الثامن عشر . ويبدو أنها أنجبت خلال

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١١٠ .
(٢) من أبرز تلك الاسر وأشهرها في العصر العثماني : آل كمونة ، الذي عرف منهم النقيب السيد محمد ، معاصر فتح السلطان سليمان القانوني للعراق وما أعقبه من استيلاء الفرس الصفويين عليه " وكانت له حكومة البلد مع حكومة اكثر البلدان العراقية أيام الصفويين " انظر / مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ١٩٩ — والعراق بين احتلالين ج ٤ ص ١٩٠ وجعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٣٠٨ .
(٣) السدانة : وظيفة دينية ـ اجتماعية تختص بخدمة المراقد المقدسة والاشراف على امور زوارها .

هذه الفترة رجالا محنكين استطاعوا أن يستفيدوا من ضعف النقابة ، المؤسسة الحاكمة سابقا ، وأن يتولوا هم المنصب الثاني في المدينة ، وهو سدانة مرقد الامام علي بن أبي طالب وخدمته ، ولقد أدى تعاظم نفوذ هذه الأسرة تدريجياً الى اضمحلال النقابة نهائيا ، حتى غدت أشبه بوسام تمنحه الحكومة العثمانية لشريف من السادات ، ليس بيده شيء من السلطة او الزعامة ، في حين تولى الملالي الزعامة الحقيقية في المدينة طيلة عهد المماليك تقريبا .

وبعد وأن تولى هذه الأسرة لمنصب السدانة قد مكنها من أن تكون من أثرى الأسر النجفية ، حتى أنها كانت تتولى ضمان النجف ، اى التزام جمع ضرائبها للدولة العثمانية ، وذلك بدفعها مبلغ من المال سلفا ، فيكون السادن عند ذاك "الحاكم المطلق في البلاد والرئيس المطاع" (١) . وزاد من ثروة هذه الأسرة ماكانت تتقاضاه من الضرائب ، فكان للملا يوسف ابن سليمان ، مثلا ، ضريبة على كل زائر للمدينة ، وعلى الجنائز التي ترد الى البلد بحسب شأن أولياء الميت واقتدارهم (٢) .

وعند اندلاع الفتنة الأهلية بين جماعتي " الشمرت و" الزقرت" في النجف في النصف الأول من القرن التاسع عشر (٣) ، تورطت أسرة الملالي في النزاع المسلح ، ثم

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٤٠٢ ومذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي المنشورة في مجلة البلاغ البغدادية عدد ٨ السنة ٤ (١٩٧٤) .

(٢) ماضي النجف ج ١ ص ٤٠٣ .

(٣) Lorimer:Gazetteer of the Persian Gulf,Oman & Certral Arabia, Vol. 1, PP. 1360-1370.

وجعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ . وعلي الخاقاني : شعراء الغري ج ٢ ص ١١٨ ـ ١٢٠ وودای العطية : تاريخ ==

ثم حاول بعض رجال هذه الأسرة أن يتخذ موقفا محايدا بين الجماعتين . ففي عام ١٨٣٩م/١٢٥٥ هـ عاقب الملا يوسف الجماعتين بأن حاصر النجف مدة شهر كامل وحاول هدم سورها ، فانتقم منه خصومه بأن دمروا داره " وكانت من أجمل دور النجف وأكثرها حسنا" (١) .

وفي فترة حكم يوسف المذكور نمت بذور النزاع بين آل الملالي من جهة وشعب النجف وعلى رأسهم علماء الدين – من جهة أخرى ، وقد حاول هو ان يعتمد على قوى القبائل العربية في ضرب التجمعات النجفية المناوئة ، الا أن ذلك الوضع زاد من نقمة علماء الدين في المدينة عليه . وكان حكم الأسرة قد بدأ يتجه نحو الاستبداد الحقيقي مستفيدة من حالة الاضطراب التي أعقبت سقوط حكم داود باشا في بغداد (٢) ، ففقدت بذلك آخر رصيد لها من الشعبية . وتحول أفرادها الى أن يكونوا قادة لفرق مسلحة خارجة على القانون ، حتى سقطت نهائيا في حدود سنة ١٨٥٣م/١٢٧٠ هـ (٣) ، حين

= الديوانية ص ٢٣ – ٢٤ . وقد نشرنا بعض الوثائق المتعلقة بهذه الفتنة والتي عثرنا عليها في مكتبة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد . انظر : صفحة مجهولة من تاريخ النجف وكربلاء في القرن التاسع عشر . مجلة البلاغ البغدادية ٤ (سنة ١٩٧٥) .

(١) محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) مباحث عراقية ج ٢ ص ٣٤٢–٣٤٤ عن مذكرات التاجر انطوان واديان المقيم اذ ذاك في بغداد .

(٣) محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٤٠٢ والشيخ محمد رضا الشبيبي مذكرات (المبحث السابق) ص ٢٦ .
و
Lorimer, Op.Cit., Vol. 1, P. 1365.
وعبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٩٤ .

منحت ادارة النجف الى أسرة دينية علوية شهيرة هي آل الرفيعي (1) ، الذين كانـــوا يتولون ادارة شؤون مرقد الامام علي • ورغم أن أساس ظهورهم السياسي كان شبيهـــا بالاساس الذي استندت اليه أسرة الملالي من قبل في الصعود الى مركز السلطة ، الا أن حكم الرفيعيين كان يختلف عن سابقه بأنه أصبح أكثر اعتمادا على علماء الدين في تصريف أمور المدينة ، وبدا جليا أن النجف شهدت في هذه الفترة قيام نوع من الحكم الائتلافـي بين عدد من علماء الدين الكبار ، وهو أمر لم يكن يحدث في عهد الملالي قط •

ثالثا : علمـاء الديـن

رغم أن علماء الدين أدوا دورا بارزا في الحياة الاجتماعية للمدن العراقية ابـــان عهد المماليك ، الا أنهم صادفوا اهتماما لدى الباحثين اقل بكثير مما يحتمل انهـــم يستحقونه باعتبارهم جزءا رئيسيا من الطبقة الوسطى في المجتمع • ويمكن القول بـــأن وظيفة العلماء الأساسية كقادة روحيين ، غطت على أوجه نشاطهم الدنيوية الاخـــرى التي لاتقل عنها أهمية ، وبهذا فقد وضع العلماء عند دراستهم في الاطار الديـــني والتعليمي ، والى حد أقل بكثير في الاطار السياسي ، ونادرا ما وضعهم الدارســـون داخل اطار اجتماعي واقتصادي يحدد وضعهم ضمن طبقات المجتمع الحضري فـــي المدن العراقية في ذلك العهد •

---

(1) من أسر النجف الشهيرة ، تنتسب الى موسى الكاظم ، وكانت قد قدمت النجف في القرن السابع عشر ، واستقرت فيها •

وتدلنا دراسة التراجم الذاتية للعلماء البارزين آنذاك على حقيقة هامة ، وهي أن اولئك العلماء جاءوا من كل قطاعات المجتمع ، الريفى والحضرى ، ومن كل المستويات الاقتصادية ، حتى أنه بينما كان الكثير منهم مغرقين فى الفقر ، فان بعضهم كانوا اغنياء ، وكان الآخرون ينزلون منزلا بين بين ، وسينحصر اهتمامنا فى هذا الجزء من الدراسة فى اولئك العلماء الذين كانوا يستحقون اسم " كبار العلماء " مؤجلين البحث عن الفئات المتدنية منهم اقتصاديا الى الجزء الخاص بطبقة العامة باعتبارهم ــ عند ذلك ــ جزءا مهما منها .

ومن الملاحظ أن ازدياد أهمية هذه الطبقة ونمو تأثيرها فى المجتمعات المدنية كان مقرونا بازدياد أهمية المدن ذاتها ، فالعلماء ــ بحكم دراستهم ووظائفهم ــ هم أبناء المدن ومظهر من أهم مظاهر تطورها الحضارى ، وكان وجودهم فيها مرتبطا بحجم الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية التى تمارسها الطبقات الأخرى . (١)

تعاظم أهمية طبقة العلماء :

وبهذا ، فقد كان عهد المماليك ــ وهو العهد التى كان من أبرز سماته تطور المدن العراقية واستعادتها حيويتها السالفة ــ عهد تعاظم دور العلماء كطبقة فعالة مؤثرة ، على نحو لم تشهده العهود السابقة من قبل ، وأضحت المدن العراقية مركز

(١) Hourrani, A.H.: The Islamic City in the Light of Recent Research (in The Islamic City. Oxford P.22).

جذب شديد لفئات عديدة من القرى والأرياف المجاورة لم يجد النابهون منها سوى العلم مجالا للارتقاء الاجتماعي ، اما سكان المدن ذاتها ، فكانت الحياة الحضرية المستقرة قد استوعبت نشاطاتهم بحكم انتمائهم الى الطبقات الاجتماعية القائمة ، فهم أما أن يكونوا ملاك اراضي زراعية ، وأصحاب اقطاعات ، واما ان يكونوا تجارا وحرفيين ولا شيء يدعو هاتان الطبقتان الى الدخول في سلك علماء الدين الا نادرا ، بخلاف النازحين الى المدينة من مثقفي أهل القرى والأرياف ، الذين يجدون في اوقاف المدارس والمساجد المخصصة لطلبة العلم والفقراء خير معين للحياة في المجتمعات الحضرية الجديدة . ومن هنا فان جل الأسر البغدادية التي اشتغلت بالعلم وشغلت ارفع المناصب العلمية في مدارس بغداد ومساجدها في عهد المماليك ، كانوا من خارج بغداد ذاتها ، فأسرة السويدي العباسية التي أنجبت للعراق عددا كبيرا من كبار العلماء ، هاجرت الى بغداد في أوائل القرن الثامن عشر من بلدة الدور القريبة من سامراء ، حيث كانت تقيم منذ فترة من الزمن . (١) وأسرة الآلوسي الحسنية الشهيرة في مجالات الافتاء والوعظ والتأليف ، هاجرت الى بغداد من بلدة آلوس قرب " حديثه " على الفرات في منتصف القرن الثامن عشر (٢) ، ومثلها أسرة آل جميل العربية التي

---

(١) عبد الله بن حسين السويدي : النفحة المسكية في الرحلة المكية ٥ (مخطوط) ومحمود شكري الآلوسي : المسك الاذفر ص ٦٠-٦٤ ومجلة لغة العرب ٢/٢١٧-٢٢٣ بحث للشيخ كاظم الدجيلي .

(٢) حديقة الورود في مدائح ابي الثناء محمود (مخطوط) والمسك الاذفر ص ٥ ومحمد بهجة الاثري : اعلام العراق ص ٧ - ٨ والاثري : محمود شكري الآلوسي واثاره اللغوية ص ٢٦ .

هاجرت الى بغداد من بلدتها القديمة " حديثة " على الفرات، (١) ومن هذه البلدة أيضا هاجرت أسرة الطبقجلي المعروفة بالتدريس والافتاء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (٢) • وهاجرت الأسرة الحيدرية عن موطنها " قرية ماوران " في ريف اربل الى بغداد في منتصف القرن الثامن عشر لتشتغل بالتدريس والافتاء (٣) ، ومثلهما آل البندنيجي القادمة من بلد نيجين (٤) في شرق بغداد في مطلع القرن الثامن عشر (٥) والسادة الراويون المهاجرون من بلدة راوه على الفرات (٦) ، والعشاريون من بلدة " عشارة " على الخابور بين الموصل وحلب (٧) ، والمدلجيون المهاجرون من بادية الشام في القرن السابع عشر ، ومنهم المدرسون والمفتون (٨) ، وغيرهم •

---

(١) الدروبي : البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ٣٠ •
(٢) علي علاء الدين الألوسي : الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ١٧٠ وعنوان المجد ص ٩٢ •
(٣) عصام الدين العمري : الروض النظر في ترجمة ادباء العصر الورقة ٢٥١ • وابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد ص ١٢٢ • وتاريخ الحيدرية (مخطوط) ورقة ١ ـ ٣ •
(٤) هي مندلي الحالية قرب الحدود العراقية الايرانية •
(٥) الشهرباني : تذكرة الشعراء ص ٣٨ والسهروردي لب الالباب ١/ ٢٥٥ والمسك الاذفر ص ٣٢ •
(٦) حديقة الورود في مدائح ابي الثناء محمود ورقة ١ ـ ٢ (مخطوط) • وديوان حسين العشاري المقدمة لكاتب الاطروحة • (مخطوط) •
(٧) ديوان العشاري / المقدمة (مخطوط) •
(٨) الدروبي : البغداديون ص ٨٠ •

صلة العلماء بطبقة المماليك :

ولقد استطاع عدد كبير من اولئك العلماء ان يرتقوا في المناصب العلمية ، فكان منهم المدرسون في المدارس الدينية التي حفلت بها بغداد آنذاك ، وكان منهم الوعاظ والخطباء والائمة في الجوامع الكبيرة ، وارتقى قسم منهم الى منصب الافتاء او نيابة المحكمة ، وغير ذلك من المناصب الشرعية ، ومن هؤلاء من استطاع التقرب الى طبقة المماليك الحاكمة ، فكان عبد الله السويدي مثلا من أقرب مستشاري أحمد باشا ابن حسن باشا والي بغداد ، وكان مجلس الباشا لايخلو غالبا منه ، وكثيرا ما أهداه من الهدايا أغلاها وأنفسها [1] .

وتقدم الملا حسين الراوي لدى الوزير احمد باشا المذكور ، حتى عينه مفتيا للعسكر أثناء حملته على همذان [2] ، وكان لابنيه محمد وعبد الرحمن " من الوجاهة والشهرة والقبول عند الملوك ما يحسدهما الصديق عليه " [3] .

وبلغ من منزلة الشيخ علي أفندي السويدي لدى والي بغداد سليمان باشا الصغير أنه " كان لايصدر الا عن رأيه ، وهو يسعى في نصحه غاية سعيه " [4] .

---

(١) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء الورقة ١٦٥ حوادث ١١٥٤ هـ (مخطوط)
(٢) ديوان حسين العشاري / المقدمة (مخطوط) .
(٣) نعمان الآلوسي : حديقة الورود في مدائح ابي الثنائي محمود ج ٢ ، الورقة ٣ (مخطوط) .
(٤) ابو الثناء محمود الآلوسي : غرائب الاغتراب ونزهة الالباب ص ١٥ .

وقام علماء آخرون بأدوار سياسية مهمة في أحداث عصرهم ، فكان مفتي الحنفية في الموصل السيد يحيى ابن فخر الدين[(١)] الناطق الرسمي بلسان والي الموصل وشعبها أثناء حصار نادرشاه سنة ١٧٤٣ م[(٢)] ، وكان علي الفلاحي ، مفتي الشافعية في المدينة أحد الثلاثة الذين خرجوا ـ أثناء الحصار ـ ليبرموا الصلح مع نادرشاه[(٣)] ، وعندما توجه أحد ملوك فارس الى العراق غازيا " وأراد ان يدمر العراق "[(٤)] خرج اليه عالم نجفي معروف ، هو السيد عبد الله آل شبر "[(٥)] فارجعه بحسن التدبير وحقن الدماء وحفظ الأموال وأمن روعة الناس "[(٦)] . وألف عام نجفي بارز ، هو السيد جعفر كاشف الغطاء حزبا مسلحا من العامة قاده ضد حاكم النجف في عهده[(٧)] . وفعل مثله عالمان آخران من كربلاء[(٨)] ، حين استطاعا أن يجمعا لهما أعوانا من العامة لتحقيق

---

(١) ولد عام ١٧٠٠م/١١١٢ هـ ، ووجهت اليه الفتوى عام ١٧٣٠م/١١٤٣، وتوفي عام ١٧٧٣م/١١٨٧هـ (منهل الأولياء ٢٣٩/١ والمرادي : سلك الدرر ٢٣٣/٤) .

(٢) عماد عبد السلام : الموصل في العهد العثماني ص ١٠٦ ، وص ٥١١ ـ ٥١٧ .

(٣) منهل الأولياء ج ١ ص ١٦٠ ومنية الادباء ص ١٨٢ .

(٤) محمد بن مال الله القطيفي النجفي : رسالة في ترجمة السيد عبد الله آل شبر ص ٦٧ (مخطوط) .

(٥) ولد في النجف سنة ١٧٧٤م/١١٨٨ هـ ، وسكن الكاظمية (قرب بغداد) الى ان توفي بها سنة ١٨٢٦م/١٢٤٢هـ (القطيفي : الرسالة السابقة ص ٦٧) .

(٦) القطيفي : ترجمة السيد عبد الله آل شبر ص ٦٧ (مخطوط) ومحمد باقر الخونساري : روضات الجنات ص ٣٦٧ .

(٧) انظر عن هذه الحركة ما سيأتي من حديث عن طبقة العامة .

(٨) وهما الزعيمان الدينيان : كاظم الرشتي مؤسس الحركة البابية في العراق وايران وسيد ابراهيم القزويني من ابرز علماء كربلاء .

أغراض سياسية (١) . ونجم عن تدخل كثير من العلماء في السياسة وشؤون الحكم ، أن انتقل بعضهم الى ممارسة الحكم فعلا ، من ذلك – مثلا – ماحدث لمحمد أفندي بن النائب ، وكان عالما فاضلا ، انه " خرج عن مقولة العلماء ، ودخل مقولة الأمراء والحكام" وارتقى في الوظائف المدنية حتى غدا كاتم سر داود باشا والي بغداد (٢) .

وكان عهد داود باشا عهدا بلغت فيه طبقة العلماء ورجال الدين ذروة نفوذهم الاجتماعي والسياسي ، اضافة الى مالها من نفوذ فكري وديني (٣) . ولقد أدت سياسة داود باشا الداخلية ومحاولته لاجتذاب تأييد الشعب باحترامه لعلمائه ، واقامة الصلات القوية معهم ، الى تعاظم منزلة أولئك العلماء وامتداد نفوذهم الى كل شيء تقريبا . وأمست لهذه الطبقة المهمة صلات وثيقة بطبقة المماليك الحاكمة ، وبالأسر المحلية التي تتولى الحكم في مدن أخرى من العراق .

الأسس الاقتصادية لطبقة العلماء :

وكان العلماء ، بفضل مركزهم المتميز في المجتمع الاسلامي ، محصنين من مصادرة أموالهم ، وكان في مقدورهم أن يؤسسوا سلالات حاكمة عن طريق الثروة الموروثة ،

---

(١) Lorimer:Gazetteer of the Persian Gulf,1,i,1350
ومحمد حسن آل طعمة : مدينة الحسين ص ٩٨ و ١٩٩ – ٢٠٣ . وعبد العزيز نوار تاريخ العراق الحديث ٨٨ – ٩١ .
(٢) عثمان بن سند : مطالع السعود (مخطوط) ومختصره لامين الحلواني ص ١٧٦
(٣) العزاوي : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣٣٣ وعبد العزيز نوار : داود باشا والي بغداد ص ٣٠٩ .

كما حدث لآل الملالى فى النجف(١) ، وأن يصمدوا للتغييرات المالية كالتى حدثت بعد انتهاء حكم المماليك فى بغداد .

ومن الممكن للباحث ، من خلال دراسة عدة نماذج من كبار العلماء ، أن يقسم مصادر ثروة العلماء الى الاقسام الرئيسية الآتية :

١ ـ الرواتب الرسمية والوقفية :

كان علماء الدين يتقاضون بحكم شغلهم لوظائفهم رواتب محددة تعينها الجهات الرسمية ، أو جهات الأوقاف ، فمن الفئة الاولى كانت رواتب المفتيين ونوابهم فى بغداد وغيرها من المدن العراقية ، وسائر من يعمل فى الوظائف الشرعية .

اما الفئة الثانية فكانت تمثلها رواتب المدرسين فى المدارس والائمة والخطباء فى المساجد ، وكثير من تلك الوظائف ماكان مجزيا الى حد كبير ، وخاصة الوظائف الكائنة فى مؤسسات ذوات أوقاف كثيرة غنية . ولقد بلغ راتب المدرس فى المدرسة السليمانية التى انشأها والى بغداد سليمان باشا الكبير سنة (١٧٩١م/١٢٠٦هـ) ١٢٠ آقجة يوميا (٢) فى الوقت الذى كانت فيه الوزنة من الحنطة (١٢ كيلو) فى وقت الغلاء

---

(١) انظر ما تقدم عن الأسر الحاكمة .

(٢) الاقجة : نقد عثمانى يعزى ضربه الى السلطان أورخان سنة ١٣٢٥م/٧٢٩هـ ، ومعنى آقجة (البيضة) أو (البيضاء) لغلبة الفضة على معدنها ، حيث كان عيارها يبلغ (٩٠٪) ، الا أن عيارها انخفض فيما بعد حتى بلغ سنة ١٨١٨ (٤٦٪) ووزنت نصف قيراط فقط . وتعرف الاقجة فى البلاد العربية الأخرى بلفظ عثمانى ، اى ـ الدرهم العثمانى (عماد عبد السلام بعض العملات المستعملة فى الموصل وأقيامها ـ مجلة المسكوكات العراقية ، عدد ٥ ـ ١٩٧٤) .

بثمانى أقجات ، ومن السمن (٨ كيلوات) فى الفلاء أيضا ، بثلاثين آقجة [1] .

وبلغ ما رتبه داود باشا لمدرسته المعروفة لمدرسة المعروفة بالداودية فى جامع الحيدرخانه التى أنشأها سنه ١٨٢٦م/١٢٤٢هـ مبلغا ضخما من المال ، قدر بـ (٢٨٢٠) قرشا رائجا بغداديا [2] ، يدفع رواتب سنوية للمدرسين والخطيب والواعظ والامام وغيرهم من موظفى الجامع والمدرسة ، وكان راتب المدرس السنوى ٣٠٠ قرش ، بينما كان راتب الخطيب (٢٠٠) قرش ، وراتب كل امام مثل ذلك ، وهذه رواتب مرتفعة اذا ما لوحظت القيمة الشرائية للقرش الواحد فى الفترة نفسها [3] .

وكانت التولية على المنشآت الدينية تعد مجالا يتنافس عليه العلماء ، ذلك أن بعض الواقفين كانوا يشترطون فى وقفياتهم أن يكون المتولى على أوقافهم أعلم أهل بغداد ، وهو شرط من شأنه أن يفتح المجال امام علماء المدينة للتنافس على شغل أهم المناصب العلمية فى مدارسها اثباتا لأهليتهم وقابليتهم العلمية والدينية . وكانت تولية المدرسة المرجانية ببغداد [4] ، وهى من أكثر المؤسسات أوقافا وموارد ا ، معقودة ، منذ

---

(١) وقفية المدرسة السليمانية ، مؤرخة فى ٢ شوال سنة ١٢٠٦ هـ ، وأخبار قضاة بغداد ص ١٩٢ (مخطوط) .

(٢) القرش الرائج ، يساوى ربع القرش الصاغ ، وقيمة الأخير أربعين بارة (عملة عثمانية) فيكون القرش الرائج عشر بارات ، والبارة تساوى ١٢ فلسا .

(٣) وقفية داود باشا على جامع الحيدرخانة ، مؤرخة فى غرة رجب سنة ١٢٤٣ هـ ، وابراهيم الدروبى : أخبار قضاة بغداد ص ٢٣٤ (مخطوط) .

(٤) المدرسة المرجانية ، من المدارس الكبيرة فى بغداد ، أسسها حاكم بغداد من قبل الجلائريين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الاولجايتى سنة ٧٥٨ هـ ، وكانت فى القرن الثامن عشر افخم مدرسة ببغداد وأهمها على ما لاحظ نيبور .

القديم ، على " أعلم أهل بغداد بالكتاب والحديث" [١] ، ثم استقرت في زمن السلطان مراد الرابع على أن تكون من خواص مفتي الحنفية دون غيره ، على أساس أن تلك الصفة متوفرة فيه بحكم شغله لمنصبه الرفيع [٢] ، فكانت أوقاف هذه المؤسسة الفنية تمد موردا هاما لمفتي المدينة ، وربما كانت سببا في حدوث النزاعات بشأنها .

٢ ــ الملكيات الزراعية :

وتؤلف الملكيات الزراعية الواسعة لبعض كبار العلماء مصدرا آخر من مصادر ثروتهم وكان لأغلب الأسر العلمية الكبيرة في بغداد والمدن الكبيرة ملكيات من هذا النوع تشتمل على أراضي وحقول متفرقة في أكثر من ناحية ، وكثير من تلك الملكيات ، مما منحه السلاطين العثمانيون الى عدد من الأسر والشخصيات الدينية المهمة ، الذين سرعان ما جعلت ملكياتها أوقافا مؤبدة على ذرياتها ، بهذا فقد اتخذت تلك الجهات والمنح سمة مستقرة دائمة .

وتعد الأراضي الزراعية والحقول الموقوفة على الأسرة القادرية من أكبر المساحات الموقوفة وأغناها [٣] . ففي وقفية الشيخ شمس الدين القادري المؤرخه في سنة

---

(١) عباس العزاوي : ذكرى ابي الثناء الالوسي ص ٢٨ . وكان نيبور قد اشار في كتاب رحلته الى ان رئيس العلماء هو المدرس في مدرسة المدينة ، لكنه لم يذكر هذه المدرسة .

و Niebuhr,K.: Op. Cit., Vol. II, P. 263.

(٢) ذكرى أبي الثناء ص ٢٨ .

(٣) سجلات ولاية بغداد ، سجل رقم ١٠٢٨ لوحة ٣ .

١٠٤٨/٩٥٥ هـ نجد أن الاملاك الموقوفة على الاسرة شملت بساتين غنية حوالـــى بغداد ، منهـا " جميع البستـان المشتملة على النخل والتين والرمان والاشجـــار المختلفة الالوان الواقعة قريبا من باب البلد خارجا من مدينة دار السلام بغـداد ..... وبئر الكرد المعدة لسقى بستان الوقف .. وجميع أراضى ومزارع الكرد الواقعة خـــارج القلعة .. الى آخر أراضى الشواخير مع تلال الصخر .. الخ " (١) . وشملت وقفيـــة الشيخ زين الدين سبع قرى ، بمزارعها وكافة حقوقها وتوابعها وأراضيها وساتينهـــا وأهوارهـا وأنهارها ، وجوهـا (٢) ، وسواقيها .. ومنسوباتها وضافاتهـــا " ، وهى قرى قصيبة ، وقوصرى ، والرازقيات ، ودوره ، والمنصورية ، وأبى صيـــدا ، وماجسرا ، ومزارع وحقـــول وانهار عديدة غيرها ، فضلا عن عدد من الدور فـــى بغداد ذاتها (٣) .

ورغم أن أقساما من هذه الأراضى والعقارات ، خصصت لعمارة جامع الشيــــخ عبد القادر الكيلانى و لاعمال البر فيما بعد (٤) ، فان ما كانت قدره على الاسرة القادرية

---

(١) الوثائق القادرية : وقفية الشيخ شمس الدين القادرى على ذريته . مؤرخة فـــى ١٠ محرم سنة ٩٥٥ هـ ، وهذه الوثيقة مسجلة فى المحكمـــة الشرعية ببغداد ، سجل ٢ ، وفى دائرة اوقاف بغداد تحـــت رقم ١١ عتيق .

(٢) جمع : جوه ، وهى الأرض الفضـاء .

(٣) الوثائق للقادرية : وقفية الشيخ زين الدين القادرى على ذريته ، مؤرخـــة فى ١٥ رجب ٩٧٨ هـ ، وهى مسجلة فى المحكمة الشرعية ببغداد تحت رقـــم ٦٣ سجل ٣ ، وفى دائرة الاوقاف تحت رقم ٧ عتيق .

(٤) الوثائق القادرية : " اعلام شرعى يتضمن الحكم بكون اراضى حاتم وقزاق والجلبـــى ودورى وابو خرابه والمنصورية والدبجه والمخيســـة ونصف المقطوعه من الاوقاف ـ القادرية على الحضرة الكيلانية " . مؤرخ فى ٩ رمضان ١٢٥٨ هـ ، ومسجـــل فى المحكمة الشرعية تحت رقم ٧ من السجل رقم ١ .

ذاتها ، كان يبلغ (١٣٥٩٢٥) قرشا ، من اصل مجموع الواردات وقدره (١٤٣٧٥٠) قرشا ، أما الباقي وقدره (٧٨٧٥) قرشا فيوزع رواتب على مدرسي المدرسة القادرية وائمة الجامع وخدمه [1] .

أما أسرة الحيدرية الشريفة المعروفة بانجابها عدد من كبار العلماء ، فكانت لها قرى كثيرة : كشهربان ، وهبهب ، وشروين قرب بغداد ، وقرى أخرى في نواحي شهر زور وحرير تبلغ نحو ثلاثين قرية [2] . وكان لآل الالوسي ، ومنهم علماء بغداد في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كثير من الأراضي الزراعية تمتد من " الحديثة " الى " جبة " على جانبي نهر الفرات ، اقطعتها الدولة العثمانية في الاصل لجدهم الشيخ عبد القادر الطيار الحسني . [3]

وكان لآل البندنيجي ، فضلا عن مخصصات مناصبهم العلمية ببغداد ، ايرادات جمة تأتيهم من أراضي يملكونها في بندنيجين (مندلي الحالية) في شرقي بغداد [4] ومثلهم آل عطا ، الذين نزحوا من عانة على الفرات ، وتملكوا أراضي زراعية واملاكا وعقارات ، وجعلوها وقفا على ذريتهم ، وظهر منهم علماء كبار بارزون [5] . وكان

---

(١) الوثائق القادرية : فرمان من السلطان محمود العثماني بشأن بيان المخصصات القادرية مؤرخ في اول جمادى الآخرة ١٢٦١ هـ ، ومسجل في المحكمة الشرعية تحت رقم ١٦ من السجل رقم ١ .

(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد ص ٨٧ و ١٥٥ .

(٣) محمد بهجة الاثري : محمود شكري الالوسي وآراؤه اللغوية ص ٢٦ .
وعلي علاء الدين الالوسي : الدر المنتثر ص ١٢ (مقدمة المحققين) .

(٤) صفاء الدين البندنيجي : تراجم الوجوه والاعيان المدفونين في بغداد وما والاها من البلدان ص ٢ (مخطوط) .

(٥) ابراهيم الدروبي : البغداديون أخبارهم ص ٤٦ .



لآل الرحبى أراضٍ واسعة فى ناحية "بهرز" من انحاء بعقوبا شرق بغداد (١) . وعدّ الشيخ محمد سعيد الخطيب (ت ١٨٢١ م/ ١٢٣٧ هـ) سليل أسرة خطباء هيت (٢) " من ابرز المالكين فى هيت " ، اذ تمكن من شراء مساحات كبيرة من الاراضى . (٣) . وجمع الشيخ عبد المحسن السهروردى (ت ١٨٤٦ م) فى وظائفه نظارة اوقاف العراق ، وتولية اوقاف جامع الشيخ شهاب الدين عمر السهروردى وأوقاف جامع مرجان ، بالاضافة الى تقاضيه رواتب من فضلة اوقاف مشهد الامام موسى الكاظم ، ومشهد الامام ابى حنيفة ، والامام الفضل ببغداد (٤) . وبلغ مقدار مما كانت قدره اراضى السيد ابى الحسن شرف الدين ، أحد علماء النجف فى القرن التاسع عشر ، زهاء ٠٠٠ر٤٠ قرش شامى كل عام . (٥)

وفى الموصل ، برزت الاسرة العمرية ، كأكبر قوة اقطاعية فى الولاية ، فقد استطاعت هذه الاسرة — الى جانب تاييد السلطات العثمانية لها — ان تنمى املاكها بالوقف المستمر على جامع العمرية فى الموصل ومزار الامام عبد الله بن عمر (٦) ، ووصف الشيخ على بن مراد العمرى (ت ١٧٣٤م/١١٤٧ هـ) بأن له " اثنتا عشرة

---

(١) البغداديون ص ١٣٦ .
(٢) ويذكر ان الشيخ اسماعيل الخطيب عين حاكما ومحافظا لقلعة هيت بموجب الفرمان المؤرخ ٢٨ محرم سنة ١٠٧٢ الصادر من السلطان مراد الرابع (رشاد الخطيب الهيتى : هيت فى اطارها القديم والحديث ج ١ ص ٤٣) .
(٣) هيت فى اطارها القديم والحديث ج ١ ص ٤٤ .
(٤) عبد المحسن السهروردى : نجاة الناس بكلمة الاخلاص . ترجمة المؤلف لحفيده محمد صالح السهروردى ص ٤١ — ٤٦ .
(٥) محمد صادق بحر العلوم : الدرر البهية فى تراجم رجال الامامية ص ٢٤٤ (مخطوط)
(٦) سجلات ولاية الموصل . دفتر ٦٦٠ لوحة ٢٧٤ .

قريـــة ونصف قرايا (أي قرى) جهل مقلوب" [1] ، منها تل اسقف ، وكهر اسحــاق والقبة ، وكبر اشكست ، وحسن شامى .. وغيرها [2] .

ولقد اتجهت بعض الأسر العلمية الى تنويع مصادر ثروتها ، مستثمرة أموالهـــــا في الأعمال التجارية ، وكانت العقارات المستخدمة في مثل تلك الاعمال ، تعد مجالا خصبا للاستثمار ، نتيجة للتقدم النسبي للحياة الاقتصادية داخل المدن العراقيـــة في ذلك العهد . فكان لآل الفرابي ، وهم من أشهر أسر بغداد العلمية ، دكاكين في أسواق العطارين ، والجوخجية ، والمريض ، من أسواق بغداد الرئيسية ، وبيوت للايجار على نهر دجلة ، هذا فضــلا عن بساتين داخل بغداد وخارجها ، وخمسة انهر في منطقة الخالص في شرق بغداد . وقد وقف أحد أفراد الأسرة ، وهـــــو حسين بن عبد الله الفرابي ، تلك العقارات في مطلع القرن الثامن عشـر ، فصار قسم منها وقفا على المدرسة الفرابية التي انشأها في بغداد سنة ١٦٨١م / ١٠٩٢هـ [3] ، بينما صار القسم الآخر ، وكله ملكيات زراعية ، وقفا ذريا على أفراد الأسرة [4] .

ولقد كان العلماء في منجى من المصادرة ، اذ أن مكانتهم العلمية الدينيـــة قد منحتهم حصانة من أي اجراء ايراد به المساس بملكياتهم . ومن ناحية أخـــــرى ، فضــان علمهم بالشريعة ووقوفهم على التفاصيل المتعلقة بشؤون نقل الملكية ووراثتهـــا وتأجيرها ، قد مكنهم من المحافظة على تلك الملكيات ضـد أي تجاوز . وعندمـــا استولى بعضهم على مخصصات آل السويدي من أراضي النجف ، رفع عبد الرحمـــن السويدي صوته مطالبا أحمد باشا والي بغداد باعادة تلك المخصصات الماليـــــة لأسرتـه [5] .

(١) أمين العمري : منهل الأولياء ج ١ ص ٢٢٥ عن منهج الثقات لياسين العمري .

(٢) ياسين العمري : غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ٣٤٠ .

(٣) وقفيات المدرسة الفرابية بتاريخ شوال ١١٠٤ و ١١٠٩ وربيع الاول سنة ١١١٥هـ (مخطوط) ، وأخبار قضاة بغداد ص ١٧٤ و ١٧٦ (مخطوط) .

(٤) وقفية الفرابي على ذريته بتاريخ ربيع الاول ١١٦٩ هـ . وأخبار قضاة بغداد — ص ١٨٢ (مخطوط) .

(٥) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء الورقة ٢٠٥ (مخطوط) .

وطالب الشيخ خالد النقشبندي عبد الرحمن باشا البابانـي حاكم السليمانيـة بأن يقطعه " قرى حسن كيف بما فيها من المزارع والاكر ، وهي ناحيـة عظيمـة من نواحي كركوك ، فلم يجبـه الى ذلك " (١)

وكان السادة القادرية أحفاد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، قد قدموا عريضة الـى الباب العالي " راجين فيها عفوهم من التكاليف الحرفية الشاقة ، ومن خرج الاحتساب عن النواعير (رافعات الماء) الموروثة لهم من أجدادهم " فوافقت السلطات سنـة ١١٧٤/١٧٦٠ هـ على اعفائهم من تلك الضرائب بفرمان سلطاني خاص. (٢)

رابعـا : التجـــار

شهد عهد المماليك في العراق نموا كبيرا لطبقة جديدة فتية هي طبقـة التجار . ورغم أن وجود هذه الطبقة كان سابقا لظهور المماليك (٣) ، الا أن نموهـا

---

(١) عثمان الجليلي : سيف الله الغالب على المنكر المبتدع الكاذب (وهو رد على الشيخ النقشبندي مجدد الطريقة النقشبندية في العراق) . الورقة ١٨ (مخطوط) .

(٢) مجموعة الوثائق القادرية (مخطوط) . فرمان باعفاء الوسوم مؤرخ في ٦ جمادى الاولى ١١٧٤ هـ .

(٣) يذكر الرحالة اولياء جلبي الذي زار بغداد عام ١٦٥٨ أن في المدينة تجـار يتميزون بالنشاط ، ويمتد نشاطهم هذا الى بلاد الهند والسند والعجـم واليمن ، وعند حديثه عن " قصور الوجهاء والاعيان " أشار الى ثلاثة من اكبـر تلك القصور ، أحدها قصر الباشا نفسه ، والآخران لاثنين من السراة ، احدهمـا لشاهبندر التجار حيدر جلبي ، والآخر لوجيه آخر هو حسب الله ، ونظنه مـن تجار المدينة ايضا (أولياء جلبي سياحتنا مه سي ج ٤ ص ٤٣٠) ولحيدر جلبـي مآثـر مهمة في بغداد ، منها سقاية زالت ، وحمام كبير ما زال يؤدي مهمته حـتى يومنا هذا ، وهو اقدم حمام في بغداد ، وفي وقفيته بستان ، وعقار ، ودكاكين (وقفية حيدر جلبي الشاهبندر مؤرخة في ١٠ محرم سنة ١٠٦١ ـ مخطوط ـ) .

وازدهارها وازدياد تأثيرها على الاحداث العامة ارتبط بحكومة المماليك وحكومات الاسر المحلية المعاصرة ارتباطا وثيقا ، فكان التجار يؤلفون فى احيان كثيرة طبقة قريبة الى ولاة المماليك فى بغداد والبصرة ، وذلك ان المماليك احسوا بأن التجار — دون غيرهم — هم المصدر الاساسى الذى يمدهم بالمال فى ساعات الحرج والشدة .
وتدل جميع الشواهد التاريخية على أن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات طائلة ، وأنهم أسهموا فى الحياة الاجتماعية والثقافية ، فضلا عن اسهامهم فى المجالات الاقتصادية على نحو بارز لم يكن له نظير فى العهود التى سبقت بداية القرن الثامن عشر .

وعلى الرغم من سكوت المصادر التاريخية عن دور هذه الطبقة ، وموقفها المشوب بالتجاهل وعدم الاهتمام (١) فاننا نلاحظ أن هذه الطبقة المتنامية النشيطة كانت وراء كثير من الاحداث المهمة فى تاريخ العراق العثمانى ، بل انها كانت غير بعيدة عن التدخل لدفع الأمور الى وجهة تتفق ومصالحها الاقتصادية .

---

(١) من ذلك أن مؤرخا محليا معاصرا ، هو ياسين العمرى المتوفى فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، أفرد فصلا من كتابه " غاية المرام فى تاريخ محاسن بغداد دار السلام " لمن سافر الى بغداد من الاعيان ، والامراء والشعراء وقال " ولا نذكر ماعداهم ، لأن غيرهم تجار وارباب صنائع فلا فائدة بذكرهم (غاية المرام ص ٣٢٢) .

نمو طبقة التجار في البصرة والموصل :

فعندما استطاع آفرسياب[١] كاتب الجند في البصرة ، أن يشترى حكومة المدينة من واليها العثمانى سنة ١٥٩٦ م ، وأن يؤسس فيها أسرة حاكمة دامت أكثر من سبعين عاما[٢] ، كان واضحا أن التغيير الجديد هو في صالح طبقة التجار الفتية الطامحة الى الاستفادة من التجارة الأوربية[٣] ، التى بدأت تمد نشاطها في منطقة الخليج العربى آنذاك . فبعد أن كانت البصرة مقطوعة الصلات تقريبا مع تلك التجارة ، نشطت - فجأة - ليكون لها في عهد حاكمها آفرسياب وأولاده علاقات اقتصادية مع مختلف الأمم[٤] ، ولتصبح مركزا اقتصاديا مهما يقصده التجار من الاماكن البعيدة[٥] ، فاجريت اتصالات - لأول مرة - بين موظفى شركة الهند

(١) ذكر محمد على بن رحمة الحويزى في كتابه " قطر الغمام " أنه من آل سلجوق ملوك الروم (زاد المسافر ص١٧) ، وفي الواقع ان اسم آفرسياب من الاسماء التى كانت مستعملة في سلاجقة لورستان ، على الحدود الجنوبية بين العراق وايران . انظر زامباور : تاريخ الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى . القاهرة ١٩٥١ .

(٢) انظر : فتح الله الكعبى : زاد المسافر . بغداد ١٩٥٨ ومحمد على الحويزى : النفحة المرضية (نشر الاقسام التاريخية منه الشيخ محمد الخال بعنوان الامارة الافرسيابية - بغداد ١٩٥٧) وتاريخ راشد ج ١ ص ١٢٦ ومرتضى نظمى زاده : كلشن خلفا ص٢٤٨ و Mignan,R.:Travels in Chaldea,PP.270-282,
وابن الغملاس ولاة البصرة ومتسلموها ص ٥٨ - ٦٢ و :
Huart,C.: Histoire de Baghdad, P. 84

(٣) وكانت الدول الاوربية المهتمة بالتجارة في منطقة الخليج ، هى البرتغال وهولندا وانكلترة ، ولم تكن فرنسا قد دخلت هذا الميدان على نحو سافر بعد انظر
Longrigg, S. H.: Four Centuries.., P. 105

(٤) رحلة تافرنييه ص ٩٥ ، ويقول هذا الرحالة الذى زار البصرة في اواسط القرن السابع عشر "وصار للامير علاقات بأمم اجنبية مختلفة ، فانى توجهت لقيت ترحيبا ، وعم المدينة الطمأنينة والنظام" .

(٥) Mignan,R.:Op.Cit., P. 275
Huart,C.: Basra (Islam Ansiklopedia, Vol. 11,P.325)

الشرقيـة الانجليزية وسلطات البصرة في الاعوام ١٦٣٥ ــ ١٦٤٠ ، وفي سنـة ١٦٤٣ أو قبلها بقليل انشأت الشركة وكالة اقليمية هناك ، وما أن حل عام ١٦٤٥ حتى اصبحت البصرة المركز الرئيسي المؤقت للشركة في الخليج [1] ، وأعقب ذلك حدوث تنافس مرير بين الدول البحرية الاوربية للسيطرة على تجارة البصرة ، فكانت لهولنده وكالـة نشطة في المدينة اشتغلت بتجارة المنسوجات خاصة ، ونافست تجارة البريطانيين منافسة جادة أدت الى الاضرار بأرباحهم [2] .

ومن ناحية أخرى ، فان البرتغاليين الذين هالهم سرعة التقدم التجـاري البريطاني سارعوا الى تثبيت مواقعهم في البصرة ، بل والدفاع عن حكومة الافرسيابيين ضد الهجمات الايرانيـة [3] .

ومما لا ريب فيه ، أن هذه المنافسة التجارية المحمومة قد أدت الى تحـول سريع في بنية المدينـة الاقتصادية ، فنمت طبقة التجار والوسطاء المتعاملين مـع الشركات الاوربية ، وازداد حجم التعامل المالي بين المراكز التجارية في العـراق وفي منطقة تمتد من سواحل سوريا غربا حتى الهند شرقا . وحاول البريطانيون خلـق فئات اقتصاديـة من أهل البلاد ترتبط مصالحها بمصالحهم ، فساعدوا الارمـن ، الذين أخذوا بالنزوح الى جنوبي العراق منذ القرن السادس عشـر [4] ، على ترويج

---

(١) لوريمر ، ج . ج : دليل الخليج (القسم التاريخي) ج ١ ص ٧٣
و Wood, A.C.: A History of the Levant Co., Hiskins, H.: British Routes to India, London 1928.

(٢) وبلغت تلك المنافسة ذروتها عند نشوب الحرب الانكليزية الهولندية في الشـرق (١٦٥٣ ــ ١٦٥٤) .

(٣) Longrigg, S.H.: Op. Cit., PP. 106, 107.

وعبد الفتاح ابراهيم : على طريق الهند ــ بغداد ١٩٣٥ .

(٤) يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما وحديثا ص ٧٣ .

تجارتهم ، واغرائهم بالقاء كل ثقلهم الى جانب الانجليز (١) ، وبهذا تمكن التجار الارمنيون من تكوين شبكة محكمة من المراكز التجارية في البلاد ، كانت تمد الحليف الطبيعي لشركة الهند الشرقية الانجليزية في اعمالها (٢) . ونظرا للعلاقة القوية التي كانت تربط تلك المجموعات التجارية الارمنية بسكان المدن العراقية ، وولاتها وذوي الشأن فيها ايضا (٣) ، فانه يمكن القول بأن نشوء فئات تجارية محلية ، من غير السكان الوطنيين ، متحالفة مع بواكير الرأسمالية التجارية الاوربية ، ومؤثرة في اقتصاديات البلاد ، كانت اول النتائج المترتبة على الوجود البريطاني الحديث في العراق .

ولقد أظهرت حكومة الافرسيابيين في البصرة ، رغم سقوطها السريع سنة ١٦٦٥ /١٠٧٦ هـ (٤) ، مدى الدور الخطير الذي يمكن أن تلعبه المجموعات التجارية في التأثير على مجريات السياسة العامة في البلاد . وعلى الرغم من أن تجربة انفصال البصرة مدة سبعين عاما (٥) عن الدولة المركزية ، وتشكيلها حكومة مدنية

---

(١) لوريمر : دليل الخليج (القسم التاريخي) ج ١ ص ١١٨ .

(٢) أشار آيفز الى أعمال الارمن التجارية بين بغداد والبصرة في رحلته . انظر

Ives, E.: A Voyage from England to India, PP.259-262.

(٣) يشير ايفز الى أن الارمن كثيرون في البصرة ، وهم موضع اعتماد متسلمها على اغا

(Ives,A Voyage from England to India, P. 259)

يذكر نيبور أن متسلم البصرة في عهده (سنة ١٧٦٥) كان قد فرض غرامة على تاجر ارمني لانه انشأ جسرا قرب المدينة دون استحصال فرمان بهذا الشأن .

Niebuhr,C.:Voyage en Arabia..., 11, P. 220.

(٤) سقطت البصرة بعد سلسلة ضغوط عثمانية ، وحروب عنيفة نفذها ولاة بغداد ، خلال مدة تجاوزت العشر سنوات . انظر فتح الله الكعبي :زاد المسافر ص ٢١-٣٣ ومرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٤٠ - ٢٤٨ و

Mignan,R.:Op.Cit.,P.280,Longrigg,S.H.:Op.Cit.,PP.114-117.

(٥) من ١٥٩٦م /١٠٠٥ هـ الى ١٦٦٥م /١٠٧٦ هـ .

قوية تستطيع توفير الأمن اللازم للتجارة ، وتشجع على الاتصال بالمد الاقتصادى الحديث للعالم الأوروبى ، كان قد ساعد على قيامها بعد البصرة عن السلطة المركزية العثمانية ، وتحصنها بطبيعة جغرافية منيعة نوعا ما (١) ، فان ظروف تكرار التجربة فى أجزاء اخرى من العراق لم تكن بعيدة ، وهى ان ظهرت سافرة الضمون فى البصرة ، فذلك لأن اقتصاد البصرة كان منذ القدم بعيدا عن النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفت فى شمالى العراق ووسطه (٢) ، وهو وضع سببه عدم وجود ريف زراعى مستقر • ولسوف يتضح لنا أن الطبقة التجارية فى المدن العراقية الاخرى ، استطاعت – بعد فترات زمنية متفاوتة – أن تلعب دورها فى الحياة السياسية ولكن على نحو ينسجم مع البنية الاقتصادية القائمة فعلا فى تلك المدن •

ففى الموصل مثلا انتهز تجار المدينة فرصة انشغال الادارة العثمانية الاقطاعية التى تحكم البلاد منذ القرن السادس عشر ، بالصراع مع القوى الاقطاعية المحلية ، وعجزها عن توفير الضمانات الكافية لحماية مصالح الطبقة التجارية ذات النفوذ ، فتولت اسرة الجليليين التجارية القوية حكم الولاية رسميا سنة ١٧٢٦م/١١٣٩ هـ (٣) ، لتحتكر السلطة السياسية بعدها مدة تزيد على القرن (٤) ، اظهرت فيه انها الاقدر من غيرها على ادارة شؤون الولاية ، وتمثيلها لمصالح سكان المدينة من تجار وحرفيين •

---

(١) تتميز منطقة البصرة بكثرة الترع المتفرعة من نهر شط العرب ، ووجود مستنقعات عديدة حولها ، وتعتبر منطقة الجزائر (البطائح) من الموانع الطبيعية الفعالة فى وجه اى تقدم عسكرى اليها ، ذلك ان هذه المنطقة – وهى مجموعة من المستنقعات الكبيرة – كانت تعترض الطريقين الرئيسيين بين وسط العراق وجنوبه ، نهر دجلة ، ونهر الفرات •

(٢) ونظام (التيمار) العثمانى هو اخر صورة لتلك النظم •

(٣) تاريخ جلبى زاده افندى ص ١٢٨ ومحمد ثريا : سجل عثمانى ج ١ ص ٣٦١ • وياسين العمرى : الدر المكنون ص ٥٨٠ (مخطوط) •

(٤) استمر حكم هذه الاسرة حتى سنة ١٨٣٤ م / ١٢٤٩ هـ •

وبما أن السلطة السياسية فى الموصل ، كانت تستند – حسب نظام التيمار العثمانى – الى ارضية اقطاعية متناسبة معها ، فقد خلق تولى الجليليين السلطة وما يخلونه من قوى تجارية ، وضعا جديدا غريبا من نوعه ، لكنه لا يغير من حيث الشكل اسس التنظيم العثمانى السائد ، فهى قوى تجارية تمارس سلطة سياسية ، بموجب ملكياتها الاقطاعية الشرعية ، ومن هنا فقد اهتم الجليليون – وخاصة فى الفترة الاولى من حكمهم – بحماية المصالح الاقتصادية ، حتى تناقل التجار عنهم الكرامات (١) ، واثرت عنهم اعمال اقتصادية نافعة كتخفيف الضرائب ومحاسبة شيخ الاصناف (٢) .

تأمين التجارة وتنشيطها :

ومن الظواهر البارزة على حكومات العراق فى عهد المماليك ، اهتمامها الخاص باصلاح طرق التجارة ، وتأمينها من أخطار اللصوص وقطاع الطرق ، ومن الطبيعى أن هذا العمل كان من أهم ما تحتاجه التجارة لكى تقوم بعملها فى نقل البضائع والمنتوجات المختلفة بين المدن والقرى المنتشرة فى انحاء البلاد . ففى الموصل ، اشتهر الحاج حسين باشا الجليلى بانه " قطع دابر قطاع الطريق واللصوص "(٣) . كما عرف بوقفيته لقرية قره قوش التى اشترط فيها بناء جسرين على طريق بغداد – كركوك – الموصل (٤) . وكان الولاة الجليليون يعمدون ، عند خروج القوافل

---

(١) أمين العمرى : منهل الاولياء ج ١ ص ١٤٢ – ١٤٣ .
(٢) الاصناف : هى نقابات الحرفيين فى التنظيمات الاسلامية .
(٣) منهل الاولياء ج ١ ص ١٤٦ .
(٤) وقفية قرية قره قوش ، مؤرخة فى شهر ذى القعدة سنة ١١٦٣ هـ (مخطوط) .

الكبيرة ، الى ارسال فريق من الجند معها ليتولى حمايتها من اللصوص وقطاع الطرق . ففي سنة ١٨٠٢م / ١٢١٧هـ كادت احدى العشائر أن تنهب قافلة موصلية ضخمة لولا العسكر الذين ارسلهم والي الموصل محمد باشا الجليلي للدفاع عنها .(١)

وفي بغداد ، قام حسن باشا وابنه احمد باشا ، موسسا نظام المماليك بأعمال هامة في هذا السبيل ، ذلك أن حملات هذين الواليين على العشائر الثائرة ، على الاخص تلك التي تهدد طرق المواصلات التجارية (٢) ، كان - في احدى جوانبه - حماية للتجارة ، ولمصالح الطبقة التجارية (٣) ، واذا أمر له مغزى ، أن يفتتح أحمد باشا عهده الطويل بمجموعة من الاصلاحات السريعة للطرق ، فيعيد تعمير عدد من الخانات على طريق الحلة والنجف (٤) ، وينشيء خانات جديدة في اماكن مختلفة اخرى ، ويجدد ، بنفقته الخاصة ، عددا من القناطر على طريق شهرزور التجاري الشهير (٥) . ولا شك أن القضاء على شوكة الانكشارية في بغداد والمدن العراقية الاخرى باستبدالهم بموظفين مدنيين من المماليك ، كان في حد ذاته خطوة مهمة في سبيل توطيد الامن داخل المدن ، حتى تمضي الاعمال المدنية والاقتصادية في سبيلها دون عائق . (٦)

---

(١) ياسين العمري : غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر ص ٦١ .
(٢) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .
(٣) وقد لاحظ نيبور ، عند اقامته في بغداد سنة ١٧٦٦ ، هذه الناحية المهمة ، ووصف أوضاع التجارة في العراق قبل تولي حسن باشا السلطة بأن الانكشارية كانوا مسيطرين على داخل المدينة ، والاعراب كانوا مسيطرين على خارجها ، ولم تكن التجارة محمية في البلاد ابدا ((Niebuhr, K.: Op.Cit., II, PP. 253 - 254).
(٤) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٣١٩ وعبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء ج ١ ص ٢٦ والعزاوي : العراق بين احتلالين ج ٥ ص ١٦٤ .
(٥) كلشن خلفا ص ٣٣١ .
(٦) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 254.
Heude, A Voyage up the Persian Gulf, P. 143

دور التجار في السياسة وازدياد اعتماد الولاة عليهم :

ومن الواضح ، ان تطهير طرق للتجارة من خطر السلب ، وخلق أداة حكومية جديدة اكثر انتماء للحياة المدنية ، كان هو ما تحتاجه طبقة التجار ومن يتعلق بهم في عراق القرن الثامن عشر .

واذ ادت هذه السياسة الى تقدم ملحوظ في النشاط التجاري ، وزيادة في أرباح التجار والوسطاء ، فانها زادت ، بشكل بارز ، من أهمية الطبقة التجارية في السياسة العامة ، وقد تجلت هذه الأهمية حينما اضطر احمد باشا بن حسن باشا ، نتيجة لظروف عمليات نادرشاه العسكرية في العراق [1] ، الى الاستدانة من اصحاب المال مبالغ كبيرة قدرت بألفي كيس من الفضة . [2] ويبدو أنه كان لأولئك الدائنين من التأثير ، ما دفع سليمان باشا (أول المماليك وخلف أحمد باشا) الى التلويح لسلطات الباب العالي بقدرته على " اعطاء الديون الى اربابها " ان هو اختير واليا على بغداد والبصرة . ولاثبات جدية وعده هذا ، تأخر في البصرة (وكان يومذاك متسلما لها) " كيما يؤدي لكل ذي دين دينه " [3] .

---

(١) وهي العمليات التي شغلت معظم عهد احمد باشا ، وحوصرت أثناءها بغداد في السنوات ١٧٣٣م/١١٤٥ هـ و ١٧٣٤/١١٤٦ و ١٧٣٥/١١٤٨ و ١٧٤٣/١١٥٦ هـ .

(٢) الكيس : وحده مالية تقدر بـ ٥٠٠ قرش صاغ فضة ، وكان هذا النوع من القروش مرتفع القيمة جدا في ذلك العهد ، ويعادل ٤٨٠ فلسا من فلوس تلك الفترة ومعنى هذا أن اجمالي الدين كان يبلغ مليون قرش صاغ ، أو (١٢٠) مليونا من الفلوس (عماد عبد السلام رؤوف : بعض العملات المستعملة في الموصل في العهد العثماني وأقيامها ــ مجلة المسكوكات العراقية عدد ٥ سنة ١٩٧٥) .

(٣) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد ص ١٧ و ٣٢ .

فكانت اعماله تلك مدعاة لارتياح أولئك الدائنين الذين باتوا يستطيعون اسماع اصواتهم لسلطات القسطنطينية ، وعلى ذلك ، فقد تم تعيين سليمان باشا أول ولاة المماليك على بغداد والبصرة معا ، وأصبح واضحا منذ بدء عهد المماليك ، مدى ما يدين به هذا النظام الجديد للطبقة التجارية المتنامية في مدنه .

ويبدو أن ممارسة التجار ، وهم أصحاب الأموال الرئيسيين في البلد ، دورهم في السياسة ، ظل يستند ـ بالدرجة الاولى ـ الى مدى ما يمكن أن يسهموا به من معونات مالية لفك ضائقة الازمات التي تمر بها الحكومة بين حين وآخر . وكانت فكرة الاستدانة من التجار تبدو مفضلة دائما للولاة . ففي البصرة ـ مثلا ـ استطاع تاجر كبير ، هو الحاج يوسف ، أن يكسب صداقة متسلم المدينة علي آغا [1] الى درجة مكنته من التضييق على التجار الآخرين لصالحه ، وكان علي باشا نفسه مدينا لهذا التاجر بمبلغ (٢٠٠,٠٠٠) قرش . غير أن عزل علي باشا أفقد التاجر نفوذه ، ثم سرعان ما اغتيل وتفرقت أمواله [2] .

وفي بغداد ، حيث كانت الامور اكثر استقرارا ، أسهم التجار مساهمة فعالة في مضاعفة واردات خزينة الولاية [3] .

---

(١) هو الحاج علي اغا ، تولى متسلمية البصرة من سنة ١٧٤١م/١١٥٤هـ / الى سنة ١٧٤٧ م/١١٦٠ (ابن الغملاس : ولاة البصرة ومتسلموها ص ٦٦ وسالنامة ولاية البصرة لسنة ١٣٠٩ ص٦٣) .

(٢) Niebuhr, C.: Op. Cit., I. 179

(٣) سليمان فائق : مرآة الزوراء في سيرة الوزراء ص ٢٧ .

وأدت سياسة سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢ م/١١٩٤ ـ ١٢١٧ هـ) الاقتصادية ، وهدوء الاحوال في عهده ، الى تشجيع التجارة [1] ، كما أدت في الوقت نفسه ، الى زيادة نفوذ بريطانيا الاقتصادي في السوق المحلية ،[2] وهما امران كانا متلازمين على الدوام .

وشيئا فشيئا ، ازداد اعتماد ولاة المماليك على الطبقة التجارية في توفير السيولة المالية اللازمة لتصريف مختلف الشؤون ، وهو ما استطاع التجار انفسهم استثماره لصالحهم لاقصى حد . فعندما ادت سيادة سعيد باشا (١٨١٣ ـ ١٨١٦م /١٢٢٨ ـ ١٢٣٢ هـ) غير الحكيمة [3] الى ارتباك في خزينته ، لم يجد بدا من الاقتراض من تجار بغداد ، بنسب صغيرة من كل واحد منهم ، ملغا قدر بـ ٢٥,٠٠٠ قرش ، ولما دفعته الحاجة الى اقتراض ٥,٠٠٠ قرش اخرى من خمسة تجار ، اعطيت لهم ، مقابلها ، حوالات مالية على الجمرك ، تمكنهم من استرداد أموالهم بموجبها . ولقد ساعدتهم هذه الحوالات على ان يسددوا لانفسهم قروضهم مع اعفائهم بموجب تلك الحوالات من الرسوم الاعتيادية على سلعهم الى ان يتم تسديد

---

(١) مرآة الزوراء ص ٢٧ و Olivier,G.A.: Voyage dans L'Empire Ottoman., II, P. 388

(٢) في سنة ١٧٩٨ فتحت مقيمية بريطانية في بغداد يرأسها هارفورد جونز Harford Jones أحد العاملين في مكتب الهند " وكان الهدف من هذا الاجراء هو السيطرة على باشا بغداد " . أنظر لوريمر : دليل الخليج (القسم التاريخي ج ١ ص ٢٦٩) . وعن نشاط الانجليز التجاري في هذه الفترة ، انظر : Wood,A.C.:A History of the Levant Company (London 1935)

مبلغ الحوالة (1) . وشبيه بهذا ، ما قام به والى بغداد على رضا باشا حين ارغمته الازمة المالية والقحط على "عقد قرض مع التجار ، على أن تحسب النقود التى سيقرضها منهم على اموال الجمرك فى المستقبل" (2)

ويبدو أن تلك الحوالات ازدادت فى آخر عهد المماليك الى درجة اننا نجد بعض النساء من كانت لها حقوق معلومة من اموال جمرك بغداد (3) ، وهو امر - فضلا عن دلالته على ازدياد الثقة فى قدرة الحكومة على التسديد - فانه يكشف عن امرين هامين :

أولهما : اعتماد الحكومة المتزايد على اصحاب الاموال فى توفير المال اللازم لتصريف شؤونها وتنفيذ مشاريعها .

وثانيهما : كثرة الاموال التى تجبيها الدولة كضرائب من التجار ، وهى فى حقيقتها مورد الجمرك الوحيد .

دور التجار الثقافى :

واثر عن بعض تجار المدن - خلال عهد المماليك - اهتمامهم بالثقافة ونشر العلوم ، فانشأ الحاج زكريا التاجر فى الموصل مدرسة ، وأوقف عليها مائتى مجلد (4) . وقام التاجر عبد الحافظ الموصلى سنة ١٧٦٧م/١١٨١ بتشييد جامع

(1) Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia, II, P.135

(2) الوثائق القومية بالقاهرة . محفظة رقم ٢٣٨ عابدين ، الوثيقة التركية رقم ١٤٩/٨ بتاريخ ١٦ ربيع الآخر ١٢٤٨ هـ . ويذكر سليمان فائق (ت١٨٩٦م/١٣١٤) أن دينه للحكومة بلغ مائة الف قرش (مرآة الزوراء ص ٣٣) .

(3) عرضحال من الحاجة عائكة الى والى بغداد سنة ١٢٤٧ (ضمن مجموعة خطية فى مكتبة جامع الشيخ عبد القادر الكيلانى ببغداد) .

(4) ياسين العمرى : الدر المنتثر . الورقة ٢٠١ (مخطوط) وداود الجلبى : مخطوطات الموصل ص ٧٩ - ٨٢ .

كبير وأوقف عليه ما يكفيه (١) . وفي البصرة بنى السيد محمد الرويني مدرسة ووقف عليها كتبا كثيرة تزيد على ثلاثة آلاف كتاب (٢) . وشيد تاجر ، يدعى سليمان فرهاد ، جامعا ومدرسة في مدينة كركوك ، وجعل فيها كتبا كثيرة نفيسة (٣) . وفي بغداد ، شيد عدد من التجار ، مدارس ومساجد مهمة ، فعرف آل الباجچي ، وهم من أكبر تجار المدينة ، بانشائهم مسجدين ومدرستين ملحقتين بهما في الجانب الشرقي ، وأوقفوا عليها مجموعة ضخمة من الكتب (٤) . وشيد الحاج زكريا بن عبد الوهاب المشهور بالخضيري ، مسجد التسابيل سنة ١٧٩٦م/١٢١١ هـ في المحلة المعروفة بأسمه (٥) .

ودفع اغراء الثروة السريعة مجموعات اخرى من السكان الى القيام باعمال تجارية مختلفة ، فشاركت فئات ارستقراطية ، ذات طبيعة اقطاعية ، في اعمال تجارية بحتة ، كما كان لعلماء الدين نصيب واضح في تلك المشاركة . وفي الموصل ، اصبح " تاجر حلب " صفة يوصف بها كل ذي ثروة طائلة مهما كان مصدرها (٦) . بل بلغ الامر بوالي بغداد سعيد باشا أن كانت له تجارته الخاصة به (٧) .

---

(١) ياسين العمري : الدر المكنون ص ٦١٢ (مخطوط) وسعيد الديوجي : جوامع الموصل ص ١٧١ .

(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ص ١٦٦ . ومحمد بن عبد الله الاحسائي : تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والحديث ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) عنوان المجد ص ٩٥ .

(٤) وقفية جامع ابي بكر الباجچي المؤرخة ٢١ رمضان ١٢٢٣ ، ووقفية جامع نعمان الباجچي . المؤرخة ١٠ شوال سنة ١٢٥٣ هـ ، وعنوان المجد ص ١٠٠ ومحمود شكري الآلوسي : مساجد بغداد وآثارها ص ٧٠ ، وعماد عبد السلام رؤوف : مسجد نعمان الباجچي . جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١٩٦٧/٣/٧ .

(٥) وقفية جامع التسابيل ، المؤرخة ٢٥ ذي الحجة ١٢١١ وعباس بن جواد : نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ص ٢٩٣ .

(٦) عبد الخالق الدباغ الهذلي : معجم امثال الموصل العامية ج ١ ص ٧٠ .

(٧) سليمان فائق : مرآة الزوراء ص ٦٣ .

واستطاعت اسر تجارية ، نتيجة استحواذها على اكبر قدر من المكانة والثروة ، ان تجهز الحملات العسكرية ، وتتدخل في السياسة تدخلا سافرا ، فحين تولى يحيى بن سليمان من آل الزهير حكم بلدة الزبير (قرب البصرة) اتسع نفوذه ، وأسس اسرة حاكمة قوية تمكنت من الاستقرار في الحكم اكثر من قرن [1] ، وامتد نفوذها الى البصرة ذاتها ، الى حد أنهم دافعوا عنها بقواتهم ضد هجوم قبيلة كعب ، بعد عزل والي بغداد داود باشا [2] .

وزادت أهمية التجار في مجالس الحكم والادارة ، حتى صارت مجالس الولاة لا تخلو من تجار كبار وأمسونها ، فكان الحاج عمر جلبي القشطيني (توفي ١٨١٢م / ١٢٢٧ هـ) ، وهو من ابرز تجار الكرخ ، صاحب مكانة موموقة لدى والي بغداد سليمان باشا الكبير ومن جلسائه ، ونال ولده الحاج عبدالله منزلة خاصة لدى الوزير داود باشا حتى انه كان يكلفه بمهام رسمية لدى الايرانيين [3] . وكان الحاج نعمان جلبي الباججي ، من اخص المقربين الى الوالي سعيد باشا ، محسوبا عليه ، حتى أنه اضطر ــ بعد مقتل هذا الوالي وتولي داود باشا بعده ــ أن يفتدي نفسه بمبلغ جسيم من المال عقابا له على تأييده الوالي القتيل [4] .

---

(١) عنوان المجد ص ١٦٤ والنبهاني : التحفة النبهانية (قسم البصرة) ص ١٢٣ ــ ١٢٥ وحسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ج ١ ص ٩٣ ــ ٩٧ .
(٢) عنوان المجد ص ١٦٥ ومرآة الزوراء ص ١٠٥ وتاريخ الكويت السياسي ج ١ ص ٩٨ .
(٣) ابراهيم الدروبي : البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم ص ٥٤ .
(٤) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٢٧٧ ومرآة الزوراء ص ٦١ وتاريخ جودت ج ١١ ص ٢٨ ــ ٢٩ .

وبلغ من ثراء الحاج نعمان المذكور أنه " نال من المال مالم ينله أحـد التجار .... وانـه كان يطعم جميع فقـراء بغداد وغيرهم من الواردين الى بغداد سنـة القحـط والغلاء " (١) . ووصف بيت الهاجري بانه " بيت عز وتجارة وخيرات ومبرات وتجارة عظيمة " (٢) .

أشهر البيوت التجارية وتنوع ملكياتها :

وبرزت في بغداد ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أسر تجارية كبيرة ، منها بيت الملا عبد الرزاق الحافظ البرزلي ، وكان هذا " من اكابر الناس ، ومن التجار الصالحين " (٣) . ومنها ايضا بيت دلة ، وبيت سند وبيت الامام ، وبيت عطاء ، وبيت هاشم ، وبيت التوكمه جي ، وبيت عرموش ، وبيت مينه ، وبيت كبه " وهو بيت عظيم في التجارة " (٤) ، وبيت سيد عيسى ، وبيت شالجي موسى ، وبيت المراياتي ، وبيت الخاصكي ، وبيت الاعرجي ، وبيت المصلحجي ، وغيرهم .

واشتهرت في البصرة ، اسر اخرى ، ذاع صيتها في الثراء والتجـارة ، منهـا آل الزهير ، وبيت رزق " وكانت لهم الصدقات الكثيرة والآثار الحميدة ، والثروة التامة ، والعز الكامل " (٥) . ومن هذه الاسر ايضا ، بيت الحاج عبد الواحد ، " وهو بيت عز وتجارة ، وخير ، وثروة تامة " (٦) ، وبيت الفداغ ، وبيت عبد الرزاق ، وغيرهم .

---

(١) عنوان المجد ص ١٠٠ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .
(٤) المصدر نفسه ص ١٠١ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٦٨ .
(٦) المصدر نفسه والصفحة .

ومنذ القرن التاسع عشر ، خرجت بعض الاسر التجارية العراقية الى ميدان التجارة الخارجية ، من ذلك أن احد تجار كربلاء قام ببناء باخرة لحسابه في بمباي بالهند ، من طراز سكونر Schooner ، وأطلق عليها اسم " الكربلائية " ، وكان في استطاعة هذه السفينة أن تبحر في المحيط الهندي الى الخليج العربي ثم الى شط العرب ونهر دجلة الى بغداد مباشرة دون توقف ، أي انها باخرة محيطية نهرية في آن واحد . (١)

ويمكن القول بأن مصدر التراكم الرأسمالي الرئيسي كان في ايدي اولئك التجار (يليهم بعد ذلك كبار العلماء) ، حيث تكشف دراسة الوثائق الشرعية لبعض الأسر التجارية الشهيرة ، عن تنوع اشكال ملكياتهم المالية ، وتعددها . ففي وقفية الحاج ابي بكر الباججي على مسجده ، المؤرخة في سنة ١٨٠٨م/١٢٢٣هـ نجد ان الوقف اشتمل على حمام كبير في كرخ بغداد ، ومخزن ، ومجموعة من دكاكين في أسواق متعددة ، وخان كبير من طابقين ، ودور ، ونهر في ناحية الخالص شرق بغداد . (٢) وفي وقفيات الحاج زكريا الخضيري ، نجد أن الوقف اشتمل على جزء من مقهى ، ودكاكين في سوق (٣) . كما اشتمل ، في وقفية التاجر علي جلبي بن اسماعيل الشطي المؤرخة سنة ١٨١٢م/١٢٢٧ هـ ، على اراضي مختلفة ، داخل بغداد وخارجها (٤) .

---

(١) عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤ ، ص ٦٧ .

(٢) وقفية ابي بكر الباججي على مسجد الصباغ ببغداد (مخطوط) ، وابراهيم الدروبي : اخبار قضاة بغداد ص ٢٠١ (مخطوط) .

(٣) وقفيات زكريا الخضيري على مسجده ، مؤرخة سنة ١٢١١ هـ .

(٤) وقفية على جلبي الشطي على ذريته ، مؤرخة ٢٤ ربيع الاول ١٢٢٧ هـ .

خامسا : العامـــة

لقد ارتبطت ظاهرة نمو طبقة العامة في مدن العراق ابان عهد المماليـــك ، بالتحول الذي كانت تمر به تلك المدن من وضعها الاقطاعي القديم ، باعتبارهـــا قلاع عسكرية لحماية الارض ، الى وضعها الجديد باعتبارها مراكز نشطة للحركـــة التجارية المتنامية في البلاد ، ومجالا للفعاليات الحضرية للطبقة التجارية الفتيـــة ، ذلك أن نشاط هذه الطبقة الاخيرة قد ادى الى خلق مجالات عمل متنوعة في مدنهـــا لم تكن معروفة في ظل اقتصاديات النظام الاقطاعي المغلق من قبل .

المهاجرون الغربـــاء :

ومن الملاحظ أن اكثر المدن ازدهارا في هذا العهد ، هي اكثرها اكتظاظـــا بالعامة ، ونقصد بهم تلك الفئات من السكان الذين لم يكن لهم وضع معين ضمـــن الكيان الاجتماعي للمدينة ، وانما جذبتهم اليها اسباب اقتصادية محضة ، كالمجاعات ، والفقـــر ، وموجات القحط التي تعرضت لها مواطنهم الاولى ، واملا في ان يجدوا داخل اسوار المدن ، ما يسد رمقهـــم بالعمل في المجالات العديدة التي تحفل بهـــا .

وكانت الهجرة — بحثا عن الطعام — أمرا مألوفا عند كل مجاعة تحل في البلاد ، وكان على المدن العراقية أن تستقبل في مثل تلك الحالات أفواجا من الفقـــراء البائسين ، الهاربين من وطأة الجوع في الاقاليم المجاورة ، والبعيدة أحيانا . فعندما داهم القحط محاصيل الموصل سنة ١٦٨٨ م /١٠٨٧ هـ " اشتد بالناس الكرب والجوع ، وسافر من الموصل خلق كثير ، وتشتتوا في البلاد بطلب الزاد " [١] ، وتكرر

---

(١) ياسين العمري : زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية ص ٧٣ .

مثل هذا سنة ١٦٨٨م/١١٠٠هـ " اشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، ونهجت (تفرقت) الرعية في البلاد ، وخربت اكثر القرى " (١) . وفي ازمة سنة ١٧٥٧م/١١٧١هـ داهم القحط منطقة اعالي الجزيرة ، فانسابت جموع الجياع الى الموصل " وامتلأت المدينة بالفقراء من أهل البلدة ومن أهالي القرى ومن الاماكن النائية " (٢).

وكانت بغداد ، وهي أكبر مدن العراق وأكثرها كثافة ، تعاني هي أيضا من ظاهرة الهجرة اليها ، وتحول المهاجرين بالتالي الى عبء اجتماعي واقتصادي على سلطات الولاية ، وكانت في بغداد احياء كاملة من أولئك الفقراء ، تقع في اطراف الاجزاء المأهولة من المدينة ، ورغم المحاولات التي كان يبذلها الولاة المتعاقبون للتخلص من المهاجرين " الغرباء " (٣) ، الا أن الاخيرين استمروا في البقاء في أحيائهم ، فشكلوا بذلك أهم مصدر لطبقة العوام الاجتماعية في مدن العراق آنذاك .

مهن العامة :

ولقد امتهن العوام مهنا عديدة ، وكان أغلبهم يعمل بالأجرة اليومية ، كالسقائين ، وهم الذين يحملون الماء على ظهورهم الى اماكن حفظها في البيوت والسقايات العامة ، ومثل الحمالين ، والمكارين ، والحطابين ، وباعة الاشواك ، وغيرهم . واستطاعت فئات اخرى ان تنضوي داخل أصناف الحرفيين التقليدية ، مستفيدة من الحركة الاقتصادية الجديدة وما تحتاجه من ايدي عاملة رخيصة ، فكان

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٥ .
(٣) دومنيكو لانزا : مذكرات .. ، ص ٤٣ .

منهم الحدادون ، والنجارون ، والصفارون ، والسراجون ، والعطارون ، والصباغون ، والنفاطون ، والفخارون ، وباعة الاطعمة المتجولون ، وغيرهم [١] .

ونزحت عشائر برمتها الى بعض المدن ، متمهنة بمهن تميزت بها ، فمنذ ما نزحت عشيرة " المهدية " الى بغداد في القرن الثامن عشر ، امتهن افرادها الجزارة ، فكان معظم الجزارين ببغداد منهم ، ونسبت اليهم احدى " المحلات " منها [٢] .

وكانت صناعة النسيج في الموصل تمثل احدى المجالات الرئيسية التي تستوعب أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة ، فقد أدى تحول هذه الصناعة من المجال الحرفي اليدوي الى مجالات أوسع تعتمد على انشاء الورش والمصانع ، الى ظهور حاجة ملحة الى وجود ايدي عاملة رخيصة [٣] ، وكلما اتجه المنتجون الى التصدير ، ازدادت تلك الحاجة ، حتى أن لانزا يذكر أن نسيج القطن كان يمثل - على أيامه [٤] - مهنة عامة الناس " فيهتم الرجال بنسجه اشكالا مختلفة ، واخرون بقصره ، وغيرهم بصبغه أو رسمه بصور شتى ، وغيرهم بنقله وبيعه ، وهكذا فالجميع - تقريبا - يشتغلون به " [٥] .

---

(١) Jones, F.: Selection from the Record of Bombay Government, PP. 312 - 339.

(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٠٩ ، وتقع محلة المهدية في الجانب الشرقي من بغداد .

(٣) Badger, J.: The Nestorians, P. 74
والموصل في العهد العثماني ص ١٨٣ و ٢٩٢ .

(٤) في النصف الاخير من القرن الثامن عشر .

(٥) مذكرات دومنيكو لانزا ص ١٦ .

سكان محلة الشيخ الكيلاني ببغداد :

على أنه لم يكن لجميع أولئك العوام حرفهم التي ينتظمون فيها ، فقد بقيت هناك أعداد كبيرة منهم ، ممن ليست له مهنة محددة ، أو ليست له مهنة على الاطلاق ، يقيمون في المدن العراقية الكبيرة ، ويشكلون – في الغالب – فئات مختلفة من الدراويش والشحاذين والمتشردين والمحتالين . وهم يقيمون في احياء كبيرة خاصة بهم ، ليست للحكومة الا أقل تأثير عليها . ففي بغداد مثلا ، كانت محلة " الشيخ عبد القادر الكيلاني " الكبيرة ،(١) حيث يقع قبر هذا الولي المشهور وجامعه وتكيته ، تعد حيا خاصا بأمثال تلك الفئات . ويذكر الرحالة الانجليزي فريزر : " أن الناس الذين يشعرون بخطر الوقوع في قبضة العدالة المرتخية في بغداد، يحتمون في ظل هذا الولي الكبير ، ولذلك كان يمكن العثور هنا على جميع اللصوص والمحتالين ، وجميع القتلة والبلطجية (٢) .

---

(١) يقع هذا الحي في الجانب الشرقي من بغداد ، وكان يعد في العصر العثماني ، آخر الاحياء المأهولة من الجانب المذكور ، فهو يتصل من ناحية الغرب والشمال باحياء بغداد الاخرى ، ولا يتصل من النواحي الباقية الا بأرض قفر غير مأهولة ، وبقايا تحصينات عسكرية قديمة ، وبساتين يملكها بعض البغداديين ، وتحفل تلك المنطقة بعدد من القبور والاضرحة ، مما يسهل على الخارجين على القانون مهمة التخفي والهرب من السلطة عند الضرورة .

(٢) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, II, P. 311.

وكان سكان هذا الحي يتألفون ، غالبا ، من أجناس مختلفة جمع بينها ضعفهم الاقتصادي والاجتماعي المتدني في المدينة ، فكان منهم العرب والاكراد والافغان والهنود وغيرهم (١) . وكانت زيارة ضريح الشيخ الكيلاني واللوذ بقبره ، وأوقاف تكيته (٢) مطمحا لكثير من الزوار والمهاجرين الذين يأخذون بالاقامة والاستقرار في حيه .

وبلغ من مناعة حي الشيخ هذا وخطورة سكانه ، أنه لم يكن ثمة وال يجروء على التدخل في شوءونه الا نادرا . وكان سوق الضباط او الجنود عليه يعد مجازفة غير محمودة العواقب . ولم يكن الحي يخضع لأي سلطة رسمية سوى سلطة

---

(١) وقد ترك أولئك أسماء اقوامهم على معالم "المحلة" ، فكان هناك عقد الاغوان (الافغان) ، ومحلة الاكراد ، وقهوة عرب . انظر :

Jones, F.: Op. Cit., P. 313

ويشير أبو طالب خان ، عند زيارته لمشهد الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد ، سنة ١٨٠٤م / ١٢١٨ هـ ، الى انه وجد داخل سور المشهد زهاء الفي زائر وطالب اكثرهم جاءوا من البلاد الهندية ، واقاموا داخل سور المشهد ، ورتب لهم لكل يوم راتب من نفقات موءسسته الدينية . وكان قد ذكر ان هناك عدة املاك جليلة موقوفة على هذا المكان (رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣) .

(٢) من أشهر معالم محلة الشيخ عبد القادر وأهمها التكية القادرية ، وكانت مجمعا للدراويش والصوفية على مر العهود ، ولا يعلم ـ بالتحديد ـ زمن تأسيسها ، والظاهر أنها انشئت على جزء من أرض مدرسة الشيخ الكيلاني (مدرسة المخرمي سابقا) ، وخربها الشاه اسماعيل الصفوي عند فتحه بغداد سنة ١٥٠٨/٩١٤هـ وفي سنة ١٥٣٤/٩٤١ هـ فتح السلطان سليمان القانوني بغداد وعمر التكية ورتب لها أوقافا تكفيها ، ولما قام الفرس بتخريب التكية وأثناء احتلالهم لبغداد ثانية سنة ١٦٢٣م/١٠٣٣ هـ ، أعاد السلطان مراد الرابع تعميرها ، ورتب لها من الاوقاف ما يكفي لاطعام الفقراء والصوفية كل يوم . انظر ابراهيم الدروبي : البازالاشهب (بغداد ١٩٥٥) ص ٣٠ وعماد عبد السلام روءوف : مدارس بغداد في العصر العباسي (بغداد ١٩٦٦) ص ١٤٠ ـ ١٥٤ .

نقيب الاشراف وحسب ، وكان هذا النقيب بحكم قدسيته الروحية المستمدة من كونه سليل الشيخ عبد القادر الكيلاني نفسه ، وعميد ذريته (١) ، يعد بمثابة الأب الحامي لتلك الطوائف من السكان ، فهو يمارس بينهم شيئا غير قليل من النفوذ والسلطة في حين كان السكان يكافئونه على حمايته لهم بطاعته ، وحماية تخوم ممتلكاته ضد الفضوليين والمتطفلين . (٢) ومما يذكر في هذا الصدد ، انه حتى داود باشا نفسه أقوى ولاة المماليك وآخرهم ، لم يستطع فرض اراداته على المحله الا بعد ضربها بالمدافع ، غير أنه لم يستمر في اجراءاته تلك ، خشية اثارة روح التعصب الديني ضده ، على ما يذكر فريزر (٣) ، تلك الروح التي كان بوسع النقباء اثارتها لدى العامة بكل سهولة ، بل بمجرد التلويح بالراية المقدسة للشيخ عبد القادر ، واخراجها من خزانة الضريح .

ويزيد من أهمية هذه المحلة غير المنظورة ، اتخاذ الصوفية والدراويش لها موطنا لهم ولأولئك تأثير عظيم على سائر طبقات السكان في" المحلات "الاخرى ، ومن هنا فقد استطاع العامة ، بتنظيماتهم الصوفية ، وقادتهم من الدراويش ، وعلى رأسهم نقيب الاشراف نفسه ، أن يؤثروا على سير الاحداث السياسية في الولاية في اكثر من مناسبة . وقد اثبتت الاحداث مدى الخبرات العسكرية والقتالية التي كان يتمتع بها أولئك الدراويش ، والتي بلغت حد استخدام المدفعية وتشغيلها على نحو فريد ، ومستوى رفيع جدا (٤) .

---

(١) التادفي : قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر (القاهرة ١٣٥٦) ص ٥٦ وابراهيم الدروبي : الباز الاشهب ص ٢١ ـ ٢٢ و ٤٦ .

(٢) Fraser, J. B.: Op. Cit., II, P.311

(٣) Ibid.

(٤) عبد الرحمن السويدي : السنين الشداد من تاريخ بغداد ، حوادث سنة ١٧٧٨م/١١٩٢هـ ، الورقة ٣٢ (مخطوط) . ووصف الرحالة ولستيد Wellsted شيئا من احوال اولئك الدراويش في كتابه :
Travels to city of the Caliphs, I, P. 250.

مشاركة العامة فى الاحداث السياسية :

ولقد تزعمت محلة الشيخ عبد القادر الكيلانى سنة ١٧٧٨م/١١٩٢هـ التكتل الشعبى الذى قام لمناصرة قيادة المماليك ، المتمثلة فى اسماعيل الكتخدا ، ضد التكتل المؤيد لسليم افندى مبعوث الباب العالى ، وممثله فى بغداد (١) ، ونجحت فى اثارة روح الشغب ضد زعامة داود باشا والى بغداد الشهير ، ثم سرعان ما أيدته بقوة ، وتزعمت الحركة الشعبية التى قامت ببغداد للتمسك بداود باشا ، وبزعامة المماليك . وفى هذه المرة ، استطاعت العامة تشكيل قوة مسلحة يرأسها النقيب نفسه ، وتتألف من بضعة آلاف شخص ، اضافة الى المماليك الذين انضموا اليها ، هدفها عدم تسليم داود باشا للقوات العثمانية القادمة الى بغداد (٢) . وقد نجحت هذه القوات فى ضم قوى العشائر العربية المجاورة اليها ، والاشتراك فى حرب سافرة ضد القوات العثمانية المتحصنة فى السراى ، وهى الحرب الأهلية التى انتهت باختراق السراى وقتل القائد العثمانى قاسم العمرى . (٣)

وكشفت الاحداث التى سبقت سقوط حكم المماليك ، عن اسهام حقيقى لطبقة العامة فى الاحداث الجارية حولهم . فقد ذهبت محاولات القيادة المملوكية فى كبح جماح الحماس الشعبى البغدادى سدا (٤) ، وانطلقت جموع العامة من ابواب بغداد

---

(١) السويدى : السنين الشداد من تاريخ بغداد ، الورقة ٢٤ ــ ٣٤ (مخطوط) ورسول الكركوكلى : دوحة الوزراء ص ١٦٠ وحسين بن على العشارى : ديوان العشارى (مخطوط) ، وعثمان بن سند : مطالع السعود (مخطوط) ، ومختصره لامين الحلوانى ص ٢١ ــ ٢٧ .

(٢) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند فى بغداد ص ٦٠ وعبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ص ٢٥٣ .

(٣) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٦٠ ــ ٦١ و Groves, A.N.: Journal of a Residence.., P. 138.

(٤) سليمان فائق بك : مرآة الزوراء فى تاريخ الوزراء ص ٨٤ .

لتحارب القوات العثمانية المرابطة خارجها وجها لوجه ، في الوقت الذي كانت القيادات الرسمية المملوكية تحاول أن تجد لها مخرجا من موقفها العصيب . ونجح العامة على نحو سريع في تشكيل قيادة عسكرية موقتة في احدى الطوابي (الروابي العسكرية) ، الا ان نقص خبرتهم العسكرية ، وفقدانهم للضباط اللازم ادى الى فشل الحركة وتقهقرها [(١)] ، فكانت تلك الاحداث تمثل آخر الاسهامات المهمة لتلك الطبقة في توجيه الحياة السياسية طيلة العصر العثماني .

ولقد استمرت العامة في حي الشيخ والاحياء المجاورة في الثورة على السلطة العثمانية حتى بعد أن سقط حكم المماليك في بغداد تماما ، فكانت هذه الاحياء مركز معارضة شديدة لحكم الوالي التالي على رضا باشا اللاظ [(٢)] ، وعند ما أعلن مفتي بغداد عبد الغني آل جميل ثورته على الوالي المذكور [(٣)] ، انتقل لهيب الثورة من حيه القريب من حي الشيخ ، الى الحي الأخير بسرعة فائقة ، والتف السكان حول راية الشيخ عبد القادر الكيلاني ثائرين على السلطة العثمانية جهارا ، ولم يكن قمع هذه الثورة ممكنا الا بعد خسائر فادحة قدمتها القوات الحكومية [(٤)] .

---

(١) مرآة الزوراء ص ٨٦ .

(٢) العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٥ وعبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٤٥٢ ويشير احد التقارير الرسمية المرفوعة الى القيادة المصرية في الشام الى " ان نصف أهل بغداد مخلصون لعلي باشا ، واما نصفهم الاخر فاعداء له " الوثائق القومية محفظة ٢٣٨ عابدين . وثيقة رقم ٦٨ تقرير لوحيد افندي عن يوم ٨ ربيع الآخر ١٢٤٨ هـ/٤ اكتوبر ١٨٣٢ م .

(٣) العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٤ ولهذا المفتي الثائر أشعار عامية حماسية يبدو أنه نظمها لاثارة العوام ، فهي منظومة بألفاظهم ومصطلحاتهم . انظر : مجموعة محمد نافع افندي آل المصرف (مخطوط) .

(٤) وقد تصفت خلالها الأحياء الثائرة بالمدافع (العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٥) .

ونجحت العامة ، في أحياء أخرى من بغداد ، في تشكيل قوى شديدة المراس ، كثيرا ما ناوءت سلطات الحكومة ، وسببت لها أنواع المضايقات. وكان الجانب الغربي من المدينة يعد بعيدا نسبيا عن يد الحكومة بسبب تشكل أغلب سكانه من القبائل العربية ، وخاصة جماعات " العقيل " النجدية القوية (١) ، وكان لطبيعة هذا الجانب التضاريسية غير المنبسطة ، وعدم ارتباطه بالجانب الشرقي - حيث مقر الحكومة - الا بجسر واحد سهل القطع ، دوره في تأليف طبقة العامة من سكان هذا الجانب نوعا من الادارة الذاتية لاحيائهم ، بعيدة - نسبيا - عن تدخل السلطات الحكومية الرسمية . على أنه من المحتمل أن يشكل هذا الجانب حلفا مع محلة الشيخ عبد القادر وغيرها من المحلات الشرقية ، هدفه فرض رغبة المتحالفين على سير الامور في الحكومة (٢) ، وعندئذ يحصن أهل الجانب المذكور محلاتهم بالمدافع والروابي المصطنعة وسائر الدفاعات الضرورية (٣) .

ومن المهم أن نذكر ، أن العامة في بغداد لم تكن بحال بعيدة عن الاحداث السياسية الجارية حولها ، فكانت كثيرا ما تتدخل في شؤون الحكم ، مناصرة لوال ضد آخر ، أو مدافعة عن قيادة معينة .

وكان الخوض في السياسة مدار حديث مجالس العراقيين ومحافلهم ، وهي ظاهرة لبثت في العهود التالية حتى غدت من ألصق الطباع الاجتماعية بالخلق العراقي بوجه عام (٤) .

---

(١) العقيل : جماعة من أعراب نجد ، سكنوا جانب الكرخ من بغداد ، وامتهنوا تسيير القوافل وحمايتها ، ونسب الجانب الغربي اليهم فقيل : صوب (اي جانب) عكيل . انظر هاشم السعدي : جغرافية العراق الحديثة ص ١١٠ .

(٢) وهو ما حدث اثناء فتنة عجم محمد ببغداد سنة ١٧٧٨ م / ١١٩٢ هـ . انظر السنين الشداد في تاريخ بغداد - الورقة ٢٤ (مخطوط) .

(٣) السنين الشداد الورقة ٢٤ و ٢٥ و ٣٢ (مخطوط) .

(٤) يوسف كركوش الحلي : تاريخ الحلة ج ١ ص ١٢٤ .
، وعلي الوردي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ص

طبقة العامة فى الموصل :

وفى الموصل ، حيث كانت مجالات الصناعة تستوعب الايدى العاملة ، وتحول الجميع الى عمال حرفيين ، كان العامة من المنضمين الى أصناف أهل الحرف يشكلون صورة الحياة السياسية داخل الولاية طيلة الفترة التى حكم فيها آل الجليلى (١٧٢٦-١٨٣٤م/١١٣٩ - ١٢٤٩هـ) ، ذلك أن خلو الموصل من طبقة عسكرية حاكمة ، كالمماليك فى بغداد ، قد هيأ للأسر المحلية الارستقراطية أن تستقر فى قمة الهرم السياسى والاجتماعى فى الولاية ، ولما دفع وضع الموصل الاقتصادى الجديد فى مطلع القرن الثامن عشر تلك الأسر الى الانهماك فى أعمال تجارية وصناعية محضة[1] ، استفادت العامة ، واغلبهم من أهل الاصناف الحرفيين ، من هذه الاعمال الجديدة ، فنمت التنظيمات الحرفية نموا مطردا ، واستقرت تقاليدها الاجتماعية[2] .

ونتيجة لضعف نظام الانكشارية العسكرى فى الموصل ، وعدم وجود ثكنة (قشلاق) خاصة بمبيت أفراد الينكجرية[3] ، فقد تمكن كثير من أصحاب الحرف من الانضواء تحت حماية اورطات الانكشارية ، ليستفيد كل فريق بالاخر[4] وأدى هذا بالتالى الى حدوث شبه اندماج بين الانكشارية والسكان المحليين ، ومكن الحرفيين ، وهم أبرز فئات طبقة العامة ، من النفوذ الى داخل أهم مؤسسة عسكرية فى الولاية ، حتى لم تعد أورطات الانكشارية خلال عهد آل الجليلى سوى سكان الموصل أنفسهم بأزياء عسكرية[5] .

(١) عماد عبد السلام : الموصل فى العهد العثمانى ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩ - ٢٩١ .
(٣) Niebuhr, K.: Op. Cit., 11, P. 130
(٤) جب وبوون ج ١ ص ٩٢ ويقول الاب لانزا " وكل الاتراك تقريبا ينتسبون الى احدى الاورطات ليحتموا بواسطتها من الغير " انظر مذكرات لانزا ص ٥٨ حاشية .
(٥) الموصل فى العهد العثمانى ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

ولقد اكتسبت هذه الاورطات منذ استقرارها في الموصل مؤثرات بيئتها الاجتماعية نفسها ، وكلما زاد اندماجها في خضم الحياة المدنية ، أخذت تتشكل بحسب الاحوال الاجتماعية التي كانت سائدة في الأحياء التي سكنتها . فعندما سكنت اورطتا الأوطوزبير (الفرقة ٣١) ، واليكرمي يدى (الفرقة ٢٧) (١) في محلتي باب المراق والميدان " وانتسب اليهم كثير من أهل الموصل " (٢) ، اتخذت الصراعات التي كانت تنشب بين سكان هذين الحيين المهمين ، شكلها الجديد باعتبارها - الآن - صراعا بين أورطتي الانكشارية القاطنين فيها (٣).

بروز العامة على المسرح السياسي في النجف وكربلاء :

وفي مدينة النجف على الفرات ، أدت ظروف اجتماعية خاصة الى أن تلعب طبقة العامة هناك دورا بارزا في تشكيل الحياة السياسية ابان العصر العثماني ، وخاصة في فترة حكم المماليك ، وكان بعد هذه المدينة عن بغداد ، وموقعها على حافة البادية ، قد اضعف ارتباطها السياسي والاداري بالعاصمة ، وزاد من ذلك الضعف ان سكان المدينة كانوا من الشيعة ، بخلاف حكومة بغداد السنية العثمانية . وكان نظام الملل العثماني الذي يبيح لكل طائفة دينية أن تستقل بشؤونها الدينية الخاصة أيضا ، قد ادى الى حدوث جفوة حقيقية بين سكان المدينة وحكومة المماليك

---

(١) كانت في الموصل خمس اورطات (فرق) انكشارية ، هي أوننجي (الاورطة ١٠) ويكرمي يدى (الاورطة ٢٧) واوطوزبير (الاورطة ٣١) واللى ايكي (الاورطة ٥٢) واللى سكز (الاورطة ٥٨) .

(٢) ياسين العمري : غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص ١٨٠ . والدر المكنون الورقة ٥٨٠ (مخطوط) .

(٣) منية الادباء ص ٨٤ و ٨٦ و ١٧٧ و ١٨٤ و ١٨٦ و ١٨٩ ومذكرات د ومنيكو لانزا ص ٥٢ و ٨٥ و ٨٦ .

في بغداد ، استتبعها عدم تدخل الاخيرة في شؤون النجف الا نادرا ، فساعد هذا الحال على ظهور زعامات قوية من السكان المحليين تتولى السيطرة على الوضع .

وبما ان مدينة النجف ، كسائر المدن المجاورة لها ، كانت خلوا من طبقة اقطاعية حاكمة بموجب نظام الاقطاع العثماني المعروف بالتيمار (١) ، فقد تصدرت للزعامة أسر بارزة من العامة ، تميزت بانها تنتمي نسبا الى سلالة الرسول (ص) ، أو تمتهن خدمة مراقد آل البيت ، فهم من " الاشراف " شكلا ، ومن طبقة العامة الاجتماعية حقيقة . صحيح أن بعض أولئك الزعماء تمكنوا من ممارسة التجارة وملكية الأرض والعقار ، الا أن أعمالهم تلك لم تكن الا بعد تبوئهم الحكم في مدنهم بصفتهم الاولى .

ويمكن القول ان عهد المماليك في العراق ، كان يمثل ، بالنسبة الى كل من مدينتي النجف وكربلاء المجاورة ، عهد الزعامات المحلية المدنية ، بعد ان كانت الزعامات القبلية البدوية هي التي تتولى السيطرة عليها من قبل (٢) ، ولقد ظلت الزعامة المدنية تستعين بالقبائل المجاورة في السيطرة على الوضع ، وبخاصة عند الازمات ، الا ان النمو الحضري المتزايد الذي شهدته مدن العتبات المقدسة منذ اواخر القرن الثامن عشر ، وتعاظم نفوذ التجار والفقهاء ورجال العلم ، أدى بالتالي الى ظهور قوى جديدة على المسرح السياسي ، ولم تكن هذه القوى - في حقيقتها - الا الفئات الدنيا من الهرم الاجتماعي الاقتصادي للمدينة ، فقد ضمت هذه الفئات أبناء الأحياء الشعبية ، وأهل الحرف ، وطلبة المدارس الدينية (التي كثرت في المدن في تلك الفترة) .

---

(١) انظر قائمة عين علي افندي (ت ١٦٠٩م/١٠١٨ هـ) المسماه " قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان " (نشرها ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٦ - ٢٣٧) .

(٢) Longrigg, S.H.: Four Certuries,., P. 38

ولقد كشفت الحملات الوهابية على مدينتي النجف وكربلاء في السنوات ١٨٠٢ــ ١٨١٠ (١٢١٧ ــ ١٢٢٥ هـ) عن ضعف السلطة الادارية في هاتين المدينتين وانعدام وجود اية قوة عسكرية منظمة تستطيع الدفاع عن الحياة المدنية أمام هجوم قبائل الوهابيين البدوية القوية (١) . وأظهر ذوو النفوذ من مالكي الارض من الخشية على مزارعهم ما زاد على رغبتهم في الدفاع عن مدينتهم (٢) ، حتى اتهم بعضهم بممالاة الوهابيين علنا .

وظهرت الحاجة ملحة في تشكيل قيادة جديدة من عامة الناس يمكنها تحمل مسؤولية الدفاع والمقاومة ، فتولى رجال الدين هذه المهمة ، وشكل الشيخ جعفر بن الشيخ خضر كاشف الغطاء ، وهو من اكثر العلماء نفوذا وثروة (٣) ، تنظيما مسلحا بين العامة ، تولى رئاسته أحد الحدادين . وقد أظهر هذا التشكيل الجديد قوة وفائدة في السنوات التالية ، وانضمت اليه فئات واسعة من عامة أهل النجف ، حتى غدا يهدد

---

(١) ياسين العمري : الدر المكنون ص ٦٦١ و Loriemer:Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia,Vol.I,P.1368.

وجعفر آل محبوبه : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٣٢٤

وعبد الحسين آل طعمه : تاريخ كربلاء المعلى ص ٢٠٠ وعبد الجواد آل طعمة : تاريخ كربلاء ص ٢٣٠ و Corances: Historie de Wahabis,P.25

ويذكر أبو طالب خان ، الذي زار النجف بعد غزو الوهابيين لها ، ان اتهامات كانت تذهب الى مواطأة حاكم كربلاء عمر أغا للوهابيين بدلالة أنه هرب الى قرية مجاورة عند أول وصول الغزاة ، دون أن يقاومهم البتة (رحلة ابي طالب خان ص ٣٨٦) .

(٢) وكان السيد محمود ، أحد ملاك الاراضي في النجف ، قد أجاب على طلب الشيخ كاشف الغطاء بدعوته للمساهمة في مقاومة الوهابيين بقوله " انا رجل ذو مزارع وأراض ، وأخشى على نفسي ومالي من هؤلاء ، لأني طامع في ايديهم " انظر جعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٣٢٤ .

(٣) ماضي النجف وحاضرها ٣ / ١٢٨ وعلي الخاقاني : شعراء الغري ج ٢ ص ١١٧ .

مكانـة حكام المدينة التقليديين من آل الملالـي (١) .

وكان واضحا ان تنظيم العامة هذا يحظى بتأييد علماء الدين ومباركتهـم ، في حين كان موقف حكام المدينة ازاءه سلبيا . وأدى مصرع بعض ذوي النفـوذ ، الى نشوب الصراع علنا بين اسرة الملالي الحاكمة وفئات العامة المنتظمة تحت لـواء عباس الحداد ، الذي عرفوا الان بجماعة " الزقرت " (٢) وزادت أهمية الاخيرين ونفوذهم الى حد أنهم أقدموا على قتل حاكم البلد ، فشكل اتباع القتيل تنظيمـا آخرا لمناوئة الزقرت عرف بجماعة " الشمرت " ، " وحملوا السلاح ولزموا الحصون (الاماكن العالية) من المساجد والمآذن والدور المرتفعة ، وجعلوا يرمـون بالبنادق " (٣) . وهكذا انقسمت النجف الى فريقين متنازعين ، وبينما انضم رجـال الدين وطلبة المدارس الدينية الى جماعة " الزقرت " (٤) ، تولت أسرة الملالـي قيادة الجماعة الأخرى ، فانضم اليها عدد كبير من الطامحين في السلطة من رجـال

---

(١) عن هذه الاسرة الحاكمة ، انظر ما سبق عند الحديث على الأسـر الحاكمـة من هذا الفصل .

(٢) تذكر بعض الروايات في تفسيرها لاسم الزقرت ، ان أفـراد هذه الجماعة كانـوا يتنادون عند حراستهم لمدينتهم بلفظ زقرتي ، اي صقر ، لان زقر لغة مـن صقر (ماضي النجف ج ١ ص ٣١٦) . وفي الحقيقة ان هذه الجماعة هـي في الاصل من عشيرة الزقاريط التابعة لقبيلة عنـزه التي عرفت اخبارها في مطلع القرن التاسع عشر (ياسين العمري : غرائب الاثر ص ٩٣) ويذكر عبد الحسين الكليدار انهم من صعاليك البدو ، كانوا يستولون على ما في البساتين كربـلاء من التمر . (بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ص ٢٨) .

(٣) جعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٣٣٤ .

(٤) من الملاحظ أن بداية النزاع بين الشمرت والزقرت كان في الوقت الذي اخذت فيه النجف تنمو وتصبح مركز التشيع في أواخر القرن الثامن عشر . (علي الـوردي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ص ١٨٠) .

الفصل الثالث

القبائل والريف

كان العراق ، منذ القدم ، موطنا لقبائل عربية شهيرة نزحت اليه فى فترات متعاقبة من قلب الجزيرة العربية . فترددت فى تاريخه ، منذ عصر ما قبل الاسلام ، أسماء قبائل مهمة تركت وراءها ذكريات ووقائع اهتم بها أصحاب الاخبار فيما بعد ، وساهمت فى اضفاء الصبغة العربية القومية على البلاد ، حتى يمكن القول بأن تاريخ العراق ، فى أحد جوانبه ، لم يكن الا تاريخا للهجرات القبلية المستمرة المتدفقة من بوادى الجزيرة العربية وتفارها .

ولقد تمكنت تلك المجموعات البشرية الكبيرة من تعريب معظم العراق القديم واقليم الجزيرة ، وذلك بامتزاجها التدريجي بأهل البلاد القدماء ، وهم ساميون يمتون اليها بصلات اللغة والثقافة والدم . فى الوقت الذى ظلت فى المناطق الشمالية النائية من العراق قبائل كردية ، تنتمى الى المجموعة الهندو آرية ، وتعيش منعزلة فى الجبال .

وكان لنمو السلطة الادارية المركزية فى مدن العراق فى القرون الوسطى دوره الاساسى فى استقرار الاوضاع الاجتماعية فى ريف السهل والجبل على حد سواء ،واخذت قبائل كبيرة تتوطن فى الريف العراقى وتمتهن الزراعة ، ومدت المدن نفوذها الادارى والحضارى الى الجبال الشمالية وما بعدها حتى نواحى اذربيجان (١) ، وخفتت ضجة القبائل وحركتها الدائبة ، ليسمع بدلها صوت الحكام والتجار والزراع ومثقفى المدن ، فكان ذلك دليلا على تقدم الحضارة وازدهارها فى تلك العصور .

---

(١) ياسين العمرى : منية الادباء ص ٢٠٢ (ملحق للمحقق) .

بيد أن ضعف المراكز المدنية العراقية خلال فترات الارتباك التي شهدتها البلاد في أواخر العصر العباسي ، وسقوط بغداد والمدن الاخرى في أيدي المغول ، ثم انفتاح السهل أمام هجوم القبائل الدخيلة الغازية ، مثل المغول الايلخانيين والجلائريين والتركمان ، والفرس الصفويين ، أدى الى تدهور خطير في أهمية المدينة العراقية ، وبالتالي تقلص نفوذها السياسي والاداري على الريف ، فافسح ذلك المجال لنمو القبائل المحلية في المنطقة ، وملئها الفراغ الحاصل سياسيا بتكوين عدد من الامارات والمشيخات القبلية القوية .

وهكذا ظهرت للوجود ، منذ استقرار الحكم العثماني في العراق في القرن السابع عشر ، مجموعة من التكتلات القبلية العربية في وسط البلاد وجنوبها ، نجحت في الحفاظ على سيادتها بدخولها في أحلاف أو اتحادات قوية ، على حين تمكنت القبائل الكردية في الشمال من تشكيل امارات قبلية البنية ، تحول بعضها - فيما بعد - الى امارات شبه اقطاعية .

قيام الاتحادات القبلية الكبيرة :

وكانت الفترة التي سبقت ظهور المماليك والاسر الحاكمة في المدن العراقية ، قد شهدت نمو ظاهرة متميزة في تكوين القبائل العربية في جنوب البلاد ووسطها ، وهي قيام مجموعة من الاتحادات القبلية القوية من عدد من القبائل والعشائر والفروع ، وتشكيلها بالتالي قوة عسكرية ذات وزن في السياسة العامة لحكام العراق في العهود التالية . ومن الممكن دائما تفسير ظاهرة التكتل تلك بأنها ميل نحو استجماع للقوة ضد سيطرة المدن أو امتداد سلطانها ، الا أننا نلحظ بأن ذلك التكتل لم يحدث في فترة تعاظم نشاط المدن ، وهو النشاط الذي برز جليا منذ عهد حسن باشا وابنه أحمد باشا (النصف الاول من القرن الثامن عشر) وانما في الفترة التي سبقها .

كما يمكن القول بأن قيام تلك الاتحادات كان ظاهرة عراقية الى حد كبير ، بمعنى أنها لم تكن تظهر في مواطن القبائل الاولى في الجزيرة العربية ، وانما سرعان ما تتألف بعد اقامتها في بوادي العراق وأطرافه .

وتدل دلائل عديدة على أن السبب وراء تلك الظاهرة المهمة ، لم يكن -بالضرورة- موقف الدفاع الذي كانت تتخذه القبائل ضد المدن العراقية ، بقدر ما هو دفاع عن مواطنها ومراعيها ونفوذها ضد القبائل النجدية والسورية التي لم تكن تفتأ عن الهجرة الى أطراف العراق الشمالية الغربية ، والى أطرافه الغربية والجنوبية . ذلك أن تلك الهجرات لم تكن تتوقف ابدا ، وكانت كل قبيلة نازحة تحاول دفع القبائل الأقدم نزوحا منها الى أماكن أخرى ، والاستيلاء على مراعيها وأراضيها ، ومن هنا كانت تبرز الحاجة الى وجود اتحادات قوية يمكن أن توحد قوى القبائل العراقية ، أو المستعرقة ، ضد الهجرات القبلية التالية .

١ - اتحاد قبائل قشعم :

ومن أهم تلك الاتحادات قاطبة ، الاتحاد القبلي الذي رأسته قبيلة قشعم منذ أوائل القرن السابع عشر (١١ هـ) ، وأثبتت أهميته بسيطرته على القسم الأدنى من حوض نهر الفرات ، وهو طريق التجارة الرئيسي بين منطقة البحر المتوسط ومنطقة الخليج العربي ، فعرف شيخ قشعم من ثم بلقب " شيخ العراقيين " وحكم منطقة ري الفرات الواقعة بين منحدر الحلة من جهة الشمال ومنحدر السماوة من جهة الجنوب [1] . وبلغ من سلطان شيوخ قشعم وأحلافها أن دعى

---

(١) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ١ ص ٩١ - ٩٣ .

" ناصر آل مهنا " ، وهو من أشهر شيوخها ، بحلك عربى (1) ، وكانت بلدة النجف معترفة بسلطان حاكم البادية هذا ، فى حين كانت كربلاء مركز " ديرته " . وكان وكلاؤه يجبون الاتاوة (الخاوة) من المسافرين والتجار بين بغداد والفلوجة ، ولم تكن الحاميات التركية الصغيرة تقيم بحسب العادة فى المدن المقدسة الا بسماح منه ، ومن المحتمل أن شيئا من الهدايا كان يرسلها الى والى بغداد (٢) ، بيد أن تبعيته للحكم العثمانى لم تكن الا فى أوهى صور الشكلية ، وكثيرا ما ثار شيوخ قشعم فى وجه السلطة العثمانية ، وأعاقوا حركات جيوش الولاة التأديبية (٣)، ولكنهم من ناحية أخرى ساعدوها فى حملاتها ضد القبائل النجدية المجاورة (٤) .

٢ ـ زعامة أبى ريشة القبلية :

والى شمال منطقة قشعم وغربها ، كانت اتحاد قبلى آخر ، لا يقل قوة عن سابقه ، تشكله مجموعة من القبائل ، أهمها الموالى بعض فروع عنزة والجبور ، وهما من القبائل النجدية المتوطنة فى منطقة الجزيرة . وكانت " عانه " على الفرات ، تعد قاعدة لحكم رئيس هذا الاتحاد القبلى الذى يحمل لقب " أبى ريشة "

---

(١) Della Valla, P.: The Travels of.., P. 263.
و Teixeira, P.: The Travels, P. 35
و Longrigg, S.H.: Op. Cit., P. 39

(٢) يشير تكسيرا سنة ١٦٠٤ الى انه شاهد الأعراب التابعين لامير من آل مهنا ، برأس اتحاد قشعم ، وهم يجمعون جهارا خيول وأشياء وملابس واسلحة بعض رجال الحكومة بعد ان قتلوهم وسلبوا كل ما يملكون
Tiexeira, P.:Op.Cit., P. 53

(٣) مرتضى نظمى زاده : كلشن خلفا ص ٢٠١ ومباحث عراقية ج ١ ص ١٣١ .

(٤) ياسين العمرى : الدر المكنون ص ٥٤١ (مخطوط) وغاية المرام ص ١٧٤ وزبدة الآثار الجلية ص ٩١ .

على نحو وراثى ، وعرفه المعاصرون " بملك بلاد العرب " و " ملك الصحـــراء (١)
وتمتد منطقة نفوذ ابى ريشة هذا من هيت الى بيره جك وأطراف منطقة العشائــر
السورية ، فهو بذلك يشكل خطرا على كل من باشوات ديار بكر وبغداد وحلــب .
وكان وكلاؤه يجبون الاتاوه من التجارة والمسافرين ، واضطر الولاة المجاورون الــى
مسالمته خشية منهم على طريق التجارة الذى يسيطر عليه . وكان أبو ريشـــة
يعترف للعثمانيين بشىء من السيادة ، الا أنه كثيرا ما اصطدم معهم فى معـــارك
ومناوشات (٢) ، حتى اعترفوا له بالامارة على بلدة عانــة على الفرات ، ومنحوه لقــب
(سنجق بكى) . وكانت الرسوم الجمركية المجبية فى مراكزه تشاركه فيها الخزينـــة
العثمانية اسـميا (٣)، كما ان القوة الحقيقية فى بلاده لم تكن الا قوته وحدها . ولقــد
تقرر باتفاق عقد قبيل عام ١٥٧٥ م/٩٨٣ هـ أن يدفع له السلطان سنويا مبلغ ٦٠٠٠
دوكــة (٤) ، وأن يعترف بحكمه الوراثى (٥) .

---

(١) Tixeira, P.: Op. Cit., P. 55
و Rauwolf : Travels in Ray's Collection, I, P. 179.
و Della Valla, P.: Op. Cit., P. 266.

(٢) يذكر الرحالة ديلا فاله عند مروره بعانة سنة ١٦٢٥ ان فيها للامير فياض أبى ريشة بيت لعله اجمل بيت فى البادية ، والمدينة خاضعة له . وهو يجبى الضرائــب من البلاد الخاضعة له ، كما يتقاضاها ايضا من بلاد أخرى خاضعة الى امــراء غيره ، لكنهم يؤدونها له خوفا من غزواته ... ومع ذلك فهو يبدى بعض الطاعة الى الحكومة ، ويقدم لها بعض المساعدات العسكرية تطوعا منه واختيــارا .

Della Valla, P.: Op. Cit., P. 266

(٣) Tiexeira, P.: Op. Cit., P. 82
و Parry, V.J.: Materials of War in the Ottoman Empire (in Studies in the Economic History, by M.A. Cook)

(٤) الدوكة : نقد ضرب اولا فى البندقية سنة ١٢٨٠ م وشاع فى الدولة العثمانية منــذ القرن السادس عشر ، وسماه الاتراك (ونديك دوقه سى) . عباس العزاوى : تاريخ النقود العراقية ص ١٢٩ .

(٥) Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 39

بيد أن هذا الاتحاد سرعان ما تفكك فى القرن الثامن عشر ، فلم يعد يـرد ذكر قبائله الا بصفتها المنفردة . ويبدو أن سبب هذا التفكك يرجع الى توالى هجرات فروع قبيلة "عنزة" من نجد الى الشمال ملتحقة بكتلتها الرئيسية هناك ، ودافعة أمامها قبيلة الموالى (وتعرف أيضا بالملية) ، شريكتها فى الاتحاد الى منطقة أعالى الجزيرة ، أى الى نواحى ماردين وأورفه ونصيبين وأطرافها (١) .

٢ ـ اتحاد قبائل بنى لام :

وكانت أهم الاتحادات القبلية ، التى تشكلت فى هذه الفترة أو قبلها بقليل ، هما : اتحاد قبائل بنى لام ، واتحاد قبائل المنتفق ، اللذان استطاعا ان يؤلفا ـ طيلة العصر العثمانى ـ أكبر القوى الضاغطة على السلطة المركزية ببغداد ، وشكلا ـ فى الوقت نفسه ـ قطبين رئيسيين التفت حول كل منهما مجموعة من القبائل والعشائر . وخاض كل تكتل صراعا طويلا ضد التكتل الآخر ، حتى يمكن القول بأن تشكيل الخريطة القبلية لمنطقة وسط العراق وجنوبه ، يرجع ـ بالدرجة الاولى ـ الى نتائج ذلك الصراع الذى استقطب القوى القبلية كافة ، وخاصة فى الفترة التى سبقت عهد المماليك ، وفى خلال هذا العهد نفسه .

---

(١) وصفى زكريا : عشائر الشام ج ٢ ص ١٥٥ .
Muller : En Syrie avec les bedouins, PP. 124,125 ;

ويذكر مفتى ماردين عبد السلام الماردينى ان الملية كانوا يؤلفون احدى القوتيين الرئيسيتين فى ماردين ، وكان لهم تأثير كبير فى شؤونها (تاريخ ماردين ـ مخطوط الورقة ٤٠ أ) .

وبنـو لام ، قبيلـة طائية المحتد ، يمنية الأصل (١) ، نزحت من مواطنهـــا حوالى المدينة المنورة ، وفى أنحاء نجد (٢) الى أطراف العراق فى عهد مبكر ، قريب من القرن الرابع عشر (الثامن الهجرى) (٣) . ونزل رئيسهم الشيخ براك بقبيلتـــه ضيفا على أمراء الحويزة من المشعشعيين ، ونال الحظوة لديه ، وكان المشعشعيون يحكمون آنذاك منطقة واسعة من العراق تمتد من البصرة الى مشارف بغداد (٤) ، فولـوا حافظا بن براك بعض الأراضى فى نواحى العمارة نائبا عنهم (٥) .

ولقد استطاع حافظ هذا أن يشكل حلفا من العشائر العربية المجاورة لـــه ، مثل : كنانة ، والصقور ، والخزرج (٦) ، بهدف طرد قبيلة ربيعة الكبيرة من أطـــراف منطقة نفوذه . وكانت هذه القبيلـة تسيطر على منطقة الطيب والدويريج قرب الحدود العراقيـة الايرانية ، وتشكل فى أثناء فصلى الشتاء والربيع ، حين تجتمـع اغلبيتهـا فى العراق ، خطرا ذا شأن على بنى لام النازحين حديثا .

---

(١) القلقشندى : نهاية الادب ص ٣٥٨ وأمين السويدى : سلاسل الذهب فـــى معرفة قبائل العرب ص ٢٠ .

(٢) نهاية الأرب ص ٣٥٨ وابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد فى أحـــوال بغداد والبصـرة ونجد ص ١١٤ وعباس العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٢١٤ .

(٣) العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٢١٢ و Nijholt, L.: Voyage en Russie, III, P. 218.

(٤) انظر عن سيطرة المشعشعيين على جنوبى العراق فى هذه الفترة ـ عبد اللـــه ابن فتح الله الغياثى : تاريخ الغياثى (مخطوط) ، وجاسم شبر : تاريـــخ المشعشعيين وتراجم اعلامهم .

(٥) عبد الكريم الندوانى : تاريخ العمارة وعشائرها ص ٣٨ .

(٦) العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٢١١ وعن احلاف بنى لام انظر :
Chiha, H.: Provence de Baghdad, P. 246.

(٧) محمد باقر الجلالى : موجز تاريخ عشائر العمارة ص ١٢ .

وفي القرن السادس عشر ، استغل شيوخ بني لام ظروف الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، فوسعوا نفوذهم داخل الامارة المشعشعية ذاتها ، وكانت هذه الامارة قد أخذت بالاعتماد على الصفويين في عهدها الاخير (١) . فواصل شيوخ بني لام عملية الاستحواذ على أراضي ربيعة ، واستطاعوا دفع الاخيرة عن أراضيها كافة ، وحصرها فيما وراء دجلة قرب مركز قضاء الحي الحالي (٢) . وبذلك استتبت السيادة على معظم وادي دجلة الجنوبي لبني لام وما يلتف حولهم من قبائل وعشائر مختلفة ، ولم تبق للمشعشعيين سوى السيادة الاسمية فحسب ، وهي التي دأب بنو لام على التمسك بها حتى منتصف القرن السابع عشر . ففي حدود هذا التاريخ امتنع بنو لام عن أداء الرسوم المفروضة الى المشعشعيين ، واظهرت سياستهم ضد ربيعة استقلالهم الحقيقي في المنطقة ، واصبحت القبيلة " تتصرف بالقسم الشرقي من منطقة الدويريج الى حدود نهر الكوفة " (٣) .

---

(١) نشأت دولة المشعشعيين العربية في منطقة عربستان المسماه قديما (خوزستان) في أيام المغول سنة ١٤٤٠م/٨٤٤ هـ ، وكانت قاعدتها " الحويزة " قرب الحدود الايرانية العراقية ، وامتد نفوذها الى اغلب المناطق الفارسية في العهد التالي ، واستولت على البصرة والجزائر (منطقة الاهوار في شمال البصرة) لمدة وجيزة ، وحاولت الاستيلاء على بقية اجزاء العراق ، حتى وصلت الى اسوار بغداد بعد ما ضربت المواقع العربية التابعة لدولة المغول في اواسط العراق ، والنجف والحلة .

وفي عام ١٤٩٩م/٩٠٥ هـ ظهرت دولة الصفويين في ايران بزعامة الشاه اسماعيل الصفوي ، فأخذ نفوذ المشعشعيين بالتقلص من تلك المناطق ، واضطروا احيانا الى مهادنة الصفويين ، خاصة وان خطرا آخر كان يتهددهم في العراق ، وهو الوجود العثماني فيه . وعلى الرغم من هذا استطاع المشعشعيون ان يمكثوا في الحكم مدة طويلة ، وصدوا الهجمات المتتالية على عاصمتهم الحويزة من قبل الصفويين في ايران ، والعثمانيين في العراق . واخيرا ضعفت دولتهم واصبحوا حكاما للدولة الصفوية متقلبين في الحكم ، الا ان ضغط قبيلة كعب العربية المجاورة ارهقتها ، حتى استطاع الشيخ خزعل ، من كعب ، ان يقضي على امارة المشعشعيين نهائيا سنة ١٨٨٢م/١٣٠٠هـ . والتفاصيل في عبد الله بن

وحاول الشمشميون فى السنوات التاليـة احياء قوتهم السالفـة فى شرق دجلة ، الا ان المعارك التى خاضوها اثبتت ضعفهم التام تجاه قوة بنى لام الجديـدة ، فانفصلت عشائر القسم الشرقى من منطقة الطيب والدويريج واصبحت تؤدى ضرائبهـا الى بنى لام ، القبيلة العراقيـة ، وفى مطلع القرن الثامن عشـر ، اتخذ بنـو لام بلدة " الكوت " (١) قاعدة لحكمهم القبلى ، وامتد نفوذهم من جانب دجلـة الايسـر اعتبارا من مصب نهر دي‌الى الى منتهى حدود محافظة العمارة من هذا الجانب (٢) . فكان هذا وضعهم عند بدء حكم المماليك فى العراق فى منتصف القرن الثامن عشر ، وبلغت قوتهم مبلغا اختلف المؤرخون فى تقديره ، ففى حين يذكر الهسـام (٣) فى منتصف القرن

= فتح الله الفياشى : تاريخ الفياشى (مخطوط) ، وعلى نعمة الحلو : الاحواز ج ٢ ، وجاسم حسن شبر : تاريخ الشمشميين وتراجم اعلامهم .

(١) محمد الباقر الجلالى : موجز تاريخ عشائر العمارة ص ١٢ وعبد الكريم الندوانى : تاريخ العمارة وعشائرها ص ٤١ . وانظر خريطة العراق القبلية فى ملاحق الرسالة .

(٢) عباس العزاوى : عشائر العراق ٢١١/٣ يذكر نيجهولت سنة ١٨٦٦م أن مواطن بنى لام كانت تمتد من الكوت حتى القرنة (فى ملتقى نهر دجلة بالفرات) ومـن دجلة حتى جبال حمرين (شمال شرق بغداد) ، وهذه منطقة واسعة جـدا . انظر Nikholt,L.:Voyage en Russie,III,P.200

و Jones, F.: Selection..,PP.381-382.

وخورشيد باشا : سياحتنامه حـدود ص ٩٠ ــ ١٠٠ .

ويشير روسو الى ان بنى لام كانوا يزودون بغداد ، فى مطلع القرن التاسـع عشر ، بكميات كبيرة من الرز . Rausseau,L.:Description du Pachalick de Baghdad, P. 80

وفى التقرير السرى لدائرة الاستخبارات البريطانية (ترجمة د . عبد الجليـل الطاهر) تفاصيل عن مواطن بنى لام ومجموع قواتهم فيها . وانظر فى هذا الصدد Blunt,A.:Bedouin Tribes of the Euphrates,Vol.II,P.193.

و Aublé, E.: Baghdad, PP. 94 - 97.

(٣) عشائر العراق ٢١١/٣ .

التاسع عشر بأن عددهم " ثلاثة آلاف سقمان [١] ، وأما الخيل فألفان كلهم فرسان " . ويقدم نيجهولت أرقاما أكثر ، فهي تنقسم عنده الى ٨١ فرعا أو أسرة ، قوامها ١٩١٧٠ خيمة و ٥٠٦٤٠ راجلا و ١١٦٦٥ فارسا [٢] ، وهذه الارقام يؤيدها ما ذكر شيحا في اواخر القرن [٣] .

٤ ـ اتحاد قبائل المنتفق :

وأما بنو المنتفق ، فهم قبيلة عربية قديمة كان لها شأن سياسي في منطقة البصرة ونجد منذ القرن العاشر (الرابع الهجرى) [٤] ، واستطاع شيوخها ان يحكموا البصرة فترات متقطعة ابان العهد الجلائري والتركماني . والظاهر أن عجز أولئك الشيوخ عن تكوين أسرة مالكة حاكمة ، وتحولهم الى الاستقرار الزراعي ، اديا الى غياب اخبارهم من مدونات المعاصرين ، وأن يلف الغموض تاريخهم القبلي في الفترات اللاحقة .

وفي القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) عاد اسم " المنتفق " الى الظهور مرة أخرى ليطلق على اتحاد قبلي قوى تكون في منطقة الفرات الاوسط . فقبيل بدء

---

(١) السقمان : او السكمان : هم نوع من الجند ، من حملة البنادق .
(٢) Nijholt, L.: Op. Cit., III, P. 200.
(٣) يذكر شيحا ان بني لام ينقسمون الى ٢٩ اسرة ، يبلغ مجموع بيوتها ٢٤,٠٠٠ بيت (خيمة Tentes)
Chiha, H.: Op. Cit., P. 243.
وفي سياحتنامه حدود (ص ٩٢) ان عددهم يبلغ (١١٤٧٠) فردا ، ولكنه يضيف المعدان اليهم ، وهم سكان الاهوار المجاورة ، ولعل ذلك يرجع الى اشتهار بعض العشائر المتحالفة مع بني لام كآل بو محمد والسراج بتربية الجاموس في تلك الاهوار .
(٤) تاريخ المنتفق ص ٧٢ ـ ٧٣ (حاشية بقلم على الشرقي) .

العصر العثماني ، تمكن الشريف حسن ، وهو رجل من أشراف الحجاز ، أن يوحد هذه القبيلة بقبيلتين نجديتين قويتين ، هما آل مالك وآل أجود ، وأن يتولى بنفسه زعامة الاتحاد الجديد [١] فعرفت أسرته بآل شبيب نسبة الى ابنه ، ثم عرفت بآل السعدون نسبة الى أحد احفاده . [٢]

وشكلت هذه الاسرة ، بزعامتها للاتحاد ، قوة موهوبة الجانب كان لها اكبر الاثر في تاريخ العراق الحديث ، وسيطرت على القسم الجنوبي من حوض الفرات وشط العرب وسيطرة تامة [٣] ، فحلت محل اتحاد القبائل التي رأسته قشعم من قبل على

(١) هناك اختلافات كثيرة وتناقضات شتى في منشأ هذه الامارة ، وفي سلسلة امرائها وتفرعاتهم وتواريخ حكمهم ، اما الروايات المتاخرة فمتناقضة ، وكثير منها مغلوط ، ومن المحتمل ان تكون قصة مجيء الشريف حسن من الحجاز محض اسطورة ، فان في تاريخ المنتفق السابق على هذه الفترة قصة اخرى عن شريف قدم من مكة اسمه احمد بن رميثة قادت اسرته المنتفق ايام الدولة الجلائرية ، ولا يعرف بالضبط مدى العلاقة بين هاتين المرحلتين من تاريخ المنتفق . انظر : سليمان فائق : تاريخ المنتفق ، ومرآة الزوراء ص ١٤٥ ويعقوب سركيس : مباحث عراقية ١/٨ و ٧٢ و ٢٠٢ وعلي الشرقي : ذكرى السعدون ، :
Jones, Selection from the Record of Bombay Government

(٢) سليمان فائق : مرآة الزوراء ص ١٤٥ ويعقوب سركيس ج ١ ص ٤ — ٥ و
Jones, F.: Op. Cit., P. 382
وقد عرف سعدون هذا بطموحه الشديد ، ورغبته في " السلطنة " على العرب ، وقام بثورة عنيفة سنة ١٧٣٨ حاصر فيها البصرة والحلة واستولى على مابينهما من مزارع وضياع ، ثم قتل وارسلت رأسه الى القسطنطينية ، أنظر حديقة الزوراء الورقة ١٥٣ (مخطوط) وتاريخ نشاطي الورقة ٥٥ (مخطوط) و
Hammer, J., Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 13, P. 174.
ويلاحظ لونجريج ، انه في هذه الحروب ظهر اسم سعدون (الذي عرفت به الاسرة) لاول مرة .

Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 150

(٣) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 199.
و Niebuhr: Description de L'Arabie, faite sur des, abservations propres, PP. 334 - 335.

وادى نهر الفرات ، بينما تضاءلت الاخيرة لتكون احدى عشائر قبيلة الأجود الداخلة في اتحاد المنتفق (١) . وباتت المنتفق تؤثر على السياسة القبلية لولاة بغداد ، وهو وضع عانى منه ولاة المماليك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى عد اكبر مشكلة قبلية فى عهدهم . وزاد من قوة اتحاد المنتفق ، فى القرن السابع عشر ، انضمام قبيلة الخزاعل العاتية اليه ، واتخاذها الديوانية عاصمة اقليم الحسكة على الفرات مركزا لها (٢)

الصراع بين الاتحادات القبلية فى وسط العراق وجنوبه :

وكان على القبائل والعشائر العراقية فى النصف الجنوبى من العراق ، ان تحدد مواطنها وسيادتها بموجب موقفها بين المحورين القبليين : بنو لام فى الشرق ،والمنتفق فى الغرب . وكانت منطقة القرنة (نقطة التقاء دجلة بالفرات) ومنطقة الغراف (وهو النهر الواصل بينهما فى شمال القرنة) ، مسرحا لكثير من الاحداث الدامية بين الكتلتين (٣) .

ويلاحظ ان سياسة كل تكتل كانت تعتمد على اقامة تجمع قبلى قوى موال لها فى مناطق النزاع هذه ، يكون حاجزا ضد أطماع التكتل الآخر . ففى عام ١٦٤٣م/١٠٥٣هـ كانا زعماء المنتفق قبيلة البو محمد الطائية الاصل ، القادمة من شمال شرقى بغداد

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) Niebuhr, K.: Voyage.., II, P. 202
Description, P. 336.
و Howel, T.: Voyage en Retour de L'Inde, P. 35.
Ives, E.: Op. Cit., P. 50

(٣) Otter, M.: Voyage en Turquie et en Perse, II, PP. 47 - 144

وادى نهر الفرات ، بينما تناءلت الاخيرة لتكون احدى عشائر قبيلة الاجود الداخلة في اتحاد المنتفق (١) . وباتت المنتفق تؤثر على السياسة القبلية لولاة بغداد ، وهو وضع عانى منه ولاة المماليك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى عد اكبر مشكلة قبلية في عهدهم . وزاد من قوة اتحاد المنتفق ، في القرن السابع عشر ، انضمام قبيلة الخزاعل الماتية اليه ، واتخاذها الديوانية عاصمة اقليم الحسكة على الفرات مـركزا لها (٢)

الصراع بين الاتحادات القبلية في وسط العراق وجنوبه :

وكان على القبائل والعشائر العراقية في النصف الجنوبي من العراق ، ان تحدد مواطنها وسيادتها بموجب موقفها بين المحورين القبليين : بنو لام في الشرق ، والمنتفق في الغرب . وكانت منطقة القرنة (نقطة التقاء دجلة بالفرات) ومنطقة الفـراف (وهو النهر الواصل بينهما في شمال القرنة) ، مسرحا لكثير من الاحداث الدامية بين الكتلتين (٣) .

ويلاحظ ان سياسة كل تكتل كانت تعتمد على اقامة تجمع قبلي قوى موال لها في مناطق النزاع هذه ، يكون حاجزا ضد أطماع التكتل الآخر . ففي عام ١٦٤٣م/١٠٥٣هـ كانا زعماء المنتفق قبيلة البو محمد الطائية الاصل ، القادمة من شمال شرقي بغـداد

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) Niebuhr, K.: Voyage.., II, P. 202

و Description, P. 336.

و Howel, T.: Voyage en Retour de L'Inde, I. 35.

(٣) Ives, E.: Op. Cit., P. 50

Otter, M.: Voyage en Turquie et en Perse, II, PP. 47 - 144

لوقوفها معهم فى الحرب ضـد بنى لام ، وذلك باقطاعهم أرضا واسعة فى قضـاء قلعة صالح ليكونوا حاجزا ضد القبيلة الاخيرة [(١)] . واستمر زعماء البو محمد على هـذا الوضع حتى عهد المماليك . ففى اوائل هذا العهد ، نجح " خليفة " زعيم البومحمد فى اقناع كل من المنتفق وبنى لام بأن قبيلته ستدافع عنهما اذا ما نشب النزاع ، دون أن تعلم القبيلة الاخيرة بالامر ، وبهذا كسب لقبيلته أراضى واسعة من الطرفـين ، وامتهنت تربية (الجاموس) [(٢)] ، ولم تخرج على سياستها هذه ، الا فى أواخر القـرن التاسع عشر ، حينما بدأت المشيخات الكبيرة بالتفكك نتيجة تأثرها بسياسة منح الاراضى والتوطـين .

وكان لسياسة المنتفق الرامية الى تضييق الخناق على مناوئيها الشرقيين بدفـع القبائل الاخرى للتوطن فى مناطق نفوذها ، أثرها من حيث تشجيع قبائل عديـدة على محاولة الاستفادة من عملية التوطين هذه ، ففى مطلع القرن التاسع عشر اتصل زعماء قبيلة السودان الذين ضاقت بهم مواطنهم فى منطقة الفرات الاوسط بزعماء المنتفـق فوجهتهم المشيخة الى قضاء القرنة ، الا ان القبائل المقيمة فيها طردتهم منهـا ، فـنزحوا الى الحويزة حيث رحب بهم المشعشعيون . ولكن قبائل الاحواز ابعدتهـم من اراضيها ، فاضطروا أخيرا الى الانضمام الى اتحاد بنى لام ، الذين اقطعوهـم بعض الاراضى ، فأقاموا فيها حتى انتهاء عهد المماليك فى العراق ، ثم انتقضـوا على بنى لام عند تفكك اتحادهم فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر [(٣)] .

---

(١) الندوانى : تاريخ العمارة وعشائرها ص ٤٩ ، وعشائر العراق ٦١/٣ .
(٢) وكان لامتهانها تربية الجاموس ، وهى مهنة سكان الاهوار ، مادعى ببعـض الباحثين الى عدها جزءا من اولئك السكان المعروفين باسم " معدان " انظـر
Chiha,H.:Op.Cit.,P.246-Zwemer,S.M.:Op.Cit., P. 139
(٣) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٥٨ .

ووجدت قبائل أخرى ، قادمة من بادية الشام او نجد ، موقفها معززا لزعامة المنتفق طمعا فى الارض الخصبة ، مثال ذلك عشيرة البودراج [1] التى انضمت الى المنتفق منذ القرن السادس عشر ، فاقطع شيخها — مقابل موافقته هذه — أراضى "كميت" فى الفرات الاوسط ، ثم استمر شيوخها بالتوسع حتى اصبحوا فى عهد المماليك من اقوى الدعائم التى تستند اليه مشيخة المنتفق ضد هجمات بنى لام المتكررة [2] .

ومن القبائل الجديدة التى هاجرت الى سقى دجلة ، ابان عهد المماليك ، عشيرة "البهادل" [3] من قبيلة خفاجة . فقد اتخذت ، بتحريض من زعامة المنتفق ، اراضى جنوب العمارة موطنا لها ، فاصبحت بذلك خطرا يهدد بنى لام هناك [4] . ومنهم — ايضا — آل عيسى التى تحالفت مع بنى سعيد ، احدى القبائل الثلاث الرئيسية التى تتألف منهم مشيخة المنتفق ، فاقطعتها الاخيرة منطقة المموقة الخصبة . ومنهم كذلك عشيرة الازيرج ، التى سكنت فى جانب دجلة الايمن بتحريض المنتفق . تعزيزا لهذا الجانب من سطوة الحكومة وبنى لام [5] .

---

(١) وكانت يومذاك اسرة عميدها دراج السيلاوى العذرا ى ، الذى نسبت اليه فيما بعد اسرته ثم عشيرته . وقد عدها الحيدرى جزءا من المنتفق (ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد ص ١٠٢) ، وكانت فى أواخر القرن التاسع عشر تتألف من خمسمائة اسرة ، أو ٢٥٠٠٠ فردا .
Chiha, H.: Op. Cit., P. 240

(٢) موجز تاريخ العمارة ص ٧٤ .

(٣) ليست ثمة معلومات عن موطن هذه العشيرة الاصلى ، وتوجد فى انحاء حمص عشيرة بهذا الاسم نفسه . انظر : وصفى زكريا : عشائر الشام ج ٢ ص ١٠٦ ، و
Les tribus Nomades, P. 36.

(٤) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٧٩ وتاريخ العمارة ص ٧٠ .

(٥) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٦٤ وتاريخ العمارة ص ٥١ .

وازاء ذلك ، كانت مشيخة بني لام تحاول ان تجمع من حولها الاتباع وان تستميل ، بوجه خاص ، القبائل الخاضعة لسيادة المنتفق ، مدافعة بذلك عن اراضيها ومناطق نفوذها . ففي الربع الاول من القرن الثامن عشر ألف بنو لام أقوى اتحاد قبلي في ذلك العهد ، حين ضموا اليهم مجموعة من القبائل اه مثل "شمر" (وكانت بعض فروعها قد نزحت الى العراق حديثا) ، وساعدة [١] ، و "عاضدوا واجتمعوا مع من والاهم من كل القبائل والعشائر بحيث تعجز عن ضبطهم اقلام المحابر" [٢] . على أن مثل هذه المحالفات لم تكن بقوة الاتحادات المستقرة وصلابتها ، اذ سرعان ما تؤدي حملات الولاة وسياستهم الى تفتيتها وفصم ارتباطها ببعضها ، وهو ما حدث للاتحاد المذكور سنة ١٧٢٥م/١١٣٨هـ ، عندما أوقع أحمد باشا والي بغداد بقبائله المتحالفة في الواقعة المشهورة "بوقعة ذي الكفل" [٣] .

وفي مطلع القرن التاسع عشر ، جرت اول محاولة لتوثيق الصلات بين الشيخ مذكور رئيس بني لام [٤] وبين الشيخ خيون رئيس بني أسد القبيلة القوية المشهورة قبل

---

(١) ساعدة : من القبائل القحطانية الاصل في العراق ، وتقيم في المناطق الواقعة على جهتي شط الحلة . وقد تبعت في العهود العثمانية الاخيرة شيخ الخزاعل . انظر التقرير السري لدائرة الاستخبارات البريطانية (ترجمة د. عبد الجليل الطاهر) ص ١٣٦ .

(٢) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء الورقة ٨٥ (مخطوط) .

(٣) حديقة الزوراء . الورقة ٨٥ ، وياسين العمري : الدر المكنون ص ٥٨٢ (مخطوط) .

(٤) من أقدر زعماء بني لام واشهرهم ، تولى تدبير شؤون قبيلته زهاء ثلاثين عاما وخلف ثمانية ابناء ، تولى كل منهم فرعا من القبيلة . وتوفي سنة ١٨٣١م / ١٢٤٧ هـ .

Nijholt, L.: Voyage en Russie, III, F. 250

الاسلام وبعده (١) . وكان بنو أسد - حتى ذلك الحين تابعين لاتحاد قبائل المنتفق ويقيمون على شاطئ الفرات ، بين "القرنة" ، وفي داخل المستنقعات والاجسام التي عرفت بها تلك الانحاء ، "وهم في غاية القوة والكثرة والشجاعة والكرم والجود" (٢) .

واتفقت القبيلتان على اعلان الثورة على المنتفق ، فتقوم بنو أسد بطرد العشائر الموالية للمنتفقيين من جانب دجلة الايمن ، ومن جنوب الفرات ، الا أن "خيون" لم يستطع تحقيق هدفه هذا ، لقرب أراضيه من أراضي المنتفقيين فاضطر الى تسليم نفسه الى هذه المشيخة ، حيث أعدم ضربا بالسيوف (٣) .

وكانت نتيجة هذه المحاولة الفاشلة ، أن أخذت قبيلة "البو محمد" الموالية - آنذاك - للمنتفق ، تنكل بالقرى التابعة للقبائل الثائرة ،

---

(١) من أسد العدنانية ، قبيلة كان لها تاريخ حافل في الجاهلية والاسلام ولعبت دورا مهما في العصر العباسي ، حين أسس احد أمرائها (مزيد بن صدقة) مدينة الحلة ، وأعلن فيها امارته ، التي توالى ابناؤه على حكمها . وسقطت هذه الامارة على يد الخلفاء العباسيين في أواخر القرن السادس للهجرة (١٢ م) . وفي العهود التالية اضطرت القبيلة الى النزوح الى انحاء واسط ، بسبب دفع قبيلتي خفاجة وربيعة لها ، وانضمت الى قبيلة بني مالك ، احدى القبائل المكونة لاتحاد المنتفق . انظر : دائرة المعارف الاسلامية . مادة "أسد" وعشائر العراق ج ٤ ص ٤٨ .

Layard,H.:Autobiography and Letters,Vol.1,PP.350-351

(٢) رشيد بن داود السعدي : غاية المراد في الخيل الجهاد ص ٣٠ .

(٣) عبد الكريم الندواني : تاريخ العمارة وعشائرها ص ١١٣ والعزاوي : عشائر العراق ج ٤ ص ٤٨ .

وقبضت على مأمورى بنى لام وأودعتهم السجن أو قتلتهم ، ثم عززت سيطرتها هـــذه بتشييدها عدد من القلاع وتزويدها بالمدافع اللازمة (١) .

ويمكننا ارجاع ظاهرة انهيار تلك الأحلاف الى الطبيعة غير المستقرة للقبائـــل ، وما كانت تؤدى اليه هجراتهــا المستمرة من تخلخل فى توازنها مع غيرها من القـــوى القبلية . فقبيلة " شمر " النجدية الكبيرة ، تحالفت ـ منذ أول نزوح فروعها الـــى العراق مع قبائل عراقية ، كما لاحظنا منذ قليل ، الآن ان النزوح المستمر لهـــــذه القبيلة والتحاقها بفروعها المتوطنــة فى بوادى العراق وأرياقــه ، أدى الى ظهـــور القبيلة ، ابان القرن التاسع عشر ، كقوة ضخمة مستقلة ، فى غير حاجة الى الانضمام فى أية محالفات أو اتحادات قبليــة .

اتحاد قبيلة العبيد :

وأدى نشاط شمر المتزايد ، الى حركة دفع قوية شملت منذ بداية القرن الثامـن عشـر ، منطقة نجد بأكملها ، ثم انتقل تأثيرها الى العراق نفسه . ففى حـــدود ذلك التاريخ ، ضاقت مراعى نجد وفيا فيهمــا بالوجود المتنافى لشمـــر مع وجـــــود القبائل الاخرى الساكنة فى المنطقة ، وعلى رأسها قبيلة العبيد القحطانيـــــة

---

(١) تاريخ العمارة وعشائرها ص ١١٤ .

ونهضت على مأمورى بنى لام وأودعتهم السجن أو قتلتهم ، ثم عززت سيطرتها هـذه ، بتشييدها عدد من القلاع وتزويدها بالمدافع اللازمة (١) .

ويمكننا ارجاع ظاهرة انهيار تلك الأحلاف الى الطبيعة غير المستقرة للقبائل ، وما كانت تؤدى اليه هجراتهـا المستمرة من تخلخل فى توازنها مع غيرها من القوى القبلية . فقبيلة " شمر " النجدية الكبيرة ، تحالفت ـ منذ أول نزوح فروعها الى العراق مع قبائل عراقية ، كما لاحظنا منذ قليل ، الا ان النزوح المستمر لهـذه القبيلة والتحاقها بفروعها المتوطنة فى بوادى العراق وأريافه ، أدى الى ظهور القبيلة ، ابان القرن التاسع عشر ، كقوة ضخمة مستقلة ، فى غير حاجة الى الانضمام فى أية محالفات أو اتحادات قبلية .

اتحاد قبيلة العبيد :

وأدى نشاط شمر المتزايد ، الى حركة دفع قوية شملت منذ بداية القرن الثامن عشر ، منطقة نجد بأكملها ، ثم انتقل تأثيرها الى العراق نفسه . ففى حدود ذلك التاريخ ، ضاقت مراعى نجد وفيا فيهـا بالوجود المتنامى لشمر مع وجود القبائل الاخرى الساكنة فى المنطقة ، وعلى رأسها قبيلة العبيد القحطانية

---

(١) تاريخ العمارة وعشائرها ص ١١٤ .

القديمة[1] ، مما أدى الى نشوب نزاع قتل فيه شيخ الاخيرة ، فاضطرت العبيد الى الهجرة الى الجزيرة الفراتية ، وكان ذلك فى أوائل القرن المذكور[2] .

وأدت هجرة العبيد ، وتوطنهم فى انحاء الجزيرة ، الى منافستهم قبيلة الموالى القوية فى السكن والمرعى منافسة كان من شأنها دفع الاخيرة للهجرة الى اعالى الجزيرة (نصيبين — ماردين — أورفه) [3] ، فانهار بذلك الاتحاد القبلى الذى رأسه آل أبى ريشه ، والذى كان يضم اليه كلا من الموالى وطى والجبور [4] وبعضا من فروع عنزة ، وحلت العبيد محل القبيلة النازحة تدريجيا ، وشاركت القبيلتين الاخريين فى منطقة نفوذها فى انحاء الجزيرة [5] ، فلبثت طى فى مواطنها حوالى مدينة الموصل وفى أريافها [6] ، بينما تقاسمت العبيد والجبور حوض الفرات الاعلى وانحاء الجزيرة حتى الخابور [7] .

---

(١) عنوان المجد ص ١٠٥ وفيه أن العبيد من حمير " وهم بنو عبيد بن عدى بن رغباب بن قضاعة قبيلة من حمير من القحطانية .

(٢) عبد الجبار الراوى : البادية ص ٢٤٤ ويذكر القلقشندى فى نهاية الارب ان بنو العبيد بن الابرص ، ومن قضاعة القحطانية ، كان لهم ملك يتوارثونه بالحصنين ، فى برية سنجار من الجزيرة الفراتية وهذا يعني أن وجود بعض فروع العبيد فى الجزيرة كان فى زمن متقدم على ما تذكره الرواية المحلية اعلاه اذ عاش القلقشندى فى القرن الرابع عشر الميلادى .

(٣) انظر عن مواطن الموالى فى اعالى الجزيرة Muller, :En Syrie avec les Bedouines, PP. 124, 125
Les Tribus Nomades et Semi Nomades.., P. 126

(٤) سبقت الاشارة الى هذا الاتحاد فى اول هذا الفصل .

(٥) الراوى : البادية ص ٢٤٤ .

(٦) تردد ذكر طى فى احداث ولاية الموصل فى القرن السابع عشر ، فقد ورد ذكرها فى اخبار سنة ١٦٨٩م/١١٠١هـ (ياسين العمرى : الدر المكنون ص ٥٦٧ مخطوط ، وزبدة الاثار الجلية ص ٧٤ — ٧٥) .

(٧) الحيدرى : عنوان المجد ص ١٠٨ .

وفى القرن الثامن عشر ، استطاع العبيد أن يشكلوا اتحادا قويا جديدا ورث اتحاد آل أبى ريشة القديم ، فضموا اليهم كلا من قبائل الجبور [1] والدليم ، والمعـزة ، وغرير ، ومفرج ، والكبيشات ، [2] . وتم لزعيمهم سليمان بك بن عبد الله الشـاوى طرد قبيلة الموالى تماما من العراق والايقاع بشيخها تمر باشا الملى [3] ، فاستقـر هذا فى نواحى أورفه ، ولم يعد لقبيلته أى دور فى الخريطة القبلية للعراق منـذ ذلك العهد .

ولعبت العبيد ، بقيادتها المنظمة المثقفة ، دورا بارزا فى رسم سياسة ولاة بغداد القبلية فى القرن الثامن عشر ، فقد ولى عبد الله الشاوى زعيم القبيلة منصـب "باب العرب" فى ديوان ولاية بغداد ، وخلفه فيه ابنه سليمان بك [4] ، وهـو منصب أسسه حسن باشا والى بغداد الشهير ليكون وسيلة الاتصال بالقبائل العراقية . فكانت لآل الشاوى الكلمة النافذة لدى القبائل ، وشاركوا فى استعادة البصرة مـن

---

(١) من المعتقد أن أصل الجبور من نجد ثم نزحوا الى الجزيرة فى حدود القـرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، حيث أقاموا فى وادى الفرات .
Muller: Op. Cit., PP. 141-142.

(٢) الحيدرى : عنوان المجد ص ٨٩ و ١٠٥ وعبد الجبار الراوى : البادية ص ٢٤٤ .

(٣) يصف ياسين العمرى انهيار الموالى أمام قوات العبيد سنة ١٧٩١/١٢٠٦ هـ فيقول "وتشتت الملية (الموالى) فى البر ، وذل تمر باشا بعد عزه ، وسار ونزل على أخيه ابراهيم وقد ذهبت أمواله وذلت رجاله ، وكان معه من الامـوال ايحمون جملا تحمل النقود من الذهب ومثلها من الفضة والاسلحة والثياب .." زبدة الآثار الجلية ص ١٦٨ - ١٦٩ وغرائب الاثر ص ٢١ - ٢٥ .

(٤) كان اديبا معروفا . قتل سنة ١٧٩٤/١٢٠٩ هـ (مطالع السعود ص ٢١ وصالح السهروردى : لب الالباب ١٧٨ - ١٨١ و ١٩٠ - ١٩٤ ، تراجم الشاوية (مخطوط) الورقة ١٢ أ .

أيدى الفرس سنة ١١٩٩/١٧٨٤ هـ وأسهموا فى الدفاع من أهل بغداد أثناء الفتن [1] ، وكانت لهم وقائع مع بعض ولاة المماليك [2] ، وقصدهم الشعراء وأهل السياسة ، حتى اصبحوا ـ أحيانا ـ ملاذا لمناوئى نظام المماليك فى بغداد [3] .

ظهور قبائل شمر :

على أن تحركات قبلية جديدة فى شرقى الجزيرة العربية أخذت تؤثر ـ تدريجيا ـ على قوة العبيد وأحلافهم ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ذلك أن القحط وحركات الوهابيين العسكرية المنيفة ، ادت الى قيام هجرة شمرية كبيرة الى الجزيرة الفراتية . وعلى الرغم من أن بعض فروع شمر كانت قد استقرت فى العراق منذ اواخر القرن السابع عشر [4] ، الا أن الهجرة الاخيرة كانت تحمل أخطارا جديدة ، وبذور تغيير شامل فى أوضاع العراق القبلية آنذاك .

---

(١) عبد الرحمن السويدى : السنين الشداد فى تاريخ بغداد (مخطوط) .
(٢) دوحة الوزراء ص ١٤١ ـ ١٤٢ ومختصر مطالع السعود ص
(٣) ديوان حسين بن على العشارى (ت ١٧٨٥م/١٢٠٠هـ) ـ المقدمة لكاتب الرسالة .
(٤) مثل زوبع ، والفرير والشهوان ، انظر العزاوى : عشائر العراق ١/٢٤٢ ـ ٢٤٨ و ٢٥٣ ـ ٢٥٤ و ٢٧٥ و
Dickson,H.R.:The Arab of the Desert, P. 574.

وتؤكد الروايات المحلية أن القحط الذى داهم نجد ، اضطر فارسا آل الجربا ، شيخ احدى قبائل شمر [١] ، الى الهجرة باربعين بيتا من الشمر طلبا للمرعــــى ، فنزل ضيفا على العبيد . ويبدو ان شيوخ العبيد واحلافهم من الجبور وطى ، أحسوا بما يمثله هذا المهاجر من خطر داهم اذا ما تبعته قبيلته [٢] . وثمة رواية مفادهـــا أن القبائـــل الثلاث: العبيد والجبور وطى أرادوا قتل فارس والتخلص من اتباعـــه خشية منهم ، الا ان قيمهم القبلية منعتهم من الغدر بضيفهم ، فاستقر فـــارس وأتباعه فى الجزيرة ، وشجعوا فروعا أخرى من قبيلتهم فى نجد على اللحاق بهـــم ، فما لبثت شمر أن رحلت اليه جماعات ، "فتكاثرت شمر وحدث ما كان يخشاه رؤســاء العبيد وطى والجبور" ، اذ سرعان ما نازعتهـم شمر أراضيهم [٣] . واصطدمـت بعشيرة شمــرية سبقتهم فى الهجرة تدعى "الصايح" ، فعبرت الاخيرة دجلة متجهة نحو الحويجة ، متخذة اياها منازلا لها [٤] . وانتقلت طى من مكانها الى غرب سنجار ، أما الجبور فقد سكنوا منطقة الخابور [٥] وانحدر بعضهم الى منطقـــة

---

(١) اقامت شمر اولا فى منطقة جبال اجأ وسلمى ، من نجد ، ومنها اخذت قبائلها بالنزوح الى العراق فى فترات متلاحقة ، وبقى الذين فى منطقة الجبال تلك يعرفون بشمر الجبال ، وقد خضعوا فيما بعد لامارة آل رشيد . انظر عشائر العراق ج ١ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤
Blunt,A.:Bedouin Tribes of the Euphrates, PP. 113,187.

(٢) انباء يحيى ، ص ٢٤٥ .

(٣) سياحتنا مع حدود ص ٢٣٢ و ٢٣٦ ــ ٢٣٥

(٤) Blunt, A.: Op. Cit., P. 306

(٥) Muller:En Syrie., P. 141
و Cuinet, V.: La Turquie d'Asie, II, PP. 24 - 25.

الزابجن حيث استقروا بسها [١] . وبهذا تمت لشمر السيطرة على منطقة الجزيـــرة برمتهـــا [٢] ، وفرضت نفسها على ادارة الممالك منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى نهاية حكمهم ، واستطاعت أن تسيطر على مجموعة كبيرة من العشائر والجماعات الاخرى . فقد ر تيلر Taylor هذه العشائر الخاضعة لشمر الجربا بحوالى ١٣٥٠٠ خيمة ، أى حوالى ٨١٫٠٠٠ نسمة ، من العشائر البدوية ، و ٥١٦٠٠٠ نسمة من العشائر الريفية ، فضلا عن بعض العشائر التركمانية والكروية [٣] . وقد رتبهـــا بلنـت Blunt بين ١٢٫٠٠٠ و ١٢٫٥٠٠ خيمة ، عدد أفراد كل خيمة ــ فى المتوسط ــ أربعة اشخاص ، أى أن مجموعهم كان دون ٥٠٫٠٠٠ بقليل [٤] وهذا ما يتفق مع ما ذكره تشزنى [٥] ، اما الحيدرى فيقدرهم بـ ١٠٠٫٠٠٠ نسمة [٦] .

على أن أراضى سهلية مفتوحة كأراضى بادية العراق ، لم تكن تعرف لسكانها اى استقرار دائم ، فقد لعبت عوامل شبيهـة بتلك التى دفعت بشمر الى بوادى العراق الشمالية ، دورها فى دفع قبائل شديدة البأس ، الى المنطقة ذاتها . ذلك أن حروب الوهابيين فى شرقى الجزيرة العربيـة وقيامهـم بفرض سلطتهـم على منطقـة

---

(١) Layard: The Discoveries in the Ruins, PP. 242, 266
و Grant, C.: Syrian Desert, PP. 110-111
(٢) Grant, Op. Cit., P. 106
و Blunt, A.: Op. Cit., PP. 239, 295, II, P. 187.
(٣) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ١٥٠ .
(٤) Blunt, A.: Op. Cit., P. 187.
(٥) Chesney, R.A.: The Expedition of the Survey, Vol. 1, PP. 719 - 724.
(٦) ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد ص ١٠٨ .

نجد منذ أواخر القـرن الثامن عشر ، واستمرار عملياتهم الحربيـة فى مطلع القـرن التالى ، ادت الى نزوح عدد كبير من القبائل من مواطنها فى نجد الى بوادى العراق الشماليـة .

ظهور قبيلـة عنـزة :

وكانت أبرز تلك القبائل المهاجرة وأقواها قبيلة " عنزة " [١] التى تركـت مواطنها فى نجد فى القرن الثامن عشر [٢] ، أى فى نفس الفترة التى هاجرت فيهـا شمر الى العراق ، الا ان عنزة اتجهت غربا ، فحلت فى البداية السورية ، فـى المثلث المسمى " الحماد " ، الذى تقوم قاعدته على صحراء النفوذ ، واستوطنـت الضفة الشرقية من نهر البليخ ، شرق حلب ، دافعة امامها بعض فروع شمر ، مثـل " الفدعان " و " حسنة " [٣] عبر نهر الفرات ومن هنا بدأت عنزة تتحول الى خطـر

(١) ثمة اختلافات فى شأن نسب هذه القبيلة ، وقد ذكر غير واحد أنهم ينتسبـون الى ربيعة . انظر رشيد السعدى : غاية المراد فى الخيل الجياد ص ٤١ وعبد الجليل الطاهر : العشائر والسياسة ص ٦٢ .

(٢) Muller, En Syrie.., PP. 112 - 123.

و Blunt , A.: Op. Cit., II, P. 192

و Dickson,H.R.: Op. Cit., I. 575.

(٣) Muller, Op. Cit., P. 116.

و Les Tribus Nomades, P. 111

و Aublé, E.: Baghdad, P. 94, 99.

و Dickson,H.R.: The Arab of the Desert, P. 574,

حقيقي يتهدد جارتها شمر في كل حين ، واستطاعت بتواجدها في غرب بادية العراق الشمالية أن تمنع شمر من التوغل غربا (١) ، في الوقت الذي كان فيه الـولاة العراقيون يمنعون الاخيرة من التوغل جنوبا حفاظا على العشائر التي استقرت فعلا (٢) ، فاضطرت بعض فروع شمر من الصعود الى نواحي أورفه (٣) ، وبذلك انفسح حوض الفرات امام عنزة تماما ، وشمل ميدان تحركاتها منطقة واسعة تمتد من ديار بكر وماردين وبيره جك ودير الزور (٤) ، الى بغداد فالحلة احيانا .

ففي سنة ١٧٩٩م / ١٢١٤ هـ نزلت عنزة على مقاطعات الحلة للكيل " وتطاولوا على الاهلين " (٥) ، وكانت حكومة الحلة آنذاك بيد اسرة عبد الجليل

(١) Layard, H.: The Discoveries in the Ruins, PP. 242, 266
و Grant, C : The Syrian Desert, PP. 110-111

(٢) Jones, F.: Selection from the Record of Bombay Government, PP. 254-55.
و Dickson, H. R.: Op. Cit., P. 576.

(٣) لقد أشارت بلنت الى مواطن تلك الفروع الشمرية بتفصيل :
Blunt, A.: Bedouin Tribes.., Vol. 2, PP. 187-193.
وانظر الخريطة التهلية في كتابها المذكور ، مقابل ص ٣٤٦ .

(٤) وكانت بعض فروع عنزة قد وصلت الى انحاء حمص وحلب
Muller: Op. Cit., PP. 112-123
و Layard, H.: Op. Cit., Vol. 1, P. 296
ويذكر مؤرخ ماردين المعاصر عبد السلام المفتي ، انه في أيام داود باشا " خلت المدينة بأجمعها عن السكان ، فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، والسبب في خرابها عدة أمور ، احدها تسلط عليها عرب يقال لهم عرب العنزة ، وهم قوم ألوف ولكوك (الك : مائة الف) " . ويلاحظ أن المؤلف لا يفرق بين عنزة وشمر ، ويعد الاخيرة فرعا من الاولى .
تاريخ ماردين . الورقة ١٦٢ (مخطوط) .

(٥) مختصر مطالع السعود ص ٧٠ ويوسف كركوش : تاريخ الحلة ج ١ ص ١٣٠ .

الشمرية الشهيرة (١) ، فلم تفد محاولات الحكومة لترضيتهم بالتي هي أحسن ، بل اصطدموا بقبيلة الدليم المتحالفة مع شمر (٢) . وفي عام ١٨١٧م/١٢٣٣ هـ قدمت عشيرة الصقور ، أحد عشائر عنزة (٣) ، من أنحاء حلب ، ونزلت في جهات الحلسة والحسكة على الفرات ، فعاثت فيها فسادا ، وأوقعت بحملة كان قد اعدها والي بغداد لتأديبها (٤) ، واصطدموا بشمر سنة ١٨٢٣م/١٢٣٨ فانكسروا ، ولكنهم عادوا في السنة التالية فانتصروا عليها في موقعة مشهورة (٥) ، وامتد الصراع بين القبيلتين وازداد ضراوة ، وتقطعت الطرق التجارية ، وكانت عنزة تعد خطرا كبيرا يتهدد المسافرين في انحاء الجزيرة (٦) . لذا فقد عمد ولاة الموصل الى اقامة علاقات طيبة مع شيوخ عنزة خشية من هجماتها على مدينتهم (٧) ، ولكن الموصل لم

---

(١) تقدم الكلام عنها في فصل (الطبقات الاجتماعية) .

(٢) دوحة الوزراء ص ٢١٠ – ٢١١ ، ومطالع السعود (مخطوط) ، ومختصره ص ١٠٨ وعشائر العراق ج ١ ص ٢٦٠ .

(٣) قبيلة محاربة ، اشتهرت بأعمالها الفوضوية ، وتعرف في وسط العراق وجنوبه بـ " الزقاريط " أو " الزقرت " ، وكان لها دور مهم في تاريخ النجف أثناء الحروب الاهلية المعروفة باسم " فتنة الشمرت والزقرت " .
انظر : وصفي زكريا : عشائر الشام ص ٨٧ وعشائر العراق ج ١ ص ٢٧٠ وعمر كحالة : معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٦٤٥ .

(٤) دوحة الوزراء ص ٢٨٨ – ٢٨٩ ومختصر مطالع السعود ص ١٠٨ والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٨٥ وعشائر العراق ج ١ ص ٢٦٠ .

(٥) مختصر مطالع السعود ص ١٢٠ والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٨٥ .

(٦) Blunt, A.: Bedouin Tribes, Vol. 1, PP. 109,121,243.

(٧) خورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٣١٦ وعبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث .

تفتأ تواجه ، بين حين وآخر ، هجوما غير متوقع (١) . أما مدن الفرات الشمالية ، مثل هيت وعانة ، فقد خضعت لسيطرة عنزة تماما (٢) ، وفي أواخر عهد المماليك ، كان فرع من عنزة يهدد مدينة بغداد نفسها (٣) .

وعلى الرغم من صعوبة تقدير عدد العنزيين لانتشارهم في مساحات شاسعة ، بين العراق والشام ونجد ، فان جميع التقديرات التقريبية عن عددهم في بوادي العراق وأريافه ، كانت تؤكد ضخامة هذه القبيلة وكثرة عدد أفرادها بالنسبة للقبائل العراقية الاخرى . ففي أواسط القرن التاسع عشر ، قدر عددها بين ٣٥,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ فرد (٤) ، وقدر ذلك العدد في الثلث الاخير من القرن بـ ٣٠,٠٠٠ خيمة تقريبا ، اى حوالي ١٢٠,٠٠٠ نسمة (٥) ، ويبالغ شيحا في تقديره لضخامة القبيلة حين يذكر انها تتألف من ٩٧,٠٠٠ خيمة (٦) ، اى ما يعادل نصف مليون من البشر تقريبا (٧) هذا في حين لم يزد عدد نفوس شمر عن ثلث تلك الاعداد في جميع التقديرات (٨) .

---

(١) هاجمت "الزتاريط" من عنزه ريف الموصل سنة ١٨٠٩م / ١٢٢٤هـ (غرائب الاثر ص٩٣) .
(٢) سياحتنامه حدود ص ١٨٦ .
(٣) Fraser, J.B.: Mesopotamia and Assyria, XIII, 264.
(٤) Chesney, R.A.: The Expedition of the Survey, 1, PP. 719 - 724,
(٥) Blunt, A.: Beduin Tribes, II, P.187.
(٦) Chiha, H.: Provence de Baghdad, P. 243.
وانظر Aublé, E.: Baghdad, PP.98-99.
(٧) تقدر بلنت عدد أفراد الخيمة الواحدة بأربعة اشخاص (Blunt: 11, P.187)
(٨) بين ١٢,٠٠٠ و ١٢,٥٠٠ في رأى بلنت ، و ٣٧,٠٠٠ خيمة كما يذكر شيحا ، اى اكثر من مائة الف فرد . ويعطي خورشيد باشا الذى كتب تقريره عن العراق في منتصف القرن التاسع تقديرات اكثر تواضعا ، فهم ، في رأيه ٣٤٥٠ خيمة ، عدد افرادها ١١,٦٠٠ نسمة (سياحتنامه حدود ص ٢٢٥) .

الصراع بين شمر وعنزة وظهور قبيلة الخفير النجدية :

وكرد على تعاظم قوة عنزة المتنامية ، فقد وجدت شمر نفسها تبحث عن حلفاء جدد يمكن ان تشكل معهم سدا ضد التوسع العنزي الجديد ، وقد تمكنت شمر سنة ١٨١٦م/١٢٣١ هـ من عقد حلف مع قبيلة الخزاعل القوية في انحاء السماوة[1]، فكان ذلك أهم تحرش حقيقي باتحاد المنتفق في الفرات الاوسط والجنوبي ، والذي كان يبدو - حتى الآن - بعيدا نسبيا عما يجري في بادية الجزيرة وحوض الفرات الشمالي .

وكان خروج الخزاعل ، وهي القبيلة الخاضعة لمشيخة المنتفق وانضمامها الى حلف جديد ترأسه قبائل شمر ، يمثل دون ريب تصدعا شديدا في بناء اتحاد المنتفق، اذ أنه يضعف جبهتها المطلة على البادية النجدية حيث يكمن الخطر الوهابي دائما ، فكان لابد للمنتفق - هي ايضا - من حليف قوي يحل محل الخزاعل ، ويستطيع شد ازرها ازاء شمر واحلافها من جهة ، واعتداءات عنزة ومضايقاتها المتكررة من جهة اخرى ، كما أن من شأنه أن يحمي ظهرها المكشوف على نجد . ومن هنا تبدأ قصة الكتلة القبلية الجديدة في العراق بالخفير .

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٦٨ ، ومختصر مطالع السعود ص ١٢٢ .

والضفير من أشهر قبائل نجد ، وهى فى الأرجح اتحاد قبلى قديم ، تكون من قبائل عديدة تضافرت فعرفت بهذا الاسم (١) . ولم تكن لهذه القبيلة علاقة سابقة بالعراق حتى مطلع القرن التاسع عشر (٢) ، حين اصطدمت بقوات الوهابيين الذين عدوها خارجة على سلطتهم ومناوئة لمعتقداتهم الدينية (٣) . وقد اضطرت فروع منهم الى ترك مواطنهم فى نجد ، والنزول فى بوادى العراق الجنوبية ، قريبا من ديرة المنتفق على الفرات (٤) ، بينما انطلقت بعض فروعها الى البوادى الشمالية وريف الموصل (٥) .

ولقد ارتبطت الضفير بحلف مع جيرانهم المنتفقيين منذ أول حلولهم فى بادية العراق (٦) ، بهدف مواجهة الخطرين المحتملين :

---

(١) ويلاحظ ان المصادر سكتت عن نسبة هذه القبيلة الى غيرها ، ولا يعرف انتماءها القديم على وجه التحديد . عشائر العراق ج ١ ص ٣٠١ وعبد الجبار الراوى : البادية ص ٨٩ و ٩٠ ومعجم قبائل العرب ج ٢ ص ٦٩٦ .
(٢) عشائر العراق ج ١ ص ٢٩٥ .
(٣) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ص ١٢٨ وسليمان فائق بك : تاريخ المماليك الكوله منذ ص ٣٩ .
(٤) Jones, F.: Op. Cit., PP. 75 - 370
و Loftus, W.: Travels and Researches, Vol.II, P.75
(٥) غرائب الاثر ص ٤٨ حوادث سنة ١٧٩٨م/ ١٢١٣ هـ . ويبدو ان بعض تلك الفروع انضمت الى شمر ، وشاركت معها فى صد الحملات الوهابية . ففى سنة ١٧٩٨ نفسها ، التقى سعود زعيم الوهابيين بقوة من بدو شمر والضفير تحت امرة مطلق بن محمد زعيم شمر ، ودارت معركة تتل فيها الاخير .
انظر فيلبى ، جون : تاريخ نجد ، ص ٦٥ و ٨٣ .
(٦) تاريخ المماليك الكوله منذ ص ٤٠ وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٦٦ .

أ ـ ضغط شمر وعنزه من الشمال .

ب ـ ضغط الوهابيين من الجنوب .

وفي عام ١٧٩٨م / ١٢١٣ هـ انضوت الضفير تحت قيادة حمود بن ثامر شيخ المنتفق في حملته العراقية الكبرى ضد الوهابيين في نجد [1] ، وشاركت في الاعمال العسكرية الاخرى ، مما أدى بقيادة الوهابيين الى التنكيل بعشائرهم التي مازالت تقيم في شمال نجد ، والايقاع بهم بقسوة بالغة ، فاضطرت تلك العشائر الضفيرية الى النزوح الى العراق حيث التجأت الى مشيخة المنتفق هناك [2] ، وقدر عددهم باكثر من ثلاثين الفا ، وعدوا " من أعظم عشائر العراق " [3] . وذكر الحيدري أن " منزلتهم في منازل المنتفك (المنتفق) بين نجد والبصرة " [4]

وأدى وجود هذه القبيلة بالقرب من البصرة ، رأس الخليج العربي الشمالي ، الى اكتسابها أهمية كبيرة في مجال المواصلات العالمية [5] على أنه من الواضح ان الضفير لم يعرفوا لهم مستقرا ثابتا طيلة القرن التاسع عشر باكمله ، فكانت عشائرها تموج في منطقة واسعة بين النجف وكربلاء والبصرة جنوبا ، والديسر

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ١١٢ وياسين العمري : الدر المكنون ص ٦٥٥ (مخطوط) وغرائب الاثر ص ٤٨ .

(٢) ابن بشر : عنوان المجد ج ١ ص ١٢٨ وعشائر العراق ص ١٠٩ .

(٣) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٠٩ وانظر :

(٤) الحيدري : عنوان المجد ص ١٠٩ .

(٥) نوار : تاريخ العراق الحديث ص ١٥٤ .

(دير الزور) والرها شمالا [1] . وتقوم بغزوات في أحيان كثيرة على جنوبي العراق . فتجتاز نهر دجلة وتجبي الاتاوات . حتى تصل الى "بدرة" و "مندلي" قرب الحدود العراقية ــ الايرانية [2] .

ويفسر المؤرخ العراقي سليمان فائق سبب رغبة المنتفق في التحالف مع هذه القبيلة البدوية العاتية . بأن المنتفق ادخرت حليفتها اليوم عصيب فهو يرى بأن استجلاب المنتفق للضفير كان خدعة . الغرض منها حشد القوى القبلية في العراق ضد الحكومة العثمانية المركزية . لا ضدها ضد الوهابيين . وانهم اتخذوا من العامل الاخير ستارا لتدبير حركتهم هذه امام حكومة بغداد [3] .

ولا يخلو هذا الرأي ــ في بعض جوانبه على الاقل ــ من صواب . فان تاريخ المنتفق الطويل يشهد على محاولات القبيلة للتملص من سيادة بغداد كلما سنحت الفرصة . وقيامهم بالاستيلاء على البصرة غير مرة دليل واضح على نواياهم تلك . وفكرة تأسيس حكومة عربية في البصرة تعيد مجد العرب ازاء تسلط الترك لم تكن بعيدة عن اذهان قادتها [4] . غير ان اضطراب الاوضاع السياسية في أواخر عهد المماليك .

---

(1) Jones, F.: Op. Cit., PP. 75 - 76
وسليمان فائق . تاريخ المماليك الكوله مند ص ٣٩ .

(2) Jones : Op. Cit., P. 370 ويذكر شيحا ان الضفير ينقسمون الى ٥ عشائر . تتألف من ٥٠٠٠ خيمة . وان عددهم يبلغ ٢٥,٠٠٠ نسمة .
Provence de Baghdad, P. 242.

(3) تاريخ المماليك الكوله مند ٤٠ .

(4) عبدالله الناصر : تاريخ السعدون ١٢٦ وأحمد نور الانصاري : النصرة في اخبار البصرة ص ٥٣ (ملاحق المحقق) .

واشتداد الضغط القبلي على المنتفق ، والمخاوف القائمة من زحف وهابي جديد ، لم تكن تسمح — بأية حال — بمثل هذا الانقلاب الذي تحدث عنه سليمان فائق ، وخاصة في ذلك الظرف العصيب .

والواقع أن حروب الوهابيين المستمرة وما رافقها من اعمال قسوة وتهديد ، قد انهكت قبيلة المنتفق الى حد كبير ، وحاول زعمائها في الثلث الاول من القرن التاسع عشر القيام بهجوم كاسح يعيد للمنطقة حالتها السابقة ، الا ان هجومها ذاك سرعان ما انقلب دفاعا ، وخاصة بعد فشل الحملة الكبرى التي جهزها ثويني بن عبد الله شيخ مشايخ المنتفق ، سنة ١٧٩٦ م/١٢١١ هـ ، والتي لقى فيها مصرعه(١) . ويمكن القول بأن وضع المنتفق لبث — طيلة السنين التالية — يحس آثار الصدمة الوهابية القوية ، ويبدو أن فعالية القبيلة ونشاطها السابق أخذتا بالفتور بعض الشيء حتى انتهاء عهد المماليك .

علاقة المماليك بالقبائل :

تعتبر مشكلة القبائل المراقبة احدى المشاكل الرئيسية المعقدة التي واجهت نظام المماليك في كل من بغداد والبصرة وشهرزور وما يتبعها من مدن وبلدان ، ذلك

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٠٤ وابن بشر : عنوان المجد ج ١ ص ١١٢ .
و Corancez, L.A.: Histoire des Wahabis, P. 25
و Dupré, A.: Voyage en Perse, Vol. II, P. 145.

أن هذه المشكلة التي لم يجد لها الولاة السابقون أي حل جدي طيلة قرن من الزمان أو اكثر ، بلغت من السوء والتعقد حدا كبيرا بسبب موقف الولاة المتردد تجاههما . ويعتمد هذا الموقف على امرين :

أ ـ الحاجة الماسة الى قوى القبائل عند ظهور اى خطر ايراني يهدد بسيادة البلاد ، واعتبارها من قوى الحدود التي يمكن ان تدفع الاخطار عن تخوم الدولة العثمانية .

ب ـ ضرورة قمع هذه القبائل وضربها اذا ما تخطت الدور المرسوم لها ، بقطعها الطرق التجارية ، أو بفرض سيطرتها على المدن ، أو بعصيانها أوامر الولاة .

ومن هنا فقد كان امام اى وال عثماني يتسلم مقاليد الحكم في بغداد ان يوازن بين عاملين مهمين ، فيحاول الاستفادة ـ قدر امكانه ـ من قوى القبائل ، ويسعى الى تقليم قوى هذه القبائل في الوقت نفسه .

وكان انقضاء عهد الفتوح الكبرى التي خاضها السلاطين العثمانيون في القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر ، قد ترك حكام العراق وحدهم امام مسؤوليات صعبة ، داخلية وخارجية ، ولم يكن في الميدان ، فيما عدا قوات الينكجرية والسباهية المحدودة ، سوى القبائل بتكتلاتها البشرية المسلحة ، فلم يكن ثمة بد من الالتجاء اليها عند الضرورات . واضطر الولاة الى اعتبار قوى هذه القبائل ـ تدريجيا ـ

رصيدا عسكريا لا مندوحة عنه فى رسم اى سياسة يتطلب الوضع العام تنفيذها ، وذلك على الرغم مما يكتنف استعمال مثل هذا الرصيد من خطورة حقيقية .

ولقد أدى ضعف السلطات العثمانية فى المدن العراقية الى نشوب ثورات قبلية ذات شأن فى ارباك الحكومات المحلية . وكان اضخم عصيان قبلى من هذا النوع ، ما قامت به قبيلة المنتفق فى اواخر القرن السابع عشر ، حين " عصى امير المنتفق من عرب البصرة ، واسمه مانع ، واظهر العصيان وقطع الطرقات ، ونهب وقتل وسلب " (١) ولم تستطع قوات بغداد القضاء على التمرد ، بل اثبتت الاحداث التالية مدى قوة المنتفقيين وشدة بأسهم ، فقد جمعوا أنصارهم من القبائل النجدية واقاموا القلاع على الانهار ، وهزموا اكثر من حملة توجهت لتأديبهم . على ان ضعف الحكومة الادارية التى أقامتها القبيلة فى البصرة ، أدت الى سقوط المدينة بيد امراء الحويزة المجاورين ، فكاد هذا الحادث أن يجر البلاد الى حرب جديدة مع الايرانيين ، لولا مسارعة الشاه الايرانى بتدارك الموقف وتسليم مفاتيح المدينة الى الباب العالى (٢) .

---

(١) ياسين العمرى : زبدة الاثار الجلية ص ٢٢٤ والدر المكنون ص ٥٧١ و ٥٧٣ (مخطوط) وعلى ظريف الاعظمى : مختصر تاريخ البصرة ص ١٤١ .
Hammer, J.: Historie de L'Empire Ottoman, Tome 13, P. 287.

(٢) سليمان فائق : تاريخ المنتفق ص ١٣ والعمرى : الدر المكنون ص ٥٧٣
و Hammer, J.: Op. Cit., P. 288
و Huart, C.: Op. Cit., P. 137
والعزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٥ ص ١٥١ .

فكان لابد اذن من وضع حد للقوى القبلية في العراق اذا ما أريد أي ضمان لاستقرار مدنسه ، وكان على المماليك أن يتولوا هذه المهمة . ولقد ذكرنا من قبل أن تأسيس نظام المماليك نفسه هو في حد ذاته محاولة لخلق جيش مدني منظم يقلل من خطر الاعتماد على القبائل . وكان حسن باشا والي بغداد الشهير ، ومؤسس نظام المماليك ، قد رسم في عهده الطويل ، سياسة خاصة متميزة تجاه القبائل سار عليها ولاة المماليك من بعده ، حتى غدت سمة ظاهرة من سمات هذا العهد . وتعمل هذه السياسة على التخفيف من ثقل القبائل في رسم السياسة العامة للبلاد ، وذلك بالاقلال من الاعتماد عليهم في الأمور العسكرية . حقيقة ان حكومة المماليك لم تستطع الاستغناء عن قوى القبائل في كل حملة كبيرة تعدها ، الا أن هذا الاعتماد كان يقل تدريجيا بمرور الزمن ، حتى أمست القبائل ، في أواخر عهد المماليك ، لا تمثل الا رصيدا احتياطيا الى جانب القوة الرئيسية التي تشكلها قوات المماليك والينكجرية والجنود المحليون من سكان المدن ذاتها .

ويبدو مما يذكره المنشي البغدادي في كتاب رحلته سنة ١٨٢١م/١٢٣٧ هـ ، ان ذلك الرصيد كان ينتخب ـ عادة ـ من مجموعة كبيرة من القبائل والعشائر بحسب درجة موالاتها للحكومة وتأييدها لها [1] ، وهو أمر تفسره الرغبة في

---

(١) رحلة المنشي البغدادي ص ٣٤ ـ ٣٥ .

أضعاف الرؤى المصممة لدى هذه القوات . فكانت قبيلة " العبيد " (١) مثلا ، تقدم زهاء (١٠٠٠) فارس ، ويقدم أمراء بابان الاكراد مثلهم ، ومثل هذا العـــدد كانت تقدمه عشائر الطية وطى والهيات ، وأغلب هذه القبائل مؤيـد لحكومـــة بغداد . وثمة قوات يتم جمعها من قبائل وعشائـر اخرى ، مثل : الجبور ، والبـو مفرج ، والقراغول ، والدليم ، والعنبكية ، وشمرطوقه ، والدفافعة ، والسواكن ، والاسلم ، والبو هيازع ، والبو علكسه ، والرواشد ، والعزة ، وبني سعد ، وبـني صبيح ، والمجمع ، وقشعم ، وزبيد ، والبطة ، والشهل ، وخفاجة ، والجنابيين ، والعدان (٢) . وتبلغ عدة المجمع (٢٠٠٠) فارس ، يمكن زيادتهم اثنـــاء الحروب الى ٥٠،٠٠٠ رجل (٣) على الاكثر ، والى ٢٠،٠٠٠ رجل على الاقل (٤) .

---

(١) يذكر الحيدري أن " حمولة " آل شاهر الشاويين ، وهم رؤساء القبيلـــة ، كانوا يجهزون زهاء خمسمائة فارس وحدهم (عنوان المجد ص ١٠٥) . وجدير بالذكر ان عدد بيوت هذه القبيلة كان يبلغ في اواخر القرن التاسع عشـــر (٨٠٠٠) بيت ، موزعة على (١٣) عشيرة .
Chiha,H.:Frovence de Baghdad,F.249

(٢) عن هذه القبائل ، وأوضاعها الاجتماعية ، انظر Blunt,A.:Beduin Triber of the Euphrates, 2 Vcls. (London 1879)
وعباس العزاوي : عشائر العراق . الاجزاء ١ ، ٢ ، ٤ .

(٣) رحلة المنشي البغدادي ص ٣٥ . ويذكر Nijkolt (الذي زار العراق سنة ١٨٦٦ ــ ٦٧) ان عددا غير قليل من قبائل العراق كان يخضع للتجنيد ، مثل قبيلة المجمع (ويبلغ عدد فرسانها ٢٢٤٠) التي تتبع في ذلك قائمقام خريصان في شرق بغداد ، وقبيلة " القصاصعي " و " السراج " (ويبلغ عــدد فرسانها ٩٤٠) التي تقدم للحكومة مساعداتها كلما طلب منها ذلك :
Nijholt,L.:Voyage en Russie,Vol.III,FP.190-225
Dupré, A.: Op. Cit., F. 166

(٤) عماد الصمد : بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٤١ .

ويذكر مؤرخ المماليك سليمان فائق ان من بين قوات بغداد ، كان يوجد ٥٠٠٠ من المشاة ، وهم من "عسكر عقيل ، وكان عددهم يزيد وينقص على حسب الحاجة".(١)

ومن جهة أخرى ، فقد حاول حسن باشا ، منذ تسلمه مقاليد السلطة في بغداد أن يحد من نفوذ القبائل وتأثيرها على الحياة المدنية في الولايات العراقية ، ولم يكن امامه الا ان يستعمل معها اسلوب القوة لاخضاعها وكبح جماحها . فقام بسلسلة من الحملات الناجحة الموفقة عليها ، بدأها بحملة على طلائع قبيلة شمر التي بدأت تتوافد على العراق ، وهي عشائر آل شهوان وغرير في جنوب الموصل ، وكانوا يقومون بسلب "الاكلاك" المارة في دجلة من الموصل الى بغداد ، وانتصر عليهم في موقعة "الخانوقة" ، ثم أعلن ، بمنشور عممه على القبائل ، وجوب اطاعتهم للدولة وترك العصيان .(٢)

ولم يلبث أن قام بعدة حملات تأديبية أخرى ، بهدف فتح الطرق التجارية بين المدن العراقية ، فاوقع ببني لام سنة ١٧٠٤م/ ١١١٦ هـ (٣) ، وفك من قبضة شيخ الخزاعل ، بلدة "الحسكة" وهي من أحسن نواحي العراق ، عام ١٧٠٥م/ ١١١٧ هـ (٤)

---

(١) تاريخ المماليك الكوله منذ ص ٨٣ .
(٢) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء ج ١ ص ١٩ وياسين العمري : غاية المرام ص ١٧٧ والدر المكنون ص ٥٧٤ (مخطوط) ، وزبدة الاثار الجلية ص ٨٠
(٣) كلشن خلفا ص ٣١٩ وحديقة الزوراء ج ١ ص ٢٧ .
و
Huart,C.:Histoire de Baghdad, P. 144
(٤) كلشن خلفا ص ٣١٩ وحديقة الزوراء ج ١ ص ٣٠ .

وفى سنة ١٧٠٧م/١١١٩هـ قضى حسن باشا على تحالف قبلى بين " زبيد " وعشائر اخرى ، بعضها من شمر ، فانتصر على الاولى ، وعفى عن الاخيرة (١) .
وقضى فى العام التالى على أضخم تحالف كان يهدد اتصال بغداد بالبصرة ، وعندما اشتبك بقوات كثيفة جمعها من الولايات المجاورة ، مع مجموعة قبائل المنتفق والخزاعل وزبيد وشمر وغيرها ، فانتصر عليها ، وأعلن تبعية البصرة لولاية بغداد لأول مرة (٢) .
وفى السنوات التالية تمكن الوالى من اخضاع قبيلة " بنى لام " العاتية فى شرقى دجلة (٣) . والتفت الى القبائل الكردية ، فجرد حملة على قبائل البلباس فى شرق أربيل ، وأعاد النظام الى " حرير " (٤) ، وجرد حملة اخرى على اليزيدية فى سنجار بسبب قيامهم بنهب القرى وقطع الطريق (٥) .

ولا تخرج سياسة أحمد باشا تجاه القبائل عن سياسة ابيه ، اذ تسجل فترة حكمه الممتده من ١٧٢٣ الى ١٧٤٨ (١١٣٦ - ١١٦١ هـ) سلسلة من

---

(١) كلشن خلفا ص ٣٢٢ و Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 124
(٢) كلشن خلفا ص ٣٢٣ وانظر Heude, A Voyage up the Persian Gulf P. 143.
(٣) كلشن خلفا ص ٣٢٣ وحديقة الزوراء الورقة ٨٠ . ومن الجدير بالذكر ان حسن باشا عزل الشيخ فارس ، شيخ بنى لام ، وعين مكانه اخضر " من سلالة المشايخ الاكابر ورؤساء الافاخر " . فكان هذا العمل بادرة جديدة فى التعامل مع القبائل .
(٤) كلشن خلفا ص ٣٢٨ وحديقة الزوراء ص ٧١ .
(٥) حديقة الزوراء الورقة ٧٥ وتاريخ راشد الورقة ١٢٠ وتاريخ ماردين الورقة ١٣٩ (مخطوط) .

الاجراءات القوية في هذا السبيل ، فقد افتتح حكمه سنة ١٧٢٤ بقمع ثورة قام بها بنو جميل [١] ، ثم بتشتيت قوات شمر الثائرة في الجزيرة [٢] . ويلاحظ أنه تعمد أن تكون لاعماله هذه صيتا حسنا لدى القبائل الاخرى ، فعفى عن رؤساء الاولين [٣] ، واكتفى بعزل شيخ شمر وتحديد مراعيه ، دون ان يتجاوز ذلك الى التنكيل والاعتداء وكانت أغلب حملاته التالية موجهة ضد بني لام الذين تكررت ثوراتها في السنوات ١٧٣٧ – ١٧٤٥ (١١٥٠ – ١١٥٨ هـ) [٤] ثم على المنتفق ، وربيعة [٥] ، وشمر [٦] .

وسار سليمان باشا أبو ليلة على نهج سلفه ، فكان قاسيا عنيفا في اثناء حملته التي جهزها ضد عشائر اليزيدية في سنجار سنة ١٧٥٢ م / ١١٦٦ هـ ، حيث " امر العساكر فحملوا عليهم من كل مكان ، وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا اكثر من

---

(١) دوحة الوزراء ص ٣٠ وحديقة الزوراء الورقة ٨٤ (مخطوط) . وبنو جميل من عشائر القبيلة المعروفة " بالمجمع " (بتشديد اللام) ومواطنها في شرق بغداد وفي الجنوب الشرقي منها .

(٢) دوحة الوزراء ص ٣٠ وحديقة الزوراء الورقة ٨٥ (مخطوط) والدر المكنون ص ٥٨٢ (مخطوط) .

(٣) دوحة الزوراء ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٨ ، وحديقة الزوراء ص ١٤٦ ، ١٥٣ ، ٢١١ (مخطوط) ، وتاريخ نشاطي ، الورقة ٤٧ (مخطوط) وزبدة الاثار الجلية ص ٢٢٧ و Longrigg, S. H.: Op.Cit., P. 126

(٥) دوحة الوزراء ص ٤١ و ٤٥ وتاريخ نشاطي ، الورقة ٦٢ . و Hammer, J.: Historie de L'Empire Ottoman, 13, P.174

(٦) دوحة الوزراء ص ٤٥ وحديقة الزوراء ص ١٧٢ (مخطوط) وزبدة الاثار ص ٠٩٢ .

الف رجل ومعهم بعض النساء " (١) ، وبلغ من شدة بطشه أنه سبى نساءهم ، وغنم اموالهم وأسلحتهم ، ودمر أماكنهم ، واقتلع بساتينهم وأحرق مزارعهم ، واتخذ منارات من رؤوس قتلاهم (٢) ، وكأنه أراد أن يكون تنكيله هذا بمثابة تذكير لسائر قبائل العراق ان هى أرادت الثورة ، فلم يفته ان يكتب الكتب بذلك الى امراء المنتفق وسائر العشائر بعد انتهاء عملياته تلك مباشرة (٣) .

على أن شدة الوالى المملوك هذه لم تكن عامة على القبائل ، فعندما اصطدمت عشيرة زوبع (٤) ببعض أطراف بغداد سنة ١٧٥٥ م / ١١٦٩ هـ اكتفى الوالى بمطاردتها وابعادها عن المدينة (٥) ، ثم اغاث أسرة شيخ العشيرة عندما استغاثت به ، ووافق على التماسها بالعفو عنه ، فأثبت للجميع بأنه قاس عند الضرورة ، لكنه كريم عند المقدرة (٦) . واستطاع سليمان باشا ان يحتفظ بزمام المبادرة فى سياسته القبلية ، حتى كانت القبائل تميل الى الاستسلام والصلح بمجرد ورود نبأ باستعدادات عسكرية تجرى فى بغداد (٧) . لذا فقد بقيت القبائل فى حوض دجلة هادئة منذ

---

(١) زبدة الاثار الجلية ص ١٠٨ .
(٢) دوحة الوزراء ص ١٢٤ والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٩ .
(٣) العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٩ .
(٤) من عشائر قبيلة شمر ، وهى من أولى العشائر الشمرية التى نزحت الى العراق ، وانظر العزاوى : عشائر العراق ج ١ ص ١٩٣ .
(٥) دوحة الوزراء ص ١٢٩ .
(٦) دوحة الوزراء ص ١٢٩ وعشائر العراق ١ / ١٩٣ والعراق بين احتلالين ٦ / ٣٠ .
(٧) دوحة الوزراء ١٣٢ ـ ١٣٤ وغاية المرام ص ١٨٥ وعلى نعمة الحلو : الاحواز ٢ / ٢٤٩ .

تاديبها فى ١٧٤٧ م ، كما بقيت قبائل المنتفق فى حوض الفرات مستفيدة من هدوء الحالة فى مد نفوذها القبلى باتجاه الشرق . (١) .

وفى عهد الوالى عمر باشا (١٧٦٣ – ١٧٧٥م/١١٧٧ – ١١٨٩) ثم تجهيز حملة سريعة على قبيلة الخزاعل سنة ١٧٦٤ م/١١٧٨ هـ . وأخرى على المنتفق فى البصرة سنة ١٧٦٨م/١١٨٢ هـ ، الا ان القبيلتين تجنبتا الاصطدام مع قوات الوالى وفضلتا الانسحاب بهدوء (٢) ، واستطاعت المنتفق ان تسترجع هيبتها لدى القبائل عندما انتصرت على الايرانيين فى معركتى أبى حلانه والفضلية ، وكان الايرانيون قد احتلوا البصرة آنذاك .

ونتيجة لازدياد اهمية المنتفق بين القبائل ، فقد اضطر ولاة بغداد أن يضموا ثقلهم الى جانبها ، محاولين بذلك ارضاءها واستمالتها الى صفهم . فعندما حاولت الخزاعل أن تتخلى عن المنتفق ، لتميل الى جهة بنى لام زعماء دجلة الجنوبى ، وجه الوزير سليمان باشا الكبير حملة قوية قادها بنفسه لغرض تأديب القبيلة . وحاولت الخزاعل أن تجمع جميع امكاناتها وتعتصم فى قلاعها التى فى منطقة الاهوار (المستنقعات) الا أن خطة والى بغداد التى استهدفت تحويل مجرى نهر الفرات عن المعتصمين ، وابقائهم بدون ملجأ ، أدت الى ندم شيخ الخزاعل و " بعث الى الوزير من يلتمس

---

(١) Longrigg, S.: Op. Cit., P. 171

(٢) دوحة الوزراء ص ١٣٩ و ١٤١ ديوان المشارى . (مخطوط) والعراق بين احتلالين ٦/٤١ – ٤٢ .

له العفو والصفح ، وأرسل صحبة هؤلاء الوسطاء أطفاله والعجزة من عياله ليلقوا بأنفسهم على أقدام الوزير" (١) فاكتفى سليمان باشا بهذا ، وأعاده الى مشيخة الخزاعل ، وبذلك تم له ما أراد دون اراقة الدماء .

وفى السنين التالية استخدم والى بغداد المذكور شيخ الخزاعل فى حرب عشائر الشامية على الفرات ، وكافأه على اخلاصه بأن عينه شيخا على الضفتين : الشامية والجزيرة (٢) ، إلا أن الشيخ سرعان ما عاد الى الثورة من جديد ، وبطريقة مشابهة لتلك التى استخدمها من قبل ، تمكن سليمان باشا من قطع مجرى نهر الفرات وتحويله الى جهة اخرى ، ووافق على قبول وساطة القبيلة ، وأصدر عفوه عن المتمردين ثم عاد الى بغداد دون صدام حقيقى يذكر (٣) .

وفى عام ١٧٨٦م/١٢٠١هـ ، اتحدت قبائل المنتفق والخزاعل والعبيد ، ضد والى بغداد سليمان باشا ، فاستولت المنتفق على البصرة (٤) ، وأعلنت الخزاعل ثورتها فى أنحاء الحسكة ، الا ان والى بغداد تمكن بحملة جهزها على عجل من ان يزيح الاخيرة عن منطقة الحسكة ، وان يتقدم لملاقاة القبائل المجتمعة ،

(١) دوحة الوزراء ص ١٧٤ والعراق بين احتلالين ٦/ ٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٧ وديوان حسين العشارى (مخطوط) .
(٢) دوحة الوزراء ص ١٨٠ .
(٣) بيورلدى صادر من سليمان باشا الى اعيان بغداد ، بتاريخ ٢٦ صفر ١١٧٢ هـ (مجموعة محمد نافع الصرف ـ مخطوط) ودوحة الوزراء ص ١٧٩ ومختصر مطالع السعود ٣٢ . وحمود الساعدى : الخزاعل ص ٤٨ .
(٤) ابن بشر الحنبلى : عنوان المجد فى تاريخ نجد ج ١ ص ٧٤ ومختصر مطالع السعود ص ٤١ والدر المكنون ص ٦٣٦ (مخطوط) وتاريخ جودت ج ٤ ص ١٠١ .

والبالغ عددها نحو ٢٠٠٠٠ محارب ، وكان متوقعا انه اذا ما خذل الوالي في حربه هذه ، فان نكسة فادحة ستصيب نظام المماليك برمته . بيد ان سليمان باشا تمكن من استمالة بعض شيوخ المنتفق الى جانبه ، وعين الشيخ حمود بن ثامر شيخا على المنتفق (١) كما اسند مشيخة الخزاعل الى شيخ آخر ، فكان ذلك عاملا حاسما في كسب الحرب وانتصار والي بغداد على قبائل العرب في تلك الموقعة . (٢)

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، اخذت سياسة مماليك بغداد ازاء القبائل بالتغير كنتيجة لتغير موازين القوى في البلاد المجاورة ، فقد ادت حملات الوهابيين على أطراف العراق ، وهجومهم على المدن العراقية الواقعة على حافة البادية ، وأهمها : النجف وكربلاء (٣) ، ثم الزبير (جنوب البصرة) ، وعانه على الفرات الشمالي (٤) ، الى ازدياد اعتماد والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ —

---

(١) Howell,M.D.:Voyage en Retour de l'Inde, P. 235
والرحالة زار البصرة في نبراير سنة ١٧٨٨ ، ولم تكن قد مضت على الاحداث المشار اليها اعلاه غير مدة قليلة . وانظر
Longrigg, S.: Op. Cit., P. 203.

(٢) دوحة الوزراء ص ١٨٦ والدر المكنون ص ١٣٦ (مخطوط) وزبدة الاثار الجليسة ص ٢٤٥ وغرائب الاثر ص ١٧ و Howell,M.D.:Op.Cit., P. 235.

(٣) دوحة الوزراء ص ٢١٧ وابن بشر : عنوان المجد ص ١٢٢ .
و Corancez,L.A.:Historie des Wahabis depuis leur origin jusqu'à la de 1809, P. 25
و Hammer,J.:Histoire de L'Empire Ottoman,15,P. 186

(٤) غرائب الاثر ص ٥٧ ، حوادث ١٢١٦ هـ/١٨٠١ م .
وعن هذه الحملات انظر Zwemer,S.M.: Arabia, The Cradle of Islam, P. 195 حيث يذكر احصاءات دقيقة عن فداحة الخسائر في المدن الدينية ، وبخاصة كربلاء . و Hogarth:Arabia,P.103

١٨٠١م / ١١٩٣ — ١٢١٦ هـ) على اتحاد المنتفق ، الذى سبق ان أظهر مقدرته فى موقعتى "ابى حلانة" و "الفضلية" ضد الايرانيين . فكان ذلك بمثابة خروج موقت على سياسة المماليك السابقة القائمة على التقليل المستمر من أهمية القوى القبلية العسكرية ، واعترافا بالواقع الجديد . ويذكر سليمان فائق انه حينما استولى الوهابيون على الحرمين الشريفين (١) "انجبرت ولاة بغداد انئذ على التغاضى عن اعمال روساء عشائر المنتفق ، لكى يوسعوا ويزيدوا قواهم ، فيتمكنوا من اخماد فتنة الوهابية" (٢) .

وكان من نتيجة هذه السياسة ، أن زادت سطوة المنتفق على منطقة البصرة وقراها ، وملكوا جميع ما يحيط بها من أماكن فيما عدا مدينة البصرة ذاتها ، وقرية او اثنتين (٣) . واضطرت السلطة الى اغضاء الطرف عن أعمال المنتفق السابقة ، فاقرت ثوينى بن عبدالله على مشيخته ، فكان ذلك اعترافا منها ايضا باعماله التالية (٤) .

---

(١) انظر عن تأثير هذه الاحداث على المسوولين العثمانيين وصداها فى العالم الاسلامى : عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الاولى ص ١٣٣ — ١٤٠ .

(٢) سليمان فائق : تاريخ المنتفق ص ١٤ .

(٣) تاريخ المنتفق ص ١٥ .

(٤) دوحة الوزراء ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، ومختصر مطالع السعود ص ٦٠ وابن بشر عنوان المجد فى تاريخ نجد ج ١ ص ١١٢ والدر المكنون ص ٦٥٢ (مخطوط) .

وفى عام ١٧٩٨م / ١٢١٣ جهز ثوينى ، اثر حملة وهابية على الاحساء[1] ، جيشا كثيفا من قبائل المنتفق وأهل الزبير والبصرة ونواحيها ، وجميع بوادى الضفير وبنى خالد ، وسار معه أسطول من البصرة ، لاستخلاص الاحساء ، الا أن اغتيال ثوينى نفسه كسر الحملة ، فتفرق جيشه ، واستولى الوهابيون على مدافعه ومعداته[2]. فكانت تلك الحادثة سببا فى اضعاف هيبة المنتفق فى العراق نفسه ، حين اشتد تمرد بعض عشائر الجانب الشرقى من نهر دجلة ضد مشيخة المنتفق ، وطمحت بعض تلك العشائر الى استرجاع الاراضى التى كانت المنتفق قد ضمتها اليها من قبل[3] ، وتحطمت مشاريع ثوينى الهادفة الى عقد حلف عربى يجمع بين قبائله وبين الخزاعل والعبيد[4] .

وتركت هزيمة المنتفق آثارها على القبائل النجدية ذاتها ، فقد شجعت حالة الفوضى التى اعقبت ذلك الانحدار بعض القبائل الطامحة الى الهجرة الى ريف العراق وبواديه ، أن تحقق هدفها بالمجئ اليه ، فحفل النصف الاول من القرن التاسع عشر بانهمار تلك الهجرات ، كهجرة قبائل وعنزة الضفير ، وأصبح

---

(1) ابن بشر : عنوان المجد ص ١٠٧ وفيلبى ، جون : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (تعريب عمر الديراوى) ص ٦٥ ، ٨٣ — ٩٣ .

(2) دوحة الوزراء ص ٢٠٤ وابن بشر : عنوان المجد ١ / ١١٢ وفيلبى : المصدر السابق ص ٦٤ و Corancez, L.A.: Histoire des Wahabis, P. 25 - 26.

و Dupré, A.: Op. Cit., Vol. II, P. 145

(3) عبد الكريم الندوانى : تاريخ العمارة وعشائرها ص ٦٢ .

(4) عبدالله الناصر : تاريخ السعدون ص ١٢٦ .

العراق ملجأ لكثير من القبائل والعشائر الهاربة من سطوة الوهابيين ، مما أدى الى تداعي الموقف القبلي في العراق بسرعة .

وكانت سياسة ولاة بغداد تعتمد ، ابان هذه المرحلة ، على محاولة تكتيل القبائل العربية وتوجيهها لصد تقدم الوهابيين الذين بدا للمعاصرين بأنهم " سيصلون بعد سنوات الى أبواب القسطنطينية " (١) ، والترحيب بالقبائل القادمة من نجد ، المناوئة للوهابيين ، لغرض الاستفادة منها في مقاومة الحركة الوهابية (٢) . ولقد تكاتفت العشائر العراقية الشمرية والمنتفقية والعبيدية على مقاومة هذه الحركة فعلا ، الا أن نزاعاتها الداخلية ، بين كل قبيلة وأخرى ، بقيت حية تسير جنبا مع الاتجاهات السياسية التي كانت تهدف الى توحيد القيادة القبلية لمواجهة الخطر الخارجي ، وهذا شأن جميع العشائر ، فلا غرابة اذن أن نجد بين بعض القبائل عداء مستحكما برغم ذلك التكاتف . (٣)

وكان تحالف ولاة بغداد ، وبخاصة سليمان باشا الكبير ، مع قبيلة شمر الجربا القادمة الى الجزيرة الفراتية ، قد أدى الى فقدان بغداد حلفاءها القبليين القدامى

(١) رحلة أبي طالب خان الى العراق وأوربة ص ٣٩٠ .

(٢) Corancez, L. A.: Op. Cit., PP. 138 - 143

و Hammer, J.: Op. Cit., PP. 185 - 193

وعباس العزاوي : عشائر العراق ج ١ ص ١٣٧ ـ ١٤٥ .

ويذكر دوبريه ان قبيلة المنتفق كانت تأخذ من الحكومة ٢٨٠٠٠ قرش كمساعدة لها مقابل صدها الوهابيين . انظر :

Dupré, A.: Op. Cit., P. 166.

(٣) عبد العزيز نوار : داود باشا والي بغداد ص ٩٧ .

القاطنين فى منطقة الجزيرة ذاتها ، مثل زعماء العبيد من آل شاوى ، الذين كانوا — من قبل — يرأسون وظيفة "باب العرب" فى سراى بغداد ويعدون همزة الوصل بين الولاة وبين القبائل العربية .

ولقد حاولت قبيلة العبيد أن تقوم بأعمال ترجع لها مكانتها السابقة فثارت على الولاة واشتبكت معهم فى حروب متصلة ، ولكن دفع شمر المستمر أدى الى نزوح اقسام كبيرة منها الى أطراف أعالى الجزيرة ، مما أدى الى اصطدامها مع قبيلة الموالى التى سبقت فى نزوحها الى تلك المنطقة . ولقد اشيعت فى بغداد أخبار مفادها أن زعماء العبيد اعتنقوا مبادىء الوهابيين (١) ، واتخذ الولاة ذلك ذريعة للتنكيل بهذه القبيلة التى طالما اشتهرت بخدماتها لولاة بغداد . ففى عام ١٨٠٠م/١٢١٥ هـ أصدر والى بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢م / ١٢١٧ هـ) عفوا عاما عن امير الموالى تيمور باشا ، وعينه واليا على الرقة الفرات باحتفال عظيم أجرى ببغداد (٢) ، وتجلت هذه السياسة بعد سنوات ، حينما أمر الوالى التالى على باشا (١٨٠٢ — ١٨٠٧م/١٢١٧ — ١٢٢٢ هـ) بقتل محمد الشاوى زعيم العبيد وأخيه عبد العزيز (٣) فى أول سنى حكمه ، وفى العام نفسه قامت قبيلة الموالى بتحريض من

(١) مختصر مطالع السعود ص ٧٢ وعباس العزاوى : عشائر العراق ج ٦ ص ١٦١ .
(٢) دوحة الوزراء ص ٢١٣ .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٢٤ ومختصر مطالع السعود ص ٧٩ وتاريخ آل الشاوى . الورقة ٢ — ٣ (مخطوط) وديوان حسين العشارى الورقة ١٨ (مخطوط) والعراق بين احتلالين ١٥٥/٦ — ١٥٧ .

علي باشا بمهاجمة العبيد ، فلما انكسرت ولم يتم لها الامر ، سار الوالي بنفســـه لتأديبها ، فاضطرت العبيد الى ترك أغنامها واهلها ومضت الى الجانب الاخر مـــن الفرات (١) . وبابعاد هذه القبيلة تم لعلي باشا استبدال حليف قديم بحليف جديد أقوى منه واكثر نفعا ، وهو قبيلة شمر الجربا ، فنزل الى جهة الشامية (٢) ، وهناك رتب جموعا من عثمانيين وكرد وعرب وجعلهم تحت قيادة فارس الجربا وأمرهم بمناوئة الوهابيين ان هم قدموا أنحاء العراق (٣) .

وكان واضحا أن تردد المماليك ازاء القبائل كان نتيجة للتغير المستمر في موازيـن القوى القبلية في العراق انذاك ، وكانت كل قبيلة تفد الى العراق تشكل مأزقا للساسة العراقيين ، بسبب ما يمكن أن تسببه من مشاكل مع جيرانها ، وما يمكن ان تقدمه ـ في الوقت نفســه ـ من فائدة في الدفاع عن العراق ضد الاطماع المجاورة .

وقد شعر والي بغداد سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ ـ ١٨١٠ م / ١٢٢٢ ـ ١٢٢٥ هـ) باهمية التحالف مع سائر القبائل والتوفيق بينها ، فتصالح مع العبيـــد سنة ١٨٠٨ م / ١٢٢٣ ووفق بينهم وبين آل الجرباء زعماء شمر ، وضم اليهم قبيلـــة الوالي وبعض عشائر طي (٤) ، فمكنه ذلك الوضع من القيام بحركات عسكرية واسعـــة

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٢٥ والعراق بين احتلالين ص ١٥٩/٦ .
(٢) قرب النجف .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٢٦ .
(٤) ياسين العمري : غرائب الاثر ص ٨٨ و ١٠٥ و Longrigg, S. OP. Cit., P. 225

في منطقة الجزيرة كان الهدف من ورائها القضاء على الاستقلال المحلي لولاية الموصل [١] ، وبذلك أجل أمر صد الوهابيين بعض الوقت . ولقد اتهم سليمان باشا نفسه بأنه كان ممالئا للاخيريين أو عطوفا على قضاياهم ، وهو اتهام كان وراءه ما يبرره فعلا [٢] ، مما أشعر السلطات العثمانية أن سياسة ماليك بغداد القبلية بدأت بالتحول لتكون موجهة ضد الدولة العثمانية ذاتها ، قبل ان تكون موجهة ضد أعدائها ، فأطيح بسليمان باشا وجيئ بعبدالله باشا خلفا له [٣] .

وكان لانشغال عبدالله باشا بقتال البابانيين دور في استفحال تمرد القبائل العربية ، وعندما التجأ سعيد باشا ابن سليمان باشا الكبير الى قبيلة المنتفق خشية على نفسه من مؤامرات سراي بغداد ، وجدت المنتفق في ذلك فرصة سانحة لتثبت أهميتها بين القبائل من جديد ، ولتلعب دورها في التأثير على مجريات الامور كما كان لها ذلك قبلا ، فالتزمت بحماية سعيد ، وسعت الى تثبيته واليا بدل عبدالله باشا [٤] ، على أن قيام المنتفق بذلك الدور لم يرض قبائل دجلة الجنوبي ، مثل ربيعة وبني لام [٥] ، وهي التي طالما استفادت من كل فتور بين المنتفق وولاة

---

(١) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ص ١٣٩ – ١٤٣ .
(٢) تاريخ جودت ج ٩ ص ٢٥١ .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٤٦ ومرآة الزوراء ص ٤٦ وتاريخ المنتفق ص ٢٣ وتاريخ المماليك الكوله مند ص ٣٨ و Chiha, H. : Provence de Baghdad, P.47
(٤) العراق بين احتلالين ٦/ ٢١٦ .
(٥) في مطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١١٦ – ١١٧ ان شيخ قبيلة ربيعة " مشكور " كان برفقة عبدالله باشا .

بغداد لتحسين وضعها في وسط العراق وجنوبه . فشهد عهد سعيد باشا (١٨١٣ـ ١٨١٦م/١٢٢٨ ـ ١٢٣٢هـ) قيام عدة ثورات عنيفة قامت بها قبائل وادي دجلة وحلفائها . ففي سنة ١٨١٣م/١٢٢٨هـ أعلنت الخزاعل عصيانها ، ولم تهدأ الا بعد مراسلات مع سعيد باشا قام بها أهل الحل والعقد لدرء مخاطر الامر (١)، ولكن ضعف سعيد في معالجة الموقف المتأزم شجع القبائل الاخرى على الثورة هـي ايضا ، فتحالفت شمر الجربا مع الخزاعل ، وانضمت الى التكتل الجديد قبائل زبيد الخفير والسرولة ، وبذا أعلنت قبائل العراق برمتها العصيان على والي بغداد فيما عدا المنتفق ، التي ظلت على ولائها لـه . (٢)

وزاد سكوت الحكومة عن التطورات الجديدة في تدهور الموقف ، فعاثت القبائل بالأمن ، وحاصروا مدينتي كربلاء والنجف ، بل اقتربت قواتهم من الكاظمية قرب بغداد ذاتها (٣) ، وباتوا يهددون خطوط المواصلات وينذرون بأسوء العواقب . وحينئذ كان لابد من اللجوء الى المنتفق للقضاء على الفتن الناشئة قبل استفحالهما ، فامدت بقوة رسمية من عساكر الحكومة ، وبقوة أخرى من قبائل العبيد والدريعي (من عنزه) والخفير بقيادة آل الشاوي ، واستطاع التحالف الجديد بالفعل ان يقضي على اضطرابات الخزاعل وأن يهدىء من غائلة شمر الجربا وأحلافها (٤) .

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٦٢ ومباحث عراقية ١٠/١ عن وثيقة كتبها أحد البغداديين المعاصرين نشرها يعقوب سركيس في كتابه المذكور .
(٢) العراق بين احتلالين ٢٢٠/٦ وحمود الساعدي : الخزاعل ص ٧٢ ـ ٧٣ .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٦٣ .
(٤) مطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١٢٢ وللعراق بين احتلالين ٢٢٨/٦ والخزاعل ٧٦ .

وكان على داود باشا (١٨١٦ ــ ١٨٣١م/١٢٣٢ ــ ١٢٤٧هـ) آخر ولاة المماليك وأطولهم عهدا ، أن يواجه موقفا بالغ الحساسية بالنسبة الى تعامله مع القبائل ، ذلك أن أمورا شتى لعبت دورها فى تعقيد الوضع القبلى وتأزمه ، كما كان طول الفترة التى حكم فيها داود قد ساعد على تطور المواقف القبلية ، مما كان يستدعى تغيرا دائما من قبل الحكومة فى رسم سياستها الخاصة بمعالجة تلك الامور .

ولقد كان واضحا منذ البداية ان مشكلة داود القبلية تكمن فى امرين رئيسيين :

الأول : أن وجود قوى قبلية تنافس المدن والحكومة سيادتها على الريف العراقى ، وتشكل خطرا على خطوط التجارة والمواصلات ، يعتبر حائلا حقيقيا فى وجه سياسته الهادفة الى تكوين عراق مركزى موحد .

الثانى : أن وجود القوى القبلية المذكورة يمثل رصيدا هاما لأى نزاع ينشب مع ايران ، وهو رصيد يمكن الاستفادة منه من الناحية العسكرية المباشرة ، حين يتم تجنيد أعداد كبيرة من ابناء القبائل المكلفة بالخدمة العسكرية ، أو على الاقل لحماية الوضع الداخلى نفسه اثناء ظروف القتال العنيفة .

ولا ريب فى ان هذين الهدفين ، متناقضان أساسا ، فازاحة القبائل عن عملية بناء الدولة فى العراق كان يقتضى اضعافها وتفتيت وحدتها ، وهو ما يتعارض تماما مع الرغبة فى الاستفادة من قواها العسكرية ضد الاخطار الخارجية ، حقيقة أن

هذه المشكلة واجهها من قبل داود ولاة سابقون ، كان أولهم حسن باشا مؤسس نظام المماليك وابنه احمد باشا في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، الا ان السرعة النسبية في تطور الاوضاع السياسية والاقتصادية خلال عهد داود واتجاهها نحو تكوين دولة مركزية مستقلة عن الباب العالي ، زاد من حدة التناقض في استعمال ذلك السلاح ، أي قوة القبائل ، حتى يمكن القول بأن السياسة القبلية في عهد داود لم تكن الا توفيقا صعبا بين أطراف هذه المشكلة .

ويبدو أن داود فضل ، في أغلب فترة حكمه ، أن يلتزم بتنفيذ المبدأ الاول ، أي المضي في سياسة اضعاف القبائل والحد من تأثيرها على مجريات السياسة العامة في العراق ، ولكن بالرفق وبعدم اللجوء الى القوة الا في الحالات التي لا مندوحة عنها .

وابتدأ داود باشا عهده بضرب القبائل الصغيرة الثائرة في نواحي المحمودية(١) فلما استتب له أمرها ، التفت الى قبيلة الدليم ، التي كانت تعد من أنصار الوالي السابق سعيد باشا ، فأرغمها بحملة قادها كتخداه ، على أن تذعن لطاعته وتسترضيه بتقديم مبالغ وفيرة ، تقاضاها منها جباته بسرعة فائقة (٢) .

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٧٧ والمحمودية بلدة في جنوب بغداد تقع على الطريق المؤدية الى الحلة .

(٢) دوحة الوزراء ص ٢٧٦ ؛ ومطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١٣١ والعراق بين احتلالين ٦/ ٢٤٨ .

وفي الوقت نفسه جهز داود حملة أخرى لتصفية كافة الجيوب القبلية المؤيدة للنظام السابق ، فحارب قبيلة زبيد التي آوت صادق بك أحد المماليك الطامحين الى الحكم ، والتفت الى قبيلة الخزاعل التي قبلت لجوء قاسم الشاوي ، مناوئه اليها .

وكانت هاتان القبيلتان قد جمعت حولهما عشائر عديدة وصارتا تعتديان على السفن المارة بين بغداد والبصرة وتنهبان ما تحمله (١) ، بيد أن سرعة داود باشا في تجهيز حملته أدت الى اضعاف موقف زبيد ، فعمل داود على تفكيك قوتها بأن أسند المشيخة الى أحد المطالبين بها ، وهو الشيخ على البندر ، فجمع هذا جموعه وأعدها للهجوم على خصمه ، وبفضل توجيهات داود العسكرية انتصرت قوات على البندر على قوات الشيخ شفلح الشلال وحلفائه ، هذا بينما فر قاسم الى عنك المتحصنة بأهوارها (٢) . وعندما تعهد شفلح بالتخلي عن صادق بك وقاسم بك الشاوي ، أعاده داود الى مشيخته ، فتضعضع بذلك موقف زبيد بوجود أكثر من شيخ لهما ، وهذا هو ما أراده داود (٣) .

غير أن انشغال داود باشا الدائم بالجبهة الايرانية الكردية ، كان يؤدي الى توزيع قواه في مواجهة القبائل الثائرة . ففي سنة ١٨١٧ نشبت الاضطرابات في منطقة الحلة والحسكة (الديوانية) بسبب مجيء عشيرة الصقور من عنزه الى تلك النواحي ،

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٨٤ والخزاعل ص ٧٥ – ٧٦
(٢) Longrigg, J.H.: Four Centuries,.. I. 241 والعراق بين احتلالين ٦/٢٥٢ ونوار : داود باشا ص ١٠٢ .
(٣) دوحة الوزراء ص ٢٨٦ والعراق بين احتلالين ٦/٢٥٦ .

وبعثها بالأمن هناك • وعندما اضطر داود الى تجهيز حملة لتأديبها • هزمت تلك الحملة أمام قوات العشيرة البدوية • فتفرق جنودها شذرا (١) • وكانت الحادثة بمثابة حافز قوى للقبائل لان تعلن تمردها على الحكومة • وهى فرصة طالما انتظرتها من قبل • فتمردت شمر (٢) وقطعت السهل (٣) • وطمعت قبيلة الضفير فى أخذ نصيبها • فراحت تقطع الطرق وتعتدى على زوار المدن المقدسة (٤) • وامتنع شيوخ الخزاعل فى جليحة وعفك عن دفع الميرى (٥) • واقتدت بهم قبيلة الدليم واحلافها من زوبع والبوعيسى والجميلة (٦) • وبدا جليا أن وضعا كهذا لا يمكن ان يستقر دون ضربات عسكرية سريعة وحاسمة • وهو ما لجأ اليه داود باشا حين أرسل كتخداه على رأس قوات كافية تمكنت من فرض وجود الحكومة بين تلك القبائل وأعادت لها هيبتها بأن أجبرت القبائل المذكورة على دفع جميع ما استحق عليها من ضرائب ورسوم (٧) •

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٨٨ ومختصر مطالع السعود ص ١٣٥ •

(٢) يبدو ان المقصود هى شمر طوقه لا شمر الجربا • والاولى قبيلة حديثة العهد فى نزوحها الى العراق • ولعل هذه هى أول اشارة الى قدومها •

(٣) دوحة الوزراء ص ٢٨٨ ومختصر مطالع السعود ص ١٣٥ •

(٤) مختصر مطالع السعود ص ١٣٦ والعراق بين احتلالين ٢٥٩/٦ •

(٥) مختصر مطالع السعود ص ١٣٨ والخزاعل ص ٧٧٦ •

(٦) مختصر مطالع السعود ص ١٣٨ والعراق بين احتلالين ٢٦٤/٦ •
Porter,R.K.:Travels in Georgia, Persia,Armenia.., Vol. II, P. 376.

(٧) دوحة الوزراء ص ٢٨٨ — ٢٩٠ ومطالع السعود (مخطوط) •
ومختصر ١٣٨ — ١٣٩ و Porter,R.K.:Op.Cit.,P.379,
و Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 240.



كان مما يسمى اليه داود فرض نوع من السلم العثماني على القبائل ، فاصدر أمرا عاما يمنع الغزو بين الاعراب وابطال العادات القديمة القبيحة التي كانت بين العربان من غزو بعضهم بعضا وهم مسلمون " (١) وحاول جادا تطبيق هذا المبدأ ولو بالقـــوة ، فحين غزت احدى عشائر شمر الجربا عشيرة الحديديين (٢) ، أرسل داود قواتـــه لتضرب المعتدين ، ولتأخذ منهم خمسمائة بعير " نكالا عوضا عما نهبوه من الحديديين " (٣) وعندما أغار آل يسار على بعض القبائل ، لجأ داود باشا الى الطريقة نفسها في تأديبهم (٤). ومثل ذلك ما حدث عندما أغار بعض العرب على قرى دجيل ، اذ " ارسل الوالي عسكرا لرد منهوبات رعايا دجيل فاسترجعوا كل ما أمكن رده " (٥) .

ولقد أتت هذه السياسة ، على قصورها من حيث التطبيق أحيانا ، أكلهـــا ، اذ هابت القبائل العربية الصغيرة حكومة المماليك في بغداد ، واستطاع داود ان يكسب الى جانبه ولاء قبيلة شمر الجربا القوية في اثناء الحرب العراقية ـ الايرانيـــة سنة ١٨٢١ م / ١٢٣٧ هـ ، وأن يبقى قبيلة المنتفق في حالة من الهدوء ابان تلك الحرب .

---

(١) مختصر مطالع السعود ص ١٣٢ .

(٢) من عشائر الموصل العربية المهمة ، ويذكر ان مؤسسها جاء من بغداد في القرن الرابع عشر للميلاد وأقام مع بعض خيامه في منطقة حلب ، وهم ينتمون الـــى ذرية النبي محمد (ص) . Muller:En Syrie avec les bedouins, P. 126 و Les Tribus Nomades..., P. 81

(٣) دوحة الوزراء ص ٢٨٠ ومختصر مطالع السعود ص ١٣١ .

(٤) المصدران السابقان .

(٥) مختصر مطالع السعود ص ١٤٧ .

وتجلى ولاء شمر وحسن بلائها ، حينما انضم شيخها الشهير صفوق الفارس بقواته من الفرسان الى جيش بغداد ، بعد أن حاول جيش الشهزاده الايراني أن يتوغل في أنحاء بلدة دلتاوه[1] ، فأوقع بهم وقتل منهم قسما وأسر آخرين[2] . وفي العام نفسه استدرج صفوق ألفي فارس ايراني الى أنحاء نهر ديالى ، ثم انقلب بقواته عليهم ، فأباد معظمهم[3] . واحس داود باشا بأن هذه القبيلة هي التي يمكنه الاعتماد عليها في عمليات كبيرة مستقبلة ، ولا ريب أنه رأى فيها خير بديل لقبيلة المنتفق التي حاول المماليك قبله الاعتماد عليها ، وكانت السند الحقيقي لسلفه سعيد باشا[3] . ولذا كافأ صفوق بأن " اقطعه بلدة (عانة)[4] وما والاها من القرى مكافأة له على شهامته ونخوته وشجاعته وخدمته للاسلام "[5] ، وأغلب الظن أن اقطاعا واسعا كهذا لم يكن مجرد مكافأة فحسب ، وانما كانت محاولة ذكية من الوالي لغرض توطين القبيلة وتشجيعها على الاستقرار .

بيد ان سياسة التزام جانب شمر الجربا والاعتماد عليها لم تكن تخلو من خطورة فقد اضطر داود باشا الى تأييدها عندما اشتبكت مع قبيلة عنزة البدوية ،

---

(1) وتعرف اليوم بـ (الخالص) وتقع في محافظة ديالى ، في شرق بغداد .
(2) مطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١٤٦ .
(3) مطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١٤٨ والعراق بين احتلالين ٦/٢٨٤ .
(4) عانة : بلدة مشهورة على الفرات شمال بغداد .
(5) مختصر مطالع السعود ص ١٤٩ .

ولما انكسرت شمر أمام عدوتها ، أعطى شيخها صفوق " من الأموال والنقد والمواشي والقرى والضياع ما لم يسمح بمثله " لتتمكن من النهوض من كبوتها سريعا ، ولتقف في وجه زحف عنزة المستمر الى داخل العراق (١) .

وفي الوقت الذي ظن فيه والي بغداد أنه أنهى تدهور الاوضاع في الجزيرة بمساندته لحلفائه الشمريين ، التفت الى الفرات الأوسط والجنوبي ليصفي حسابه مع المنتفق ، هذه القبيلة التي كانت تشكل لغما دائما في أرض السياسة الداخلية لعراق المماليك . وشعر زعيم المنتفق حمود بمحاولات داود لتفكيك وحدة قبيلته بالتقرب الى شيوخها فأمر بعض القبائل التابعة له ، كقشعم وآل حميد وآل رفيع بتأييد محمد أغا ، الكتخدا السابق لداود والثائر في الحلة (٢) . بدلا من أن يشن داود الحرب على المنتفق ، فانه فضل طريقة تفكيك قوة القبيلة وبث الفرقة بين زعمائها ، ولذلك فقد اختار الشيخ محمد عقيل بن محمد بن ثامر شيخا عاما على المنتفق ، وأعلن عزل حمود رسميا في بيان أذاعه متسلم البصرة على القبائل (٣) .

---

(١) مختصر مطالع السعود ص ١٥٤ .

(٢) يذكر عثمان بن سند عن تأييد حمود لثورة محمد أغا في الحلة ، أن الاخير التجأ بعد فشل الثورة الى حمود " فما قبله واعتذر منه والله أعلم بالسرائر " ، فاضطر محمد الى الالتجاء الى الحويزة ، هذا مع أن ثمة أدلة تثبت تعاون حمود مع عشائر الحلة الثائرة خفية والظاهر أنه أبى أن يقطع أول الامر علاقاته بحكومة بغداد كلها دفعة واحدة . انظر مختصر مطالع السعود ص ١٥٧ ويوسف كركوش : تاريخ الحلة ١٣٥/١ وتاريخ لطفي ج ١ ص ١١٦ .

(٣) مطالع السعود (مخطوط) ومختصره ص ١٦٢ — ١٦٣ ومرآة الزوراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٠ .

Scanned by CamScanner

وحاول حمود الرد على هذه الترتيبات بالتعاون مع آخر قوة فعالة في المنطقـة ، وهي قبيلة كعب العربية النازلة في الضفة الشرقية من شط العرب (١) ، رغم أن العلاقات بين القبيلتين كانت دائما في غاية السوء ، نظرا لأطماع كعب السافرة في السيطرة على منطقة البصرة ، وتنفيذها - أحيانا - لسياسة ايران فيما يتعلق بجنوب العـراق ، فان حمـود اضطر - وهو في صراعه للحفاظ على كيان قبيلته المستقل أمام سياسـة بغداد المركزية أن يتحالف ليس مع عدوته السابقة كعب فحسب ، وانما مع سلطـان مسقط ، وكان هدفه هذه المرة الاستيلاء على البصرة نفسها بالقوة (٢) .

وفشلت محاولات حمود بالاستعانة بقوات كعب وأسطول مسقط ، ويأست قواتـه من استمرار العمليات الحربية ضـد البصرة ، فلم يلبث أن فر الى الصحراء حيث لف الغموض تفاصيل حياته هناك .(٣)

وبسقوط حكم حمود ينتهي أهم فصول تاريخ المنتفق في عهد المماليك ، وهـو فصل كفاحهم السياسي الصريح ضد السلطة المركزية في بغداد وانتهاء آخر أحلامهـم بالامارة والاستقلال ، ويبدأ - مكانه طور جديد اتسـم فيه تاريخ القبيلـة

---

(١) انظر Longrigg,S.H.:Four Centuries.., P. 248.
وثمة تفاصيل مهمة في : علي نعمة الحلو : الاحواز ٢٨٢/٢ - ٢٨٥ .

(٢) يذكر عثمان بن سند في مطالع السعود (مخطوط) أن حمود تعاون مع امـام مسقط السيد سعيد بن سلطان ، في حين تذكر مصادر اخرى انه تعاون مع الشيخ جابر الصباح شيخ الكويت . الاحواز ج ٢ ص ٢٨٢ . وعلي ظريف الاعظمي : مختصر تاريخ البصرة ص ١٤٧ .

بالتحول نحو الاستقرار والتوطن فى المناطق الزراعية ، أى التحول من نظام الرعى والغزو الى نظام الزراعة والتزام السكينة (١) .

ولقد تميزت السنوات الاخيرة من عهد المماليك بظاهرتين قبليتين اساسيتين ، هما :

أولا : اشتداد النزاع بين قبيلتى شمر الجربا الرعوية القوية وعنزة البدوية فى انحاء الجزيرة العراقية ، وهو نزاع سيصبح سمة المرحلة التالية من تاريخ العراق العثمانى .

ثانيا : تضاؤل أهمية المنتفق السياسية بالنسبة الى الدور المتنامى لقبيلة شمر الجربا حتى أمسى اسم المنتفق وكأنه من ذكريات عهد المماليك الماضى .

ورغم الخلافات والنزاعات الموجودة بين داود باشا والمنتفق فقد شعر الطرفان بوحدة مصيرهما حينما قررت الدولة العثمانية القضاء على نظام المماليك برمته ، فتحالف داود باشا مع المنتفق ضد على رضا باشا ، الوالى العثمانى الذى تسانده شمر ، ورغم الدور الذى لعبته المنتفق فى تاييد داود ، فان كفة شمر كانت هى

---

(١) انظر : يعقوب سركيس : مشيخة آل السعدون فى المنتفق وسبب انحلالها مجلة لغة العرب ١ (السنة ١٩٢٧) ص ٢٣ ومباحث عراقية (١ / ٧٢ – ٩٠ وعبد الله الفياض : مشكلة الاراضى فى لواء المنتفق ص ٢٧ وما بعدها .

الراجحة حين ولي علي رضابات ولاية العراق بأكمله (١) ، فهاجم الشيخ صفوق المنتفق بجموع ضخمة لم تستطع الوقوف امامها ، فانفرط عقد المنتفقين ومات زعيمهم عقيل ، بينما نال صفوق لقب (سلطان البر) (٢) .

التركيب الاجتماعي للقبيلة :

أعتمد التركيب الاجتماعي للقبائل العربية في العراق ابان عهد المماليك على أسس تشبه ، من حيث المظهر خاصة ، تلك التي عرفتها القبائل العربية في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فقد ظلت مصطلحات قديمة مثل : القبيلة ، والعشيرة ، والبطن ، والفخذ ، تعد أساسا في تقسيم القبيلة العربية في العراق طيلة العصر العثماني وما بعده ، وحفلت المصادر الادبية لهذا العصر ، بمثل تلك المصطلحات رغم أن استخدامها لم يكن دقيقا في كثير من الاحوال ، وهو أمر نتج عن الظروف البيئية الجديدة التي عاشتها القبائل العربية منذ نزوحها الى العراق .

ولقد ادى ارتباط القبيلة بالظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة المحيطة بها الى صعوبة تحديد شكل محدد لذلك الكيان (٣) ، فمن المحتمل ان تبدأ القبيلة

(١) العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٩ و Fraser, J. B.: Travels in Koordistan.., Vol. II, P. 261
و
Longrigg, S.H.: Op. Cit., p; 270.
وعبدالله الفياض : مشكلة الاراضي في لواء المنتفك ص ٦٠ وسليمان فائق : مرآة الزوراء ص ١٠٩ .

(٢) مرآة الزوراء ص ١١١ والعراق بين احتلالين ١٩/٧ ونوار : داود باشا ص ١١٢ .

(٣) انظر Bonné, A.: State and Economics in the Middle East, P. 360.

حياتها على شكل فرع صغير من قبيلة أخرى كبرى ، ثم تتحول – تدريجيا – الى عشيرة تضم اليها عددا من العشائر الاخرى ، لتكون – من ثم – قبيلة قائمة بذاتها . ومن المحتمل ايضا ، أن يتوقف هذا النمو عند مرحلة معينة ، أو أن ينعكس ، فيؤدى تفكك احدى القبائل الى انضمام عشائرها الى قبيلة أخرى ، أو تكوينها هى قبيلة جديدة . وهكذا فان تحديد نوع الوحدات الاجتماعية المكونة لكل قبيلة ، أمر يعوزه الدقة غالبا .

وسنحاول – فيما يلى – أن نحدد أهم المراحل التى يمر بها المجتمع القبلى ، وهى فى الوقت نفسه ، تمثل – من الناحية النظرية على الاقل – الاشكال التقليدية للوحدات القبلية فى ذلك المجتمع .

١ – الامـارة :

وهى اتحاد عدة قبائل مختلفة ، مثل قبائل المنتفق الثلاث : بنى مالك ، والأجود ، وبنى سعيد ، وقبائل بنى لام(١) ، المتعددة وقبائل قشعم المتحدة .

---

(١) يبدو أن اتحاد بنى لام ، الذى بدأ بالظهور فى القرن السادس عشر ، لم يكن بالمتانة والانسجام الذى كانت عليه قبائل المنتفق ، اذ حافظت معظم قبائله على شخصياتها الخاصة ، على نحو جعل الاتحاد يقرب من شكل الحلف القبلى ، انظر : عشائر العراق ج ٣ ص ٢١١ – ٢٤٠ ، ويعتبر أغلب المشتغلين بدراسة القبائل ، قبائل بنى لام عشائرا ، أى انهم يعدون بنى لام قبيلة واحدة ، لا اتحادا قبليا (عشائر العراق ٣ / ٢٣١) مع اننا نلحظ أن من تلك (العشائر) قبائل قديمة معروفة ، مثل : كعب ، والغزى ، وقشعم وغيرها .

وغالبا ما يتخذ الاتحاد الجديد اسم احدى القبائل المكونة له ، أو اسم الاسرة الـتي تراسه . وتكون القيادة بيد أسرة واحدة اجتمعت فيها صفة العدل والحيدة بين وحدات الاتحاد ، ولذا فمن المحتمل أن تكون هذه الأسر من خارج الاتحادات القبلية أصلا ، كآل السعدون في المنتفق ، وآل بني لام في القبيلة المعروفة باسمهم ، وآل شعون في بني أسد . ويعرف هذا الاتحاد بالمصطلح القبلي بـ "الامارة" وقد يدعى رئيسه بـ "الأمير" ، اضافة الى لقبه الأصلي شيخ ، وتختص الامارة بالنظر في العلاقات العامة بين القبائل ، وملاحظة مكانتها بين الامارات الاخرى وتمثيل القبائل مجتمعة لدى الحكومات في المدن (١).

٢ — القبيلة والعشيرة (٢) :

وتعد القبيلة الوحدة الأساسية المكونة للامارة ، وهي تتشعب عادة الى عدد من العشائر يتناسب مع ضخامتها واتساع الأرض التي تشغلها . ويمكن تفسير ظاهرة تعدد العشائر داخل القبيلة الواحدة ، بأحد العاملين الاتيين :

أ — عامل داخلي . يرجع الى ان تكاثر أفراد القبيلة ، وازدياد عدد تجمعاتها السكنية ، يؤدي — بالطبع — الى صعوبة ادارة شؤونها جميعها بواسطة قيادة مركزية واحدة ، ويفرض الميل نحو اللامركزية أن تؤلف كل سلالة متحدرة من جد

---

(١) عشائر العراق ج ١ ص ٦٠ .
(٢) Tribe & Clan.

بارز ، عشيرة خاصة بها ، لها سماتها الخاصة ومضاربها المستقلة ، وتكون نــــواة للانفصال — في المستقبل — عن جسم القبيلة الأم نفسها ، وتشكيلها قبيلة جديدة قائمة بذاتها (١) ولقد شهد العصر العثماني في العراق ، وخاصة عهد المماليك نماذج مهمة لظاهرة التكاثر القبلي هذه ، فقبيلة "عنزة" مثلا ، وهي من أكبر القبائـــــل الرعوية البدوية وأقواها ، انقسمت الى عدة قبائل ، سكن بعضها في العراق ، بينما توزع الآخرون في بادية الشام والجزيرة العربية (٢) . ومثلها قبيلة "شمر" (٣) التي بدأ تفرعها ، قبل بداية عهد المماليك ، الى اكثر من أربع قبائل كبيرة ، توافــدت الى العراق على فترات متلاحقة ، ثم سرعان ما أخذت كل من هذه القبائل بالتفرع من جديد ، مكونة عددا آخر من القبائل (٤) ، وما أن انتهى عهد المماليك ، حـــتى

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ١٥١ .

(٢) عن ظاهرة تفرع عنزة الى فروعها العديدة ، انظر Muller: En Syria avec les Bedouines, PP. 112 - 123

وعشائر العراق ج ١ ص ٢٦٣

و Blunt, Anne: Bedouin Tribes of the Euphrates, II, PP. 175 - 186.

و Dickson, H.R.: The Arab of the Desert, P. 574

(٣) ولقد تفرعت شمر نفسها من قبيلة كبيرة سابقة لها ، هي "طي" ، التي تعد من اشهر القبائل العدنانية . ومن الملاحظ ان بعض القبائل الشمرية يرجع فـــي نسبه الى أصول قحطانية ، مما يدل على أن تلك القبائل قد اندمجت في شمر فيما بعد ، وسيأتي الكلام عن ظاهرة الاندماج هذه بعد قليل ، والظاهر أن شمر عرفت الظاهرتين معا: التوسع عن طريق التفرع والانشطار ، والتوسع عن طريـــق الاندماج والاتحاد .

(٤) Muller : Op. Cit., P. 55

و Layard, A.H.: Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, PP. 220 - 235

كانت قبيلة شمر الجربا (وهى أحدى تلك القبائل) قد انشطرت الى قسمين يتبع كل منهما مشيخة خاصة (١) . وعندما أخذت قبيلة الجبور تستقر تدريجيا فى شرقى الفرات وفى شمالى العراق ، انقسمت الى خمس عشائر ، بحسب المناطق التى نزلت فيها (٢)

ب — عامل خارجى : ان ميل القبائل الصغيرة ، والعشائر المتفرقة ، الى الاحتماء باحدى القبائل القوية ، وخاصة عند احساسها بخطر يتهددها من قبيلة أخرى ، يؤلف عاملا رئيسيا فى توسع القبيلة ، أو فى نشأتها أصلا . وهذا ماحدث مثلا للقبائل العراقية القاطنة فى المنطقة الجنوبية الواقعة بين نهرى دجلة والفرات ، فقد أدى أحساسها بالاخطار الناجمة عن موقف كل من بنى لام والمنتفق النازلين على جانبيها ، الى انشطار تلك القبائل الى قسمين كبيرين ، تحالف كل منهما مع احدى هاتين القوتين المتضاديتين ، خوفا من القوة الاخرى . اندمج بعض تلك القبائل بالقبيلة الحامية نفسها ، حتى بات من الصعب تمييزها عنها . ويكشف التدقيق فى أنساب المجموعات المكونة للقبيلة الواحدة ، عن اختلاف نسب بعض العشائر عن الاخرى ، فقسم منها قحطانى الاصل ، والاخر عدنانى ، ومنها ما هو قديم التوطن فى العراق ، ومنها حديث القدوم اليه .(٣)

---

(١) Layard, A.H.: Op. Cit., P. 235.
وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٢٣٢ و ٢٣٦ — ٢٣٧
و Chiha, H.: Op. Cit., PP. 243-244.
و Longrigg, S. H.: Op. Cit., P. 314
(٢) Nijholt, L.: Voyage en Russie, III, P. 218
و Les Tribus Nomades et Semi Nomades, P. 126.
وعباس العزاوى : عشائر العراق ج ٣ ص ٧٧ .

فقبيلة زوبع مثلا ، وهى احدى عشائر شمر الجربا فى الاصل ، كانت توءلف فى أواخر القرن التاسع عشر خمس حمائل ، يبلغ عدد أسر اكبرها (١٥٠٠) أسرة Tente وأصغرها (٦٠٠) أسرة (١) . أما قبيلة العبيد ، فكانت توءلف فى الفترة نفسها (١٣) حمولة ، يتراوح عدد الاسر فى كل منها بين ٥٠٠ر١٥٠٠ أسرة (٢) ، وتتكون قبيلة مهمة أخرى ، هى قبيلة الامارة من سبع حمائل ، يصل عدد اكبرها الى ٤٠٠٠ اسرة (٣) . ولا شك فى أن الزيادة المطردة فى أعداد الاسر المكونة للحمولة هى التى ادت الى أن تشكل أغلب تلك الحمائل فيما بعد عشائر كاملة .

ملكية الارض والنشاط الاقتصادى :

ولا يمكن للباحث ، وهو يدرس طبيعة تركيب المجتمعات القبلية فى العراق ، وبخاصة فى عهد المماليك ، أن يغض النظر عن علاقة ذلك التركيب ، من الناحية الاجتماعية ، بطبيعة ملكية القبيلة للارض اولا ، ونشاطها الاقتصادى عليها ثانيا . فبتحديد هذه العلاقة يمكن تتبع التطور الاجتماعى للقبيلة ، من حيث علاقة فئاتها المكونة لها بعضها ببعض ، ومن حيث علاقة القبيلة ذاتها بغيرها من القبائل .

---

(١) Chiha, H.: Op. Cit., P. 249

(٢) Ibid. P. 249

(٣) Ibid. P. 248

ولقد لاحظنا ، فى فصل سابق ، أن قبائل العراق العربية فى العصر العثمانى ، نجحت ، على درجات متفاوتة ، فى تكوين قوى ضاربة قوية ، قارعت الحكومات المدنية وشاركت فى تشكيل الحياة السياسية فى ذلك العصر ويمكن القول ، بأن هذه القوى ، وان لم تستطع التحول الى مرحلة الحكومات المستقرة المنظمة ، الا أنها استطاعت أن تقطع شوطا ملحوظا فى ذلك السبيل ، فسيطرت على المدن ، وشكلت أحيانا سلطات ادارية فيها ، وكانت لها علاقات سياسية مع الامارات والحكومات المجاورة ، ونجحت فى أن تكون من نفسها ، عند الملمات ، جيوشا مسلحة تسليحا حسنا ، بل ان بعضها طمح الى تأسيس دولة مستقلة فعلا ، وتسمى اكثر من رئيس قبلى بالسلطنة .

وتستلفت هذه الظواهر البارزة نظر الباحث ، لما يكن وراءها من تطور هام فى طبيعة التركيب الاجتماعى للقبيلة فى ذلك العهد ، ذلك ان اتجاه القبيلة الملحوظ نحو تأسيس الامارة المنظمة ، كان يعنى توفر بعض العناصر الطبيعية لقيام الدولة ، واهمها وجود ملكية للارض مستقرة وثابتة نوعا ، وقيام نشاط اقتصادى واضح من شأنه أن يمهد تقسيم فئات القبيلة الواحدة على أساس اقتصادى ، تمتزج فيه العلاقات الوراثية بالعلاقات الانتاجية على نحو متشابك ليمنح القبيلة - بالتالى - كيانا خاصا ، من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معا .

وكان التمسك بملكية الارض ، يمثل الحجر الأساس لترتيب الكيانات القبلية فى العراق العثمانى برمته ، ذلك أن تكوين الاتحادات والتحالفات القبلية

المختلفة ، كان في حقيقته ، مظهرا رئيسيا لرغبة كل قبيلة في تكتل قواها مع قوى القبائل الاخرى النازحة معها الى العراق ، بغرض الدفاع عن الأراضي التي استحوذت عليها منذ نزوحها ، ضد القبائل الاخرى المهاجرة التالية لها (١) .

وتتخذ ملكية القبيلة لأرضها شكلا خاصا بين أشكال الملكيات الأخرى ، اصطلح عليه في العراق باسم " الديره " ، وهي نوع من الملكية الجماعية الفعلية للأرض ، يشترك أفراد القبيلة في استغلالها والتمتع بمواردها ، على أن استغلال القبيلة هذا لم يكن مباشرا في أكثر الأحوال ، أي أن القبيلة كانت تستفيد من انتاج الأرض دون ان تقوم هي بفلاحتها ، وانما تترك ذلك للفلاحين المستقرين على الأرض نفسها ، بينما تقوم هي بمقاسمة أولئك الفلاحين ريع ما ينتجونه (٢) .

وهكذا فقد عرف الريف العراقي نوعين من الحياة الاجتماعية لسكانه ، الأولى حياة القبائل التقليدية ، القائمة على احترام القيم البدوية القديمة ، من

---

(١) يذكر Hay في تعريفه للقبيلة بأنها : مجتمع ، أو حلف مجتمعات ، مهمتها توفير الحماية لأفرادها ، بصد العدوان ، والأخطار القادمة من خارجها ، ثم الحفاظ على الأعراف والتقاليد للقبيلة ذاتها Hay, W.: Two years in Kurdistan, P. 65 ويهمل هذا التعريف المهمة الرئيسية للقبيلة ، وهي توفير الحماية اللازمة للأرض التي يستحوذ عليها أولئك الأفراد بصفتهم الجماعية ، ثم الحفاظ على الأعراف والتقاليد الضامنة لتماسك القبيلة ازاء المحاولات الخارجية الطامعة في أرضهم تلك .

(٢) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، الورقة ١٦٤ (مخطوط) . ويذكر أبو طالب خان ، عند اقامته في البصرة سنة ١٨٠٤م/١٢١٨ هـ أن " سكان البصرة قلقون دائما من العرب الجوالين الرحالين وقد التزموا أن يؤدوا نصف غلات ارضهم الى قبيلة المنتفك (المنتفق) التي وعدت ان تدافع عنهم اعداءهم " (رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربه ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩) .

حرب وغزو ، ورعي ، واحتقار للزراعة وما يتعلق بها من مهن مستقرة[1] ، والثانية حياة الفلاحين الذين يمتهنون فلاحة الأرض وتربية الدواجن وصيد السمك وغيرها ، وعلى هذا النحو حافظت القبائل العراقية على مقوماتها كطبقة محاربة متميزة ، على الرغم من وجودها في مناطق ريفية زراعية .

وعلى الرغم من محاولات المماليك العديدة لتوطين بعض القبائل القوية ، وربطها بالانتاج الزراعي لأراضيها ، فان تلك القبائل ظلت حتى نهاية عهد المماليك متمسكة بروحها القبلية البدوية غير المستقرة . فقبيلة بني لام العاتية في وادي دجلة ، لم تتجه الى الزراعة رغم اعتمادها على الانتاج الزراعي في تنمية دخلها ، ولهذا فانها كانت تشجع الفلاحين اللوريين[2] النازلين بالقرب منهم على زراعة السهل الواسع[3] ، بينما تقوم هي على حماية الأرض من القبائل الأخرى ، وخاصة من اتحاد قبائل المنتفق

---

(١) عبد الجبار الراوي : البادية ص ٢٨٣ وكانت هذه القيم هي التي دفعت عددا من الرحالين الى انكار وجود أية نظم قبلية ، او نشاط قبلي اقتصادي سوى رعي المواشي التي يقتنونها ، من ابل وضأن وبقر وحمير (الكنز المختار في اكتشاف الأرض والبحار (مالطة ١٨٣٣) ص ٦٤) .

(٢) اللور : سكان أحد أقاليم ايران المجاورة للعراق ، والمتصلة بمنطقة الاحواز على الخليج العربي ، وتنتمي قبائل اللور الى عرق كردي فارسي ، وتعرف اليوم بـ (الفيلية) ، ويبدو أن أغلب سكان هذا الاقليم كانوا في القرن التاسع عشر من العرب ، حيث يذكر بكنجهام أن الريف الممتد بين بغداد وششتر (تستر القديمة في ايران) ، يقطنه أعراب لورستان Buckingham,J.: Travels in Mesopotamia,Vol. II, P. 45

(٣) Jones,F.:Selections from the Record of Bombay Government, PP. 380 - 381.

القوية المجاورة لها ، وقد بلغ عدد ما كانت تستطيع دفعه الى الحرب زهاء خمسة عشر الف فارس (١) . ومن الطبيعي أن أغلب أولئك الفرسان لم يكونوا فلاحين ، لأن حياة الحرب المستمرة التي كانت تعيشها القبيلة تجعل من العسير على الفارس أن يتولى أعمالا زراعية مستقرة تحتاج الى كثير من الجهد والوقت .

وشبيه بهذا الوضع ، ما كانت عليه قبائل المنتفق في وادي نهر الفرات ، فقد جمع التجاور في الأرض والمصلحة المشتركة هذه القبائل لتتحد في أقوى حلف قبلي شهده العراق الجنوبي في العصر العثماني ، على الرغم من انحدارها من أصول مختلفة عدنانية وقحطانية (٢) . ومع أن المنتفق استطاعت منذ مطلع العصر العثماني أن تفرض سيادتها على المنطقة الممتدة من جنوب الحلة شمالا ، وحتى مدينة البصرة ذاتها ، ومن بينها جميع القرى والمدن الواقعة على الساحل الغربي للفرات وشط العرب من البصرة الى المربعاء ، وبنفس القدر من الأراضي في الساحل الشرقي من النهر (٣) ، فقد ظلت هذه القبائل متمسكة بحياتها القبلية الرعوية ، وعازفة عن

---

(١) Ibid.

(٢) العزاوي : عشائر العراق ج ٤ ص ٢٨ وحسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ج ٢ ص ٢١ ، وعبدالله الناصر : تاريخ السعدون ص ١٢٢ .

(٣) Niebuhr,K.:Description de L'Arabie,P.334
و Voyage en Arabie, Vol. II, P. 189.
و Dickson,H.R.:The Arab of The desert,I.443
وفي كتاب Arab of Mesopotamia,P.52 الذي اصدرته سلطات الاحتلال البريطاني سنة ١٩٢٠ تقدير تقريبي لمساحة ديرة المنتفق ، وهو ٦٥ ميلا من الشرق الى الغرب ، و ٥٠ ميلا من الشمال الى الجنوب . انظر : عبدالله الفياض : مشكلة الأراضي في لواء المنتفك ص ٢٣ - ٢٤ .

حياة التوطن والزراعة ، كما بقيت قيادتها ذات طابع عسكري بحت . وكان بيت آل السعدون الذى انحصرت فيه المشيخة عدة قرون ، يمثل سلالة محاربة من الطراز الأول ، مهمتها تجميع القبائل والعشائر التى ترأسها ضد أى خطر يتهددها . وتكشف الحروب العديدة التى خاضتها المنتفق عن خضوع القبيلة المطلق لقيادتها تلك ، وسرعة تجميع قواتها عند صدور أوامر المشيخة ، فقد بلغ ما كانت تستطيع انزاله الى المعركة ، فى القرن الثامن عشر ، زهاء (٣٠,٠٠٠) فارس[١] . ويصف نيبور الذى مر بمضارب هذه القبائل فى القرن نفسه ، حياتها بأنها كانت بدوية رعوية محضة ، حيث تقيم بضعة شهور فى نواحى نهر عنتر ، فى أطراف البصرة ، ثم تتجول بقية شهور السنة فى البادية مع قطعانها ، لتعيش هناك تحت الخيام كسائر البدو ، تاركة أمر الزراعة الى الفلاحين الذين كان عليهم دفع الرسوم فى مواسم معينة من السنة ، مثلها فى ذلك مثل قبيلة بنى لام آنفة الذكر[٢] .

وكانت القبائل الكبرى ، أو اتحادات القبائل هذه ، تشكل طبقة عسكرية متميزة ، ترتبط بسكان البلاد ، وخاصة الفلاحين ، بعلاقة زراعية محددة ، وفى الوقت نفسه ، فانها ترتبط بسلطات المدن بعلاقة مالية خاصة . فهى تشبه

---

(١) عماد العمرى : بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٢٩ عن مذكرات بوشان فى اواخر القرن الثامن عشر Beauchamp-Men.I.Juillet,P.142
وانظر : Jones, F.: Selections .., P. 380
(٢) Nibuhr, K.: Op. Cit., P. 201
وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٤٦ — ٥٨ .

ان تكون " ملتزمة " (١) للارض أمام تلك السلطات فتقوم بجباية نسبة كبيرة من الحاصلات الزراعية ، قد تبلغ النصف ، أو تزيد ، باعتبارها مالكة للأرض وحامية لها . وتدفع من ريع أرضها هذه نسبة معينة الى السلطات الحكومية لقاء تمتعها بحق استغلال تلك الارض . واذا ما أضفنا الى هذه العلاقة جانبها العسكرى ، الذى يقوم على أساس حق الولاية باستدعاء قوات القبائل للمشاركة فى اعمالها العسكرية ، فان الوضع القانونى للقبيلة يكاد لا يختلف بوجه عام عن وضع الاقطاع العثمانى العسكرى المعروف بـ " التيمار " (٢) . ولهذا السبب فان سجلات الدولة العثمانية الموضوعة فى القرن

(١) الالتزام ، أو الضمان ، هو تعهد صاحب الارض ، أو رب العمل ، بأداء مبلغ معين عما يستوفيه من الضرائب . وقد عرف هذا النظام منذ أوائل العهود العباسية واستمر بالتطبيق حتى العصر العثمانى الا انه توسع فى هذا العصر ، حتى شمل عددا كبيرا من الضرائب ، كضرائب الاحتساب ، وبيع التركات ، والمزروعات وغيرها . ولقد منع الالتزام رسميا فى مرسوم "خط كلخانه" الصادر سنة ١٨٣٩م ، الا انه بقى سارى المفعول فى العراق حتى مطلع القرن العشرين . وقد حاول والى بغداد نجيب باشا (١٢٥٨ــ ١٢٦٤هـ) ان يحصر حق توجيه التزام المقاطعات الزراعية بخزانة ولاية بغداد المركزية فى محاولة لتنظيم الالتزام . انظر : عباس العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية ص ١١٢ــ ١١٣ ، ومحمد نجيب باشا : بيورلدى صادر بتوجيه قائمقامية كربلا والنجف بتاريخ ١٢٦٢ (نشره كاتب الرسالة فى "صفحة مجهولة من تاريخ النجف وكربلاء فى القرن الثالث عشر" مجلة البلاغ البغدادية عدد ٥ سنة ١٩٧٥) .

(٢) كان "التيمار" تنظيما للملكية الزراعية ، الهدف منه اعالة الفرسان (السباهية) مقابل التزامهم بالذهاب الى الحرب بكامل اسلحتهم ، وتقديم عدد من الجند (او الملاحين) مناسب لدخل الاقطاع الذى فى حوزتهم . وتنقسم الاقطاعات الحربية ــ بحسب الايراد الذى تدره الى ثلاثة انواع رئيسية على النحو الاتى : الخاص من ١٠٠,٠٠٠ الى ٢٠٠,٠٠٠ أقجة (عملة فضية عثمانية) ، والزعامت من ١٩٩,٩٩٩ الى ١٠٠,٠٠٠ أقجة ، والتيمار من ٩٩,٩٩٩ الى ٣٠٠٠ او ٢٠٠٠ أقجة . انظر جب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ١ ص ٧٢ وجودت باشا : تاريخ جودت ج ١ ص ٩٩ (ترجمة عبد القادر الدنا) ودائرة المعارف الاسلامية . مادة تيمار ل (J. Deny) .

السادس عشر لا تميز ، من حيث الموارد المالية ، بين الأراضي التي يتولاها أمراء التيمار ، وبين الأراضي التي يتولاها رؤساء القبائل ، فكانت هناك أراضي مسجلة باسم جماعات قبلية عرفت بـ (آلوسات) (١) . ويظهر من دراسة الرسوم المفروضة على هذه الاراضي ، وأغلبها رسوم أغنام ، انها كانت تمثل مناطق الرعي فقط ، مثل أراضي آل غرير ، وآل عبيد ، واولاد علم ، وجماعة كازور ، وطائفة القرة قوينلو (٢) .

وكان من المحتمل ، أن تقسم ملكية القبيلة الواحدة الى عدة ملكيات لتختص كل جماعة منها بأرضها الخاصة ، فقبيلة القره قوينلو المذكورة اعتبرت — لظروف خاصة — ثلاث جماعات ، ومنح لاثنين من رؤسائها لقب " كتخدا " مع بعض المزارع ترغيبا لهم بالزراعة والاستقرار (٣) .

ومن الملاحظ أن الفارق الرئيسي بين النظامين : الاقطاعي والقبلي ، يكمن في طبيعة الاستغلال الجماعي التي يتميز به الأخير للأرض . على أن هذه الجماعية لم تكن تمتد الى جميع الذين تحملهم تلك الارض ، وانما هي قاصرة على افراد القبيلة المستغلة فقط ، بمعنى انها لا تشمل سوى الفئة العسكرية الرعوية التي تقوم باعمال الحماية والغزو .

---

(١) الآلوس : معناها القبيلة التي يقوم قوادها بقيادتها اثناء الحرب (العزاوي : العراق بين احتلالين ج ٣ الملحق الثاني ص ٤٠) .

(٢) سجلات ولاية الموصل . دفتر ٦٦٠ لوحة ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٦ ودفتر ١٩٥ لوحة ٧٢ و ١٧٣ .

(٣) سجلات ولاية الموصل . دفتر ٦٦٠ لوحة ٢١٧ .

وتدلنا المصادر التاريخية المعاصرة ، على ان العلاقة بين هذه الفئة ، وبين الفلاحين ، وهم أبناء القبائل المستوطنة المزارعة ، كان يشوبها كثير من ملامح الاستغلال والعسف. ففي سنة ١٧٠٧ / ١١١٩ هـ " تحركت عشيرة زبيد ، وجمعت رجالها ، وراحت تعتدى على القرى الآمنة التابعة ، وتغلبت على " الباشهيـــــية " و " السيب " و " الاهوار " (١) ، وشتت سكان هذه الامكنة ، واستولت على مزارعهم وخربت بيوتهم " (٢) . وفي عام ١٧٢٥ / ١١٣٨ هـ تحالف عدد من القبائل "وأغاروا على القرى والضياع ، ومنعوا الزراع من الانتفاع " (٣) . وعانت قرى شرقي بغداد من أعمال بني لام ، الذين كانوا " يشنون الاغارة ، من مندلي الى جصان ، ويعاملون الرعية بالخسران والهوان " (٤) . وجأر فلاحو القرى من أعمال قبيلة شمر ، الذين " يأخذون أموال القرى ويستخدمون كالامراء ، ودمروا من يقربهم من الفقراء تدميرا (٥) وفي عام ١٧٠٩/١١٢١ هـ أغار شيخ المنتفق على قرى بغداد ، وحرقوا الزروع وقد قاربت الحصاد ، ونهبوا قرية الرماحية وغصبوا أثاثهم ومواشيهم ، وفرقوا أصولهم وحواشيهم وحرقوا جميع زروعهم ، وخربوا غالب ربوعهم " (٦) .

---

(١) أسماء مواضع في منطقة البصرة جنوبي العراق .
(٢) مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٣٢٢ .
(٣) عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء الورقة ٨٥ (مخطوط)
(٤) حديقة الزوراء . الورقة ٣١ .
(٥) حديقة الزوراء . الورقة ٤٦ .
(٦) حديقة الزوراء . الورقة ٦٩.

وتتفاوت نسبة ما تدفعه القبائل الى السلطات الحكومية من مال لقاء تمتعها بحق استغلال أرضها ، ورغم أن هذه العلاقة المالية بين الطرفين كانت تشبه أن تكون عقدا من عقود الاجارة كما اصطلح عليه الفقهاء ، بيد أن تنفيذ هذا العقد كان لا يحدث غالبا ، الا بعد استخدام القوة من جانب الولاة . ففى الوقت الذى كانت القبائل ترى تمتعها بحق استغلال " ديرتها " واجبا لها ، لا ينازعها فيه أحد ، طالما كانت هى التى تقوم بحمايتها ، وأن حصة الحكومة من مالها ليست الا ضريبة قهرية لا معنى لها ، لأن الحكومة لا تقوم بأى دور فى ادارة تلك الارض ، فان السلطة الحكومية كانت لا ترى فى القبيلة الا جماعة منتفعة من أرض هى فى الحقيقة ملك الدولة وحدها أو ملك الامام بحسب المفهوم الاسلامى ، وأن شيوخ القبائل ليسوا الا مستغلين للارض ، لقاء ما يقدمونه اليهم من مال . واعتبروا ان هناك عقدا ضمنيا يقضى بدفع أولئك الشيوخ قيمة ما يستغلونه من أرض ، وأن مماطلتهم فى دفع تلك القيمة ، يعد اخلالا بشروط العقد ، وهو أمر من شأنه ان يطلق يد السلطة لكى تقوم هى بتحصيل ما بذمة شيوخ القبائل من مال ، بل وعزل أولئك الشيوخ ان هم قاوموا جهود السلطة فى ممارسة حقوقها .

ولم يكن للمال الذى تدفعه القبيلة اسم قانونى محدد ، اذ تعرفه المصادر المعاصرة بالخراج تارة ، وبالجزية تارة اخرى ، ومن المحتمل أن يدعى فيئا أو غنيمة اذا ما صاحب تحصيله شىء من القوة العسكرية (١) . من ذلك مثلا أنه عندما

(١) انظر مثلا : حديقة الزوراء ، ص ٤٥ .

نكل حسن باشا والي بغداد بقبيلة زبيد عام ١٦٩٨م/١١١٠هـ ، اضطرهم الى ان " يؤدون الجزية عن يدوهم صاغرون " (١) . وحينما امتنع أحد شيوخ ربيعة عن أداء " الرسوم الأميرية " ، لم يتردد أحمد باشا عن حبسه سنة ١٧٣٨م/١١٥١هـ (٢)

وفي سنة ١٧٨١م/١١٩٥هـ حاصر والي بغداد سليمان باشا الكبير قبيلة الخزاعل ، ولم يعف عنهم الا بعد ان استوفى من شيخهم " الخراج المنكسر عليه " (٣) . وفي عام ١٨٠١م/١٢١٦هـ " عصت قبائل عفك وجليحة ومنعوا الخراج ، فخرج عليهم الكتخدا علي بك بعسكر جرار ، فسار الى نزل نهر اليوسفية . فأعطاه شيوخها الخراج وأذعنوا للطاعة " (٤) . وعندما طلب شيخ الخزاعل سنة ١٧٩٣م/١٢٠٨هـ ، العفو من الباشا ، بعد عصيانه " قبله بشرط أن يؤدوا جميع الخراج المنكسر والحال " (٥)

والظاهر أنه لم تكن ثمة حدود ثابتة لضرائب الارض التي كان على القبائل تأديتها للحكومة ، فأرض " طرة " التابعة لآل جناح في اقليم الديوانية (٦) — وهي سنجاق قديم مستقل — كانت تؤدي الى خزينة بغداد عام ١٦٤٣م/١٠٥٣هـ ألف

---

(١) حديقة الزوراء ص ٤٩

(٢) دوحة الوزراء ص ٤٢ .

(٣) عثمان بن سند : مطالع السعود (مخطوط) ، ومختصره ص ٣٣ .

(٤) مختصر مطالع السعود ص ٧٢ ودوحة الوزراء ص ٢١٥ .

(٥) مختصر مطالع السعود ص ٥٤ . يريد خراج السنين الماضية ، والسنة الحالية .

(٦) وهي التي تعرف اليوم بأرض " طرة عفج " ، وتشمل الاراضي الفضاء الواقعة بين منتهى بعض مزارع قضاء الحي الواقعة على الجانب الغربي من الغراف ومزارع عفج وآل بدير من ملحقات لواء الديوانية (يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ٢ ص ٣٨٨) .

قرش • ولكننا نجد قيمتها قد ارتفعت في عهد أحمد باشا سنة ١٧٢٣م/١١٣٦هـ • لتبلغ ٤٨٩٢٫٥ قرشا سنويا (١) • وفرض على قبيلة بني لام في وادي دجلة الشرقي أن تدفع في منتصف القرن الثامن عشر مبلغ ٨٠٠٫٠٠٠ قرش كل عام (٢) • بينما كان على عشيرة السراج أن تؤدي • في النصف الاول من القرن التاسع عشر مبلغا قدره ١٢٫٠٠٠ شامي سنويا (٣) • وكانت قبائل المنتفق تؤدي في عهد داود باشا آخر المماليك مبلغا سنويا قدره (١٠٠٫٠٠٠) شامي (٤) • وتدفع عشيرة الجحيش (٥) • عام ١٨١٦م/١٢٣٢ مبلغ (١٥٠٠) قرش الى خزينة ولاية الموصل (٦) • أما شيخ طي فكان يقدم مبلغا يتراوح بين (٢٥٠٠) و (٣٠٠٠) قرش (٧) • ومن المحتمل

---

(١) فرمان سلطاني مؤرخ في رمضان سنة ١٠٥٣ وتذكرة الديوان " ديوان تذكرة سي " مؤرخة في أول أيلول (سبتمبر) سنة ١١٣٦ هـ • (نشرها يعقوب سركيس في مباحث عراقية ج ٢ ص ٣٨٦ – ٣٨٨) •

(٢) عشائر العراق ج ٣ ص ٢١١ •

(٣) Jones,F.:Selection from the Record..,I.380.

اسم أطلقه العراقيون في النصف الاول من القرن التاسع عشر على القرش المين • فعرف بالشامي المين • أو بالشامي مطلقا • تمييزا له عن القرش الصاغ • وقد استمر اسم الشامي يطلق في البصرة على القرش المين حتى وقت متأخر من العصر العثماني • (عماد عبد السلام رؤوف : بعض العملات المستعملة في الموصل وأقيامها • مجلة المسكوكات العراقية ج ٥ ص ١٩٧٥) •

(٤) سليمان فائق : مرآة الزوراء في سيرة الوزراء ص ١٢٨ •

(٥) الجحيش • من عشائر زبيد • وسكن بعض فروعها بين " المسيب " و " الحلة " في وسط العراق • سياحتنامه حدود ص ١١١ •

(٦) مجهول : القوانين السلفية ص ٤٨ (مخطوط) •

(٧) القوانين السلفية ص ٤٨ •

أن تدفع بعض المشائر ما عليها من ضرائب عينا لا نقدا [١] ، فكان على شيوخ عشيرة الشرابيين أن يقدموا في موعد معين من كل عام ، كمية من السمن تقدر بمائة (من) الى مطبخ والى الموصل [٢] .

ويذكر سليمان فائق [٣] ، أن اجمالي ما كانت تستوفيه السلطات الحكومية يبلغ في أواخر عهد داود باشا ، زهاء (٥٠٠) بدره ، أي ما يعادل خمسة ملايين من الدراهم العثمانية تقريبا [٤] .

وكان من المألوف في حكومة المماليك ، ان تعفى بعض القبائل مما عليها من مستحقات ، مقابل قيامها بمهام معينة تكلفها بها الحكومة [٥] ، مثل المحافظة على الطرق ، وحراسة القوافل ، والمساهمة في الاعمال العسكرية التي يقوم بها الولاة [٦] .

---

(١) مرآة الزوراء ص ١٧٧ .

(٢) القوانين السلفية ص ٤٨ . والمن : الذي يكال به السمن وغيره ، وقيل الذي يوزن به رطلان (المصباح المنير ص ٢٤٩) .

(٣) شغل مناصب مهمة ذات صلة بالقبائل ، منها محاسبة دائرة المنتفق . انظر : تاريخ المنتفق له ، ص ٤٠ وما بعدها .

(٤) المقصود بالدراهم العثمانية : الاقچات الفضية ، لا الدراهم الشرعية . وانظر عباس العزاوي : تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية ص ٣٩ .

(٥) مرآة الزوراء ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٦) وهذا ما حدث للقبائل العراقية التي ساهمت في صد الحملات الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر . انظر الكتاب المرسل الى حمود الثامر شيخ المنتفق (ضمن مجموعة مخطوطة في المكتبة القادرية ببغداد) .

وتعتبر هذه القبائل ، او اتحادات القبائل ، أعلى الطبقات الاجتماعية في الريف العراقي ، ففي كل اتحاد قبلي كانت ثمة مشيخة قوية ، تتألف من شيوخ القبائل الاساسية المكونة للاتحاد ، ويرأس الجميع " شيخ المشايخ " ، أو " الامير " وهو عادة من سلالة ووراثية معينة ، ذات صفات قيادية خاصة ، كآل السعدون في المنتفق ، وحمولة بني لام ، وآل خيون في بني اسد [1] ، وللشيخ سلطات مطلقة في قبائله ، تمتد لتشمل تحديد مضاربها ، وايام غزوها وانسحابها ، وعقد الاحلاف والمعاهدات ، الا ان هذه السلطة كانت محدودة ، من حيث الواقع ، بموافقة ممثلي القبائل التي يرأسها ، وكان على الشيخ احترام ارادة اولئك الرؤساء ، والنزول عندها اذا ما لزم الامر ، كما حدث عندما عرض حمود الثامر شيخ المنتفق ، على مجلس القبيلة المتكون من " الامراء والرؤساء وعشائر اتحاد العربان " مسألة لجوء سعيد بك (باشا) بن سليمان باشا اليه عام ١٨١٢ م/١٢٢٧ هـ [2] ، هل كان من المحتمل أن يصدر مثل هذا المجلس قرارا ضد الشيخ القائم نفسه [3] .

---

(١) هم بيت الرئاسة في قبيلة بني أسد المقيمة في منطقة الاهوار والمستنقعات شمال البصرة ، المعروفة قديما بالبطائح ، وفي العصر العثماني بالجزائر (او الجوازر) وتعرف اليوم بالجبايش . ولقد ظل آل خيون يحكمون بني أسد مدة أربع قرون تقريبا كطبقة عسكرية ارستقراطية ، حكما استبداديا مطلقا ، ومن المعتقد ان آل خيون سلالة قائمة بذاتها عن بني اسد ، فهم بذلك يشابهون آل السعدون ، وحمولة بني لام انظر : شاكر مصطفى سليم : الجبايش ، دراسة انثروبولوجية لقرية في أهوار العراق (بغداد ١٩٧٠) ص ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٢) سليمان فائق : تاريخ المنتفق ص ١٧ .

(٣) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ١٤٧ .

تدخل المماليك في عزل شيوخ القبائل :

ويسجل عهد المماليك في العراق ظاهرة هامة في تاريخ المشيخات القبلية ، فلقد استطاع ولاة المماليك في بغداد أن يتدخلوا لأول مرة في عزل شيوخ القبائل الكبرى أو تعيينهم ، بعد أن كان هذا امرا خاصا بالقبيلة ذاتها ، على انه من الملاحظ ان هذا التعيين كان محدودا باسرة الشيخ نفسه ، فعندما انكسر ثويني شيخ مشايخ المنتفق الثائر امام والي بغداد سليمان باشا الكبير سنة ١٧٨٨م/١٢٠٣ هـ ، اصدر الاخير امره بتعيين الشيخ حمود الثامر شيخا على المنتفق بدلا من ثويني (١). ثم ما لبث أن أصدر سنة ١٧٩٦م/١٢١١ هـ أمرا آخر باعادته الى منصبه (٢). وحينما انكسرت قوات حمد الحمود شيخ الخزاعل ، اصدر سليمان باشا المذكور أوامره بتقسيم مشيخة الخزاعل بين اثنين من أفراد الاسرة الحاكمة ، فمنح للأول منطقة الجزيرة ، ومنح الآخر منطقة الشامية (٣) . ولما عزل الوالي المذكور الشيخ عبد العزيز عن رئاسة قبيلة قشعم ، انقسمت القبيلة الى قسمين ، الاول بقي مواليا للشيخ المعزول ، بينما التزم الثاني أخاه شبيب الحبيب (٤) . وفي سنة ١٨٠٥م/١٢٢٠ هـ أقدم علي باشا

---

(١) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ١٨٨ وعثمان بن سند : مطالع السعود (مخطوط) ، ومختصره لامين الحلواني ص ٤٤ .

(٢) دوحة الوزراء ص ٢٠٠ ومختصر مطالع السعود ص ٥٦ وغرائب الاثر ص ٤١ . و
Howel, M.D.: Voyage en Retour de L'Inde, PP. 23-24

(٣) دوحة الوزراء ص ٢٠٣ ومختصر مطالع السعود ص ٥٧ و :
Longrigg, J.H.: Op. Cit., PP. 202 - 203.

(٤) دوحة الوزراء ص ٢١١ والعزاوي : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ١٣٨ .

والى بغداد على امر خطير ، حينما اصدر أوامره بعزل شيخ بنى لام ، ونصب بدله آخر ، وذلك فى سلسلة اجراءات كانت تهدف الى عزل عدد من الشيوخ وابدالهم بآخرين [١] ، منهم شيخ بنى حمدان وشيخ قبيلة العبيد وشيخ زبيد [٢] وغيرهم من رؤساء القبائل العراقية الكبيرة .

القبائل المزارعة و " المتمدنة " :

وتلى طبقة القبائل الكبرى ، أو اتحادات القبائل ، العسكرية الرعوية ، طبقة اخرى من القبائل ، لا تختلف عن سابقتها فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية الا بانها تمتهن الزراعة ، واكثر ارتباطا منها بالارض وانتاجها . وأخبار هذه الطبقة غير واضحة فى المراجع التاريخية المعاصرة مثل سابقتها ، لانها بطبيعة استقرارها ، بعيدة عن المساهمة فى الحياة السياسية والعسكرية فى البلاد ، وتؤلف — فى الوقت نفسه — معظم فلاحى الريف الزراعى ، ولهذا فانهم يدخلون ضمن من تسميهم المراجع التاريخية والادبية باسم " أهل القرى " أو " الزراع " [٣] أو " أهل العرق " [٤] .

---

(١) دوحة الوزراء ص ٢٣٢ .

(٢) ياسين العمرى : غرائب الاثر ص ٦٩ أحداث سنة ١٨٠٥ م/١٢٢٠ هـ .
ودوحة الوزراء ص ٢٢٩ والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ١٧١ .
و Longrigg, S. H.: Op.Cit., P. 224

(٣) انظر مثلا : حديقة الوزراء ، الورقة ٥٤ و ٥٧ و ٦٩ و ٨٥ و ١٥٤ (مخطوط) .

(٤) فى التركية (أهل عرق طائفه سى) . ويتردد هذا المصطلح كثيرا فى الوثائق الرسمية . انظر : سجلات ولاية ديار بكر . سجل رقم ٥ اللوحات ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ .

وعلى الرغم من أهمية هذه الطبقة الاقتصادية ، باعتبارها المنتج الوحيد للمحاصيل الزراعية والحيوانية التى تحتاجها المدن والقبائل على حد سواء ، فان النظرة العامة اليها كانت تقوم على انها أحط مقاما من البدو المتنقلين (١) . وتدل مشاهدات الرحالين لقرى اولئك الفلاحون وتجمعاتهم السكنية على الحالة الاجتماعية والصحية الواطئة التى كانت يحيونها . ففى جنوبى العراق ووسطه كانت أغلب القرى مشيدة من جريد النخل ، ومغطاة بالحصير (٢) ، أو من القصب وحده ، (٣)* ونادرا ما تبنى قرية من مادة صلبة كالحجارة او غيرها (٤) . اما القرى الكبيرة ، فكانت جميعها مشيدة بالطين المجفف بالشمس ، ورغم انها احسن حالا - نسبيا - من سابقتها ، الا انها حقيرة المظهر الى أبعد الحدود (٥) .

ولم تكن فى هذه القرى اى نوع من الادارة المنظمة ، لذا فقد كانت بيوتها قذرة ومليئة بالحشرات ، ومرتعا خصبا لانتشار الأوبئة المختلفة والامراض . ويكفى ان ينتشر أى وباء ليقضى على قرى عديدة بكاملها دون أن يبقى منها أحدا (٦) وفى معظم الاحيان كان الفلاحون الفقراء يعانون الأهوال من جيرانهم البدو العتاة (٧) ، فضلا عن معاناتهم

(١) Della Valla,P.:The travels of Pitro Della Valla,P.265

(٢) Ives,E.:A Voyage from England to India, P. 242

(٣) Niebuhr, K.: Op. Cit., Vol. II, P. 253.

(٤) Ives, E.: Op. Cit., P. 243

(٥) Niebuhr, K.: Op. Cit., Vol. II, P. 204

(٦) Ibid. P. 204

(٧) Ibid.

* دير دى فوصيل : الحياة فى العراق منذ قرن ص ٦١ .

مما يحيط بهم من حيوانات مفترسة ، كالأسود والنمور وبنات آوى (١) .

ومن الملاحظ أن معظم هذه القبائل المزارعة قد مر ، في عهد سابق ، بمرحلة القبائل الرعوية الكبرى ، عندما كانت اتحاداتهم القبلية تمكنهم من الاحتفاظ بأراضيهم أمام موجات القبائل الرعوية النازحة الى العراق ، الا أن انهيار تلك الاتحادات وتفككها لم يبق امام قبائلها عند ذلك الا احد امرين ، اما الهجرة الى أراض أخرى غير أرضها ، والخضوع هناك لارادة قبائلها الحاكمة ، واما البقاء في الارض نفسها لتكون تحت حماية القبائل القوية حديثة النزوح ، وكلا الامرين ينتهي بها الى فقدان عصبيتها العسكرية السابقة ، واضطرارها الى امتهان الانتاج الزراعي لقاء التمتع بتلك الحماية اللازمة . فعندما اضطرت عشيرة محمد بن سعد بن مروح (٢) احدى عشائر قبيلة " العزة " (٣) الكبيرة الى النزوح من مواطنها في شمال شرق بغداد ،

---

(١) Ibid.
وثمة اشارات عديدة الى ما كان يتعرض له أهل القرى من مظالم فادحة من اصحاب السيادة على الارض ، وردت على هيئة شكاوى مرفوعة الى القضاة في المدن العراقية المختلفة . أنظر سجلات ولاية ديار بكر سجل رقم ٥ اللوحات ١٨ و ١٩ و ٢٤ و ٣٢ و ٣٥ و ٣٨ و ٤٢٠ ، وتتضمن عرائض مرفوعة الى قاضي ولاية شهر زور .

(٢) وقد عرفت هذه العشيرة فيما بعد باسم (أبو محمد) ، نسبة الى محمد بن سعد المذكور وهي اليوم من العشائر المهمة في منطقة العمارة . انظر : محمد الباقر الجلالي : موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٥٨ وعبد الكريم الندواني : تاريخ العمارة وعشائرها ص ٤٥ .

(٣) قبيلة كبيرة معروفة ، من زبيد ، تتجمع عشائرها في المنطقة الكائنة بين بغداد ، وكركوك ، وبلغ عدد أفرادها في أواخر القرن التاسع عشر زهاء ٢٠,٠٠٠ نسمة .
Chiha, H.: Provance de Baghdad, P. 240.

ابان القرن السادس عشر ، الى منطقة العمارة فــي جنوب بغداد [١] ، ملتجئة الى قهلة بني مالك (أحدى القبائل الثلاث الرئيسية المؤلفة لاتحاد قبائل المنتفق) اضطرت العشيرة النازحة الى تقاسم العمل في بيئتها الجديدة ، فقام قسم منها بزراعة الارض ، بينما تولى قسم آخر رعاية الجاموس في المستنقعات القريبة [٢] ، فكان ذلــك بداية تجزئة قبيلة العزة وتفرق عشائرها في البلاد واشتغالها بالانتاج الزراعي . ومــا أن حل القرن السابع عشــر حتى كانت عشائر اخرى من العزة قد استقرت في اطــراف جبل حمرين (شمال شرق بغداد) ، وفي تكريت على دجلة شمال بغداد ، وامتهنت زراعة الحبوب ، وشقــت بحفر الانهار والترع هناك لري اراضيها [٣] .

وفي أوائل القرن التاسع عشر انفصلت عشيرة " البهادل " من قبيلتها خفاجــة الشهيرة في التاريخ الاسلامي الوسيط ، ونزحت ــ بأمر من مشيخة المنتفق ــ الــى منطقة العمارة ، لتعزيز جانب دجلة الأيمن ضد قبيلة بني لام ، ففقدت العشيــرة بذلك عصبيتها القبلية ، وتحولت الى أيدي زراعيــة عاملــة لحساب قبيلة المنتفق [٤] . وكان لنزوح قبيلة شمر الى الجزيرة الفراتية منذ بداية القرن التاسع عشر واستيلائها على مراعي القبائل المتحالفة : العبيد والجبور وطي ، قد اضطر تلك القبائل الــــى

---

(١) في منطقة تعرف بأم جمل ، على نهر المجر الكبير في محافظة العمارة .

(٢) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٦٠ وتاريخ العمارة وعشائرها ص ٤٧ .

(٣) مجموعة فرامين سلطانية وبيورلديات وتذاكر ديوانية صادرة بشأن تمليك بعــض الأراضي الى شيوخ العزة في القرن السابع عشر . نشرها يعقوب سركيس في جريدة البلاد البغدادية الصادرة في ٥ تموز (يولية) ١٩٤٥ وأعاد نشرها في مباحث عراقية ج ٢ ص ٣١٠ ــ ٣٢٣ .

(٤) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٧٦ وتاريخ العمارة وعشائرها ص ٧٠ .

الهجرة شرقا ، فاستقرت معظم الجبور والعبيد في أرياف الموصل وعلى دجلة وعند سامراء وبين الزابين ، وتوطنت طي في منطقة كركوك وجبال حمرين ، وهاجرت قبائل أخرى مثل بنو حمدان والجحيش وغيرهم الى جنوب العراق ووسطه (١) ، ولقد ادت هذه الهجرات المتلاحقة وتفرق العشائر في أنحاء شتى من الريف العراقي ، الى أن تتحول تلك العشائر بسرعة الى مرحلة الانتاج الزراعي المستقر ، فتصبح بذلك من عشائر العراق الريفية الزراعية .

ولقد ساعدت سياسة المماليك الهادفة الى توطين القبائل الرعوية وربطها بالارض عن طريق تمليكها اياها ، وشق الترع والانهار ، الى ان تتحول بعض القبائل الرعوية الكبيرة ، كالمنتفق وبني لام نفسيهما ، الى الزراعة . ويبدو أن هذا التحول حدث في أواخر عهد المماليك ، أي منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فقد تم استقرار قسم كبير من بني لام — لاول مرة — في أراضيهم ، وأخذوا يزرعونها بأنفسهم كفلاحين مستقرين ، بالحنطة والشعير (٢) .

---

(١) Hay, W.: Two years in Kurdistan, P. 112
وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .
Chiha, H.: Op. Cit., PP. 249 - 250.
وابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) خورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٩٦ — ١٠٢ .
و Nijholt, L.: Voyage on Russie, Tome III, P. 250
و Chiha,H.:Provence de Baghdad, PP. 245-246.

وفي الوقت نفسه ، كانت عشائر أخرى من قبائل المنتفق قد أخذت بالتحــــول الى الانتاج الزراعي ، فأمسى قسم من تلك القبائل فلاحين يقتسمون انتاجهم مــع من بقي في مهنة الرعي والتنقل (١) . وكانت قبيلة بني أسد ، التي سبــق أن دفعتها قبائل المنتفق من مواطنها حوالي مدينة الحلة (٢) ، الى منطقة المستنقعات والأهوار على الفرات الجنوبي ، قد بدأت باحتراف زراعة الحبوب على نحو مركــز في منطقة الجبايش الواقعة ضمن نطاق نفوذها (٣) . وشبيه بهذا ما كان عليه وضع قبيلة ربيعة في وادي دجلة ، وكانت بنو لام قد دفعتها ، في سلسلة حملات عسكرية متلاحقة ، الى اطراف نهر الشحلاء في نواحي العمارة (٤) ، وانتقل قسم منهم الى شرق بغداد ، وفي نواحي الكوت . وفي القرن الخامس عشر ، امتهنت فئات من ربيعة الزراعة الى جانب أعمالها الاخرى مثل تربية الخيول ورعي المواشي المختلفة (٥) .

---

(١) خورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٤٦ — ٦٠ .
و Chiha, H.: Op. Cit., PP. 244 - 245.

(٢) لقد هاجرت بنو أسد من الجزيرة العربية الى العراق أثناء الفتح الاسلامـــي ، نزلت في عدد من المناطق مكونة عدة وحدات سياسية ودويلات في وسط العــراق أهمها الامارة المزيدية في القرن الخامس ، قد انشــأ بعض امراوءها مدينـة الحلــة .

(٣) شاكر مصطفى سليم : الجبايش ، دراسة انثروبولوجية لقرية في أهوار العـراق ص ٢١١ .
و Layard, L.: Op. Cit., Vol. I, P. 351.

(٤) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ١١ — ١٢ وتاريخ العمارة وعشائرها ص ٣٨ .

(٥) Nijholt, L.: Op. Cit., 111,P253.
و Jones, F.: Op. Cit., P. 200

ومن الملاحظ ، فى هذا الصدد ، أن اتجاه القبائل الى الزراعة كان يختص غالبا بزراعة الحبوب ، كالقمح والشعير والارز ، دون غيرها من المحاصيل الزراعية ، كما أن ميلها الى المهن الاخرى كصيد السمك أو مزاولة الحرف اليدوية أو تربيـــة الجاموس ، كان نادرا ، وفى الغالب ، كانت هذه المهن تترك لتتولاها عشائر وفئات معينـة ، على نحو وراثى ، فتشكل هذه العشائر والفئات آخر طبقة فى الهرم الاجتماعى للريف العراقى ، وهى طبقة تكاد تكون منفصلة تماما عـن الطبقتين المذكورتين مـن القبائل فى العراق .

وعلى الرغم من ان بعض هذه العشائر والمجموعات كان يدخل ضمن التركيـب الاجتماعى للقبيلة العراقية ، وأن منها من كان ينسب نفسه الى تلك القبائل ، الا ان العشائر المذكورة كانت ـ دائما ـ فى منزلة اجتماعية أدنى من سائر عشائر القبيلة ، الى درجة ان لا يسمح بالتزاوج بيـن افرادها وبين أفراد القبيلة الاخرين . ففـى قبيلة بنى اسد مثلا ، نجد ان جميع حاكـة القماش ، وصيادى السمك ، وهى مـن المهن المحتقـرة ، من عشـيرة واحدة هى آل غريج ، الذين كانوا أول أمرهم عشيرة صغيرة ضعيفة وجدت فى بنى أسـد الحماية المنشودة ، ثم اندمجت فيها بعد ، مكونة احدى فئاتها الدنيـا (١)

ويشكل " المعدان " ، وهم من سكنة الاهوار والمستنقعات (الجبايش) جنوبى العراق ، قطاعا رئيسيا مـن هذه الطبقة الاجتماعيـة الاخيرة ، ولا يؤلـف

---

(١) الجبايش ص ٤٦٣ ـ ٤٦٦ .

المعدان قبيلة موحدة بذاتها ، وانما يشكلون عشائر متعددة متفرقة ، خضع كل منها ـ في فترة من تاريخه ـ الى احدى القبائل القوية ، حتى كان جزءا أساسيا من تلك القبيلة .

ويمتهن المعدان بعض المهن التي تستنكف القبائل العربية من مزاولتها ، وأهمها تربية الجاموس في مياه الأهوار الضحلة ، حتى غدت هذه المهنة الفارق الرئيسي الذي يفصل عشائر المعدان عن غيرهم من العشائر في القبائل الاخرى(١) . وهذا الأمر هو ما دعى بعض الباحثين الى الشك في الأصول العرقية التي تنحدر منها تلك العشائر (٢) . وعلى أية حال ، فان الطابع العربي هو الغالب على المعدان بوجه عام (٣) ، ويبدو أن عشائر عراقية ، دفعتها ظروف بيئتها المادية والبشرية ، الى النزوح الى الأهوار ، ومشاركة المعدان حياتهم ، فانحدرت بذلك الى الطبقة

---

(١) انظر : سكريد فيستفال هلبوش : مدنية المعدان . ترجمة محمود الامين (مجلة سومر الحولية العراقية . المجلد ١٣ (١٩٥٧) ص ٨٧) وولفرد شيكر : محاضرة عن المعدان . ترجمة باقر الدجيلي ص ١٨ ، وشاكر مصطفى سليم : الجبايش ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .

(٢) تؤكد الباحثة هلبوش على غلبة الطابع العربي على عشائر المعدان ، وانهم لا يفرقون كثيرا عن العنصر العربي من حيث اشكالهم ، الا انها تشير الى وجود بعض الاشكال المنتمية الى العنصر الاوربي ، وأن هناك عددا قليلا من الاشكال المنتمية الى العنصر الهندي والمغولي (المبحث السابق ص ٨٦) .

(٣) يلاحظ زويمر (الذي جاب جنوب العراق في اواخر القرن ١٩) أن الناس هناك يفرقون ، بوضوح بين " العرب " و " المعدان " . انظر :

Zwemer,S.M.:Arabia,The Cradle of Islam,I.139

الاخيرة من القبائل العربية . فمن تلك العشائر " الازيرج " التي نزحت الى الاهوار (الجبايش) في القرن السابع عشر (١) ويلاحظ أن هذه العشيرة تتكون من عـــدد من الاسر المختلفة نسبا عن بعضها ، مما يدل على أن الازيرج بدأت — في الأصل — بنوع من الاتحاد القبلي جمعت بين عناصره مهنة واحدة ، هي رعاية الجاموس (٢) .

وفي فترة مقاربة زمنيا ، نزحت عشيرة " الفرطوس" الى الأهوار ، منفصلة بذلك عن قبيلة " الغزي " العربية الشهيرة ، ومكونة احدى عشائر المعدان الرئيسية (٣) .

ويبدو أن نشاط منطقـــة الأهوار الزراعي والحيواني ، القائم على زراعة الارز ، وتربيـــة الجاموس ، من جهة ، وتعاظم أهمية القرى التجارية الواقعـــة على ضفافهـــا ابان العصر العثماني ، قد دفع بعدد آخر من القبائل العربية " التمعدن " ، فيذكر الحيدري ، في أواخر القرن التاسع عشر ، أن ظاهرة التمعـــدن قد شملت عشـــيرة

---

(١) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٦٤ وتاريخ العمارة ص ٥١ .
(٢) لقد تشكلت الازيرج من أسر عديدة ، ينتمي بعضها الى خزاعة ، وبعضها الاخر الى قبائل مختلفـــة لا تمت بصلـــة واضحة للازيرج . وقد توحدت هذه الاســـر في مجموعتين رئيسيتين . انظر : تاريخ العمارة ص ٥٢ .
(٣) وتعتبر (الغزي) احدى قبائل بني لام (العزاوي : عشائر العراق ج ٣ ص ٢٣١) . ويذكر Jones أن بني لام كانوا يقومون بحماية بعض مربي الجاموس والظاهر ان أولئك المربين كانوا من قبيلة الغزي المذكوره . Jones, F.: Selection , .. P. 381 ويفهم مما ذكره خورشيد باشا ان قسما من بني لام كانـــوا معدانا (سياحتنامه حدود ص ٩٠ — ٩٢ ، وص ١٠٩) .

عشيرة آل محمد (١) القحطانية " وهي لكثرتها لا تحصى " (٢) وامتدت الى عشائر الهندية وما اتصل بها الى قرب البصرة " ولا يحصى عددهم الا الله تعالى ، واكثرهم من قحطان أصلا الا انهم تمدنوا " (٣) .

ويعد صابئة الأهوار المندائيون من العناصر المهمة في الطبقة الاجتماعية المذكورة ، ففيهم تنحصر معظم المهن الدقيقة في الريف العراقي الجنوبي ، كالحدادة وصياغة الفضة ، وأعمال المينا ، وبناء الزوارق ، وسائر ما تحتاجه القبيلة في حياتها الزراعية أو الرعوية على حد سواء ، وبما أن الصابئة يشكلون أقلية دينية - قومية متميزة ، لها كتبها المقدسة ، ولغتها الخاصة (المندائية) ، فانهم لا يتزوجون بغير النساء الصابئيات ، ويتجنبون اي اتصال وثيق مع ذوي الأديان الأخرى ، وهم يعيشون في عزلة تامة عن بقية أفراد القبيلة ، رغم اقامتهم ضمن مقار سكناها ، وتمتعهم بحمايتها (٤) .

---

(١) الا امرائها (آل بو محمد) التي سبقت الاشارة اليها في هذا الفصل ، وقد عدها شيحا من عشائر المعدان Chiha,H.:Provence de Baghdad F. 246. وانظر : عباس العزاوي : عشائر العراق ج ٣ ص ٥٢ .

(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة . ويشير شيحا الى ان المعدان ينقسمون الى ستة عشائر هي ١ - بو عهود ٢ - بو محمد ٣ - الجويبر ٤ - الازيرج ٥ - السويد ٦ - الاملح . وأن عدد خيامهم في عهده (أواخر القرن التاسع عشر) كان يقدر بـ ٣٢٠٠ خيمة Chiha,H.:Op.Cit.,F.246.

(٤) الجبايش ص ١٦٨ - ١٦٩ .

السادة والموامنة والمعيد :

والى جانب هذه الطبقات الثلاث فى المجتمع القبلى ، فان هناك فئتين أخريين ارتبطتا بذلك المجتمع ، حتى صارتا من مكوناته الاساسية ، وهما :

السادة والموامنة من جهة والمعيد من جهة اخرى .

١ ـ السادة والموامنة :

والسادة هم الافراد الذين ينتسبون الى الرسول محمد (ص) ، ولهم بسبب نسبهم هذا مكانة رفيعة بين القبائل العراقية ، شجعتهم على الانتشار فى مناطق سيادة القبائل ، والاختلاط بها ، ومصاهرتها ، فكثرت ذريتهم وتوزعوا فى القرى وبين مختلف العشائر . وهم أينما حلوا كانوا من المقربين عند الشيوخ ولذا صاروا يقطعونهم قسطا من أراضيهم ويخصصونها ملكا لهم [1] . ولقد لاحظنا أن نفوذ أولئك السادة الى داخل الكيان القبلى الاجتماعى كان فى عهود مبكرة من تاريخ العراق الحديث . فآل شبيب مثلا ، وهى السلالة التى استطاعت تشكيل اتحاد قبائل المنتفق ، كانوا من السادة أشراف الحجاز النازحين الى العراق [2] ، ويرجع نسبهم الى الحسين بن على بن ابى طالب . [3]

---

(١) عبد الجبار فارس : عامان فى الفرات الاوسط ص ٨٩ .
(٢) انظر : سليمان فائق : تاريخ المنتفق ص ١١ ومرآة الزوراء ص ١٤٥ .
(٣) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ١ ص ٥ ، وتذكر روايات اخرى أنهم سادة حسنيون ، أى من المنتسبين الى الحسن بن على . تاريخ العمارة وعشائرها ص ١٠٩
وانظر : Chiha, H.: Op. Cit., PP. 253 - 256.
Dickson,H.R.:The Arab of the desert,P.443

وكان المشعشعيون الذين ازدهرت امارتهم في القرن الخامس عشر وشملت الاحواز (١) وجنوبي العراق ، سادة علويون ابتدأوا حياتهم السياسية بالتفقه في شؤون الدين ، ثم بالوعظ والارشاد بين القبائل ، حتى نالوا الزعامة الدينية فيهما ، وسرعان ما تحولت هذه الزعامة الى زعامة عشائرية قوية ، ضمت اليها عددا كبيرا من قبائل المنطقة ، لتكون فيها بعد امارة المشعشعيين التي استمرت في العراق حتى مطلع القرن السادس عشر ، ولبثت في الاحواز حتى نهاية القرن التاسع عشر (٢) .

بلغ من أهمية السادة واحترام المجتمع القبلي لهم ، ان احدهم ، واسمه هاشم استطاع عند هجرته الى العراق في بداية عهد المماليك (٣) ، أن يصبح من أخص اصدقاء الشيخ حمود بن ثامر شيخ المنتفق ، فأقطع هذا ولده أراضي واسعة شملت المنطقة الواقعة على جانب دجلة الأيمن ، جنوب بغداد ، وأصبحت الاسرة بمرور الزمن ، من العشائر المهمة في منطقة العمارة (٤) . ومن العشائر العلوية في نواحي الموصل عشيرة الحديديين (٥) وغيرها . وكان بعض أولئك السادة

---

(١) الاحواز (او الاهواز) هو الاقليم الواقع في جنوب ايران ، وتقطنه القبائل العربية منذ عهود ما قبل الاسلام . انظر علي نعمة الحلو : الاحواز ج ١ .

(٢) جاسم حسن شبر : تاريخ المشعشعيين وتراجم اعلامهم .
ومجهول : تاريخ امارة كعب العربية في القبان والدورق ـ الفلاحية ـ مخطوط نشره علي نعمة الحلو . (النجف ١٩٦٥)

(٣) سنة ١٧٤٨م/١١٦١هـ .

(٤) موجز تاريخ عشائر العمارة ص ٨٩ وتاريخ العمارة وعشائرها ص ٧١ .

(٥) Blunt, A.: Bedouin Tribes, Vol. II, P. 190
ووصفي زكريا : عشائر الشام ج ٢ ص ١٥٦ .

يتصرفون بالارض دون التمسك بالدفاتر الرسمية الصادرة من " الدفترخانة " ويحملون الناس مالا يطيقون ، متمتعين بحماية نقيب الاشراف فى القسطنطينية (١) .

وللسيد بموجب تعاليم مذهب الشيعة ، حق فى خمس ثروة المسلم ، فكان الشيوخ يجمعون هذا الخمس من أفراد العشيرة ويقدمونه الى السادة (٢) .

وشهد عهد المماليك فى العراق ظهور فئة دينية جديدة ، سوى السادة ، هم (المؤامنة) ، جمع (مؤمن) ، وهو الوكيل الدينى لرئيس الشيعة ، ومقره فى مدينة النجف ، والمفروض فى المؤمن أن يكون متخرجا من احدى مدارس النجف الدينية ، وان يعيش على ما يقدمه له الناس لقاء خدماته الدينية (٣) . ولقد لعب اولئك (المؤامنة) دورا مهما فى نشر المذهب الشيعى بين القبائل العربية فى العراق وصاروا حلقة اتصال بين القبائل والمدن الدينية التى بدأت تستعيد أهميتها الحضارية فى هذا العهد .

---

(١) توجد عدة أمثلة على هذه الحالات فى كركوك ، وهى موجودة فى سجلات ولاية ديابكر ، السجل ٥ اللوحة ٢٤ عرضحال مؤرخ سنة ١٢٠٦ هـ .

(٢) شاكر مصطفى سليم : الجبايش ص ١٧١ .

Atiyyah,Gh.:Iraq 1908-1921, P. 45. و

الجبايش ص ١٥١ ــ ١٥٦ وعبد الجليل الطاهر : البدو ص ١٧ .

(٣) تكشف تراجم كثير من أولئك الرجال وسيرهم الذاتية عن جهودهم ومساعيهم الدائبة فى سبيل " ترويج المذهب " بين القبائل العربية فى العراق . وتحفل كتب التراجم مثل روضات الجنات للخونسارى ، وأعيان الشيعة لمحسن الامين العاملى ، واجازات الرواة ، بمثل تلك السير .

٢ ـ الرقيـــق :

عرف القسم الجنوبي من العراق تجارة الرقيق الاسود منذ العهود الاولى للدولة العباسية ، حيث كانوا يعملون في خدمة اصحاب الارض ، ويقومون بتنظيف التربة من املاحها . وعندما ورثت القبائل العربية السيطرة على الريف في فترة ضعف المدن ، أصبح العبيد من مستلزمات المجتمع القبلي في العراق ، فكانوا يعملون في بيوت الشيوخ ومضايفهم خدما وسقاة ، ويتولون التجديف في زوارقهم ، ونقل أوامرهم ورسائلهـــم ، وبل كان منهم من يولي الاشراف على الزراعة وقسمة المحاصيل (١) ، فقبيلة المنتفـــق مثلا ، كانت تترك لمأموريها من العبيد السود جباية الضرائب على المواشي (٢) . وقوة العبد مستمدة من قوة مولاه ، ونسله يكون ملكا خاصا لسيده ، ولا يصاهر أبناء القبيلة العبيد مطلقا ، والافتراء على أحدهم بالعبودية جريمة تستحق العقاب (٣) .

القبائل الكردية :

لقد أدت طبيعة الأراضي المتموجة والجبلية التي أقامت فيها القبائل الكردية الى حدوث اختلاف مهم اخر بيـن تكوين القبيلـة الكرديـة وشقيقتها العربية ، وهـو اختلاف ترك آثاره على الخريطـة القبائلية للعراق العثماني ، وخاصة في عهـــد

---

(١) الجبايش ص ١٦٤ .
(٢) تاريخ العمارة وعشائرها ص ٦٥ .
(٣) عبد الجبار فارس : عامان في الفرات الاوسط ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

الحكومات المحلية الذى رأسه نظام المماليك . ويمكن ارجاع ذلك الاختلاف الى أن أراضى الاكراد ، بخلاف المناطق العربية ، كانت خصبة غنية بالمحاصيل الزراعية وبالمراعى الجيدة ، وان نظام الرى المطرى " الديم " كان يكفل لتلك الحقول ماتحتاجه من مصادر مائية ، كما كانت المنطقة غنية بالينابيع والمجارى المائية التى تروى المزارع والبساتين ، فكان هذا الوضع يمثل عاملا مشجعا للقبائل الكردية بالتوطن والاستقرار ، وكان من شأن الاستقرار أن يفكك وحدة القبيلة الكردية الواحدة ، ويفصم اتصالها ببعضها (١) .

ومن ناحية أخرى ، فان تحول القبائل الكردية الى الزراعة ، استنادا الى ما تقدم كان اسرع مما شهدته القبائل العربية فى نفس الفترة الا أن هذا التحول ، رغم ما خلف من ضعف فى الروابط القبلية ، فانه أدى الى قيام ظاهرة سياسية جديدة وهى تشكيل تلك القبائل حكومات قبلية سرعان ما تحولت الى حكومات مدنية ذات سمات اقطاعية عسكرية متميزة .

وتتشابه الحكومات العشائرية التى كونتها القبائل الكردية ، مع تلك التى كونتها القبائل العربية فى أمور ، وتختلف عنها فى أمور اخرى ، فهما ، من ناحية ، متماثلتان فى انهما قامتا بجهود أسر أو افراد من غير القبائل التى وحدتها غالبا ، بل أن مؤسسيها كانوا – أحيانا – لا يمتون بصلة الى تلك القبائل ، وهم على الاغلب من سكان

---

(١) شاكر خصباك : الاكراد ، دراسة جغرافية اثنوغرافية ص ١٧١ .

المدن ، مثل الأسرة العباسية القادمة من بغداد لتترأس مجموعة من قبائل الكرمانج الكردية ، موسسة بذلك الامارة العباسية في بهدينان (١) . والاسرة الصورانية التي نزح عبيدها من بغداد ايضا ليتولى زعامة اتحاد قبائل راوندوز (٢) . وكثيرا ما لعبت عوامل دينية روحية دورها في تأليف تلك الحكومات القبلية ، أو الاتحادات ، فأمراء قبائل الجاف مثلا ، كانوا ينتسبون الى بني هاشم (٣) ، وأمراء اتحاد عشائر اليزيدية في الشيخان يرجعون بنسبهم الى البيت الأموي (٤) . وقد يكون للمنصب الملكي دور مشابه ، اذ تشير المصادر التاريخية الى ان فقيها استطاع احياء الامارة البابانية ، بتأسيسه سلالة قوية تزعمت اتحادا من قبائل الصوران في منطقة شهرزور (٥) .

---

(١) شرف خان البدليسي / شرفنامه .
ومحفوظ العباسي : امارة بهدينان العباسية ص ٣٣ .
(٢) شرفنامه ص ٢٦٨ .
(٣) عباس العزاوي : عشائر العراق (الكردية) ج ٢ ص ٣١ .
(٤) صديق الدملوجي : اليزيدية ص ٢٠ - ٢١ ، ويرتكز بنيان امارة الشيخان على أساس تجمع عشائري قديم ، شاركت فيه عشائر عربية وكردية وأقوام قديمة أخرى . وقد تميز هذا التجمع بعقائد غريبة غامضة ، ساعدت على تكوين شخصيتهم القائمة بذاتها ، وأذابت الانتماءات القومية لعشائرها الأصلية ، لتكون منها جماعة متجانسة واحدة ، تتكلم الكردية والعربية ، وتدين بالديانة اليزيدية ، وتتسمى بأسماء اسلامية ، وأهم عشائر اليزيدية هي : الخوركان ، والجوانا ، والليبوات والخاتونية . الدملوجي : اليزيدية ص ٢٢٦
و
Layard,H.:Discoveries,., PP.247-248.
(٥) انظر الفصل الثاني .

واذا ما كانت الظروف البيئية المتشابهة هي التي أدت الى قيام تلك الاتحادات التي شملت العراق برمته ، عربه وأكراده ، فان اختلافات جوهرية سببتها الطبيعة الجغرافية المختلفة لانحاء البلاد ، أدت الى ذلك التباين الواضح في المرحلة التالية لقيام الاتحادات ، وهي مرحلة تحول الاتحاد الى امارة ذات طابع مدني مستقر . ففي الوقت الذي فشل فيه رؤساء الاتحادات القبلية العربية في تأليف حكومات مدنية مستقرة ، الا في فترات قصيرة محدودة (كما حدث للمنتفق حين استولت على مدينة البصرة) ، نجد أن رؤساء اتحادات قبلية كردية ينجحون في التحول الى طبقة من حكام المدن ، فشكلوا الامارات البابانية والبهدنانية العباسية والصورانية شمالي العراق .

ولا ريب في أن سبب ذلك التحول يرجع الى الطبيعة الوعرة التي تميزت بها تلك الانحاء من العراق ، والى خصبها وصلاحها الدائم للزراعة ، وهما عاملان رئيسيان في استقرار القبائل واختصاصها بأماكن معينة ، على خلاف المناطق الجنوبية ، التي تتصل بالبادية الصحراوية في أكثر من جهة ، وتخلو من أية حواجز جغرافية فعلية يمكن الاستقرار وراءها .

لقد شجعت البيئة الطبيعية الأكراد على ترك الترحل ، بينما كان للبيئة الصحراوية أثر عكسي على العرب ، ففي بلاد الاكراد تتوفر المياه للزراعة الصيفية ، كما تتوفر الامطار للزراعة الشتوية . وفضلا عن ذلك ، فان طريقة ترحل الأكراد لعبت دورا في سهولة تحولهم الى الاستقرار ، فالترحل الكردي هو نوع من الانتقال الفصلي

الذى يختلف تماما عن التنقل الدائم الذى يتميز به ترحل عرب الصحراء . فالرعاة الأكراد يمضون فصل الصيف فوق روابى الجبال حيث يجدون بانتظارهم مراعى جديدة ، ثم يهبطون بقطعانهم ثانية الى السهول فى نهاية الصيف حيث تكون المراعى الشتوية قد استعادت حيويتها ، أما الرعاة العرب فيطوفون فى الصحراء حسب تغيرات الفصول نظرا لتميز المطر الصحراوى بذبذبة عالية (١) .

وقد استطاعت الامارات الكردية المتشكلة فى جبال العراق وروابيه الشمالية أن تستقطب حولها قبائل الاكراد كافة ، وذلك فى الفترة التى سبقت قيام نظام المماليك فى بغداد ، فضمت امارة بابان قبائل مكرى وبانه ومركه وبشدر . وفى عهد المماليك ، استطاع البابانيون أن يسيطروا على قبيلة الجاف أو أن يتحالفوا معها . والجاف اتحاد قبلى قديم تحولت زعامته من الاطار الدينى الى الرئاسة القبلية فى زمن سابق غير محدد (٢) ، وانقسمت بسبب معاهدات الحدود العثمانية الفارسية الى قسمين ، يخضع كل منها لرئيس ، وان كانا يرتبطان ببعضهما بعلاقات قوية (٣) .

---

(١) شاكر خصباك : الاكراد ، دراسة جغرافية اثنوغرافية ص ١٧١ .

(٢) يذكر العزاوى ان عددا كبيرا من رؤساء الجاف يؤكدون بانهم سادة ينتمون فى نسبهم الى الرسول (ص) ، وان نسبهم هذا هو الذى ادى الى رئاستهم على القبائل ، فانقلبت السيادة والمشيخة الدينية الى امارة قبلية (عشائر العراق ج ٢ ص ٣١) .

(٣) عشائر العراق ج ٢ ص ٤٢ ، ويعرف جاف العراق ب " مرادى " ، وجاف ايران ب " جوانرودى " ، ويذكر سون ان الاخيرين تحالفوا مع قبيلة كوران فى ايران حتى اصبحوا جزءا منها (ميجر سون : رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ترجمة فؤاد جميل ص ٢٨٥ – ٢٨٨) .
ودائرة المعارف الاسلامية . مادة " جاف " بقلم : Longrigg

ولقد استطاع البابانيون أن يستفيدوا من توى الجاف فى القضاء على مناوئيهم من القبائل الاخرى (١) ، وفى مقدمتهم اتحاد قبائل البلباس ، وكان هذا الاتحاد يتكون من خمسة قبائل (٢) وصفهم الحيدرى بأنهم " فى غاية الكثرة والشجاعة " (٣) وكانت لهم رئاسة أو امارة قبلية فى منطقة شهرزور واربل ، وهم " أصحاب جوامع ومدارس وأماكن اعدوها للضيفان " (٤) ، الا أن تحالف القبائل الذى رأسه البابانيون تمكن من ازاحة البلباس من مواطنهم . واستمال امراء بابان ولاة بغداد الى جانبهم ، فجهز أحمد باشا بن حسن باشا حملة كبيرة سنة ١٧٣٧م/ ١١٥٠هـ " وصمد بعسكره الجهل ، وقصم منهم كل بطل " (٥) فأدى ذلك الى خفوت أخبار البلباس ردحا من الزمن ، والظاهر أن قسما منهم هاجر - بعد هذه الواقعة - الى ايران (٦) .

ولم ينجح اتحاد قبائل البلباس بالتحول الى امارة حاكمة ، كامارة البابانيين ، وكان واضحا أن الاخيرين حرموهم من هذه الفرصة بتحالفهم مع ولاة المماليك من

---

(١) نيكيتين ، باسيل : الاكراد ص ١٥٣ .
(٢) Edmonds, C.J.: Kurds, Turks and Arabs, P.160
(٣) ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد ص ١١٩ وعشائر العراق ٢/ ٣٢ و ٤٣ .
(٤) عبد الرحمن السويدى : حديقة الزوراء ، الورقة ١٤٦ (مخطوط)
(٥) حديقة الزوراء ، الورقة ١٤٦ .
(٦) درويش باشا : تقرير درويش باشا ص ٣٥ - ٣٦ وخورشيد باشا : سياحتنامه حدود ص ٢٩٢ ومحمد امين زكى : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص ٣٩١ ، ٤٠٧ و ٤٤٧ ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة " بلباس " بقلم B.Nikitine

جهة ، ومع القبائل الكردية الاخرى من جهة اخرى . ورغم ذلك فقد حافظ البلباص على اتحادهم القبلى طيلة عهد المماليك (١) .

ومثلما نجح البابانيون فى تحويل اتحاد قبلى بحت الى امارة مستقرة ، فقد استطاع أمراء بهدينان العباسيون فى الشمال أن يقوموا بالدور نفسه ، حينما وحدوا تحت امرتهم مجموعة قبائل العمادية الساكنة حوالى مدينة العمادية ذاتها ، وفى منطقتى بروارى العليا وبروارى السفلى ونروه (٢) . ثم وسعت فى نطاق تحالفاتهما حتى شملت قبائل العقر ، وفى مقدمتها اتحاد القبائل السبع ، المعروفة باسم كوران ، ومنها عشائر البوط والزنكنه وكيچ وش كرى (٣) . وعندما مدت الامارة سلطانها السياسى الى نواحى زاخو ودهوك ، دخلت جميع القبائل هناك تحت سلطانها ، وكان أهمها عشيرة المزورى القديمة القوية ، وعشيرة الدوسكى (حوالى دهوك) ، والشرابيون وهم عرب مستكردون ، والكيكية ، وفى منطقة زاخو ، انضمت الى التحالف الجديد عشيرة السليفانى ، وعشيرة السندى وعشيرة الكلى ، ثم تبعتهم مجموعة القبائل اليزيدية المتحدة . (٤)

---

(١) Edmonds, C.J.: Op.Cit., PP.220-222.

وقد تحدث عن قيم هذه القبيلة وتقاليدها ، معجبا بروحها الديمقراطية :

Rich, C.: Narrative of a Residence.., Vol. 1, P. 149.

وانظر خورشيد باشا : سياحتنامة حدود ص ٢٩٢ — ٢٩٨ وعشائر العراق (الكردية) ج ٢ ص ٤٣ — ٤٥ .

(٢) طه الهاشمى : مفصل جغرافية العراق ص ٤٤٢ — ٤٤٧ .

والعزاوى : عشائر العراق ج ٢ ص ١٩٠ ومحفوظ العباسى : امارة بهدينان العباسية ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

(٣) عشائر العراق ج ٢ ص ١٩٤ وامارة بهدينان العباسية ص ٢٠٠ .

(٤) الصدران السابقان ، وعنوان المجد ص ١١٨ — ١٢٠ .

والدملوجى : اليزيدية ص ٢٠ — ٢١ .

وهكذا ، كان المجتمع البهدناني ، في حقيقته ، مجتمعا مكونا من الاتحادات القبلية يعلو بعضها بعضا ، وينضوي كل اتحاد ضمن اتحاد آخر أوسع منه ، وليس البيت المالك العباسي الا زعيما لمجموعة الاتحادات هذه ، وهو في هذا يشبه دور آل شهيب زعماء اتحاد قبائل المنتفق في الفترة نفسها .

ومن الملاحظ أن المجتمع القبلي الكردي لم يعرف التمييز بين " القبيلة " و " العشيرة " كما عرفتها القبائل العربية ، ولقد استعملت المصادر الادبية المعاصرة كلا من المصطلحين مكان الآخر ، عند تعرضها الى الاحداث السياسية في المنطقة . وتنقسم القبيلة (او العشيرة) الى عدد من الوحدات (تماثل الحمولة في المصطلح القبلي العربي) لتترأس كل منها أسرة وراثية بعينها (١) .

ان قلة المعلومات التاريخية المتوفرة عن موقف كل قبيلة كردية من النمطين السائدتين للحياة الاقتصادية آنذاك : الرعي ، والزراعة ، تجعل من الصعب تحديد سمات التركيب الاجتماعي لتلك القبيلة بوضوح . ويمكن القول ان القبائل الكردية الرعوية عرفت مرحلة الاستغلال الجماعي للارض منذ عهود مبكرة ، الا ان هذه المرحلة اخذت بالتضاؤل تدريجيا منذ بداية العصر العثماني في القرن السادس عشر (٢) . كان اتجاه القبائل الى الزراعة والاستقرار يؤدي الى فقدانها هذه الروح الجماعية و

---

(١) انظر عن تقسيمات هذه الوحدات داخل القبائل الكردية وتفرعاتها : عباس العزاوي : عشائر العراق (الكردية) الجزء الثاني .

(٢) عبد الرحمن قاسملو : كردستان والاكراد ص ١٤٣ .

وتحول افرادها الى ان يكونوا فلاحين خاضعين لسيطرة طبقة رؤساء المجموعات القبلية ، الذين لم يكونوا - بالضرورة - من ابناء تلك المجموعات ، فقبيلة كبيرة مثل " الخوشناو " ترأسها أسر بعضها من القبيلة نفسها ، والبعض الاخر قدموا من بلدة " سنة " (١) في زمن ما ، وادعوا لهم نسبا يرتفع الى خالد بن الوليد (٢) ، ومثلها " السورجي " (من قبائل راوندوز) حيث يدعي رؤساؤها أنهم من ذرية ابي بكر الصديق (٣) .

وكان تأثير الاستقرار في الارض ، أقوى على العشائر الكردية منه على مثيلاتها العربية ، فانمحت ، أو كادت ، التقسيمات القبلية المعروفة لدى القبائل العربية ، وارتبطت الوحدة الاجتماعية الكردية بالقرية ، وصار رؤساء المجموعات القبلية هم - ايضا - رؤساء اقراهم ، وتباعدت سبل الاتصال - غالبا - بين أولئك الرؤساء . فيذكر هاي Hay أن من القبائل الكردية ، من يخلو من رئيس ، بينما تكون لقبائل أخرى عدد من الرؤساء (٤) . وعلى الرغم من ذلك ، فقد

---

(١) سنه أو " سننذج " بلدة معروفة في ايران ، وتعد عاصمة اقليم اردلان ، وغالب سكانها اكراد .

(٢) عشائر العراق (الكردية) ج ٢ ص ١٢٦ .

(٣) عشائر العراق ج ٢ ص ١٣٠ ويذكر سون Soane ان كلا من قبائل النهاوند والبابان ، والشوان ، والجاف ، يدعي بالاصل العربي لقادتهم (رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ج ١ ص ٢٢٨) ويشير Hay الى ان زعماء القبائل الكردية كانوا يفخرون بمحتدهم العربي .

Hay, W.: Two years in Kurdistan, P.110

(٤) Hay, W.: Op. Cit., P. 65.

بقى الرؤساء يتولون مهامهم فى الدفاع عن الاضعاف باعتبارهم رؤساء قبليين . وظلت للقبيلة بعض الهيبة والاهمية ، خاصة فى الاماكن التى تتواجد فيها قبائل كردية رحالة تتخذ الرعى مهنة لها ، ومن هنا كان حرص الكردى على نسبة نفسه الى قبيلة ما ، حتى وان لم يكن منها حقيقة (١) .

ويبدو أن الفروق بين هذه الطبقات الثلاث : القبائل الرعوية المتنقلة والرؤساء القبليون مالكى الارض والقبائل المستقرة المزارعة ، قد اصبحت من الوضوح فى القرن التاسع عشر بحيث لمس آثارها كثير من الرحالين (٢) . ففى الوقت الذى كانت فيه القبائل الرعوية (وهى فى القرن التاسع عشر تمثل ثلث الاكراد) (٣) تفرض سلطانها السياسى على المناطق التى تحل فيها ، وتشكل عبأ على الفلاحين من القبائل الكردية المستقرة ، ورؤسائهم على حد سواء (٤) ، كان الرؤساء القبليون يحاولون حماية

---

(١) Ibid.

(٢) يذكر كارجوف فى " ملاحظاته عن الاكراد " ابان القرن التاسع عشر أن " مصائر كردستان لا يستطيع الاكراد الرعية (يقصد الزراع) لعب أى دور يذكر فيها . ان الصوت الحاسم يعود دائما الى رؤساء العشائر الرحل وشبه الرحل " انظر خالفين ن . ١ : الصراع على كردستان ، المسألة الكردية فى العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر (ترجمة احمد عثمان ابو بكر) ص ١٥ .

(٣) عبد الرحمن قاسملو : كردستان والاكراد ص ١٥١ .

(٤) لاحظ ما سجله Hay عن قبائل الهركى ، والخيلانى ، والبولى ، عند وصفه لشمالى الزاب الاسفل . وتعد الهماوند التى ظهرت فى العراق فى اواخر القرن التاسع عشر ، من اخطر قبائل هذا النوع وكانت تشكل خطرا عظيما يهدد طرق المواصلات ، وينهب قوافل التجارة ويناوئ السلطات ، رغم ان فرسان هذه القبيلة ما كانوا يتجاوزون (٢٥٠) فارس . انظر سون : رحلة متنكر ج ١ ص ٢٣١ .

اراضيهم بالاستناد على السلطة الحكومية القريبة اكثر من الاعتماد على قبائلهم نفسها ، المشغولة بالانتاج الزراعي [١] هذا في حين كانت علاقتهم بأولئك الزراع قد فقدت شكلها الابوي ، وأصبحت علاقة زراعية اقطاعية بالدرجة الاولى ، تشوبها أحيانا مظاهر الاستغلال [٢] .

وكنتيجة لتحول قطاع واسع من المجتمع القبلي الكردي الى الزراعة ، فان هذا المجتمع لم يعرف في تركيبه طبقة ادنى مستوى ، تختص بالمهن المحتقرة (كالتي لاحظناها في القبائل العربية) ، الا في المناطق التي كانت فيها القبائل الرعوية ما تزال تمارس سيادتها وتفرض نظمها الاجتماعية ، ففي مناطق من شقلاوة وكوى ، كانت مهن معينة كالحياكة والصياغة ، مقتصرة على فئات من نصارى المنطقة دون غيرهم [٣] .

----

(١) خالفين ، ن ، أ ، : الصراع على كردستان ص ١٤ .
(٢) Edmonds: Kurds, Turks and Arabs, PP. 223, 224.
(٣) Hay, W.: Op. Cit., p. 87.

الفصل الرابع

التنظيمات الاجتماعية

كان من الاثار المباشرة لحركة نمو المدن المراقية في عهد المماليك وما أدت اليه من نشاط متزايد في النشاطات الاجتماعية لسائر الفئات والطوائف ، أن تعاظمت الحاجة الملحة الى تنظيمات اجتماعية (١) محكمة من شأنها أن تحقق نوعا من التضامن داخل كل فئة من فئات المجتمع ، وداخل المجتمع ذاته ككل ، فكان بروز دور تلك التنظيمات سمة عامة من سمات عهد المماليك لها دلالتها وأهميتها .

وتختلف مهمة هذه التنظيمات بين مدينة وأخرى اختلافات واضحة ، يرجع أغلبها الى طبيعة تكوين المدينة الاجتماعي والاقتصادي ، كما تختلف أيضا في وضوح انتماءاتها للطبقات الاجتماعية التي نشأت عنها . وعلى هذا ، فان ابرز تنظيمات ذلك العهد وهي نقابات الاشراف ، والطرق الصوفية ، وأصناف الحرفيين ، كان يفتقر الى الحدود الفاصلة بينها عمليا فمن المحتمل أن يكون الصوفي حرفيا ، كما أن العكس قائم أيضا ، ومن الجائز أن يكون الاشراف متصوفة وحرفيين في آن واحد . وهذا ما يؤكد حقيقة أن بعض التنظيمات قد فقدت مبررات قيامها في بادىء الأمر ، واتخذت في

(١) نقصد بالتنظيمات الاجتماعية هنا ، تلك التنظيمات التي كونتها طبقات المجتمع في حركتها التاريخية ، من طبيعة تركيبها نفسه ، بمعنى أنها "تنظيمات شعبية" حقيقية ، تختلف عن غيرها مما يتعلق بشؤون الحكم ، او الادارة أو المناصب الشرعية التقليدية .

هذا العهد ، مبررات أخرى مستمدة من حاجة المجتمعات المدنية المختلفة . كما يؤكد حقيقة أخرى جديرة بالاهتمام ، وهي أن جميع هذه التنظيمات قد أمسى ، يمثل في جوهره — مصالح الطبقات الدنيا من تلك المجتمعات. فالأشراف ، والطرق الصوفية ، والأصناف ، كانوا يرتبطون بالدرجة الرئيسية بمصالح طبقة واحدة تقريبا وهي طبقة العامة ، بما فيها من فئات مختلفة متباينة ، فكان تعاظم أهمية هذه التنظيمات اذن ، منسجما تماما مع تعاظم دور تلك الطبقة وأزدياد ثقلها السياسي والاقتصادي في الحياة العامة في مدن العراق آنذاك .

نقابات الاشراف :

وتأتي نقابات الاشراف على رأس التنظيمات المذكورة من حيث أهميتها وفاعليتها السياسية في ذلك العهد ، ولقد أقرت السلطة العثمانية ، منذ أول فتحها العراق في مطلع القرن السادس عشر ، قيام مثل هذه المؤسسات في المدن الرئيسة في البلاد ففي بغداد مثلا ، أسند السلطان سليمان القانوني عام ١٥١٤م/٩٢٠هـ للشيخ زين الدين القادري الكيلاني من أحفاد الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني نقابة اشراف بغداد بفرمان سلطاني خاص[1] ، فتوارثت الاسرة القادرية من بعده هذا

(١) انظر نص الفرمان في أبراهيم الدروبي : البغداديون ص ٤٧ ، وأصله باللغة التركية ، والسهروردي ، محمد صالح : لب الألباب ج ٢ ص ١ — ٦ وقد التقى التادفي في رحلته الى القسطنطينية سنة ١٥٣١م/٩٤٦هـ بالشيخ زين العابدين ، وأشاد بما كان لأسرته من المنزلة لدى الخاص ، والعام (قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر ص ٥٥) .

المنصب جيلا بعد جيل طيلة العصر العثماني في العراق . ويبدو أن منصب النقابة قد شغر ، أو ألغي تماما ، في الفترات المضطربة التي سادت البلاد قبل هذا الوقت.

أما في الموصل ، فقد استمر منصب نقيب الأشراف منحصرا في أسرة موصلية واحدة تنتمي نسبها الى السادة نقباء الموصل العلويين أحفاد الامام عبيد الله الأعرج الحسيني العلوي ، واشتهر منهم بالنقابة في هذا العصر عدد من الاشخاص عرفوا بالفخريين نسبة الى أحد أجدادهم السيد فخر الدين المتوفى في أوائل القرن الثامن عشر (١) .

وفي البصرة ، تولى آل النقيب من ذرية الشيخ احمد الرفاعي الحسيني الصوفي الشهير ، منصب النقابة ، فكان لهم من النفوذ والمنزلة ماجعل هذا المنصب يكاد يكون حكرا عليهم طيلة العصر العثماني (٢) .

وعرفت مدن المراقد الدينية في جنوبي العراق مؤسسات فعالة من هذا النوع فكان في كربلاء ، مدينة قبر الحسين بن علي (رض) ، أسرتان علويتان كبيرتان ، هما اكبر اسر المدينة قاطبة ، تتنافسان في نيل هذا المنصب . واشتهرت هاتان الاسرتان بآل فائز وآل زحيك (٣) ، وقد أقر السلطان سليمان القانوني عند فتحه العراق ، ابقاء

---

(١) أمين العمري : منهل الأولياء ج ١ ص ٢٣٩ والمرادي : سلك الدرر ج ٤ ص ٥٣ .
(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٦٤ وأحمد نور الانصاري النصرة في اخبار البصرة (شرح المحقق) ص ٥٥-٥٦ وحسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ج ٢ ص ٢٧٢ ، وقد افرد السيد محمد علي السيد هبة الدين الشهرستاني رسالة في نسب نقباء البصرة (انظر بزوك : الذريعة الى تصانيف الشيعة ١٠/٢٥) .
(٣) ذكر الرحالة ابن بطوطة عند زيارته كربلاء في أوائل القرن الرابع عشر أن " أهل هذه المدينة طائفتان : اولاد زحيك وأولاد فائز ، وبينهم القتال أبدا ، وهم =

النقابة بعهد السيد سلطان الملقب بكمال الدين من آل زحيك ، وكانت هذه الأسرة تتولى النقابة منذ العهد الصفوى السابق [١]. وفى أواخر القرن السادس عشر انتقلت النقابة الى آل فائز ، واختصت أسرة آل طعمة الفائزية بها طيلة العصر العثمانى الأول (المنتهى بالغزو الفارسى الصفوى سنة ١٦٢٢م/١٠٣٢هـ) ثم انتقلت بعدها الى آل زحيك حتى أواخر القرن السابع عشر ، وبعد هذا التاريخ استقرت نقابة الاشراف بيد آل طعمة حتى نهاية عهد المماليك فى العراق [٢] .

أما النجف ، مدينة قبر الامام على بن ابى طالب (رض) فقد انحصرت النقابة فى بيوت معروفة بنسبها الحسينى ومكانتها الاجتماعية الرفيعة ، كآل (المختار) وآل (الاشتر) وبيت (كتيلة) وآل طاووس وآل الصوفى وآل الملحاوى وآل الآوى وآل مكونة [٣] ، وبرزت أهمية الأسرة الأخيرة فى العهد الصفوى الأول (١٥٠٨–١٥٣٤م) فأصبح عميدها محمد آل كونة نقيبا عاما لنقباء العراق ، ونائبا عن الشاه الصفوى فى حكم النجف وحواليها [٤] .

= جميعهم أمامية يرجعون الى أب واحد ، ولأجل فتنتهم تخربت هذه المدينة (رحلة ابن بطوطة ص ١٣٩) .

(١) محمد حسن مصطفى الكليدار : مدينة الحسين أو مختصر تاريخ كربلاء ص ٩٤–٩٧ وعبد الحسين الكليدار آل طعمة : بغية النبلاء فى تاريخ كربلاء ص ١٣٦ .

(٢) محمد حسن آل كليدار : مدينة الحسين ج ٢ ص ٩٥ وعبد الحسين آل طعمة بغية النبلاء ص ١٣٦ .

(٣) جعفر آل محبوبة : ماضى النجف وحاضرها ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

وفى العصر العثمانى ، تولت أسرة نجفية حسينية عرفت بالسادة النقباء نقابــــة المدينة ، ثم انتقلت من بعدهم ، فى أوائل القرن التاسع عشر، الى آل الرفيعى من أكبر بيوتات النجف وأشهرها .

وعلى الرغم من أن وظيفة هذه المؤسسات كانت ، فى الأصل ، العناية بأمــور المنحدرين من سلالة الرسول (ص) وضبط أنسابهم وتدقيقها ، وذلك " بصيانة ذوى الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف "(١) ، الا أن دورها أخذ بالتطور فى العهود التالية للعصر العباسى ، وخاصة فى فترة الاضطرابات السياسية التى شملت القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجريين) حتى أصبح للنقابة فى معظم المدن العراقية مسؤوليات جديدة ناجمة عن طبيعة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فيها ، فلم تعد - فى أغلب الأحوال - ممثلة لطبقة أو فئة رفيعة متميزة فحسب ، بل غدت تنظيمات لفئات عديدة من طبقة العامة ، وما يرتبط بها مــن فئات أخرى ، يدخل بينهم الحرفيون والكسبة مثل السقاة والباعة الجائلين ، وصغار العلماء ، والدراويش ، ومشايخ الصوفية ، والفقراء ، بل والعاطلون أيضا ، والغرباء وكل مايمكن أن يدخل ضمن نطاق هذه الطبقة(٢) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٩٦ وأنظر :
Gibb and Bowen: Islamic Society and the West, I, ii PP.93-94
وفى قانون بنى عثمان المعروف بآصف نامة ، تأليف لطفى باشا وزير سليمان القانونى تنبيه للنقباء بأن " سادات الأشراف من بنى هاشم خالطهم ناس كثير من جملة الخلق بزعمهم أنهم اشراف ، يحتاج أن النقيب يتفقد ذلك ، والذى يكون غير صحيح النسب يخرجه من بينهم " (آصف نامة ، بيروت ١٩١١ ، ص ١٥) .
(٢) لنظر عن هذه الفئات : الفصل الثانى من الرسالة . ومما يؤكد أهمية هــذه الطبقة ، أنه بينما كان عدد الأشراف وآلهم فى حلب يصل ، فى أواخر القرن =

وبما أن هذه التنظيمات كانت تعكس طبيعة القوى العامة المكونة للمجتمع في المدن وأن تلك القوى كانت تختلف في تكوينها الاجتماعي بين كل مدينة وأخرى ، فقد لعبت نقابات الاشراف ـ بالتالي ـ ادوارا مختلفة بحسب اختلاف طبيعة تلك القوى نفسها سواء أكان طابع القوى روحيا صوفيا ، أم دينيا تقليديا ، أم قبليا .

وفي حين نجد نقابة الاشراف في كل من بغداد والبصرة تستند الى قاعدة روحية صوفية ، تتمثل في كون نقيب بغداد رئيسا عاما للطريقة القادرية ، و " خادما لسجادة جده " الشيخ عبد القادر الكيلاني ، ونقيب البصرة رئيسا للطريقة الرفاعية ، وهما من أكبر الطرق الصوفية في العراق في العصر العثماني . نلاحظ أن دور رجال الدين والفقهاء بقي بارزا في تكوين نقابة الاشراف في النجف ، مركز الدراسة الدينية لدى الشيعة الامامية في البلاد ، فقد تغلبت الصفة العلمية الفقهية على الأسر التي شغلت هذا المنصب جيلا بعد جيل ، حتى باتت النقابة تنظيما يضم داخله فئات من العامة ، يمثل الفقهاء وطلبة العلوم الدينية والمعلمين وعلماء الدين والمجاورين ، ووجد كل هؤلاء في نقابتهم مجالا فعالا لتنظيم قواهم ازاء نفوذ الحكومة المحلية للمدينة وهي التي كان يسيطر عليها " آل الملالي " من الأسر الاقطاعية المتعاونة مع القبائل العربية المجاورة[1] .

= القرن الثامن عشر الى نحو ٦٠,٠٠٠ نسمة ، كان عدد اللاحقين بهم ، من مثل تلك الفئات يصل الى نحو ٤٥,٠٠٠ نسمة ، فكانوا بذلك يشكلون أكبر فئات سكان المدينة البالغ عددهم ٢٠٠ الف نسمة (فرديناند توتل : وثائق تاريخية عن حلب ص ٩٤) .

(١) محبوبه : ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٤٨٨ـ٤٨٩ و ٤٠٢ ومحمد رضا الشبيبي : مذكرات . نشرت في مجلة البلاغ البغدادية عدد ٨ السنة ٤ (١٩٧٤) .

ويتمثل العامل القبلي جليا في تكوين نقابة الاشراف في كربلاء ، حين أمسى منصب النقابة هدفا قبليا بين أسرتين قبليتين تتزعمان المدينة ، وصار استمرار زعامة المؤسسة بيد احدى الاسرتين ، معناه تغلب نفوذ قبيلتها على الاخرى ، وتمكنها من السيادة على المدينة وأطرافها . على أن هذا العامل مالبث أن أخذ بالتضاؤل تدريجيا وخاصة في عهد المماليك ، وذلك حينما ضعفت صلة الاسر المتنافسة بالقبائل التي تنتمي اليها ، وتحولت المنافسة لأن تكون مدنية الطابع تماما ، فتمكنت نقابة الاشراف من أن تشكل تنظيما شعبيا قويا شارك قادته في معظم الاحداث الهامة التي جرت في المدينة آنذاك . وغلب على التنظيم في عهد المماليك الطابع الفقهي أيضا ، حينما نمت طبقة علماء الدين والفقهاء في القرن الثامن عشر (١) ، فسلكت النقابة عند ذاك طريقا مشابها لنظيرتها في مدينة النجف ، وذلك بتمثيلها -بالدرجة الأولى- مصالح تلك الطبقة الفتية المتنامية ، ثم مالحق بها من فئات شعبية أخرى .

ولقد لعبت النقابات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العراق في العهد الذي ندرسه ، وشاركت مشاركة فعالة في الحياة السياسية أيضا ، الى درجة أن أصبحت أحيانا القوى المنظمة الرئيسية في الوقوف ازاء الحكومات المحلية القائمة . فليس بغريب اذن أن يتولى نقيب الاشراف ببغداد قيادة أكبر حي من أحياء مدينته وأكثره كثافة واستقلالا عن سلطة الولاة ، وأن يمارس قدرا غير قليل من السيادة والنفوذ على أضخم تجمع سكاني مدني في ذلك العهد (٢) .

---

(١) فصلنا الحديث عن هذه الطبقة في الفصل الثاني من الرسالة .
(٢) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Mesopotamia, Vol. I, PP. 310 - 311.

وكان شيوخ الطريقة القادرية ، أوسع الطرق الصوفية انتشارا في بغداد حتى أواخر عهد المماليك ، يمثلون حلقات اتصال هامة في تنظيم نقابة الاشراف ، وكان الدراويش والمشايخ وأهل الطريقة يعدون الهيكل الاساسي لقيام ذلك التنظيم ومصدر قوته وتأثيره . وهو أمر يرجع الى المكانة الكبيرة التي كان ينزلهم فيها المجتمع البغدادي آنذاك ، وتعتمد هذه المكانة على ايمان الناس بقواهم الروحية ، وتمكنهم من معرفة المغيبات ، وقدرتهم على اتيان الكرامات ، واستخدامهم القوى الغيبية في تيسير أمور الناس المتعسرة ، بل وادعائهم أمور غريبة مثيرة للاهتمام ، مثل قدرتهم على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . والظاهر أن مثل هذه الافكار كانت تجد طريقها دائما الى عقول أعلى الطبقات في المجتمع ، حتى أن بعض أولئك الدراويش كان يمارسون تأثيرهم على الولاة انفسهم [٢] .

واذا كان هذا التنظيم يعتمد على التأثير الروحي لافراده ، فانه كان يعتمد على القوى المادية الجسيمة التي تمثلها الفئات الداخلة فيه ، وهي تشمل — في الواقع

= ومن الملاحظ أن ظاهرة تعاظم سلطة الاشراف هذه ، وجدت طريقها الى مدن معاصرة اخرى . وبخاصة حلب حيث شكلت هذه السلطة مظهرا لمحاولات السكان المحليين للدفاع عن انفسهم ومصالحهم ازاء ضعف السلطة المركزية العثمانية وعدم تمكنها من تحقيق ذلك لهم (عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(١) Fraser ; Op. Cit., p. 297.

(٢) يذكر فريزر ، الذي زار بغداد وأقام فيها عام ١٨٣٤ ، أن الوالي كان ينفق مبالغ طائلة على الدراويش الذين كانوا يزعمون قدرتهم على تحويل المعادن الى ذهب حقيقي . ويبدو أن قسما غير قليل من تلك الفئة كانوا يدعون ذلك Fraser : Op. Cit. P. 293 وينوه رحالة آخر ، هو بيري فوك ، الذي =

أغلب مكونات طبقة العامة ، وهم بالاضافة الى ماذكرنا من دراويش وأهل طرق ، يمثلون الغرباء والمجاورين والعاطلين ، وحتى القتلة واللصوص والمتشردين [١] الذين تحفل بأمثالهم مدن القرون الوسطى عادة .

وبدا دور نقيب الاشراف ببغداد واضحا كلما شبت ثورة ضد الولاة ، وكان يترأسه حي " باب الشيخ " الكبير ، يمثل عليها اكبر تجمع شعبي في المدينة . ففي أثناء فتنة سنة ١١٩٢/١٧٧٨ هـ ونشوب الثورة في بغداد ضد القيادة العثمانية العاجزة عن حماية البلاد [٢] ، ترأس النقيب ثوار الجانب الشرقي من بغداد برمته وكان دراويشه يؤدون دورهم في تعضيد جانب الثورة الناشبة بحماس بالغ [٣] .

وفي الأيام الاخيرة لحكم داود باشا في بغداد (سنة ١٨٣١) ، انضم نقيب الأشراف بجماهيره الى جانب الوالي المملوك ، وترأس بشخصه بضعة مئات من الرجال المدججين بالسلاح ، فحال بذلك دون تسليم داود باشا الى القوات القادمة لاعتقاله [٤] . وكان نزول النقيب الى الشارع يمثل أولى خطوات مقاومة الجماهير لمحاولات

- زار بغداد سنة ١٨٧٥ يمثل هذه الاعتقادات ، وتصديق الناس المطلق بأصحابها انظر : عربستان أو بلاد الف ليلة وليلة ، ص ١٣٠ (غير مطبوع) .

(١) Fraser, Op. Cit., PP.310-311

(٢) وكانت هذه الثورة قد نشبت نتيجة للفراغ السياسي الذي نجم ببغداد بعد وفاة واليها عبد الله باشا سنة ١٧٧٨ وعجز القادة العثمانيين الذين ولتهم الدولة شؤون العراق ، متجنبة تعيين وال من المماليك ، وكان من نتيجة ذلك العجز أن احتلت جيوش كريم خان الزندي البصرة .

(٣) عبد الرحمن السويدي : السنين الشداد من تاريخ بغداد ، الورقة ٣٠-٣٢ (مخطوط)

(٤) سليمان فائق : مرآة الزوراء ص ٨٥ - ٨٦ .

العثمانيون الرامية نحو انهاء سيادة داود باشا ، وأكثرها أهمية ، اذ سرعان ما أنضم الى قوات النقيب عدة آلاف من الأهالي ، ثم لحق بهم المماليك أنفسهم " وصاروا جهة واحدة وعلى رأى واحد "(١) ، وبانضمام قوات عشيرة العقيل ، فى الجانب الغربى ، الى الثوار ، شملت الثورة بغداد برمتها ، مما عرقل مساعى القيادة العثمانية خارج المدينة فى السيطرة على الأوضاع السياسية برهة من الزمن .

وبلغ من خطورة دور النقيب أن لم تجد سلطات الحكومة فى سبيل تنفيذ خططها سوى التخلص منه شخصيا . ففى سنة ١٨١٠م/١٢٢٥ هـ اغتال والى بغداد سليمان باشا نقيب الأشراف السيد رضان باسقائه السم ، وكان ذلك بعد اجتماع عقد بين النقيب ومندوب الدولة العثمانية حالت افندى دام ساعة واحدة . وسبب هذا الاغتيال فيما يبدو ــ شك الوالى فى تعاون النقيب فى الجهود العثمانية الراسية لعزله(٢) .

وفى عام ١٨٣١ لم يتمكن على رضا باشا ، الوالى العثمانى المكلف باقصاء داود باشا من القضاء على ثورة البغداديين عليه ، الا بعد ان دبر احمد افندى خطيب الامام ابى حنيفة (وكان قد انضم الى جانب على رضا) مؤامرة نجحت فى خطف السيد محمود افندى النقيب ، ونقله الى معسكر الجيش العثمانى خارج أسوار المدينة ، وبذلك تم عزله عن قيادة جماهير العامة الثائرة(٣) .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ياسين العمرى : غرائب الأثر ص ١٠٦ وعماد عبد السلام الموصل فى العهد العثمانى ص ١٤٥ .
(٣) سليمان فائق : مرآة الزوراء فى سيرة الوزراء ص ١٠٤ ــ ١٠٧ وهو المؤرخ الوحيد الذى أشار الى حادثة الخطف هذه . انظر كتابه : تاريخ المماليك الكوله مند فى بغداد ص ٧٧ والعزاوى : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣١٤ .

ونتيجة للاستقلال الاداري التي كانت تتمتع به مدن المراقد المقدسة في ذلك العهد عن السلطة المركزية ببغداد ، فقد انفسح المجال امام نقابات الأشراف هناك لأن تلعب ادوارا سياسية قوية في توحيد قوى السكان وتنظيمهم للدفاع عن مدنهم ازاء الأخطار الخارجية .

ولقد حاول داود باشا غير مرة ، أن يحد من سلطة نقيب الأشراف في كربلاء بتوجيه النقابة الى بعض الأسر المنافسة ، مستغلا النزاعات القبلية الكامنة بين آل فائز وآل زحيك (١) . كما عمد الى تحديد نفوذه بتوسيع سلطات كل من سادن الحضرة الحسينية (٢) ، ومتولي القصبة (٣) . غير أن احداث سنة ١٨٣٠-١٨٣١ أظهرت قوة النقيب الفعلية في المدينة ، حين أعلن الثورة على أمر عزله ، وتولى هو قيادة البلد ووزع المناصب الحساسة على المقربين من أسرته ، وعين اتباعه محافظين لأحياء المدينة وسائر أطرافها (٤) .

---

(١) مدينة الحسين ص ٢١٠ .
(٢) وهو صاحب المركز الثاني بعد النقيب في المدينة .
(٣) يظهر أن منصب (المتولي) كان ذا طابع اداري رسمي ، الى جانب المنصبين المحليين الفعليين : النقيب ، والسادن . ويبدو وأنه كان يليهما - من حيث الاهمية فقد بقيت المكاتبات الرسمية توجه باسم النقيب فقط طيلة عهد المماليك ، وحتى في عهد داود نفسه (من سليمان اغا كتخداي بو ابى داود باشا الى نقيب كربلاء بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٢٣٩ هـ . مجموعة الأدهمي . مخطوط) .
(٤) مدينة الحسين ص ٢٢٠ .

وعندما حاصر جيش داود باشا مدينة كربلاء سنة ١٨٣٠ طالبا فتحها " تكفل النقيب بمكاتبة الحكام وما يحتاجون اليه وارسال الرسل "(١) ، كما تكفل ، وهو بعض أفراد أسرته ، بأعمال عسكرية هامة ، مثل الدفاع عن " باب النجف " ، وهو أكبر أبواب المدينة المحاصرة ، فبذلوا ، على حد تعبير مؤرخ معاصر : " الهمة فيها والزاد ونشر اللواء الخارج من (ناحية موقد) المباس ليلا ونهارا من غير براح منه ، وبذل السيد النقيب .. الدراهم السنية بغير حد ، وخلع الحلل النقية بغير عد من البداية والنهاية (٢) " . ولم تنته الثورة الا بعد دخول قوات داود باشا واعتقال النقيب وارساله الى بغداد أسيرا (٣) .

وبلغ من نفوذ نقيب الأشراف في النجف أن تولى حكومة البلدة نفسها أمدا من الزمن (٤)، الا أن ظهور أسرة الملالي النجفية (وقد عاصرت عهد المماليك تقريبا) حد من نفوذ النقباء تدريجيا ، وان يكن لم يلغ أهمية النقابة كمنظمة اجتماعية . وسقوط

---

(١) مجهول : نزهة الأخوان في بلد المقتول العطشان . الورقة ٧ (مخطوط) .
(٢) نزهة الأخوان . الورقة ٨ وانظر محمد حسن الكليدار : مدينة الحسين ص ١١٩ - ١٢١ ، وعبد الحسين الكليدار : بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ص ٤١ ، والعراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٨٨ .
(٣) مدينة الحسين ص ٢٢٠ نقلا عن مجموعة الشيخ حمود الساعدي (مخطوط) ومجهول نزهة الأخوان . الورقة ١٠ فما بعدها (مخطوط) .
(٤) وقد نوه الرحالة المغربي ابن بطوطه بسلطات النقيب المطلقة في حكم النجف ، فقال " وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال ، وانما يحكم عليهم نقيب الأشراف ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة ، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره ، وله الأعلام والأطبال . وتضرب الطبلخانة عند بابه مساءا وصباحا ، واليه حكم هذه المدينه ولا والي بها سواه ، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره " ابن بطوطة : تحفه النظار ج ١ ص ١١٠ .

أسرة الملالي في منتصف القرن التاسع عشر عادت النقابة لتتولى السلطة من جديد وكان منصب " نقيب الاشراف " قد أصبح متوارثا في احدى أقوى اسر المدينة وأشهرها وهي " آل الوضيحي " ، تلك الأسرة التي جمعت في يدها ، فضلا عن النقابة ، سدانة مرقد الامام علي ، ذي الأوقاف الكثيرة (١) .

وفي الواقع ، فان قوة النقابات كانت تستند - في أحد جوانبها - على ماكان لها من ثروات موقوفة غنية ، وهي موارد عرف النقباء استغلالها في سبيل بسط سيادتهم على العامة من جهة ، وتثبيت مركزهم الاجتماعي ازاء السلطة الحاكمة من جهة أخرى . وأغلب تلك الاوقاف مما وقفه السلاطين ، او النقباء السابقون ، على المراقد الدينية التي يتولى النقباء حمايتها ورعايتها . وبما أن نقيب أشراف بغداد كان في الوقت نفسه متوليا على الأوقاف القادرية العديدة المخصصة لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد وفقرائه وطلابه ومجاوريه ، فيمكننا ان نتصور مقدار الثروة الهائلة التي كان يتمتع بها أولئك النقباء ، خاصة وأن جميع تلك الأوقاف كان مصانا معفيا من الضرائب والرسوم (٢) . وتكشف لنا السجلات العثمانية (٣) ووقفيات النقباء (٤) عن ضخامة أوقاف الشيخ عبد القادر ، وعظم ما تدره على النقباء من مال .

---

(١) تقدم الكلام على هذه الأسرة في الفصل الثاني (طبقات المجتمع في المدن) .
(٢) فرمان باعفاء الرسوم ، مؤرخ في ٦ جمادى الاولى سنة ١١٧٤ (مخطوط) .
(٣) سجلات ولاية بغداد . دفتر ١٠٢٨ لوحة ٣ و ٣٩٥ و ٤٠٢ .
(٤) انظر مثلا ، وقفية الشيخ شمس الدين الكيلاني (١٠ محرم ٩٥٥ هـ) ووقفية الشيخ زين الدين الكيلاني (١٥ رجب ٩٧٨هـ) وعريضة أولاد الشيخ عبد القادر الى السلطان (١٩ صفر ١١٦٧هـ) وبيورلدي هور الفرق وهور برج المجم (سنة ١٢٥٠هـ) ، وفرمان قرية برقنية الصادر الى السيد عبد العزيز الكيلاني (١٦ ربيع الاول ١٢٤٤) ووقفية عبد القادر الهندي القادري على =

ولقد مكنت تلك الثروة للنقباء أن يقوموا بأعمال اجتماعية وعمرانية عديدة ، فكانوا يوزعون الطعام يوميا على الفقراء والمجاورين في جامع الكيلاني ، ويملون بعض أسر الحي بالهبات والعطايا ، ويخصون رجال الطريقة القادرية من الدراويش وأهل التصوف بأنواع الصلات [1] .

هذا فضلا عن اضطلاعهم بالتعمير المستمر لمباني الجامع وتكيته ومدرسته وسائر مرافقه [2] ، وتشييدهم لبعض المدارس والمساجد [3] .

ومثل ذلك كان نقباء الأشراف في البصرة يفعلون ، فاشتهر بيت الرفاعي ، وفيهم انحصرت النقابة ، باطعام الطعام للفقراء وقرى الضيف [4] ، وشيد أحدهم زاوية ببغداد خاصة بالطريقة الرفاعية [5] ، وعرف آخرون بالافتاء والتدريس [6] ، فكانت هذه الأعمال الاجتماعية والثقافية تمثل في جوهرها الوجه الآخر لنقابات الاشراف في العهد المذكور .

= الفقراء والمساكين في الحضرة القادرية (٢٢ ربيع الأول ١٢٣٥هـ) سجل الحجج الشرعية والوقفيات ص١٧و٢٣ و٤١و٤٣و٦٣و٦٦ (مخطوط) .

(١) يذكر نيبور الذي زار بغداد سنة ١٧٦٦ ان لتكية الشيخ عبد القادر الكيلاني واردات من اوقافه تعول اكثر من ثلاثمائة شخص، ولاغلبهم حجر وغرف يقيمون فيها في التكية المذكورة .
Niebuhr, C.: Voyage en Arabie, p. 243.

(٢) محمود شكري الالوسي : مساجد دار السلام ببغداد ص٦٣ (مخطوط) وانستاس الكرملي : مزارات بغداد ص ٢٠ وعماد عبد السلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج ١ ص ١٩ ــ ٢١ وص ٢٤ .

(٣) مساجد دار السلام ببغداد ص ٨٠ و ٩٢ (مخطوط) والسهروردي : لب الالباب ج ٢ ص ٥ .

(٤) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١٦٤ .

(٥) احمد نور الانصاري : النصرة في أخبار البصرة ص ٥٥ ــ ٥٦ .

(٦) علي الالوسي : الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر ص١٠٨ .

الطرق الصوفيـــة :

لقد لعب التصوف دورا هاما فى تأليف و تقوية الترابط الاجتماعى بين مجموعـــات السكان المختلفة فى المدينة العراقية ابان العصر العثمانى،وهى سمة عامة شملت أيضـا مدنا أخرى عديدة فى أنحاء الدولة العثمانية ، ذلك أن التصوف تحول فى القــــرون الوسطى الى أن يكون مبررا للأمر الواقع فى المجتمع ، بعد أن خفتت دعوات الصوفيــة الأوائل فى الدعوة الى نبذ هذا الواقع ، فأصبح الصوفيون ، فى حقيقة أمرهم ، دعـاة الى التسليم بما هو قائم فعلا بغض النظر عما فيه من مساوئ وعيوب ، وهذا التصوف هـو ماكان سائدا فى المشرق الاسلامى عند دخول العثمانيين اليه فى القرن السادس عشر(١)

على أن التصوف ، باعتباره نوعا من القيم الروحية التى تحمل معتنقها على الرضـا التام بواقعه على أساس أنه جزء من ارادة الله ، قد تحول بفعل مرارة الواقع بجوانبـه الاقتصادية والسياسية ، الى عقيدة الطبقات العامة من المجتمع العراقى المدنى ، وفكر الفئات التى كان عليها ان ترزح تحت وطأة البنيان الاجتماعى للمدينة العراقية فى ذلـك العهد .

وقد أشرنا من قبل الى ان عهد المماليك فى العراق ، كان فى أحد جوانبـه عهد نمو للمدينة ، وتطور للحياة الاجتماعية فيها (٢) ، فاذا ما لاحظنا ان جوهر هـذا التطور كان يكمن فى حركة بعض الطبقات الاجتماعية للصعود الى درجات أعلى فى السلـم

---

(١) انظر مادة (التصوف) فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) انظر الفصل الاول : المدينة العراقية .

الاجتماعى ، مثل طبقة التجار ، والعامة بفئاتها المختلفة ، والحرفيين ،وحتى بعض العلماء أيضا [١] ، فان التصوف قد مر بتحولات تلائم هذه التغييرات الجديدة ، وهو مايفسر وجود طرق صوفية متعددة ، تتعايش أو تتصارع ، بحسب تطور المجتمع نفسه .

ان حيوية المجتمعات العراقية فى عهد المماليك قد دفع الطرق الصوفية الى الانتقال من طور القيم والعقائد ، الى تنظيمات اجتماعية لها قادتها وزعماؤها وجماهيرها وتعاليمها الدنيوية المستقلة . ومن الصعب تبين حقيقة الصلة بين هذه التنظيمات من ناحية وبين السلطات الرسمية من ناحية أخرى ، ذلك أن نشأة الدولة العثمانية كان يعبر عن قوة الطرق الصوفية فى مجتمعات آسيا الصغرى [٢] ، وهو أمر ترك آثارا قوية على مؤسسات الدولة وتنظيماتها المختلفة ، فنشطت الطرق فى انتشارها

---

(١) انظر الفصل الثانى : طبقات المجتمع فى المدن العراقية .

(٢) يذكر بارتولد ان الدولة العثمانية لم تكن فى البدء مرتبطة بالدين ارتباطا كبيرا ، وكانت تحت تأثير الدرويشية الحرة . بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية نقله من التركية الى العربية حمزه طاهر ص ١٢١ وانظر : محمد فؤاد كوبرلى قيام الدولة العثمانية ، ترجمة احمد السعيد سليمان ، ص ١١١ ـ ١٢٠ .

(٣) Kasluck, F. W.: Christianity and Islam under the Sultans, Vol. II, Pl. 484 - 493.

ومن الجدير بالذكر ان السلطان وكثيرا من وزرائه وحاشيته وموظفيه كانوا يشجعون طرق الصوفيه ، بل كان السلطان نفسه يلوذ بالمتصوفة أثناء الحروب وكانت والدة السلطان تتردد على مشايخ الصوفيه وتتزود من بركاتهم . وعرف السلطان عبد الحميد الثانى برعايته أصحاب الطرق الصوفية ، وخاصة الرفاعية منها . انظر توفيق الطويل التصوف فى مصر ص ٢٦ وابراهيم الوائلى : الشعر السياسى العراقى فى القرن التاسع عشر ص ٨٤ .

طبقات العامة ، مثلما شملت أيضا الحكام والولاة وكبار الموظفين . وحاولت الطرق استمداد قوتها من قوة أتباعها القابضين فى ظل السلطان ، كما حاولت الفئات الحاكمة من المجتمع ، فى الوقت نفسه ، التأثير على أتباع الطرق باعتناقها أفكارهم ، وانخراطهم فى سلك تنظيماتهم .

ولقد حاول العثمانيون ، منذ دخولهم العراق فى القرن السادس عشر ، نشر طرقهم الصوفية الخاصة بهم ، وترغيب الناس فى الانتظام فيها ، بما كانوا يقدمونه الى شيوخها من التسهيلات الاجتماعية ، ومايضفونه عليهم من مكانة واحترام ، وكانت أهم تلك الطرق ، الطريقة البكتاشية ، التى ينتظم فيها جانب مهم من المجتمع ، وهو قوات المشاة (الانكشارية) المرابطة فى المدن العراقية آنذاك .

وللبكتاشية مكانة معروفة فى البلاد العثمانية ، وانتشرت طريقتهم انتشارا هائلا فى الأناضول وفى بلاد الروم ايلى (تركيا الاوربية) ، وكانوا يلوذون دائما بهذه القوات فتحميهم ويناصرونها بكل حركة عصيان يقومون بها [1] . على أن هذه الحركة لم تلق تأييدا من سكان المدن العراقية . بل عدوها فى كثير من الأحيان تنظيما اجتماعيا خاصا بالجيش الفاتح [2] . حقيقة أن عدة تكايا بكتاشية انتشرت فى مدن عراقية مهمة

---

(١) Hasluck, F.W.:Op.Cit.,Vol.II,PP.485-490.
ودائرة المعارف الاسلامية . مادة (بكتاش) بقلم Tschudi

(٢) عباس العزاوى : التكايا والطرق فى العراق (مخطوط) . وتجدر الاشارة هنا الى ان ميل البكتاشية الى التشيع والغلو فيه ، وآرائهم فى المساواة بين جميع الأديان وعدم فائدة الشعائر . كان له أثر كبير فى وقوف المجتمعات السنية فى المدن العراقية موقف الحذر ، بل الريبة احيانا من الطريقة البكتاشية .

مثل بغداد وكربلاء والنجف(١) ، الا آن الطريقة نفسها بقيت محدودة الاثر الى حد أن تحول أكثر تلك التكايا ، فيما بعد ، الى منازل استراحة ينزل بها الزوار الاتراك عند زيارتهم للمشاهد الدينية هناك .

ومن الطرق الصوفية التي وجدت حظها في الانتشار في بعض مجتمعات المدن العراقية ، الطريقة المولوية ، وهي تنظيم صوفي نشأ في مدينة " قونيه " في آسيا الصغرى ، على يد الشيخ " مولانا جلال الدين الرومي " (المتوفى سنة ١٢٧٣) (٢) ، ومنه انتشر — برعاية السلاطين العثمانيين — في البلاد العثمانية المفتوحه ، وقد اتخذ رجال هذه الطريقة من احدى المباني الملحقة بالمدرسة المستنصرية القديمة ببغداد

---

(١) نوه الرحالة الدمشقي مصطفى بن كمال الدين البكري سنة ١٧٣٧ تبكية البكتاشية في غربي بغداد ، وسماها " التكية البكداشية " ، وذكر انه اجتمع بشيخها آنذاك (كشط الصدا وغسل الران ، الورقة ٣٢ مخطوطة) ، واشار اليها سائحون مختلفون مثل نيبور Mignan, C.R.: Travels, Voyage en Arabie, 11, 242 in Chaldea, F. 97.

Budge, W.: By Nile and Tigris, F. 195. ويبدو ان تكية كربلاء كانت تتمتع بشيء أكثر من الأهمية بسبب مجاورتها لمرقد الحسين بن علي — رضا — وكانت ثمة أسرة تتولى ادارة التكية تعرف بآل الدده ، وعندما أعلن السلطان محمود الثاني سياسة اضطهاد البكتاشية ، باعتبارها التنظيم الديني للانكشارية قامت هذه الأسرة بتغيير اسم التكية الى التكية النقشبندية ، والظاهر ان التغيير كان شكليا وحسب . (محمد حسن الكليدار : مدينة الحسين ، السلسلة الاولى ص ٧٢) .

(٢) من لقبه " مولانا " اشتقت طريقته (المولوية) اسمها . أنظر عنه : محمد خلف الله : دراسات في الأدب الاسلامي ص ١٢٨ — ١٣٥ ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة جلال الدين الرومي بقلم : Ritter and Carra de Vous

تكية لهم ، عرفت بـ " المولى خانة " (١) ، وشهدت هذه التكية ، في مناسبات عديدة من كل عام ، احتفالات دينية شائقة ، تقوم على الرقص الصوفي الذي يؤدى وفق ايقاع تركي تؤديه فرقة موسيقية خاصة (٢) .

ومن تلك الطرق أيضا الطريقة " القلندرية " ، وأتباعها يشبهون في أحوالهم الاجتماعية أصحاب الطريقة المولوية المذكورة (٣) ، وان كانوا يزيدون عليهم بصفة التحلل من أكثر الفرائض الدينية الاسلامية ، وسمات فوضوية أخرى (٤) . وقد ظهرت القلندرية في العراق في القرن الثالث عشر (السابع الهجري) واختصت بتكية كبيرة على شاطئ دجلة عرفت بـ " القلندرخانه " (٥) ، الا أن أهميتهم ضعفت - فيما يبدو - في الفترة السابقة على الفتح العثماني للعراق ، وصاروا يتكسبون معاشهم بممارسة أعمال غريبة

(١) تشتهر هذه التكية بوجود قبر منسوب الى الولي الحارث المحاسبي ، وقد اتخذه المولويون مزارا لهم . انظر عيسى البندنيجي : جامع الأنوار في تراجم أولياء بغداد ص ٣١٤ (مخطوط) ، ومحمود شكري الآلوسي : مساجد بغداد وآثارها ص ٢٨-٢١ وقد زار الرحالة الدمشقي مصطفى بن كمال الدين الصديقي (في رحلته الى بغداد سنة ١٧٢٦م/١١٣٩هـ) هذه التكية ، وأشار الى ذلك المزار (كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وماوالاه من البلدان . الورقه ٧١ مخطوط) .

(٢) تامارا رايس : السلاجقة ص ١٥٠ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية . مادة " جلال الدين الرومي " بقلم ريتر .

(٤) مثل حلقهم رؤوسهم ولحاهم . انظر مصطفى جواد واحمد سوسة : دليل خارطة بغداد المفصل ص ٢٢٣ .

(٥) وردت أخبار في حوادث القرن ١٤م ، ويبدو ان أتباعها كانوا لا يتورعون عن شرب الخمر فيها ، والرقص ، والتحلل من الفروض الاسلامية . انظر عبد الله الغياث البغدادي : التاريخ الغياثي . الورقة ١٦٣ و ٢٣٢ و ٢٣٥ و ٢٤٤ (مخطوط) .

اختصوا بها ، مثل الاشتغال بالكيمياء القديمة ، والتنجيم ، والعرافة ، والسحر وصناعة معاجين المشق وأشربة المحبة والرقى والتعاويذ وما الى ذلك من أمور[1] .

وبدو أن أخذ أتباع هذه الطرق بأعمال طفيلية كهذه ، كان اشعارا حقيقيا بمدى الأزمة الروحية التي تعيشها ، وخاصة في عهد تميز بحيوية التسنية ونشاطه الاجتماعي والاقتصادي المتزايد ، فقد زالت التكية القلندرية في فترة متقدمة نسبيا ، لتشغل أرضها خانات للتجار[2] ، ثم لحقتها التكية المولوية ، حين أمر والي بغداد داود باشا بنقضها سنة ١٨٢٠م/١٢٤٢هـ ، وتحويلها الى مسجد كبير ، والحق به مدرسة فقهية عرفت بالمدرسة الآصفية ، نسبة الى احد ألقابه[3] .

وفي الواقع ، فان هذه الطرق ، بفقدانها جاذبيتها القديمة ، واقتصارها على فئات محدودة — نوعا — من المجتمع لم تكن لتتمكن من منافسة الطريقتين العراقيتين المنتشرتين في المدن العراقية وفي الريف أيضا ، والآخذتين بالتوسع واحكام التنظيم منذ القرن القرن الثالث عشر ، وهما الطريقتان القادرية والرفاعية ، أشهر تنظيمين صوفيين في العراق ابان عهد المماليك .

---

(1) Fraser, J. B.: Travels.., I. P. 303.

(2) دليل خارطة بغداد المفصل ص ٢٢٣ ، ولقد وصف الوكالة الانكليزي ولستيد سنة ١٨٣٠ بقايا هذه الطريقة ، ولكنه لم يميز بينها وبين الهكتاشية ، ويظهر انه لم تبق ثمة فروق ظاهرة بين الطرق المذكورة ابان هذا العهد المتأخر . انظر:
Wellsted: Travels in the City of Caliphs, Vol.I, P.261

(3) الهندنيهجي : جامع الانوار ص ٣١٤ (مخطوط) الآلوسي : مساجد بغداد وآثارها ص ٢٨ — ٣١ .

وتنتسب الطريقة القادرية الى الشيخ عبد القادر محيي الدين بن ابي صالح موسى الجيلاني (أو الكيلاني) ثم البغدادي، الزاهد، الحنبلي، الحسني النسب[1] (توفي سنة ٥٦١هـ)، واتخذت من شخصية مؤسسها المتزهدة المستقلة، سماتها العامة التي حافظت عليها ردحا من الزمان. وكان لوجود قبر الشيخ ومدرسته وتكيته وأسرته في بغداد[2]، أثر في أن تتغلب هذه الطريقة على سواها في وسط العراق وشماله الى حد كبير، وأن تنتشر بين فئات العامة والعلماء على حد سواء.

وكان طبيعيا أن تتولى سلالة الشيخ الكيلاني قيادة الطريقة القادرية[3] فان لهم جاه وحرمة عند الخاص والعام، ولهم رزق ومرتبات برسم الفقراء والمترددين على

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٢١٩ وابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٩٩. وقد أفردت في الشيخ الكيلاني كتب ورسائل عديدة، استفاض بعضها في ذكر ما نسب اليه من كرامات. أنظر الشطنوفي المصري: بهجة الأسرار ومعدن الانوار (تونس ١٣٠٨هـ) ورياض البساتين في مناقب الشيخ عبد القادر محيي الدين. تأليف محمد الأمين الكيلاني، بهامش الكتاب المتقدم. وابن محمد التادفي: قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، وغير ذلك. وتحفل المكتبة القادرية ببغداد بجملة وافرة من الكتب المخطوطة الباحثة في تاريخ الطريقة القادرية ومؤسسها ومظاهرها الثقافية والاجتماعية.

(2) اشتهرت مدرسة الشيخ الكيلاني ببغداد بأنها أقدم مدارس الحنابلة فيها وأعظمها شأنا، وأكثرها أوقافا، وأطولها عمرا، بناها القاضي أبو سعد المبارك المخرمي في أوائل القرن السادس الهجري (١٢م)، لكنها نسبت الى الشيخ عبد القادر بعد أن أقام فيها ودرس ووعظ، وقد توسعت المدرسة بعد وفاته وصارت تشتمل على ضريح مؤسسها الكيلاني، ومسجد كبير ملحق به، وتكية كبيرة أيضا. انظر: عماد عبد السلام رؤوف: مدارس بغداد في العصر العباسي ص ١٤٠ ـ ١٥١.

(3) يظهر من تتبع تراجم رجال السلالة الاوائل، ان معظمهم كان ممن يدخل في عداد العلماء والمشايخ الصوفية.

الزاوية (١) ، وما أن حل القرن السادس عشر حتى أصبحت هذه الطريقة ، بأتباعهـا المنتظمين في سلكها ، قوة حقيقية في بغداد ، تتخذ من قبر الشيخ الكيلاني رمزا لها ومن ذريته قيادة تنضوي تحت لوائها . وأدى امتداد نفوذ القادريين الى خـارج بغداد ، الى انشاء اتباعهم سلسلة من التكايا في أنحاء مختلفة من العراق ، وخاصة في المناطق الجبلية الشمالية منه ، فكانت تكية العقر (أوائل القرن الرابع عشـر)(٢) وتكية زيوكان (نهاية القرن السادس عشر) (٣) .وتكية بريفكان (القرن السابع عشـر) (٤) وتكية كلي رمان (القرن السابع عشر) (٥) ، وتكايا أخرى عديدة مثل تكية الشيخ بقـاء ابن بطو (٦) ، والشيخ علي الهيتي (٧) ، وتكية الشيخ حسن الجوسقي (٨) وغير ذلك .

---

(١) التادفي : قلائد الجواهر ص ٥٥ .

(٢) وتنسب الى الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد القادر الكيلاني ، والعقر (عقرة اليوم) كانت تعد من أعمال العمادية ، قاعدة امارة بهدينان .

(٣) محفوظ العباسي : امارة بهدينان العباسية ص ١٤٢ .

(٤) بريفكان : قرية في شمالي العراق من أعمال العمادية . ومؤسس التكية الشيـخ شمس الدين قطب بن السيد عبد الكريم (١٥٨٨-١٦٧٤م/٩٩٧-١٠٨٥هـ) وكانت في أول الأمر للطريقة الخلوتية - السهروردية ، الا انها تحولت في أوائل القـرن التاسع عشر لتكون خاصة بالقادرية . انظر : امارة بهدينان العباسية ص ١٤٢ .

(٥) مؤسسها الشيخ احمد الكلي رماني ، وهو حفيد شمس الدين قطب . توفي سنـة ١٧٣٧م/١١٥٠هـ تقريبا . انظر امارة بهدينان العباسية ص ١٤٣ .

(٦) من تلاميذ الشيخ عبد القادر الكيلاني .

(٧) من رجال القرن السابع عشر ، كان اماما في جامع الحسين بن علي (رضي) في كربلاء (عباس العزاوي : تاريخ الأدب العربي في العراق ج ٢ ص ٢٣) .

(٨) امارة بهدينان العباسية ص ١٤١ .

ولا ريب فى أن لهذه القوة المتزايدة أثر كبير فى دفع السلطان سليمان القانونى الى اختيار عميد الاسرة القادرية فى عهده نقيبا للاشراف ، كما تقدم من قبل ، فوجدت الطريقة القادرية فى شخص النقيب سندا قويا ، وقيادة محكمة ، من شأنها تنظيم علاقتها بالسلطة الرسمية العثمانية .

اما الطريقة الرفاعية ، فتنتسب الى الشيخ احمد الرفاعى الحسينى المغربى الأصل ثم الواسطى العراقى . ويبدو أن انتشارها فى العراق ، وخاصة فى أنحاء البطائح والبصرة ، كان أقوى فى القرون التى سبقت الفتح العثمانى ، ولقد مر باتباعها الرحالة ابن بطوطة بأتباعها فى القرن الرابع عشر ، فوصف حلقات ذكرهم ، وفيها المريدون يضربون الطبول والدفوف ويرقصون ، وقد جلس الشيخ على سجادة جده ، وكان رقصهم وسط النار ، ومنها يتمرغون ومنها يأكلون ، وكان منهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض رأسها بأسنانه حتى يقطع الرأس[1] .

ويظهر أن أولئك الاتباع اتبعوا اسلوبهم هذا نفسه أبان العصر العثمانى أيضا فأشاعوا أن للرفاعى كرامات وخوارق ، كشفاء لدغ الافعى ، واعجاب الجن به ، وقدوم الاسود والافاعى نحوه طائعة ذليلة ، وتقبيله كف الرسول (ص) [2]

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١٤١ .

(٢) وقد حفل الشعر العراقى فى عهد المماليك بقصائد صوفية عديدة ذكر ناظموها فيها أشياء مختلفة من تلك الخوارق . انظر : يوسف عز الدين : الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ١١٣ ــ ١٢٨ .

ومثلما اتخذت الطريقة القادرية من سلالة الشيخ عبد القادر قيادة لها ، فقد اتخذ الرفاعيون من أولاد الرفاعي قيادة مثلها ، الا آن مركز الأخيرة كان في البصرة لا بغداد ، حيث استقرت ذرية الرفاعي ونالت ، مثل نظيرتها ببغداد ، منصب نقابة أشراف البصرة ، فصار للرفاعيين السيادة على الطرق الصوفية في هذه المدينة ، وأسس لتنظيمهم قوة وأهمية ، حتى تمكن الشيخ السيد مهدي الرفاعي ، نقيب البصرة في أواخر القرن الثامن عشر [(١)] ، أن يمد نفوذ أتباعه الى بغداد نفسها فشيد فيها الزاوية الرفاعية الصغرى [(٢)] ، وجدد رفاعيون آخرون مرقد السيد سلطان علي والد الشيخ احمد الرفاعي ببغداد ، وعمروه تكية رفاعية كبرى لهم [(٣)] .

ويبدو أن الأمر لم يخل من منافسة بين أتباع الطريقتين ، كل يحاول رفع مكانة شيخه بنسبة الكرامات اليه ، لتعلو مكانته على شيخ الطريقة الأخرى ، حتى اعترف بعض الرفاعية بأن من قواعد طريقتهم " القول باجلال الامام الرفاعي على اخوانه الأولياء رجال الخرقة [(٤)] كلهم ، مع حفظ حقوقهم ومقاديرهم " [(٥)] ، وذهبوا الى أن لكل طريقة

---

(١) قيل أنه عاش مائة وعشرين سنة ، وتوفي سنة ١٧٨٥م/ ١٢٠٠هـ ، وقد نسبت له كرامات انظر : احمد نور الانصاري : النصرة في أخبار البصرة (شرح المحقق ص ٥٥-٥٦)
(٢) وكانت تعرف بمسجد الرواس ، وقد هدمت .
(٣) ويقع هذا المرقد في الجانب الشرقي من بغداد ، على شاطئ دجلة ، وقد شيد عليه جامع ضخم مازال قائما حتى اليوم (عماد عبد السلام رؤوف : السيد سلطان علي دفين بغداد : جريدة البلد البغدادية ١٤ و١٥/٨/١٩٦٦) .
(٤) الخرقه من شارات الصوفية المتوارثة ، وهي على مايذكرون تستند الى السنه النبوية حيث منح الرسول (ص) الى عمر وعلي (رض) خرقة كان قد تلقاها من الخضر . انظر : ابن عربي : رسالة في الخرقة (ضمن مجموعة في مكتبة الاوقاف ببغداد) ص ٤٨ ٥ - ٥٦٩ .
(٥) محمد ابو الهدى الصيادي : الطريقة الرفاعية ص ١٣٦ .

حقها في تفضيل شيخها على الآخرين ، " وهذه القاعدة المتفق عليها في المذاهب والطرائق " (١). ومما لاشك فيه ، أن اقوالا كهذه ، كانت تعكس روح المنافسة بين التنظيمات الصوفية ذاتها ، باعتبارها تنظيمات اجتماعية ، اكثر من كونها اختلافات على أسسها الروحية المحضة .

وعلى الرغم من أن أهم تعاليم الطريقة الرفاعية هي العمل " واتخاذ حرفة للمعيشة من طريق حل " ، والنهي عن " صاحبة البطالين " (٢) ، الا أن الطريقة اعتمدت ، كغيرها في الفترة التي ندرسها ، على الدراويش المحترفين ، ومدعي الخوارق ، اعتمادا قويا .

ولقد بدأ واضحا ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، بأن ثمة طريقين لتجاوز أزمة التنظيمات الصوفية ، وتناقضها مع الفكر الفقهي ، الأول بالغاء هذه التنظيمات فكرة وسلكا ، والثاني احداث حركة اصلاحية قوية داخل التصوف نفسه يكون من شأنها تخليصه مما علق به من شوائب وطقوس غريبة ، واحياء التربية الخلقية لدى اتباعه (٢) ولقد وجدت الطريقة الاولى ، القائمة على فكرة الالغاء التام ، تطبيقها في ولاية الموصل متمثلة في الحركة السلفية القوية التي شهدتها منذ منتصف القرن الثامن عشر (٣) .

---

(١) المصدر السابق والصفحة .

(٢) دراسات اسلامية لجماعة من المستشرقين المقالة التاسعة ، وهي الفصل الثاني من كتاب Smith, W.C.: Islam in Modern History, PP.342-354.

(٣) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ص٤٠٨ ـ ٤١٥ .

هذا فى حين وجد الحل الثانى ، المستند الى فكرة التوفيق بين المتناقضات ، طريقه من خلال تنظيم صوفى جديد ، هو الطريقة النقشبندية ، التى رفع رايتها فى العراق الشيخ الشهير خالد الشهرزورى النقشبندى (١٧٧٦ـ١٨٢٧م/١١٩٠ـ١٢٤٢)[١]

وتنتسب الطريقة النقشبندية الى الشاه نقشبند محمد بن محمد بهاء الدين الأويسى البخارى (المتوفى سنة ١٣٩١م/٧٩١هـ)[٢] الا أن انبعاثها الحقيقى كان على يد المصلح شاه ولى عبد الله الدهلوى (المتوفى سنة ١٧٨١)[٣] ، من كبار الصوفية فى الهند ، وكانت نظرة هذا الصوفى الدينية تتركز فى اسلام نقى طهور ، فيه مسحة صوفية لكنه انكر انحلال أعمال الصوفية الفاسدة فى زمنه ، وضلال النظريات الصوفية والمتطرفة فحاول أن يغير فى شكل التصوف بدلا من ان يرفضه ، موحدا بين التعليمات الروحية لأهل التصوف وبين السنة النبوية[٤] .

ولتشابه الأوضاع العامة فى الامبراطورية المغولية المتصدعة فى الهند ، التى عاش فى كنفها شاه ولى الدهلوى ، ومثيلتها فى الدولة العثمانية ، فقد تأثر الشيخ خالد

---

(١) وهو من عشيرة ميكائيلى المنسوبة الى الخليفة عثمان بن عفان . انظر ابراهيم فصيح الحيدرى : المجد التالد فى مناقب مولانا خالد (مخطوط) .

(٢) من أهل بخارى ، من بلاد ماوراء النهر ، قدم الى بغداد وكانت له مجالس علم فيها ونسبت اليه كرامات عديدة ، ولقب بـ (الغوث الاعظم) . انظر: عبد المجيد ابن محمد الخانى : الحدائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية ص١٢٥ـ١٤٢ .

(٣) الحدائق الوردية ص ٢٠٩ .

(٤) دراسات اسلامية . مقالة Smith,W.C. ، ص ٣٤٣ .

النقشبندى بآراء النقشبندية هذه ، ورأى فيها حلا لأزمة الطرق الصوفية فى بلاد (١) ومن ثم ، فقد تزعم حركة فكرية قوية سرعان ما تحولت الى حركة اجتماعية منظمة أحدثت أصداء واسعة فى العراق فى السنين الأخيرة من عهد المماليك ، ثم انتشرت منه الى البلدان العربية الأخرى ، كالأحساء ، والشام ، ومصر والأناضول (٢) .

وتظهر رسائل الشيخ خالد الى خلفائه فى التنظيم الذى أسسه نزعة سلفية واضحة وروح متمردة على المجتمع الذى عاش فيه . من ذلك " التأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والاعراض عن الرسوم الجاهلية والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية " (٣) . ويلمح الشيخ الى القيم السائدة التى كانت تعتنقها طبقات المجتمع المختلفة فى عهده ، فينصح خلفاءه بعدم التداخل مع الملوك والأمراء والأغوات وأعوانهم (٤) ويمكن تفسير ذلك برغبته فى مخاطبة الطبقات العامة من المجتمع ، متجنبا الصدام الصريح مع الطبقة الحاكمة فيه . ولذلك فهو يؤكد على عدم انتقادهم وسبهم بأى شكل من الأشكال ، معللا ذلك بعدم استطاعة رجال الطريقة الوقوف فى وجه الحكام لعدم تكافؤ القوى بينهم .

---

(١) التقى الشيخ خالد ببعض خلفاء القطب الدهلوى فى مدينة السليمانية شمال العراق بين عامى ١٨٠٥–١٨٠٩م/١٢٢٠–١٢٢٤هـ ، ثم رحل بنفسه الى الهند عن طريق الرى ، حيث اقام فى مدينة جهان آباد عاصمة الهند ، وأخذ هناك الطريقة النقشبندية . انظر : الحدائق الوردية ص ٢٣٠ .

(٢) التفاصيل فى : عباس العزاوى : خلفاء مولانا خالد : مجلة المجمع العلمى الكردى (مجلد ٢ عدد ٢ (بغداد ١٩٧٤) ص ١٩٨ و ٢١٠ و ٢٢١ و ٢١٣ و ٢١٥ .

(٣) من خالد النقشبندى الى السيد عبد الغفور والملا محمد الجديد وموسى الجبورى (الحدائق الوردية ص ٢٥٣) .

(٤) المصدر السابق والصفحة .

ووجه خالد النقشبندي نقداً لاذعاً الى الطبقات الرئيسية في المجتمع العراقي آنذاك ، مثل " التجار المتكالبين بالدنيا ، المنهمكون بالشهوات " و " العلماء وطلبة العلم الذين جعلوا العلم وسيلة الجاه عند الخلق وجمع الحطام " و " البطاليين الذين يستندون الى الطريق بسبب البطالة " [1] . وهكذا فقد ميز النقشبنديون طريقتهم عن سائر الطرق السائدة في عصرهم ، وبدوا وكأنهم عنوان لأي اصلاح اجتماعي قادم .

وعلى الرغم من اعلان النقشبنديين عن عدم تدخلهم في السياسة ، الا أن رسائل الشيخ خالد الى ولاة العراق المعاصرين تكشف عن آرائه في هذا الأمر ، فعندما أرسل اليه داود باشا يسأله شموله بالدعاء الرسمي في المساجد ، كان جوابه بأنه " على مقدار صدق نيتكم وتعلق همتكم برعاية الأنام وحماية الأرامل والأيتام ، لكم الانتظام في سلك الدعاء العام " [2] . وبهذا فقد جعل من التزام الوالي بتطبيق تلك الأعمال ، شرطاً للدعاء له . وقد روى عنه معاصروه بأنه " كان يحب الفقراء والمساكين ولاسيما المجاذيب ، فانه كان يألفهم جداً ، وهم كانوا يحبونه ايضاً " [3] .

وعلى الرغم من عدم استناد تنظيم النقشبندية هذا الى أسرة قوية ذات شعبية عامة ، كنقباء بغداد والبصرة ، فاننا نلحظ أنه كان تنظيماً أكثر قوة وفاعلية في الحياة

---

(١) الحدائق الوردية ص ٢٥٣ .

(٢) نص الجواب في الحدائق الوردية ص ٣٥٥ .

(٣) عبد المجيد الخاني : الحدائق الوردية ص ٣٧٢ .

الاجتماعية من غيره ، وأنه اتخذ شكل منظمة محكمة ، موصولة العرى ، امتدت فروعهـــا بسرعة فائقة فى مختلف الفئات والطبقات .

ومما لاشك فيه أن لشخصية الشيخ خالد النقشبندى القوية أثرها فى ارساء دعائـــم الطريقة الأولى ، كما أن لتوليه قيادة الطريقة فترة تزيد على عقد من السنين (١) ، تأثيـر مهم ايضا . ولقد تولى هذه القيادة من بعده " خلفاؤه " الذين كان قد اختارهـــم بنفسه ، وكانوا يتولون ، فى اثناء حياته ، مهام نشر أفكار الطريقة وضم الاتباع اليهـــا وتظهر لنا تراجم أولئك الخلفاء عن نشاط واسع غير محدود فى ذلك السبيل شمل مدنـــا واقطارا عديدة (٢) .

ورغم موقف النقشبنديين النظرى من السلطة ، فانهم حاولوا ، على مايبدو الاستفادة من الولاة المحليين فى دعم تنظيمهم وحمايته ، فكان سعيد باشا (١٨١٣ ـ ١٨١٦م / ١٢٢٨ـ١٢٣٢هـ) لايخفى تأييده للشيخ خالد (٣) ، وقدم له ـ كدليل على ثقته فيه ـ مساعدات قيمة ذات شأن . وبلغ الأمر بمحمود باشا البابانى أن استعان به فى توحيـد

---

(١) من سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨٢٣م (١٢٢٨ـ١٢٣٨هـ) سافر بعدها الى دمشـــق حيث أقام فيها الى حين وفاته سنه ١٨٢٧م/١٢٤٢ . ابراهيم فصيح الحيـــدرى المجد التالد فى مناقب مولانا خالد (مخطوطة) وعثمان بن سند : أصفى الموارد فى حياة الشيخ خالد (مخطوط) .

(٢) انظر عباس العزاوى : خلفاء مولانا خالد مجلة المجمع العلمى الكردى (بغداد ٧٤)

(٣) وكان بعض علماء الاكراد قد ألف رسالة هاجم فيها الشيخ خالد وأرسلها الى سعيد باشا " فلما قرأ الوزير الرسالة المذكورة ألقاها من يده .. وأمر بعض العلماء بـــرد ذلك الافتراء ، فانتدب له علماء الحلة الشيخ محمد أمين افندى مفتى الحلة بتأليـف رسالة " يرد بها عليه . انظر : أمين ابن على السويدى : دفع الظلم عن الوقـــوع فى عرض هذا المظلوم . الورقة ٤٠ (مخطوط) .

قوى الأسرة البابانية للقضاء على الحروب الأهلية في بلاده (١) . ودافع داود باشا عنه ازاء اتهامات رسمية وجهت اليه ، وأعانه ماليا بمبالغ طائلة (٢) .

وكان من نتيجة ذلك النشاط ، أن انتشرت تكايا النقشبندية في الأماكن التي وصلتها دعاية تنظيمهم . فكانت أولى تكاياهم ، التكية الخالدية ببغداد ، وهي في الأصل مدرسة دينية قديمة مهجورة ، قدمها والي بغداد سعيد باشا الى الشيخ خالد لتكون مقرا له (٣) . ثم تلتها تكية في كرخ بغداد ، أسسها الشيخ موسى الجبوري خليفة الشيخ خالد (المتوفى سنة ١٨٣١م/١٢٤٦هـ) (٤) ، وتكية في بلدة بامرني " من أعمال العمادية في شمالي العراق ، أسسها الشيخ ظاهر بن الملا صافي (٥) ، من تلاميذ الشيخ خالد ايضا ، وتكية " بارزان " ، التي انشأها الشيخ عبد الله البارزاني خليفة الشيخ طه النهري من خلفاء الشيخ خالد (٦) سنة ١٨٢٥م/١٢٤١هـ .

وتتفق أكثر من رواية على أن عدد مريدي الشيخ خالد النقشبندي وأتباعه بلغ في حياته زهاء مائة وعشرين ألفا في مختلف الأنحاء التركية والعربية (٧) ، حتى عد البعض

---

(١) Rich, C.J.: Narrative of a Residence in Kurdistan, Vol. I, P. 147.

(٢) الحلواني : مختصر مطالع السعود ص ١٥٤ .

(٣) محمود شكري الآلوسي : تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ٢٦ و ٢٧ .

(٤) محمد خلوصي الناصري : تكملة مساجد بغداد ص ١٦٩ والمزاوي : خلفاء مولانا خالد ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٥) محفوظ العباسي : امارة بهدينان العباسية ص ١٥١ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٧) Rich, C. J.; Op. Cit., P. 140

و الخاني : الحدائق الوردية ص ٢٥٨ .

نوى الأسرة البابانية للقضاء على الحروب الأهلية في بلاده (١) . ودافع داود باشا عنه ازاء اتهامات رسمية وجهت اليه ، وأعانه ماليا بمبالغ طائلة (٢) .

وكان من نتيجة ذلك النشاط ، أن انتشرت تكايا النقشبندية في الأماكن التي وصلتها دعاية تنظيمهم . فكانت أولى تكاياهم ، التكية الخالدية ببغداد ، وهي في الأصل مدرسة دينية قديمة مهجورة ، قدمها والي بغداد سعيد باشا الى الشيخ خالد لتكون مقرا له (٣) . ثم تلتها تكية في كرخ بغداد ، أسسها الشيخ موسى الجبوري خليفة الشيخ خالد (المتوفى سنة ١٨٣١م/١٢٤٦هـ) (٤) ، وتكية في بلدة بامرني من أعمال العمادية في شمالي العراق ، أسسها الشيخ طاهر بن الملا صافي (٥) ، من تلاميذ الشيخ خالد ايضا ، وتكية "بارزان" ، التي انشأها الشيخ عبد الله البارزاني خليفة الشيخ طه النهري من خلفاء الشيخ خالد (٦) سنة ١٨٢٥م/١٢٤١هـ .

وتتفق أكثر من رواية على أن عدد مريدي الشيخ خالد النقشبندي وأتباعه بلغ في حياته زهاء مائة وعشرين ألفا في مختلف الأنحاء التركية والعربية (٧) ، حتى عد البعض

---

(١) Rich, C.J.: Narrative of a Residence in Kurdistan, Vol. I, P. 147.

(٢) الحلواني : مختصر مطالع السعود ص ١٥٤ .

(٣) محمود شكري الآلوسي : تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ٢٦ و ٢٧ .

(٤) محمد خلوصي الناصري : تكملة مساجد بغداد ص ١٦٩ والمزاوي : خلفاء مولانا خالد ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٥) محفوظ العباسي : امارة بهدينان العباسية ص ١٥١ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٧) Rich, C. J.; Op. Cit., P. 140

و الخاني : الحدائق الوردية ص ٢٥٨ .

من كراماته " اجتماع السلاطين والامراء على محبته ، واتباع أساطين العلماء لطريقته ، كشيخ الاسلام ومفتي الانام مكي زاده مصطفى عاصم أفندي وغيره من علماء القسطنطينية والوزراء والحكام "(١) . ولا ريب في أن هذا التوسع الهائل ، لم يكن يحدث بوضا من التنظيمات الصوفية القائمة ، وبخاصة القادرية منها (٢) ، التي تحتفظ لها بعدد من التكايا في بلاد الاكراد ، وهي التكايا التي باتت مهددة بالتحول الى الطريقة النقشبندية الجديدة ، خاصة بعد أن تحول جميع زعماء الاكراد تقريبا الى مريديه ، ونال لدى العامة منهم منزلة مكافئة لمنزلة الشيخ عبد القادر الكيلاني نفسه (٣) .

ويبدو أن ضعف موارد الشيخ خالد المالية مقابل ماكان بيد نقباء القادريين من ثروة ، أضعفت من أمره الى حد كبير ، حتى بلغت ديونه ذات مرة " ثلاثين ألف غازي محمودي كبير ذهبا "(٤) . وقيل انه طلب من عبد الرحمن باشا البابانى أن يقطعه عدد من القرى والمزارع في نواحي كركوك ، ليتكفل - فيما يظهر - بالانفاق على تنظيمه الجديد (٥) .

وقد اعتمدت الطريقة النقشبندية في احكام تنظيمها ، على ثلاثة أسس رئيسية ، لخصها أتباعها فيما يلي :

---

(١) الحدائق الوردية ص ٢٥٧ .
(٢) عبد العزيز سليمان نوار : داود باشا ص ٣٠٧ .
(٣) Rich, C. J.: Op. Cit., P. 141
(٤) أمين الحلواني : مختصر مطالع السعود ص ١٥٤ .
(٥) عثمان الجليلي : دين الله الغالب على المنكر المبتدع الكاذب ص ٥٢ (مخطوط) .

١ ـ الذكر الخفي ، وهو ذكر القلب بلا حركة لسان " .

٢ ـ اغلاق الباب وقت الذكر ، وذلك " لحفظ الخاطر من التفرقة وجمع الحواس كلها " .

٣ ـ الرابطة ، وهي " أن يستحضر المريد صورة شيخه " مستمدا من روحانيته وأنواره (١).

ورغم المظهر الروحاني المحض لهذه الأسس ، فانها تمثل في الواقع ، ضوابط تنظيمية للطريقة ، باعتبارها منظمة اجتماعية مؤثرة . ذلك أن النقشبنديين ، خلافا لغيرهم لجأوا الى نوع من السرية في تشكيل تنظيمهم ، تتمثل في تأكيدهم على " اغلاق الباب" والتأني في اختيار الأعضاء ، وتركيز الذهن بصمت في تعليمات الرؤساء ، بل انهم عمدوا في سبيل انجاح دعوتهم ـ الى تحضير أرواح شيوخهم المتوفين ، واستلهام خطواتهم منهم ، وهو ما عرف باسم " الرابطة " .(٢)

ويمكننا تقسيم التنظيمات الصوفية ، من حيث مواردها المالية ، على طريقة فريزر (٣) الى ثلاثة أصناف رئيسية ، هي :

---

(١) الحدائق الوردية ص ٢٩٠ .

(٢) يعرف الشيخ عبد المجيد الخاني الرابطة بأنها " استمداد المريد من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله وكثرة رعاية صورته ليتأدب ويستفيض منه في الغيب كالحضور" وقد لاحظ بعض المعاصرين خطورة هذا المبدأ الجديد ، فنظم الشيخ المؤرخ عثمان ابن سند البصري الوائلي (ت١٨٢٧م/١٢٤٢هـ) قصيدة طويلة في " ابطال الرابطة وعدم شرعيتها " . انظر : عماد عبد السلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج ٢ رقم ٦٣٣ (مخطوط) .

(٣) Fraser, J. B.: Op. Cit., 1, P. 298.

١ ـ الصوفية المتوطنون في التكايا ذوات الأوقاف • وهؤلاء يتقاضون من واردات خاصة يحترمها حتى أمراء الحكام • ولهم اجتماعات كبيرة في مواعيد معينة • يقومون في اثنائها بأداء مراسيم طريقتهم المميزة لهم (١) • وفي حين ينصرف بعضهم الى الدراسة والتأمل • يعمد آخرون الى التحلل التام من الفروض الدينية • فينهمكين في الشهوات ويدمنون المسكرات • ويعلم اجسامهم بعلامات خاصة تدل على طبقة الواحد منهم ومرتبته وتكمن أهمية هؤلاء في تمكنهم من الدخول الى أي ديوان أو بيت دون أية عوائق • واستحصالهم المعلومات التي تبدو من قبيل المعجزة في بعض الأحيان •

٢ ـ الصوفية المنتشرون بين الناس • ويعتمد هذا الصنف بالدرجة الأولى على الصدقة والاحسان • وهم يقيمون عادة في زوايا خاصة في المساجد (٢) •

٣ ـ الصوفية الصعاليك • ومن أبرزهم • في عهد المماليك • أتباع الطريقة القلندرية • وهم يعتمدون في مواردهم على أعمال متفرقة عديدة • مثل ادعاء الاشتغال

---

(١) يشير فريزر الى نماذج من هذه المراسيم • مثل طعن اتباع الطريقة أجسادهم بالزجاج والخناجر والحماة • والدوران السريع (PP.299 - 300) ووصف الأب انستاس ماري الكرملي حلقات الذكر الخاصة بالطريقة الرفاعية التي كانت تقام في جامع السيد سلطان علي ببغداد • في كتابة "مزارات بغداد" ص ٥٩ ـ (مخطوط) • وانظر : حمودي الوردي : عالم التكايا ومحافل الذكر ص ٨ ـ ٣٧ •

(٢) Fraser, J. B.: Op. Cit., 1, P. 301

بالكيمياء ، وتحويل المعادن ، والتنجيم ، والعرافة ، وما الى ذلك من أعمال يدخل معظمها فى اطار الشعوذة وادعاء الخوارق (١) .

الاصنـــاف :

وكنتيجة لتزايد النشاط الحرفى فى المدن العراقية ابان عهد المماليك وتطـــور العلاقات الانتاجية بين الحرفيين من جهة ، وبين كل من الفلاحين والتجار من جهـــة أخرى ، فقد تعاظمت أهمية " الاصناف " (٢) باعتبارها تنظيمات اقتصادية ــ اجتماعيـــة

(١) Ibid, PP.303-305. وينوه الرحالة فوك ، الذى زار بغداد عام ١٨٧٥ بمدى اعتقاد السكان بأولئك المتصوفـه وتأثرهم الشديد بهم ، فيقول :ان المسلمين البسطاء من سكان بغداد متعلقون بالخرافات الى أقصى درجة ، وقد وجد فيهـــا الدراويش والفقراء وأتباع الهيئات الدينيه التى تعيش على التسول خير وسيلة فـــى العيش برفاهية على صدقات المؤمنين .. وهو يلاحظ ان العرب أشد الناس اعتقادا بقدرة التعاويذ وأنواع السحر .ولايوجد اى نوع من الثقافة محترم عندهم أكثر مـــن العلوم السحرية .. وهناك فئة من الدراويش الشحاذين والملالى (جمع ملا) يزاولون الشعوذة ، وهم ماهرون فيها ، بحيث يظهر للمشاهدين المندهشين أنهم يطعنون أجسادهم بالرماح فتنفذ فيها وتخترقها ، وأنهم يدخلون فى أعينهم حرابا مدببـــة أو يقفزون من سطوح المنازل على رماح مدببة ملبسة بالحديد ، مغروسة فى الطريـــق بحيث تنفذ فى أجسامهم ويصبح منظرهم كمنظر المعذبين بالتعليق من أبدانهـــم على الخوازيق . ويذكر هذا الرحالة بأنه سبق أن شاهد الاجتماع الاسبوعى الـــذى يقوم به الدراويش الراقصون فى القاهرة " ولكن اخوانهم الزاعقين فى بغداد يفوقونهم فى وحشيتهم وجنونهم بمراحل " (عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة ص ١٣٠ ــ ١٣١) نسخة معربة غير مطبوعة) .

(٢) الصنف ،لغة : الطائفة من كل شيء ، وكل ضرب من الاشياء صنف على حـــدة وقد أورد المؤرخون القدامى كلمة " صنف " على نحو يدل على انها استخدمت منـذ البداية للتعبير عن الجماعات الحرفية فى المجتمعات الاسلامية . وهى ماكانــت يشار اليها بأصحاب المهن ، وأهل الصنائع ، وأرباب الحرف. انظر عبد العزيــز الدورى : نشأة الاصناف والحرف فى الاسلام . مجلة كلية الاداب بغـــداد =

ذات أسس أخلاقية خاصة ، تحمي أصحاب كل حرفة من التعدى ، وتضمن مستوى مقبولا للمهنة ، وتحدد اسعار منتجاتها ، وتنظم العلاقة بين الدولة وأرباب الحرف •

وكان من الطبيعي أن تضم هذه الأصناف ، اكثر الطبقات في المجتمع العراقي آنذاك نشاطا وانتاجا ، وان تؤدى دورها في تماسك ذلك المجتمع الى حد كبير• ومن المهم أن نذكر أن علاقة هذه التنظيمات ، بالطرق الصوفية ، كانت علاقة وثيقة ومتداخلة تماما • وقد لاحظ بعض الباحثين مدى تأثير الطرق الصوفية في نظام الأصناف(١) ، الا أنه من غير الواضح ، على وجه التحديد ، طبيعة العلاقة بين النظامين ابان العهد الذى ندرسه • فبينما نجد أن الطرق تحث أتباعها على اتقان الحرف واتقان الصنائع ، وتجعل من العمل قيمة أساسية من قيمتها ، وتضفي عليه عمقا روحيا خاصا (٢) ، فاننا نجد أن الأصناف تتجه لان تكون طرقا هي ذاتها مستفيدة من الطرق الصوفية أغلب شعائرها وتقاليدها وأفكارها الروحية ، بل حتى شعائرها وتقاليدها المميزة لها ، مثل المواكب الخاصة بأعضائها ، ومواسمها في زيارة

= (١٩٥٩) ص ١٤١ وصباح ابراهيم الشيخلي : الأصناف الاسلامية في العصر العباسي ، نشأتها وتطورها ص ٦٣-٦٤ (رسالة لم تطبع) •

(١) Lewis , B.:Islamic Guilds,Economic History Review, Vol. VII, PP. 28 - 29.

وعبد العزيز الدورى : مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي ص ١٣٣ •

(٢) لاحظ النظام الخاص للطريقة الرفاعية في : ابو الهدى الصيادى : (الطريقة الرفاعية ص ٨٨ وعبد المجيد الخاني : الحديقة الندية ص ١٣٥ و ١٤٥ • ومحمد الخادمي : شرائط النقشبندية (مخطوط) وابراهيم فصيح الجيدري : عنوان المجد ص ١٣٠ •

نحو موسميها وأوليائها ، وتعاليمها ، وسلاسل مشايخها ، واجازاتها المتوارثة(١)

وبلغ الأمر من التداخل بين النظامين ، أن طريقة صوفية (هي الشاكردية) عرفت ببغداد في القرن الثامن عشر(٢) ، كانت تشتق اسمها من الاسم الخاص بالمبتدئين في الحرف (مفرد : شاكرد)(٣) .

ومن المرجح أن يكون هذا التشابه بين النظامين الاجتماعيين راجع الى تأثرهما كليهما ، بنظام " الفتوة " الذى كان سائدا فى العالم الاسلامى ، ومنه بغداد خاصة فى القرون الوسطى . وكانت الفتوة ، هذه ، تنظيمات اجتماعية شعبية ضمت اليها جمع أهل الصنائع فى المدن الاسلامية ، وتميزت بضوابط اخلاقية رفيعة ، مثل المروءة والكرم ، والايثار(٤) ، وكان منها أيضا ، من عرف بالشطار والعيارين

(١) أوليا جلبى : أوليا جلبى سياحتنامة سى ج ١ ص ٥١٣ و ٤٩٩ ــ ٥٠٠ .
و Leuis , B.: Op. Cit., P. 28.
(٢) Niebuhr,K.:Voyage en Arabie,11,P.242.
(٣) أوليا جلبى سياحتنامه سى ج ١ ص ٦٠٤ .
(٤) يؤكد ابن المعمار البغدادى على أهمية قيم الفتيان وأخلاقهم ، ويجمل من المروءة شرطا أساسيا للفتوة ، ويذكر مائتى خصلة يندب الفتى لفعلها ونقل عن الجنيد البغدادى التعريف الآتى " الفتوة كف الأذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى " (كتاب الفتوة ص ١٥٣ و ١٦٨ و ٢٥٦ــ٢٦١) ، وهذه الأخلاق هى التى دفعت بعض الباحثين ، مثل Hammer الى القول بأن نظام الفروسية الاوربى مقتبس من هذا النظام . انظر Leuis, B.:Op.Cit.,P.30
ويرى تيشنر ان حركة الفتوة بدأت كحركة فروسية ارستقراطية ، ثم تحولت فصارت حركة الطبقة المتوسطة فى القرن ١٣ الميلادى ، واخيرا هبطت فى القرن ١٥ الى ان اصبحت حركة العوام ، وهكذا اندمج الفتيان بنقابات الحرف (عبد العزيز الدورى : الأصناف والحرف الاسلامية . مجلة القضاء ١٠ ــ

وتتسم فتوتهم بسمة عملية عنيفة ، كان لها أثر اجتماعي ثوري ، وسياسي في بعض الأحيان (١) .

ولقد أخذت الطرق الصوفية من الفتوة " معظم تقاليدها ، وأنظمتها الداخلية ومظاهرها الاجتماعية . ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يكون لكل من الصنف والفتوة ، والطريقة ، تأثيرات متبادلة ، فتأخذ الأصناف الضوابط الاخلاقية الرفيعة من أهل الفتوة ، وتأخذ الطرق الصوفية اصطلاحاتها منهم . من ذلك أن شيوع استعمال لفظ الشيخ " لرئيس الصنف قد اخذ عن حركة الفتوة ، وحل محل اسم " رئيس " ظهور طقوس معينة مثل عملية " الشد " ، وهي الاحتفال بشد المئزر على الصانع كدليل على دخوله الصنف ، وشد " الخرقة " للصوفي كاشارة الى دخوله الطريقة ومثل انتساب كل صنف الى أحد الصحابة أو الاولياء (ويعرف باسم البير) باعتباره حامي الصناعة وشيخها الروحي الأول (٢) .

= (بغداد ١٩٥٢) ص ١٢ ، ولا شك في أن مبعث هذا الرأي هو الاخلاق الرفيعة التي كان يتحلى بها اعضاء هذا التنظيم ، وتشابهها مع اخلاق الفروسية ابان العصور الوسطى . ويرى كوبرلي ان الفتوة هي التي قلدت الطرق الصوفية في اركانها ومراسمها ، وذلك قبل ان يغلب عليها طابع الصناعة ، بانضمام " صبيان " أرباب الحرف اليها . انظر : محمد فؤاد كوبرلي : قيام الدولة العثمانية ترجمة احمد السعيد سليمان ص ١١٠ — ١١١ .

(١) ثمة تفصيلات مهمة عن صلة الفتوة بحركة العيارين والشطار التي ظهرت في العراق منذ القرن الثامن (٢هـ) وحتى أواخر العصر العباسي ، في : عبد العزيز الدوري : نشوء الأصناف والحرف في الاسلام . مجلة كلية الاداب (بغداد ١٩٥٩) ص ١٥٧ .

(٢) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢ ص ١٢٣ ، وتعد قائمة الاولياء التي تنتسب اليها الأصناف في العصر العثماني ، أوسع قائمة من هذا النوع انظر : اوليا جلبي سياحتنامه سي ج ١ ص ٥١٣ — ٦٦٩ .

ويتميز " الصنف " عن التنظيمات الاجتماعية الأخرى ، بتكوينه الهرمي المحكم الذي يرأسه غالبا " شيخ " منتخب من الأساتذة البارزين في الصنف ، ويجمع في منصبه اكثر من وظيفة ، كأمين صندوق ، وكاتب [1] . ولعل من أهم مميزات هذا التكوين ابان عهد المماليك في العراق ، تأثره الواضح بالنظام العائلي السائد في تلك الفترة ، فكان أن تحولت مشيخة الصنف الى منصب وراثي محض ، تتولاه في كل حرفة أسرة معينة بارزة في صنفها [2] ، على أن ذلك كان يستلزم موافقة أساتذة الصنف مما يبقي صفة الانتخاب . ويظل الشيخ في منصبه مدى الحياة مالم يصدر منه مايوجب ابداله بسواه [3] . ومن المحتمل أن يعرف هذا الشيخ أيضا باسم كهيه ، أوكتخدا [4] وهو لقب بقي معروفا في المدن العراقية حتى مطلع القرن العشرين .

ويعاون الشيخ عادة مجلس مكون من " الاختيارية " (كبار السن) معظمهم من الأساتذة (أو الاسطوات : جمع أسطه) ، وهم الذين يقومون بانتخاب الكتخدا والاعتراض عليه ، وانتخاب مساعده أيضا [5] .

---

(١) Leuis , B. : Op. Cit., P. 30.

(٢) نيقولا سيوفي : مجموع الكتابات المحررة على أبنية الموصل ص ٥٧ حاشية .

(٣) والدوري : مجلة القضاء المذكورة ، ص ١٩ .

(٤) الكتخدا ، وتخفيفه : كهية ، كهيا ، كاهية ، اصطلاح فارسي مركب بمعنى صاحب الدار ، وهو يطلق على وظائف متعددة متنوعة ، منها مساعد الوالي ومعاونه . ويلاحظ ان محلات المدن العراقية الرئيسية ، مثل بغداد والموصل والبصرة ، كان يرأسها ، في العصر العثماني ، رؤساء يحملون لقب كتخدا هذا . سجلات ولاية بغداد . دفتر ١٠٢٨ ، لوحه ٣٦٢ وولاية الموصل دفتر ١٩٥ و ٦٦٠ ، وولاية البصرة . دفتر ٢٨٢ لوحة ٤٤٢ .

(٥) ويعرف هذا المساعد بـ " يكيت باشي " . وهو يتولى تمثيل الشيخ لدى الصنف احيانا ، ويعرف في بعض الولايات العربية ، كدمشق مثلا باسم (جاووش) أو (شاويش) . انظر : جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢ ص ١٢٥ .

ويتولى الشيخ ، أو الكتخدا ، مسؤوليات عديدة فهو يتصل بأعضاء صنفه ، فهو يشرف على شؤونهم الادارية والمالية ، ويحل المنازعات بينهم ، ويرأس هيئة الادارة ، ويجرى المراسيم والحفلات ويقوم بالنظارة الدائمة على أحوال الصنف ، ويمثل مصالحه لدى السلطات (١) .

ويشكل " الاساتذة " (أو الاسطوات) القسم الرئيسى من الصنف ، وهم أرباب الحرف وأصحاب المشاغل اليدوية ، وأصحاب العمل بالنسبة الى الفئات الأخرى من الصنف مثل الصناع والمبتدئين (٢) .

ويلى الأستاذ - عادة - من يعرف باسم " الخليفه " أو " الخلفة " ، وهو يندب عن أستاذه فى العمل أحيانا ، ويتبعه ، ويتعلم منه ، ثم " الصانع " وأخيرا المبتدئ (الشاكرد) الذى يلتحق بالعمل طلبا لتعلمه ، فهو أشبه بالتلميذ لأستاذه (٣) .

ولقد كفلت قوانين العصر لأعضاء الاصناف ، مكانة خاصة تميزهم عن غيرهم من أهل المهن الأخرى فى المجتمع ، فترى أن فقيها بغداديا من أهل القرن السابع عشر (٤)

(١) جب وبون ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ومحمد فؤاد كوبرلى : قيام الدولة العثمانية ص ١٠٩ و Massignon, L. ، مقالة Sinf فى Encyc. of Islam.

(٢) Leuis, B.: Islamic Guilds, Economic History Review, V. VII PI. 28-29.
والدورى : الأصناف والحرف الاسلامية مجلة القضاء ص ١٥ .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) غانم بن محمد البغدادى الحنفى المدرس فى المدرسة المستنصرية (توفى سنة ١٦٢٠م/١٠٣٠هـ) مجمع الضمانات فى مذهب الامام أبى حنيفة النعمان (مخطوط) .

يميز بين نوعين من الأجراء ، وهما الأجير المشترك" وهو الذي يستحق الأجرة بالعمل لا بتسليم النفس" ، والأجير الخاص " وهو الذي يستحق الأجر بتسليم نفسه في المدة ، (المتعاقد عليها) وان لم يعمل "(١) . ومن الواضح أن معظم حرفيي الأصناف يدخل ضمن تعريف" الأجير المشترك " ، فالحداد والنساج والطبيب كلهم أجراء مشتركون لأنهم يقومون بأعمال خدمة لعدد مختلف من الناس في الوقت الواحد ، وهم لذلك يتمتعون بالحقوق الهامة المكفولة لهذا النوع من الأجراء ، وأهمها توفر استقلال شخصياتهم عن عملائهم ، فهم بحسب هذا المبدأ – أرباب عمل حقيقيون ، وليسوا اجراء عاديين .

ويقدم الفقيه البغدادي المذكور أمثلة متنوعة على ماكان سائدا من حقوق حرفيي الأصناف في عهده . فمثلا لا يسأل الحارس المستأجر لحفظ الخان اذا ما سرق ولا يطالب بتعويض" لأنه يحفظ الأبواب ، أما الأموال فهي بيد أربابها "(٢) . وصاحب الخان المستأجر لحفظ الأمتعة غير مسؤول اذا ما سطا سارق على أمتعته أثناء غيابه وكذلك لا يدفع الحرفي (مثل النساج ، والحداد ، والقصار (المشتغل بقصر الوان الملابس)، والدباغ ، تعويضا عن شيء فقد من محل حرفته أو تلف بغير سبب منه ، حتى لو ترك محله ذاك في وقت كثر فيه اللصوص(٣) . وجعل للحرفيين ، الذين لعملهم أثر كالصباغ " حق في الاحتفاظ بالسلعة عند مماطلته بالسعر ، وهو ليس مسؤولا

---

(١) مجمع الضمانات . الورقة ١٠ (مخطوط) .
(٢) مجمع الضمانات : الورقه ١٥ .
(٣) مجمع الضمانات : الورقة نفسها .

عنها اذا ما تلفت أو فقدت [١] . وأعفى الاطباء والجراحيون عموما من مغبة اعمالهم اذا ما هلك مرضاهم ، دون سبب منهم واضح [٢] . كما أعفى الملاحون من المسؤولية اذا ما غرقت سفنهم المحملة ببضائع غيرهم ، حتى وان كان غرقها بسبب عطب فيها [٣] بل بلغ الامر أن أعفى النحاس من أية مسئوولية اذا ما هلك العبد عنده .

اما الأجير الخاص ، فهو على ماتدل الأحكام الخاصة به ، تابع للحرفي ، وهو في الغالب مستأجر لديه ، ولهذا فليست له شخصية خاصة به عن مخدومه ، وهو يستحق أجرته منه في كل الأحوال ،حتى في حالة تعطله عن العمل [٤] ، لانه محسوب عليه ولا مورد له من سواه . ويبدو ان هذا الأجير لم يكن في معظم الأحيان الا تلميذ الحرفي ، أو صبيه . اذ يؤكد البغدادي على عدم قيام المعلم ، او الاستاذ بضرب صبيه ،أو تلميذه الا بأذن أبيه أو وليه [٥] .

واذا ما أذن للصبي ،بالترقي الى مرتبة " الصانع " أختلف وضعه القانوني ، فيحمل عند ذلك ـ مسؤوليته كاملة تجاه رب عمله (الحرفي) ، فهو يعوض ما يفقد منه أويتلفه من سلع ، على عكس زميله غير المأذون ، الذي يتحمل عنه مخدومه مسؤولية أعمال كافة [٦] .

---

(١) مجمع الضمانات . الورقة ٢٢ فصل " ضمان الصباغ " .
(٢) مجمع الضمانات . الورقة ٢٥ فصل " ضمان الفصاد ومن بمعناه " .
(٣) مجمع الضمانات . الورقة ٢٦ فصل " ضمان الملاح " .
(٤) مجمع الضمانات . الورقة ١٤ فطل " في الأجير " .
(٥) مجمع الضمانات . الورقة ٢٢ فصل " ضمان المعلم ومن بمعناه " .
(٦) المصدر نفسه . الورقة ١٤ .

ويبدو أن الرقابة على الأصناف والحرف ازدادت ابان العصر العثماني ، فخضعت الأصناف الى اشراف موحد ، وذلك بأن جعلت تحت "مشيخة" عامة واحدة ، وفرضت عليها الضرائب بالضمان ، أو الالتزام ، فكان للحرف ضامن ، ملتزم امام حكومة الولاية بتحصيل الضرائب على أهل الأصناف ، وهو أمر أدى الى أن يمسى شيخ الأصناف مسؤولا أمام الضامن مباشرة ، وليس أمام الحكومة [1] . ويفهم مما أورده المؤرخ الموصلي أمين العمري انه كان على هذا الشيخ أن ينظم حساباته في " دفتر " خاص ، يبين فيه ماينفقه وسبب انفاقه ، وانه كان عليه أن يقدم دفتره هذا الى الضامن ليشرف بنفسه على سير الأمور المالية للأصناف بأسرها [2] .

وكان لكل نوع من الأصناف قانون خاص يعرف " الدستور " تتعلق أحكامه بالأمور المالية للصنف وبخاصة ما يتصل بتحديد أجور الصناع ، وتقدير كمية الانتاج ، والضرائب المفروضة على الصنف . وتكشف سجلات ولاية البصرة العثمانية (القرن السادس عشر) عن وجود عدد كبير من " دساتير العمل " هذه ، فكان هناك دستور للقصابين وللدباغين ، وللخصافين [3] وللعطارين ، ولدلالي الاقمشة والعقاقير ، وكان هناك أيضا دستورا لصباغي الغزل وغيره يحدد أسعار الصبغ ، وآخر للملاحين [4] .

---

(١) الموصلي في العهد العثماني ص ٢٩١ .
(٢) منهل الأولياء ج ١ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .
(٣) سجلات ولاية البصرة . دفتر ٢٨٢ لوحة ٤٢٥ ــ ٤٢٧ . القصاف : المشتغل بكبس التمور
(٤) سجلات ولاية البصرة . دفتر ٢٨٢ لوحة ٤٢٩ .

ويقدر اهتمام واضحى " دساتير العمل " بالأمور المالية للأصناف ، فانهم أغفلوا توضيح دورها الاجتماعى فى المدينة ، ووضعها الادارى فيها . ففى الوقت الذى كانت فيه أصناف معظم المدن العثمانية تخضع لاشراف موظف خاص يدعى المحتسب (أو احتساب آغاسى) موكل من قبل قاضى المدينة بتدقيق الموازين ومراقبة السوق[1] فان السجلات العراقية تخلو من الاشارة الى هذا المنصب الهام ، وان تكن تشير الى وجود ضريبة باسم (الاحتساب) تؤخذ على أساس النسبة الشرعية ١ / ٤٠[2] .

وكان على الأصناف أن تؤدى ، متضامنه ، أنواعا من الضرائب الحرفية الى الملتزمين (الضامنين) ، الذين يفوضون حق استيفائها بالمزايدة السنوية[3] ، وتعرف هذه الضرائب بالتمغا ، أو الطمغة ، وقد تدخل فى هذه الطريقة من الالتزام دور الصناعة العامة التى يملكها الصنف برمته ، كأن تكون على المصابغ (بويه خانه) ودور النسيج (ابريسم خانه) ومواقد القار (القيرخانه)[4] والمخابز (يطك كارخانه) والمالح

---

(١) الظاهر أن اولئك المحتسبين كانوا لايعينون فى مناصبهم الا فى المدن التى فيها قاض ، وكان المحتسب يختلف عن القاضى من حيث اختصاصه التام بشؤون الأصناف وتحصيل مختلف الرسوم على السلع والصفقات التجارية . كما كانت له سلطة القضاء فى شؤون الأصناف ، بسرعة وبدون تأخير ، خلافا للقاضى الذى تخضع أحكامه لاجراءات شرعية مثل سماع الشهود وغير ذلك . انظر جب وبوون : المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢ ص ١٣٠ – ١٣١ ، ونقولا زيادة : الحسبة والمحتسب فى الاسلام ص ٣١ – ٤١ . ويلاحظ ان شابرول يشير الى ان بعض الطوائف (الأصناف) بالقاهرة كان يخضع لاشراف آغا المزبان والمحتسب ، وللأخير حق الاشراف على المواد الغذائية . انظر : شابرول : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر (ترجمة زهير الشايب) ص ٢٨٨ .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية ص ٥٠ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية ص ٥٠ – ٥١ .

(٤) سجلات ولاية البصرة ، دفتر ٢٨٢ لوحة ٤٢٣ ودفتر ٢٢

والميناء (أسكلة شط العرب) [(١)] . وفرضت أيضا على الدكاكين والأسواق [(٢)] ، بل شمل ضمان جباية الضرائب دور ضرب العملة الحكومية نفسها [(٣)] .

ومن المحتمل أن يتولى الوالي الى نفسه ادارة الشؤون المالية للأصناف وهو ماكان يحدث في الموصل ابان القرن التاسع عشر ، حيث كانت عملية البيع تجرى بين الأصناف بالدين ، بضمانة الوالي نفسه ، ويحتفظ الأخير بسندات الصفقة في خزينة الولاية [(٤)] .

ويبدو أن للأسباب المالية والادارية دورها في ضم عدد من الأصناف المتشابهه في حرفها ، ضمن صنف واحد . اذ تشير نصوص تاريخيه [(٥)] الى انه كان في الموصل سبعة أصناف ، يرأسها شيخ يعرف باسم " شيخ الأصناف السبعة " . وأغلب الظن أن تحديد عدد الأصناف بسبعة فقط ، لم يكن الا تحديدا رسميا ، هدفه توحيد ادارة كل مجموعة من الأصناف المتقاربة في حرفها ، في صنف واحد رئيسي ، تسهيلا للاشراف على الحرف العديدة التي كانت منتشرة في ولاية الموصل آنذاك ، وضم الجميع تحت " شيخة " عامة واحدة [(٦)] .

---

(١) سجلات ولاية البصرة . دفتر ٢٨٢ لوحة ٤٢٥ .
(٢) الدفتر السابق ، واللوحة . وكانت ضمان سوق الخيل في الموصل سنة ١٧٧٥م / ١١٨٩هـ يعرف بـ (قره داغا) ويضمن سنويا .
(٣) سجلات ولاية البصرة . دفتر ٥٣٤ لوحة ٨١ــ٨٨ ودفتر ٢٨٢ لوحة ٤٢٣ر٤٢٩ .
(٤) مجهول : القوانين السلفية (مخطوط) ص ١٨ .
(٥) أمين العمري : منهل الأولياء ومشرب الأصفياء ج ١ ص ١٤٢ــ ١٤٣ .
(٦) كان عدد الأصناف في حلب المجاورة (٧٢) صنفا ، وعلى كل وحد شيخ (تونسل وثائق تاريخية عن حلب) ، ويذكر الجبرتي نحو ٧٠ أو ٧٢ طائفة (صنف) في القاهرة ، وهو يماثل ماكان موجودا في حلب ، (جب بوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢ ص ١٣٩) ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم عددا تقليديا =

وفي الواقع ، فانه ليست ثمة معلومات دقيقة عن عدد " الأصناف " في المدن العراقيـة ابان العصر العثماني عموما ، ويقدم لنا مؤلف فقهي مبهم ، كتب في بغداد في القـــرن السابع عشر [1] عرضا لأسماء الحرف الرئيسية القائمة في عهده ، والتي تبلغ الأربعيـــن ويمكن القول ، استنادا الى ما يصفه المؤلف من الوضع القانوني الخاص بكل نوع مـــن الحرف ، بأن هذه الحرف كانت تشكل « أصنافا " قانونية قائمة بذاتها ، وأصحاب تلـك الحرف هم :

القصابون ، الطباخون ، الطحانون ، الخبازون ، النساجون ، الحيـــاك ، الخياطون ، القصارون ، الصباغون ، الصياغ ، الصيقليون (صاقلو السيوف) ، الفصـادون والحجامون ، الختانون ، الكحالون (أطباء العيون) ، البياطرة ، الملاحـــون والوراقون والغلافون (صناع الأغلفة) ، الكتاب ، الاسكافيون ، الخفافون ، النجـارون الدلالون ، السماسرة ، البياعون ، النخاسون ، ودلالو الأراضي ، الحراس ، الخانيـون (أصحاب خانات التجار) ، المكاريون والحمالون .

ومن الواضح أن هذه القائمة أغفلت اصنافا أخرى من الحرفيين مثل النحاسين والسقائين ... الخ وانها لم تذكر الا قسما يسيرا منهم فقط [2] . ويعتقد الرحالة التركـــي

= للأصناف في اكثر من مدينة ، منها الموصل ذاتها وذلك على افتراض ان يمثل وجـود سمة أصناف فيها ، اختزالا شكليا للعدد المذكور . اما القسطنطينية ، فقد كـان فيها ١٠٠١ صنفا ، يشكلون ٥٧ شعبة . انظر / اوليا جلبي سياحتنامه ســي ج ١ ص ٦٠٤ الى ٦٦٦ .

(١) غانم البغدادي : مجمع الضمانات ورقة ٧ ــ ٢٥ (مخطوط) .

(٢) ثمة أنواع من الحرفيين ، اشار اليهم المؤلف ، لا يدخلون ــ فيما يبدو ــ ضمن الهيئة الاجتماعية للمدينة ، وانما هم ريفيون ، وان كانوا يؤدون خدمـات =

اوليا جلبي ، في كتاب رحلته الى بغداد في مطلع القرن السابع عشر ، فصلا خاصـــا " الحرف والصناعات " لكنه لا يشير الى أكثر من خمسة أصناف رئيسية ، هم صناع السروج والصاغة ، والخياطين والحدادين ، وصناع السيوف[1] .

وتشير قائمة أحياء بغداد وعقودها التي وضعها جونز في منتصـف القرن التاسع عشر ، الى نحو سبعين صنفا متميزا مستقلا[2] ، تشمل أغلب ملتحتاجـه المدينة ، في ذلك العهد ، من منتوجات وخدمات مختلفة[3] .

وزاد من أثر الأصناف في الادارة وفي توجيه الحكام ، انضمام معظم الحرفيين الى أورطات (فرق) الجيش الانكشاري الرابطـة في المدن العراقية[4] ، وأداوهم ، من

= معينة لأهل المدن ، مثل الرعاة ، ورعاة الابقار . ويشير اوليا جلبي الى اختصـاص الفلاحين باستانبول بصنف مستقل ، ينتسب الى احد الاولياء (ابيار ـ جمع بيـر) وهو منصور القطان المدفون في المدائن جنوب بغداد (اوليا جلبي سياحتنامه سي ج ١ ص ٥٨٩) على ان هذا الصنف ، كان لا يشمل ـ فيما يبدو ـ الا الفلاحيـن القاطنين في المناطق المحلية من العاصمة (جب وبوون ج ٢ ص ١٣٣) .

(١) اوليا جلبي سياحتنامه سي ج ٤ ص ٤٢٢ .

(٢) Jones, F.: Selection from the Record of Bombay Government, PP. 312 - 338.

(٣) ذكر الشيخ جلال الحنفي في كتابه " الصناعات والحرف البغدادية " (بغـــداد ١٩٦٦) جملة كبيرة من تلك المهن والحرف ، تؤلف نحوا من ثلاثين مجموعة حرفية وأغلب هذه الحرف مما كان معروفا في القرن التاسع عشر .

(٤) يذكر روسو Rousseau ان سكان بغداد كادوا يكونون بأسرهم من الانكشاريـة الذين يقومون بممارسة التجارة والصناعة " (جب وبوون ٢ / ١٤٠) ويمكن القول بـان الوضع نفسه كان قائما في كل من الموصل والبصرة ، حيث يذكر في معـرض كلامه على الموصل ، أن " كل الاتراك تقريبا ينتسبون الى احدى الاورطات ليحتمـوا بواسطتها من الغير " (مذكرات لانزا ص ٥٨ حاشية) ، ويلمح من استشراء هـــذه الظاهرة أن تمكن غير المسلمين من الانضمام الى تلك الاورطات .

خلال تلك الفرق ، أدوارا سياسية هامة . ففي عام ١٨١٠م/١٢٢٥هـ لبس أهل الاسواق ببغداد سلاحهم وعزموا على قتل قائمقام المدينة ، ولم يثنهم عن عزمهم سوى استمانة القائمقام المذكور بقوات القبائل المجاورة (١) ، وكان شيوخ الاصناف يلون من حيث الترتيب في المناسبات العامة ، الاعيان والامراء (٢) .

على أنه تجدر الاشارة هنا الى أن الاصناف لم تستطع أن تبلغ في فعاليتها السياسية حدا يمكنها من السيطرة على السلطة السياسية في المدن . حقيقة أنهم كانوا دوما عنصرا له أهميته من الناحية الاقتصادية ، الا انهم لم يتمتعوا بنفوذ سياسي مؤثر على نفس المستوى (٣) . ولقد بقيت طبقة التجار ، بما لها من تحكم في تصدير السلع المنتجة وتوريد مواد التصنيع الخام ، تمارس سيطرتها على السوق المحلية ، ومن ثم على وضع الاصناف الاقتصادية نفسه . وبوصول تلك الطبقة ، في بعض المدن العراقية الى السلطة السياسية (٤) ، وتمكنهم في البعض الاخر من التأثير على تلك السلطة (٥) فان سيطرة التجار على الاصناف اصبحت ذات مدلول سياسي ايضا . ومن ثم يمكن القول

---

(١) ياسين العمري : غرائب الاثر ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) Bonné, Alfred: State and Economics in the Middle East, P. 50

وماسنيون ، لويس ، الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية مجلة المورد ٣ (بغداد ١٩٧٢) ص ١٨ .

(٤) وهو ماحدث في ولاية الموصل ابان عهد آل الجليلي .

(٥) وهذا ماحدث في ولاية بغداد ابان عهد المماليك . انظر الفصل الثاني عند البحث في طبقة التجار . ويشير بنيور الى الحرفيين ، مثل بائعي السلع الصغيرة والصيادين بأنهم كانوا يعيشون — في البصرة ، في أكواخ مبنية مغطاة بالحصير :

بأن طبقة التجار بقيت تشكل حائلا فعالا يقف بين الاصناف ومن السلطة السياسية ويمنعها من نيل امتيازات رئيسية كالتي نالتها مثيلاتها في أوربا ، وهو أمر كان من شأنه أن يجعل نظرة هذه الاصناف الى السلطة البلدية والمركزية مشوبة بكثير من الشك والريبة (١) ، وان تتضافر مع التنظيمات الاجتماعية الأخرى ، كالطرق الصوفية والتجمعات الشعبية التي تقودها نقابات الاشراف ، في الوقوف أمام تلك السلطة . على أن مثل هذا الموقف لم يكن يمنع - أحيانا - من أن تتخذ الاصناف موقفا مؤيدا للسلطة المحلية المتمثلة في نظام المماليك ، وبخاصة عند تعرض هذا النظام لمحاولات السلطة المركزية العثمانية في التدخل في شؤون الولايات العراقية الداخلية . من ذلك ماحدث سنة ١٧٧٨م/١١٩٢هـ ، حينما انضمت أحياء هذه التنظيمات ، وهي باب الشيخ (مركز قيادة الطرق الصوفية ونقابة الاشراف) والشورجة (مركز تجمع التجار والحرفيين) ورأس القرية (٢) ، الى جانب القيادة المملوكية البغدادية ، مناوئين بذلك محاولة الدولة العثمانية في فرض وال دخيل على الولاية (٣) .

---

(١) Bonné, A.: Op. Cit., P. 351
وللمقارنة بين الاصناف في أوربا والشرق الاسلامي انظر : ماسنيون ، لويس : الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية . مجلة المورد ٣ (بغداد ١٩٧٣) . ص ١٨ - ١٩ و
Leuis, B.: Islamic Guilds, E.H.R. VII, P. 31;
Hershlac, Z.Y.: Introduction to the modern economic history of the Middle East, P. 30

(٢) انظر خريطة بغداد الايضاحية في ملاحق هذه الرسالة .

(٣) عبد الرحمن السويدي : السنين الشداد من تاريخ بغداد . ص ٢٤ (مخطوط) ورسول الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ١٦٠ .

وعلى الرغم من الطابع الديني الصوفي الذي كان يسود الاصناف ابان هذا العهد فقد ضمت الاصناف المذكورة مختلف الطوائف الدينية دونما تمييز اداري يذكر ، ذلك أن معظم تلك الاصناف كان منظما بحسب التخصصات المهنية المميزة للطوائف القومية ـ الدينية المختلفة ، فمهنة الصيدلة والصاغة ، الى جانب معظم التجارة في المواد الغذائية ، كانت حكرا للمسلمين ، في حين كانت الصيرفة والتجارة في الذهب والفضة من نصيب اصناف تتكون عموما من النصارى واليهود (١) . وبلغ هذا التخصص في الاصناف حد أن كانت مهن معينة ، مثل صياغة الفضة والتطعيم بالمينا حكرا على طائفة الصابئة ، بينما بقيت صياغة الذهب بيد المسلمين ، وظل نحت الرخام مهنة خاصة بالنصارى في الموصل ، في حين اختص المسلمون بعملية البناء والعمارة .

ويبدو أن للعلاقات القبلية دورها أيضا في تنظيم التخصصات المختلفة للاصناف ، وهو أمر معقد اختصت به مدن العراق ابان العصر العثماني ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، حين اشتدت الهجرة القبلية والريفية الى المدن نسبيا . وفيما يأتي نماذج لهذه الحالة الاجتماعية في مدينة بغداد ذاتها .

الحمالون : عشيرة البو مفرج

العلوجية (وهم أصحاب مناشر المنتوجات الزراعية ، أو اسواق الجملة) : عشيرة الكروية .

---

(١) Hershlac, Z. Y.: Op. Cit., II, P. 35.

الحماميون والحمالون : عشيرة البوعجيل

الطباخون : عشيرة بني عمز

المكامون (وهم خدم القوافل وحراسها) عشيرة البوصقر ، والجنابيون والسواكن

السقائون : عشيرة بيات

صناع الحصر : عشيرة الجميفر

أهل الأطعمة (الاكمكجيون) : جماعة الفلاحات

المكاريون : جماعة الوشاحات

القصابون : عشيرة المهدية

البقالون والمكامون : عشيرة السواكن

الفحامون : عشيرة جميلة

بوابو (حراس) المخافر : عشيرة البوشهل (١)

ولم يقتصر هذا الوضع على بغداد فحسب ، بل تعداها الى مختلف المدن العراقية كالحلة (٢) ، وكركوك (٣) وغيرها .

على أن مثل هذا التخصص لم يكن قائما - فيما يبدو - بين الطائفتين الاسلاميتين الرئيسيتين : أهل السنة والشيعة . فقد كان من الطبيعي أن يضم الصنف الواحد

---

(١) محمد خورشيد : سياحتنامه حدود ص ٢١٣ - ٢١٦ .
(٢) سياحتنامه حدود ص ٣٠٠ .
(٣) سياحتنامه حدود ص ٢٢٨ .

أبناء الطائفتين فى الحرف المختلفة دونما تمييز على أساس الانتماء الطائفى ، فلم تكن ثمة حرفة حكرا لطائفة دون أخرى . وهو أمر أدى بالقيادات الشيخية الى الاستفادة منه فى بسط تأثيرها على الأصناف ، وخاصة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر مستندة فى ذلك الى شعور الشك الذى كانت تتسم به تلك الأصناف ، كما تقدم ، فى موقفها من السلطات العثمانية المركزية (١) .

ولم يقف نمو طبقة التجار ، وسيطرتها على السوق المحلية عند حد ممارسة نفوذها على الحياة السياسية فحسب ، بل تعداه ، فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى النصف الثانى منه ، الى ان يوسع اولئك التجار نشاطهم متعاونين مع الاقليات الأجنبية ، أو من يرتبط بمصالحها كالأرمن واليهود وبعض الأسر النصرانية الحلبية (٢) فيفتحون بذلك السوق المحلية على مصراعيها ، أمام البضائع الصناعية الأوربية الرخيصة (٣) وهكذا فقد احتلت تلك البضائع الأسواق الداخلية ، منافسة بذلك الانتاج المحلى على نحو خطير . وانخفض فى الوقت نفسه ، استيراد الخامات نصف المصنوعة ، التى يحتاجها الحرفيون عادة فى أعمالهم ، وخاصة منها الغزول والأصباغ (النيلة) ، مما

---

(١) تمدنا المصادر الأدبية لهذه الفترة ، بتراجم عدد من أدباء الشيخة وشعرائهم ممن كانوا يمتهنون حرفا مختلفة ، كالكوازة ، والعطارة ، والوراقة ، والفحامة ، والسكافة .. الخ . انظر مثلا : على علاء الدين الآلوسى : الدر المنتثر فى رجال القرن الثانى عشر والثالث عشر ص١٥٨ و ١٦٦ و ١٧١ ، واحمد بن درويش البغدادى الحائرى كنز الأديب من كل فن عجيب . الجزء الاول (مخطوط غير مرقم الصفحات) ومحمد على اليعقوبى :البابليات ج ١ ص ١٧٢-١٨٧ وجعفر محبوبه :ماضى النجف وحاضرها ج ٣ ص ١٠٩ - ١١٤ وغير ذلك .

(٢) انظر الفصل الثانى (طبقات المجتمع) من هذه الرسالة .

(٣) Hershlac, Z. Y.: Op. Cit, I. 28.

أدى الى ركود مضطرد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأصناف عموما . فانخفض مثلا عدد ورشات النسيج في بغداد من ١٢٫٠٠٠ ورشه ، في منتصف القرن التاسع عشر الى بضع مئات في بداية القرن العشرين [1] . ومثل ذلك ما حدث في البصرة ، حيث اختفت تقريبا صناعة أنواع من النسيج المحلي عرفت بها ، وفي الموصل أيضا التي طالما اشتهرت بقماشها (الموصلين) الثمين وبازدياد استيراد الأواني المعدنية المطلوبة من أوربا ، فقد تقلصت صناعة النحاس المحلية الى حد كبير [2] ، بعد أن وصفت في القرن الثامن عشر بأنها تفوق المصنوعات الأوربية اتقانا وجودة [3] .

وللأصناف ، باعتبارها تنظيمات اجتماعية ، احتفالاتها ومواسمها الخاصة بكل منها [4] وتعد هذه الاحتفالات من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية للصنف ، ودليل على وحدة اعضائه . وغالبا ما يكون الاحتفال عند مرقد الولي (الهير) [5] الذي ينسب الصنف اليه تأسيس حرفته ، ويعده حاميا له . من ذلك مثلا ، أن جميع قصابي بغداد كانوا

---

(١) كوتلوف ، ل . ن : ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ص ٨١ .
(٢) كوتلوف : المصدر السابق ص ٨١ .
(٣) جاكسون : مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٦٧ ص ١٠٥ . ويذكر هذا الرحالة انه شاهد في الموصل عددا كبيرا من صانع النحاس والحديد ، وان كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن كان يتم ارسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة ، بالاضافة الى كميات هائلة من النحاس غير المشغول التي ترسل من المناطق الجبلية الى الجنوب .
(٤) ترتبط هذه المظاهر بتقاليد الفتوة القديمة ارتباطا وثيقا ، فهي ترتقي اذن الى اواخر العصر العباسي . انظر عبد العزيز الدوري : نشوء الأصناف والحرف . مجلة كلية الآداب (بغداد ١٩٥٩) ص ١٤٦ ، وصباح الشيخلي : الأصناف الاسلامية ص ١٣٥ .
(٥) الهير : هو الراعي الروحي للصنف ، وهو من الانبياء والصحابة والتابعين عادة .
Leuis, B.: Op. Cit., F. 29.

يحتفلون ، في مواسم معينة ، بزيارة المرقد المنسوب الى " جوموز القصاب" في أحد احياء بغداد الشرقية[1] .

وكان لعدد من أصناف الحرفيين ببغداد يوم زيارة عامة الى ضريح الصحابي سلومان الفارسي في بلدة سلمان بك " (عند المدائن القديمة) في جنوب بغداد وهو احتفال يظهر التضامن العام بين أهل الأصناف على اختلاف حرفهم ، فسلمان هو الحامي الرئيسي لعموم أهل الحرف ، ومنه تسلسلت اجازات الأصناف الى أصحابها[2].

وكان صنف الخياطين ببغداد ، يزور بكامل هيئة ، كل عام ، قبر من يدعى بالسيد ادريس معلى أساس من أنه كان رئيسا للخياطين ، أو حاميا لهم " فكانوا يحجون اليه وهم بكامل ملابسهم الجديدة المزركشة ، بما كانت تجرى عليه سنن الأزياء في ذلك الوقت[3] .

وكنتيجة لتأثر الأصناف بالدعوة الشيعية ، منذ النصف الأخير للقرن التاسع عشر فقد تحول كثير من تلك الاحتفالات ، والمواكب الحرفية البحته الى مواكب منظمة للاحتفال بالمناسبات الشيعية المعروفة ، وهي تحمل في تلك المواكب اسماء الأصناف التي تنتمي

---

(١) مصطفى جواد : مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص ٩١ نقلا عن مخطوط في الفتوة في مكتبته الخاصة • وأوليا جلبي : سياحتنامه س ج ١ ص ٥٥٥ •
(٢) ابن المعمار كتاب الفتوة ص ٩٢ ، وأوليا جلبي : سياحتنامه ص ص ٦٠٤ •
(٣) عزيز جاسم الحجية : بغداديات ص ١٨٦ •

اليها عادة[1] . وصارت مثل هذه الاحتفالات تجرى علنا وفى المدن ذاتها ، بعدمـــا كانت تقام ، ابان القرن الثامن عشر ، خارج المدن[2] .

(١) وقد لبثت هذه المواكب ترى فى الاحتفالات الدينية للشيعة حتى فترة متأخرة . انظر مثلا : عاشوراء فى النجف وكربلاء " (مجلة لغة العرب (بغداد ١٩١٢-١٩١٣) ص ٢٨٧ ــ ٢٩٥ . وانستاس مارى الكرملى : مزارات بغداد ص ٢٦ ــ ٤٠ ــ (مخطوط) .

(٢) Niebuhr, K. : Description de L'Arabie, Faite Sur des observations propres, P. 162.

الفصل الخامس

طوائف السكان وعاداتهم وتقاليدهم

أولا : طوائف السكان

المسلمون :

يؤلف المسلمون فى العراق الغالبية العظمى من سكانه ، وهم يتكونون من عدد من العناصر ، أهمها العرب ، والاكراد ، والتركمان ، وينقسمون الى مذهبين فرعيين السنة والشيعة ، وهو تقسيم يرتقى فى جذوره التاريخية الى القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) ، حيث شهدت أرض العراق معظم الأحداث المهمة التى كان لها دور رئيسى فى تشكيل معالم كل فريق ، وكان لكل من الفريقين تاريخ حافل عبر العصور المتعاقبة .

ولقد تميز عهد المماليك فى العراق ، ــ من هذه الناحية ــ بالحركة الفكرية الدائبة داخل الكيانات الطائفية المستقرة القديمة ، وهو ما ولد عنه كيانات جديدة ظهر بعضها فى عهد المماليك نفسه ، وتبلور بعضها الآخر فى الفترات اللاحقة وخاصة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وترجع أسباب هذه الحركة الى عوامل اجتماعية واقتصادية عديدة ، لعل من أهمها تنامى الدور الفكرى الثقافى للمدن العراقية

كنتيجة لنموها الحضاري ، وظهور طبقات جديدة لم تكن واضحة من قبل ، مثل علماء الدين ، ومن يتبعهم من مفكرين ، ومؤلفين ، ومدرسين ، وغيرهم . وتحول الهيئات الحاكمة الى حكومات مدن محلية تعتمد في وجودها الى حد ما على مشاعر الناس وولائهم ، واتخاذ بعض الفئات الاجتماعية للدعاوى الدينية وسيلة لمكاسب طبقية لم تكن لتنالها دون مبررات فكرية مناسبة . وبناء على ذلك كله ، فقد شكل أتباع كل من المذهبين الرئيسيين المذكورين تيارات فكرية مختلفة ، تكاد تصل - أحيانا - الى حد تكوين مذاهب جديدة لها سمات الاستقلال من غيرها من تيارات المذهب الرئيسي الواحد . وهو أمر ترك آثاره الواضحة على عهد المماليك في العراق ، حتى غدا سمة من أهم سماته الحضارية .

١ - أهل السنة والشيعة :

ان عدم توفر احصاءات تقريبية يمكن الاستناد اليها في تقدير عدد سكان العراق ، ابان العهد الذي ندرسه ، بوجه عام ، جعل من العسير تقدير عدد أتباع كل من الطائفتين الكبيرتين في البلاد ، وان كان واضحا ان عدد أهل السنة قد أخذ بالتناقص المضطرد منذ أوائل القرن التاسع عشر ، نتيجة عوامل متعددة سوف نعرض اليها بعد قليل ، حتى قدرت نسبتهم ، في أواخر القرن ، بنحو نصف السكان عموما (١) وبينما بقي مسلمو ولاية الموصل ، والامارات الكردية ، والاقسام الشمالية من ولاية

(١) شمس الدين سامي : قاموس أعلام ج ٢ ص ١٣٢٤ وج ص ٣١٣٦ .

بغداد ، وثلثا سكان مدينة بغداد نفسها (١) ، من أهل السنة ، فان عهد المماليك شهد تحول معظم القبائل العربية في ولاية البصرة ، وأنحاء من جنوبي ولاية بغداد وريف الفرات ، الى الفريق الآخر ، بحيث تركز وجود أهل السنة منهم في المدن والقصبات الرئيسية دون غيرها تقريبا .

وهكذا ، فقد تبع التوزيع الطائفي للسكان ، التقسيم الجغرافي لأقاليم البلاد وساعدت عوامل أخرى ، مثل وجود مراقد دينية معينة على نسبة ذلك التوزيع ، فبينما كان معظم سكان بلدة الكاظمية ، القريبة من بغداد ، (وهي موضع قبور مقدسة لدى الشيعة) من الشيعة (٢) ، كان معظم سكان بلدة الأعظمية (وفيها قبر الامام أبي حنيفة ومسجده) من أهل السنة ، وذلك رغم تجاور الموضعين ، وقربهما من بعضهما الى حد كبير . وبينما لبثت مدن العراق الشمالية ، مثل الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية وغيرها ، مدنا سنية تماما (٣) ، كانت مدن العراق الجنوبية مثل النجف وكربلاء والبصرة تعد مواطن لأغلبية شيعية متزايدة (٤) في حين بقيت مدن العراق الوسطى ، كبغداد

---

(١) Cuinet,V.:La Turquie d'Asie,Géographie Administrative,Tome III,P.17(Paris 1894)

(٢) Ibid. Tome III, P. 142.

(٣) لم ترد اشارات الى وجود الشيعة في هذه المدن ، ابان العصر العثماني .

(٤) يذكر Cuinet في احصائياته ، التي أعدها في أواخر القرن التاسع عشر ماياتي : كان اعدد السنة في النجف ٧٥٠ ، وعدد الشيعة ٩٢٥٠ ، وفي كربلاء كان عدد السنة ١٠٠٠٠ ، وعدد الشيعة ٥٤٫٠٠٠ ، (وفي القرى التابعة لكربلاء مثل الهندية والدراجي والكفل والوزارة تزداد نسبة الشيعة =

والحلة وقرى حوض نهر ديالى فى شرق بغداد [1] ، تشكل ـ بمجموعها ـ توازنا نسبيا بين الطائفتين .

ومثلما تبع التشيع فى انتشاره التوزيع الجغرافى للسكان ، مبتدءا من مدن العراق المقدسة فى جنوبى العراق ، فان هناك ظاهرة أخرى كانت تسير معها جنبا الى جنب هى أن انحسار السنية عن العراق الجنوبى بدأ فى الريف أولا ، ثم اتجه ـ بعد ذلك ـ

= الى حد كبير) ، اما البصرة ، فكانت الاغلبية فيها سنة ، حيث بلغ عددهم ١٢٫٠٠٠ ، وبلغ الشيعة ٢٫٦٥٠ ، الا آن نسبة الشيعة تزداد فى القرى والارياف مثل ابى الخصيب وشط العرب والفاو والقرنه ، فى حين بقيت بلدة الزبير ، الواقعة على حافة الصحراء ، سنية تماما (٤٠٠٠ نسمة) ، وانظر ايضا
Chiha, H.: Provence de Baghdad, P. 100.

(1) كان عدد السنة فى مدينة الحلة ٢٦٫٠٠٠ مقابل ٢٥٠٠ شيعى ، وفى بلدة السماوة (على شاطىء الفرات ، من أعمال الحلة) كان السنة ١٫٩٠٠ مقابل ٢٫١٠٠ شيعى ، وكان عدد السنه فى سنجق الحلة كله ، مدنا وريفا ، ٣٠٫٠٠٠ فى حين بلغ الشيعة ٢١٩٫٠٠٠ ، وفى بغداد ذاتها كان عدد السنة ٢٦١٫٠٠٠ والشيعة ٧٩٫٠٠٠ ، واما أقضيتها (أعمالها التابعة لها) فكان عدد السنة فى قضاء خريسان ٣٠٫٩٢٠ ، والشيعة ٩٫٠٠٠ ، وفى قضاء بعقوبا السنة ١٫٢٢٠ والشيعة ٧٠٠ ، وفى قضاء العزيزية (على دجلة جنوب بغداد) السنة ١٤٫٠٠٠ والشيعة ٥٫٩٩٠ ، وفى قضاء خانقين السنة ٧٠٩ والشيعة ٨٩٥ وفى قضاء مندلى السنة ١٣٫٠٠٠ والشيعة ٢٫٠٠٠ ، وفى قضاء سامراء السنة ١٢٫٩٦٠ والشيعة ٢٫٠١٠ ، وفى قضاء الجزيرة السنة ١٢٫٠٠٠ والشيعة ٢٫٩٨٥ ، وفى قضاء الدليم (على الفرات ، شمال بغداد) السنه ٤١٫٩٦٠ ـ والشيعة ٨٫٠٠٠ ، وفى قضاء الكوت (على دجلة جنوب بغداد) السنة ٢٤٫٨٨٥ ـ والشيعة ٥٫٠١٥ ، وفى قضاء الكاظمية السنة ٥٫٠٠٠ والشيعة ٢٥٫٠٠٠ انظر
Cuinet,V.:Op.Cit.,III,PP.17,118,122,125,132,139,142,146,148,151,166-170,173,176,207
و
Aublé, E.: Baghdad, P. 34

الى المدن ، فبينما " تشيعت " معظم القبائل الريفية (١) ، فقد بقى السنة في المدن يشكلون جانبا مهما من تكوينها الاجتماعي . ولقد استلفتت هذه الظاهرة انتباه بعض المعاصرين ، فأحصى الحيدرى (٢) أسماء القبائل المتشيعة " من قريب " وحدد تاريخ تشيعها بحدة أقصاها ١٥٠ سنة من تاريخ تأليفه الكتاب (سنة ١٨٦٩م/١٢٨٦هـ) ، وهذا يعنى أن ظاهرة التشيع هذه بدأت أولا منذ أول القرن الثامن عشر ، ونمت بسرعة فى عهد المماليك ، حيث شملت قبيلة كعب القوية فى شرق البصرة (منتصف القرن الثامن عشر) ثم ضمت اليها قبائل عديدة ، مثل ربيعة (الفرع النازل فى شرقى دجلة) ، وتميم ، وزبيد ، وغيرها (أواخر القرن الثامن عشر) ، ثم امتدت فشملت قبائل شمر طوكة ، وقسما من الجبور ، وعشائر الديوانية والهندية ، والعمارة (أوائل القرن التاسع عشر) (٣) ، بل امتد التشيع الى اتحادات قبلية بأكملها ، فسرى بين قبائل المنتفق الى حد أن لم يبق على مذهب السنة فى منتصف القرن التاسع عشر ، الا رؤساء الاتحاد نفسه ، من آل السعدون ، يقول الحيدرى " وشيوخهم من أهل السنة والجماعة على مذهب الامام مالك — رض — وقبائلهم رفضه " (٤) . ويمكن تفسير هذه الظاهرة الأخيرة بأن ظهور التشيع كان يبدأ

---

(١) بخاصة قبائل مناطق السماوة والحلة والشامية وكربلاء والنجف ، أى قبائل الفرات الاوسط.
Ibid, PP. 148,166-67,170,176.

(٢) ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد ص ١١٠ — ١١٧ .

(٣) عنوان المجد ص ١١٤ ويذكر رشيد بن سيد داود السعدى (غاية المراد فى الخيل الجياد ص ٣٠ و ٣٦ و ٣٨ و ٤٠—٤١) الى ان تشيع بنى أسد وخزاعة (الخزاعل) كان قبل نحو مائتى سنة من تاريخ تأليفه لكتابه (١٨٩٣م) أى فى اواخر القرن السابع عشر . وانظر Cuinet,V.:Op.Cit.,III, PP. 151 - 167.

(٤) عنوان المجد ص ١٠٥ .

فى القبائل والعشائر الصغرى ، قبل أن ينتقل الى المشيخات الكبرى ، وهذا يوحى بأنه كان أكثر قبولا لدى القبائل التى تشكل الطبقة الدنيا من الهنيان القبلى تلك التى كانت تجد فى الزراعة مهنة دائمة لها (١) .

وتستند حركة التشيع ، باعتبارها احدى أهم الظواهر الاجتماعية فى عهد المماليك الى عوامل عدة ، سياسية واجتماعية واقتصادية ، تكمن فى طبيعة تكوين المجتمعات العراقية آنذاك . ويمكننا حصر هذه العوامل على النحو الآتى :

١ ـ لقد أخذ الوضع السياسى للقبيلة فى العراق ، الذى كان معترفا به فى العصر العثمانى الأول ، بفقدان شرعية وجوده فى عهد المماليك بسبب قيام حكومات مدنية قوية نسبيا مرتبطة بنظام سياسى وادارى مركزى ، يتناقض بصفة أساسية ، مع الوجود المستقل للقبائل المختلفة . ولقد فرض هذا الوضع على القبائل أن تخوض صراعا طويلا ـ كانت نتائجة فى غير صالحها غالبا ـ فى سبيل الحفاظ على سيادتها فى أراضيها ، وعلى نمط حياتها الاجتماعية الخاصة بها ، والتقليل الى أقصى حد ممكن من تأثير المدن على تلك الحياة .

ومن هنا ، فقد كان على القبائل أن تجد مبررا شرعيا جديدا لاستمرار صراعها مع السلطة فى المدينة ، وهو ما وجدته فعلا فى التشيع ، باعتباره عقيدة لاتعترف بشرعية الوجود العثمانى برمته ، ومبررا قويا لكل حركة مناوئة له . وهذا ما يفسر

(١) عن التركيب الاجتماعى للقبيلة . انظر الفصل الثالث .

سبب انتشار التشيع أولا في أكثر القبائل مناوءة لتلك السلطة ، مثل بني أسد ، والخزاعل وقبائل الفرات الأوسط بوجه عام .

٢ ــ لقد أدى اضطرار كثير من القبائل العربية الى التحول من الحياة الرعوية المتنقلة ، الى الحياة الزراعية المستقرة ، وفقدانها ــ بالتالي ــ قيمها البدوية القائمة على الغزو والتمتع بريع القرى الزراعية وفرض الرسوم على القوافل ، الى أن تعيش تلك القبائل أزمة التجزوء الناجم عن طبيعة الارتباط بالأرض ، فضلا عن أزمة الانتقال من الطبقة العليا في القبيلة ، أو الاتحاد القبلي ، الى طبقة العشائر المزارعة المستضعفة (١) . وقد ادى هذا الوضع الى توفير مناخ عام قابل للتأثر بعقيدة مناوئة لأفكار تلك الطبقة ، ومبشرة بالخلاص من ذلك الظلم الاجتماعي (٢) . وهذا ما يفسر سبب اتجاه التشيع الى العشائر الزراعية الصغيرة ، قبل اتجاهه الى الاتحادات القبلية البدوية الكبيرة .

٣ ــ ادت حركة نمو المدن العراقية واستعادة تأثيرها الحضاري على الريف الى ازدياد واضح في تأثير المدن الشيعية المقدسة بين تلك القبائل الريفية . ولقد ساعد على ذلك التأثير قيام طبقة علماء الدين ، والفقهاء والمجتهدين ، و "المومنة" (٣)

(١) بحثنا هذه الظاهرة في الفصل الثالث من الرسالة .
(٢) وذلك بالتأكيد على فكرة ظهور " المهدي " المخلص ، في آخر الزمان وأنه سيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا " (د وايت د ونلدسن : عقيدة الشيعة ص ٣٤٨) .
(٣) المواننه ، جمع مؤمن : هم الوكلاء الدينيون للمجتهد ، وهو الرأس الديني للطائفة الشيعية ومقره في مدينة النجف . والمومن مخول شرعيا بتسوية انقضايا التي تحصل بموجب احكام الشريعة الاسلامية ، وبادارة مجالس العزاء التي ــ

في تلك المدن ، وتمكنها من تولي القيادة السياسية فيها أحيانا ، وكانت هذه الطبقة المتنامية تجد مجالا غير محدود للعمل بين القبائل المجاورة في ريف الفرات خاصة ، ثم بين قبائل العراق الأوسط والجنوبي برمتها .

ولقد ساعد توفر حد أدنى من الأمن في عهد المماليك ، وانتهاء فترة الحروب الكبرى التي شهدها العراق في القرن السادس عشر على اثراء تلك الطبقة بعدد كبير من الأسر العلمية الشيعية المهاجرة (١) فنزح الى النجف عدد من علماء جبل عامل بلبنان وتوطنوا فيها (٢) . وهاجر اليها أيضا ، والى كربلاء المجاورة ، وعلماء من الأحساء (٣) والبحرين (٤) والأحواز (٥) وقزوين ، وبهبهان (٦) ، وشهرستان

= تقام في الأيام العشرة الاولى من شهر محرم لاظهار الحزن والتوجع على استشهاد الامام الحسين .

(١) محمد حسن الكليتدار آل طعمة : مدينة الحسين ص ١١٩ ومحمد مهدي الآصفي مدرسة النجف وتطور الحركة الاصلاحية فيها ص ٣٩ .

(٢) انظر العاملي : امل الآمل في علماء جبل عامل ، وعبد الرزاق محيي الدين الحالي والعاطل ملحق أمل الآمل ويضم الكتابان تراجم جمهرة كبيرة من العلماء العامليين المهاجرين الى المدن الدينية في العراق .

(٣) الأحساء : ناحية وبلدة في البحرين ، ومن اشهر من هاجر منها من علماء الشيعة الشيخ احمد الأحسائي (المتوفى سنة ١٨٢٨م/١٢٤١هـ) مؤسس المدرسة الكلامية التي نسبت الى لقبه فعرفت بالشيخية (دائرة المعارف الاسلامية مادة احساء ، احسائي لوسياني ٢/٢٥٥) .

(٤) انظر يوسف البحراني : لؤلؤة البحرين في الاجازات وتراجم رجال الحديث ص ١٣ ومابعدها ، وفي اجازة بحر العلوم للسيد حيدر بن حسين اليزدي (مؤرخة سنة ١٢٠٩هـ) عدد من علماء البحرين الشيعة الذين وفدوا الى المدن العراقية في القرن الثامن عشر (مجموعة اجازات العلماء ص ٦٠ مخطوط) .

(٥) الأحواز ، أو الاهواز ، هي خوزستان ، ببلاد عربستان في جنوبي ايران .

(٦) بهبهان ، مدينة في ايران ، اشتهر من مهاجريها السيد محمد المعروف بآغا محمد باقر البهبهاني ، صاحب المدرسة الأصولية في الاجتهاد لدى الشيعة . انظر احمد بن درويش البغدادي : كنز الأديب (مخطوط) .

وأردبيل ومازندران وأصفهان ورشت [1] وغيرها ، كما هاجر اليها عدد من أمراء الهند وأثريائهم [2] . فكانت جوارا دينيا لبعضهم ، ومنفى سياسيا لبعضهم الآخر ، وبخاصة لأولئك المجتهدين الذين كانوا يتعرضون الى تدخل السلطة الفارسية فى عقائدهم لأمور سياسية بحتة [3] ، وبهذا فقد شكل هؤلاء نواة طبقة قوية من رجال الدين أخذت باستعادة سلطانها ، جاعلة من النجف مركزا لها ، للتأثير على مجرى الأحداث فى ايران ذاتها [4] .

ولقد شجعت هذه الحركة ماكانت تتمتع به المدن المذكورة من موارد يأتى أغلبها من هبات الأمراء الفرس ، ومما ينفقه زوار المراقد الدينية فيها ، وهم كثرة بلغ عددهم

---

(١) مدن ايرانية .
(٢) يذكر السيد عبد الحسين الكليدار آل طعمة أن عدد الزائرين الفرس الى العتبات المقدسة ازداد فى أواخر العهد الصفوى ، مما دفع بالسلطات العثمانية الى وضع العراقيل امام مجيء هؤلاء بين حين وآخر ، وكان من المجاورين فى كربلاء آنذاك زوجة نادرشاه - وهى ابنة الشاه حسين الصفوى وشقيقة الشاه طهماسب الثانى ، ومنهم ايضا السردار محمد حسن خان القاجارى والد الشاه أغا محمد القاجار ، صاحب مدرسة السردار المعروفة فى كربلاء (شيدت سنة ١١٨٠هـ) ووزير نادر شاه الذى أمر بصنع شباك الروضة العباسية عام ١١٨٣هـ (بغية النبلاء فى تاريخ كربلاء ص ٢٠ ومحمد حسن الكليدار : مدينة الحسين ص ١١٩) ومن اشهر امراء الهند ، الميرزا احمد النواب ، وقد هاجر الى كربلاء فى مطلع القرن التاسع عشر ، وكان له فيها مجالس ادبية شهيرة . انظر سلمان الطعمة : تراث كربلاء ص ٢٢٣ .
(٣) حاول نادرشاه فى القرن الثامن عشر اضعاف نفوذ مجتهدى الشيعة لأسباب سياسية ودينيه . ثم حاول القاجاريون من بعده رأب الصدع باستبعاد عدد من العلماء ممن عرفوا بمناوءة السلطات وبالجرأة فى التفكير .
(٤) دونلدسن ، دوايت : عقيدة الشيعة ص ٧٨ .

فى القرن التاسع عشر زهاء ٠٠٠ر١٠٠ زائر كل عام [١] ، فساهمت تلك الموارد الوفيرة على التوسع فى انشاء المدارس والمعاهد الجديدة ، وانعاش المؤسسات الدينية القديمة ، وتشجيع الحياة الفكرية عموما الى حد كبير ، وهو ما أدى الى تخريج أعداد كبيرة من العلماء و "المواهنة" على حد سواء [٢] .

وكان لتلك الفئات النشيطة دور فعال فى نشر التشيع فى البلاد العراقية على نحو عام ، وفى أوساط القبائل الريفية بوجه خاص ، ويذكر مؤرخ شيعى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر ، ان احد العلماء الشيعة ، استطاع عند هجرته الى الحلة فى منتصف القرن المذكور ، أن يحول " من داخل الحلة وأطرافها من طوائف الاعراب قريبا من مائة ألف نفس شيعيا اماميا مخلصا " [٣] . وأمسى " ترويج المذهب " [٤] مهمة رئيسية لعدد كبير من أولئك الرجال ، المنبثين فى كل قرية وقبيلة فى النصف الجنوبى من العراق .

---

(١) Dupré, A.: Voyage en Perse, Vol. I, P. 174.
Loftus, W.K.: Travels and Researches in Chaldeae, P. 46

(٢) يلاحظ بان التعليم فى هذه المدارس كان على درجات متفاوتة ، يتخرج من أدناها المواهنة ، ويترقى الى أعلاها المجتهدون . انظر محمد مهدى الآصفى : مدرسة النجف ص ٣٩ وجعفر آل محبوبة : ماضى النجف ١ / ٣٧٩ وموسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ، فصل " مدارس النجف القديمة والحديثة " لجعفر الخليلى ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) كنز الأديب ، ترجمة مهدى القزوينى الأصل المتوطن فى الحلة . (مخطوط) .

(٣) اصطلاح شيعى يقصد به الدعاية للمذهب والتبشير به .

في القرن التاسع عشر زهاء ١٠٠,٠٠٠ زائر كل عام (١) ، فساهمت تلك الموارد الوفيرة على التوسع في انشاء المدارس والمعاهد الجديدة ، وانعاش المؤسسات الدينية القديمة . وتشجيع الحياة الفكرية عموما الى حد كبير ، وهو ما أدى الى تخريج أعداد كبيرة من العلماء و"المواممنة" على حد سواء (٢) .

وكان لتلك الفئات النشيطة دور فعال في نشر التشيع في البلاد العراقية على نحو عام ، وفي أوساط القبائل الريفية بوجه خاص ، ويذكر مؤرخ شيعي عاش في أواخر القرن التاسع عشر ، ان احد العلماء الشيعة ، استطاع عند هجرته الى الحلة في منتصف القرن المذكور ، أن يحول " من داخل الحلة وأطرافها من طوائف الاعراب قريبا من مائة ألف نفس شيعيا اماميا مخلصا " (٣) . وأمسى " ترويج المذهب " (٤) مهمة رئيسية لعدد كبير من أولئك الرجال ، المنبثين في كل قرية وقبيلة في النصف الجنوبي من العراق .

---

(١) Dupré, A.: Voyage en Perse, Vol. I, P. 174.
Loftus, W.K.: Travels and Researches in Chaldeae, P. 46

(٢) يلاحظ بان التعليم في هذه المدارس كان على درجات متفاوتة ، يتخرج من أدناها المواممنة . ويترقى الى أعلاها المجتهدون . انظر محمد مهدي الآصفي : مدرسة النجف ص ٣٩ وجعفر آل محبوبة : ماضي النجف ١ / ٣٧٩ وموسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ، فصل " مدارس النجف القديمة والحديثة " لجعفر الخليلي ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) كنز الأديب ، ترجمة مهدي القزويني الأصل المتوطن في الحلة . (مخطوط) .

(٤) اصطلاح شيعي يقصد به الدعاية للمذهب والتبشير به .

وعلى الرغم من أن بعض المثقفين السنيين لاحظوا سرعة هذا الانتشار الشيعي وخاصة الذين كانوا يقيمون في مدن العراق الجنوبية (١) ، الا أن موقف أهل السنة بقي — بوجه عام — سلبيا ازاء الظاهرة المتنامية ، ذلك لأن الظروف الاجتماعية التي ساعدت على نشر التشيع ، هي نفسها التي كانت تحول دون عمل مواز يقوم به السنة. وعمد عدد من العلماء السنيين في المدن الكبرى الى تأليف رسائل وكتب مختلفة في الرد على الشيعة ، الا أن هذه المؤلفات ، رغم اختلاف أساليبها بين اللين والعنف لم تكن تخرج في تأثيرها عن نطاق الفئات المثقفة في المدن العراقية ذاتها ، دون ان يمتد ذلك التأثير الى الريف بقبائله وقراه بأية حال ، وعلى هذا فقد بقي رد فعل السني ضعيفا في تلك المجتمعات ، ومعدوما في قسم كبير منها .

وفي الواقع ، لم يكن ثمة فواصل اجتماعية بين أبناء الطائفتين الاسلاميتين الكبيرتين فكان الشيعة يتمتعون بالتساهل في بغداد (٢) ، كما تمتع السنة المقيمون في النجف بتساهل مقابل ، وكانت العلاقات بين الطرفين حسنة فعلا ، بحيث لا يمكن ان تقاس

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ١١٠ — ١١٨ وعثمان بن سند البصري (ت ١٢٤٢ هـ) الصارم القرضاب ، وهو كتاب في نحو الفي بيت وأكثر من الشعر ناقض فيه دعبلا الخزاعي ، الشاعر الهجاء المشهور (ت ٢٤٦ هـ) وقد بدأ في نظمه سنة ١٢١٧ ، واهداه الى " ملك العراقين " حافظ علي باشا والي بغداد (١٢١٧ — ١٢٢٢ هـ) . عماد عبد السلام رؤوف الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج ٢ رقم ٦٣٣ [مخطوط) . ومحمد امين السويدي : الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد ، وألفه في الرد على كتاب ليوسف بن احمد البحراني الاواني ، استجابة لطلب والي بغداد داود باشا . الفهرس المذكور رقم ٦٣٥ ، والكشاف عن خزائن مخطوطات الاوقاف رقم ٥١٤٩ .

(٢) Dupré, A.: Voyage en Perse, P. 176.

هذه العلاقات ما كان سائدا في مدن ايران وتركيا في العهد نفسه [1] . ولم يكن غريبا أن يؤدي السني صلاته في مشاهد الشيعة [2] ، أما الشيعة في البصرة ، فكانوا يؤذنون في الجوامع ويصلون كما يفعل السنة ، ويقيمون شعائر صلاة الجمعة مثلهم تماما [3] . رغم ان الأمر لم يخلو من شيء من التحفظ [4] ، الا أن ذلك لم يكن يؤثر على طبيعة الصلات الاجتماعية للطائفتين بشيء يذكر ، اذ ليست ثمة اخبار عن حدوث اية فتنة بين الفريقين طيلة العصر العثماني ، رغم تجاورهما في السكنى في المدن والريف ، وتداخل مصالحهما الاقتصادية الى حد بعيد .

وكانت للشيعة احتفالاتها الدينية ، من أبرزها اقامة التعازي والنوائح في الأيام العشرة الأولى من محرم كل عام ، احياء لذكرى استشهاد الامام الحسين وآل بيته [5] فضلا عن زيارة المراقد المقدسة في مناسبات دينية خاصة ، ومقتضى سنن وتقاليد

---

(1) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 208.

(2) رحلة أبي طالب خان الى العراق وأوربه ص ٣٦٩ .

(3) Della Valla, P.: The Travels.., P. 245

و Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 208

(4) Buckingham, J.: Travels in Assyria, Media, Persia, Vol. II, P. 148.

(5) يرتقي تاريخ اقامة هذه الاحتفالات الى عهود مبكرة من التاريخ الاسلامي ، حيث امر باقامتها الأمير البويهي معز الدولة سنة ٩٦٤م . (دونالدسن : عقيدة الشيعة ص ٢٧٧) .

خاصة موروثة[١] ، وكانت هذه الاحتفالات تقام ابان عهد المماليك ، بصفة منعزلة أو خارج المدن ذاتها[٢] .

وتميز الشيعة عن غيرهم بتقاليدهم الخاصة بدفن موتاهم ، وهي تقاليد طالما استلفتت انتباه المعاصرين من الكتاب والرحالين[٣] ، فقد قضت تلك التقاليد بأن يحمل الموتى من أبناء الطائفة الى النجف لدفنهم فيها ، تشرفا وتبركا . وكانت قوافل الجنائز تصل هذه المدينة من مختلف البلدان التي يقطن فيها شيعة ، في العراق وايران وحتى الهند ، بمعدل بلغ في منتصف القرن الثامن عشر زهاء الف جثة كل

---

(١) ثمة ثماني زيارات رسمية تزار فيها النجف بصورة جماعية ، تعرف بالزيارات المخصوصة وهذه الزيارات هي :

١ ــ زيارة يوم العاشر من محرم وهي التي تعرف بزيارة عاشوراء .
٢ ــ زيارة الأربعين في ٢٠ صفر وتسمى زيارة " مرد الرأس الشريف " .
٣ ــ زيارة أول رجب .
٤ ــ زيارة منتصف رجب .
٥ ــ زيارة ليالي القدر في ١٩ و ٢٠ و ٢٣ رمضان .
٦ ــ زيارة عيد الفطر .
٧ ــ زيارة منتصف شعبان .
٨ ــ زيارة عرفة وعيد الأضحى .

ولهذه الزيارات أدعية خاصة منسوبة الى الائمة ، وتقاليد موعية . انظر : دونالدسن : المصدر السابق ص ٧٩ــ٨٠ وعبد الجواد الكليدار : تاريخ كربلاء وحائر الحسين ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

(٢) Niebuhr, K.: Description de L'Arabie, F.162.
و Buckingham, J.: Op.Cit., II, F.148

(٣) انظر مثلا : Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, II, F.208.
و Loftus, W.K.: Travels and Researches, II, F.54, 66.
ورحلة مدام ديولافوا ص ١٢٨ــ١٢٩ . وأمين الحلواني : مختصر مطالع السعود ص ٧٥ .

عام [1] . وكانت الرسوم المستحصلة على دفن هذه الجثث تمثل موردا مهما لخزانة المدينة ذاتها ، ولسلطات ولاية بغداد ايضا [2] ويختلف مقدار المال المفروض على دفن الجثة بحسب مكانة اصحابها ، وفقا لما يدفعونه يتم تحديد المكان الذى ستثوى فيه الجثة ، وأعز تلك الأمكنة اقربها الى مرقد الامام الحسين نفسه [3] ، حيث تودع الجثث فى ردهات واسعة تحت الأرض ، مبنية لهذا الغرض [4] .

ولم تكن ثمة أحياء خاصة بكل طائفة من الطائفتين الاسلاميتين ، الا أنه من الملاحظ ، أن الأحياء التى سكنتها الشيعة ، وهى أحدث الأحياء نشوءا فى المدن ، وقد نشأت على حواشى المجموعات السكنية المستقرة او فى أطرافها . وتبرز هذه الظاهرة بوضوح فى خطط مدينة بغداد ، حيث تجمع الشيعة ، وكانوا بدوا أو ريفيين مهاجرين ، حوالى جامع المصلوب ، فى أطراف القسم المعمور من شرقى بغداد [5] . وتجمع آخرون ، فى عهد لاحق ، على حواشى القسم الشمالى الشرقى من بغداد ، ثم فى أطراف الجانب الغربى أيضا ، فى المناطق المجاورة لأرياف المدينة [6] .

---

(1) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 208.

(2) تاريخ جودت ج ١٢ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٤

(3) Loftus, W. K.: Op. Cit., II, P. 54.

(4) الحلوانى : المصدر السابق ص ٧٥

(5) ماسنيون ، لويس : تعليقات على لهجة بغداد العامية (ترجمة أكرم فاضل ص ١٨).

(6) ومن الملاحظ أن لهجة أهل هذه الأحياء بقيت تغلب عليها البداوة مما يشير الى تأخر تاريخ هجرتهم الى المدينة . انظر ماسنيون : المصدر السابق ص ١٨ ــ ٢٠ .

ويمكن القول ، ان حركة الامتداد السكنى الشيعى كانت تتجه – على مر الزمن – من حواشى المدن وأطرافها ، الى داخل تلك المدن نفسها ، وهى ظاهرة مهمة نلاحظها أيضا فى بعض المدن العراقية الأخرى . ويمكن تفسيرها بانها تمثل مظهرا آخر لحركة الهجرة المطردة للقبائل الريفية الى المدن ، تلك الحركة التى تعد من أهم الحركات الاجتماعية التى شهدها العراق ابان عهد المماليك[1] .

٢ – النصارى :

نصارى العراق وطنيون من سكانه القدامى ، دانوا بالنصرانية بعد منتصف القرن الأول للميلاد ، وانتشرت أديرتهم فى كل ناحية من العراق والجزيرة ، وكان لهم فى عهد الخلافة العباسية دور هام فى مختلف المجالات الحضارية[2] ، على انهم اضطروا – بسبب سقوط هذه الخلافة – الى مغادرة مراكزهم المدنية ، والالتجاء الى أماكن أكثر أمنا وأوفر عزلة ، بعد أن أصبح السهل ، بما فيه من مدن وأديرة هدفا سهلا لكل دولة او قبيلة غزية . فانتقل كرسى بطريركية بابل القديم من مركزه ببغداد الى اربيل ، وكرمليس (قرب الموصل) ، وجزيرة ابن عمر[3] ، والقوش[4] ، وكشف هذا

(١) تطرقنا الى دراسة هذه الحركة الاجتماعية فى الفصل الأول من الرسالة .
(٢) روفائيل بابو اسحق : احوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسية ص ٣ .
(٣) على دجلة بين ديار بكر والموصل ، وفيها دير الزعفران ، الذى أصبح مركز الكرسى البطريركى لفترات طويلة .
(٤) فى دير الربان هرمزد الشهير على سفح جبل القوش قرب الموصل .

التنقل ، عن ظاهرتين هامتين هما تحول مركز الثقل النصراني من وسط العراق الى شماله ، ومن مدنه الرئيسية الى أريافه وقراه .

ولقد انقسم ولاء النصارى الديني في العراق بين الكنيستين الشرقيتين القديمتين : السريانية النسطورية ، والسريانية اليعقوبية (الارثوذكسية) بيد أن هذا الولاء أخذ بالاهتزاز منذ أوائل القرن السابع عشر ، فقد انطلقت الارساليات الفرنسية تحت رعاية وتنظيم مجمع التبشير بالايمان في روما (1) الى العراق ، تسعى نحو نشر الكثلكة في هذا الجزء من العالم ، وضم كنائسها المحلية القديمة الى الكنيسة الكاثوليكية في روما .

وتوالى قدوم هذه الارساليات الى هذه النواحي تحت اكثر من اسم ، فكان منهم الاغسطينيون "(2) و " الكرمليون " و "الكبوشيون " (3) ، وقد استطاع الأخيرون أن يشيدوا لهم مركزا دينيا في كل من بغداد والموصل ، مكونين أول نواة كاثوليكية في هاتين المدينتين ، الا أنهم اضطروا - ازاء ضغط الكنائس التقليدية القائمة - الى

---

(1) انشأت الكنيسة الكاثوليكية هذا المجمع في روما سنة ١٦٢٢ لغرض القيام بالأعمال التبشيرية بين الاجانب ، وعرف في التاريخ الكنسي باسم Propaganda

(2) هم الاغسطينيون فيما بين النهرين ، وأقاموا قليلا في البصرة أيام الشاه عباس الأول (١٥٧٨-١٦٢٩) وكان لهم فيها دير وبيعة وممتلكات للرهبان Della Valla, Pitro: The Travels of ..., P. 245

(3) الكبوشيون : من اقليم تورين بفرنسا ، اسسوا مراكزهم أولا في ايران ، ومنها انتقلوا الى مابين النهرين ، مستفيدين من سياسة الشاه عباس الصفوي المتساهلة .

هجر مركزيهما تباعا ، فاغلقت الارسالية فى بغداد فى سنة ١٧٠٨ [١] ، ثم تبعتهما أرسالية الموصل سنة ١٧٢٤ [٢] .

وحاول الكرمليون مستلم يستطعم أسلافهم ، فقدموا الى البصرة سنة ١٦٢٣ ونجحوا بعد اكثر من محاولة [٣] ، فى اقناع سلطات ولاية بغداد بتعيين أحدهم اسقفا على بابل (ومركزه بغداد) سنة ١٦٤٢ [٤] ، وبذلك فقد أعيد احياء هذه الاسقفية التاريخية ، لتكون ــ هذه المرة ــ مركزا رئيسيا لنشر الكثلكة فى وسط العراق .

وفى الوقت نفسه تقريبا ، افتتح الكرمليون كنيستهم وديرهم فى البصرة سنة ١٦٢٣ وسط احتفال رسمى كبير [٥] ، لتتولى هذه المؤسسات التبشير بالكثلكة بين نصارى البصرة وأطرافها ، ولتحول صابئة البطائح [٦] الى دين النصرانية [٧] .

---

(١) نرسيس صائغيان : تاريخ الارمن الكاثوليك ص ٩ انظر :
Sistini: Nouveau Voyage de Constantinpole a Bousora , P.169
(٢) بطرس نصرى : ذخيرة الأذهان فى تاريخ المشارقة والمغاربة السريان ج ٢ ص ٢٣٩ واوجين تسران : خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية ص ١٨٧ .
(٣) حاول الكرمليون سنة ١٦٢٨ أن يقنعوا والى بغداد بتنصيب الأب برناردى وال الكرملى اسقفا على بابل ونائبا رسوليا لمدينة أصفهان باسم جان ، غير أن الوالى المذكور لم يأذن له وللاباء الكرمليين أن يدخلوها ، ولما أقيم الأب عمانوئيل الكرملى اسقفا على بابل سنة ١٦٤٢ سمح له أن يقطن بغداد . وكان البابا أوربانس الثامن قد اشترط ان يكون الاسقف (المطران) فرنسى الجنسية . انظر : ذخيرة الاذهان ج ٢ ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .
(٤) ذخيرة الأذهان ص ١٩٤ .
(٥)
(٦) سيأتى الحديث عنهم فى هذا الفصل .
(٧)

أما في ولاية الموصل ، حيث مركز البطريكية النسطورية ، فقد حاول الكبوشيون قبل اغلاق بيعتهم ضم كرسي البطريركية الوراثي الى الكنيسة الكاثولكية بيد أن محاولتهم هذه ، فشلت ، فانتقل مركز الاشعاع الكاثوليكي في المنطقة الى مطرانية ديار بكر ، وبذلك فقد انشقت الكنيسة النسطورية في كرسيين متناحرين ، اولهما نسطوري المقيد ة في القوش (قرب الموصل) ، والآخر كاثوليكي متحد مع روما في ديار بكر . ومن الأخيرة أخذت الموصل تستقبل مدا ثقافيا كاثوليكيا كانت قواعده تمتد بين الساحل السوري [1] وحلب [2] . أما اليعاقبة فقد شرعوا - خلال الفترة نفسها - في التقرب من الكنيسة الكاثوليكية حتى تم لهم اختيار بطريرك كاثوليكي خاص بهم [3] .

وبافتتاح مركز الارسالية الدومنيكية في الموصل سنة ١٧٥٠ م ، انتعشت الكثلكة في هذه المدينة ، وزادت حركة التبشير بها نشاطا ، فلم تمض سوى بضعة سنين حتى كانت الارسالية قد استطاعت الحصول على موافقة بهرام باشا أمير بهدينان على فتح دار لها في عاصمته العمادية .

---

(١) كان جبل لبنان قد صار رأفون معقل لنشر الكثلكة في الشرق ، بعد أن قربت الكنيسة الكاثوليكية اليها سكانه المارونيين (أتباع يوحنا مارون) حتى اعلنوا الطاعة لها والاتحاد معها عام ١١٨٢ م (محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ص ١٥٦ - ١٥٧) .

(٢) بدأ ميل الروم الملكيون الى روما منذ الثلث الأول من القرن السابع عشر ، وكان نصيب حلب من حركة الاتجاه نحو روما كبيرا (وثائق تاريخية عن حلب ص ١٠ وما بعدها) .

(٣) بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص ١٤٢ .

Fiey, J.: Mossoul Chretienne, P. 117.

ومنذ مطلع القرن الثامن عشر ، ازدادت سرعة انتشار المذهب الكاثوليكي بشكل ملحوظ ، حيث أن كان عدد الكاثوليك في الموصل عام ١٧٤٧ لا يتجاوز عشر أسر كلدانية (أي نسطورية متكثلكة) ومثلها من السريان (اي اليعاقبة المتكثلكين) ،(١) بلغ عددهم في أوائل القرن التاسع عشر زهاء ألف أسرة كلدانية ، وخمسمائة أسرة سريانية (٢) . وبينما لم يكن ببغداد من الكاثوليك في مطلع القرن السابع عشر الا نحو ثلاثين بيتا فقط ، زادوا بمساعي مطران بغداد الكرملي - الى ٨٦ بيتا كاثوليكيا سنة ١٧٥٣ وكانوا يتكونون من الطوائف الكلدانية والسريانية والأرمنية ، وربما بعض الملكيين ايضا (٣) . وحيث لم يكن في البصرة ، في غرة القرن السابع عشر ، نصارى مستوطنين اصلا ، أصبح فيها في أواسط القرن التالي جالية نصرانية كاثوليكية لا بأس بها ، أغلبهم من التجار الأرمن الذين توافدوا على المدينة لأسباب اقتصادية(٤).

بيد أن ازدياد عدد المتكثلكين لم يكن يجري برضا قيادات الطوائف القديمة ، حتى يمكن القول ، بأن الصراع بين الطرفين كان هو السمة الأساسية للحياة الاجتماعية لنصارى العراق ابان عهد المماليك . وكانت الوشاية لدى الحكومات

---

(١) بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص ١٣ .

(٢) Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia, 11, P; 34.

(٣) نرسيس صائغيان : تاريخ الأرمن الكاثوليك في العراق ص ١١ ومجلة نشرة الأحد (بغداد ١٩٢٢) ص ٢٠٠ نقلا عن احصاء قام به الآباء الكرمليون في بغداد لجميع الكاثوليك المقيمين فيها يومئذ . والملكيون هم الروم المتحدين بالكنيسة الكاثوليكية وكان اتحادهم هذا سنة ١١٧٥م (كرنيليوس فان ديك : المرآة الوضية ص ٤٠ اه ولم ترد ثمة اشارات الى وجود هذه الطائفة ببغداد .

(٤) صائغيان : تاريخ الأرمن ص ٤٤ نقلا عن سجلات الآباء الكرمليين في البصرة .

المحلية من الأساليب التي كثيرا ما لجأ اليها المتنازعون ، خاصة وأن تهمة تعـاون أبناء البلاد الكاثوليك مع المبشرين الاوربيين ـ وهم أجانب تبدو معقولة دائمـا (١) لخصمهم من النساطرة واليعاقبة الارثوذوكس طرد والى بغداد محمد باشا الخاصكي الكبوشيين من مقرهم ببغداد سنة ١٦٥٨م (٢) ، وبجهود الأرمن الارثوذوكس وأموالهم ، قام والى بغداد احمد باشا بالاستيلاء على كنيسة النساطرة ومنحها لهم (٣) وبذل الخصمان الأموال الطائلة في المرافعه والمقاضاة في سبيل هذه القضية ، قبـل أن تستقر الكنيسة سنة ١٧٤٦ بيد الأرمن الارثوذوكس (٤) .

وحاول بطريرك ألقوش في منتصف القرن الثامن عشر أن يرأب الصدع الذي أخـذ يهدد طائفته النسطورية بالانشقاق ، فأسرع بالانضـمام الى كنيسة روما ، الا أن انضمامه هذا لم يستمر الا فترة قصيرة ، انعاد الى مذهبه القديم محاولا الوقوف أمـام مطرانية الموصل التي كانت تمسح من نفوذها في أراضي بطريركيته باسم الكثلكة ذاتها (٥)

---

(١) ذخيرة الأذهان ج ٢ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .
(٢) وقد شيد على أرضه جامعا عرف بجامع الخاصكي ، وما زال قائما حتى اليوم ، ويذكر أن هذا الوالي عوض للكبوشيين كنيستهم بعد ذلك سنوات صائفيان : تاريـخ الأرمن الكاثوليك ص ٩ وصائغيان ايضا : اخبار كنائس الطائفة الكلدانية فـي بغداد مجلة النور ١٢ (بغداد ١٩٥٠) ص ٦ ومرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ . وعماد عبد السلام رؤوف : جامع الخاصكي في بغداد جريدة البلد البغدادية ١٩٦٦/١/٢٠ .
(٣) رفائيل بابو اسحق : كنائس نصارى بغداد في العهد العثماني مجلة سومـر ٢٠ (بغداد ١٩٦٤ ص ٢٨٧ وص ٢٩٣) .
(٤) افرام نقاشة : عناية الرحمان في هداية السريان ص ٧٨ وبابو اسحق والبحـث المذكور ، ص ٢٨٧ .
(٥) أوجين تسران : خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية ص ١٣٢ ويوسف غنيمـة : بطاركة الكلدان في الجيل التاسع عشر (مجلة النجم ٣ (١٩٣٠) ص ١٠٠) .

على أن ازدياد عدد الكاثوليك المتنامي ، أظهر ان للصراع النصراني هذا جوانبه الاجتماعية الأخرى ، فبعد أن كان متوقعا أن يؤدي تكثلك أبناء الطوائف الى اختفاء النزاعات القديمة بينها ، اخذ الصراع يتخذ أشكالا قومية ومحلية وأسرية أخرى، حين نشب بين الكاثوليك أنفسهم هذه المرة ، من ذلك مثلا أن مطران الموصل خاض صراعا طويلا ضد مطران ديار بكر ، دام زهاء نصف قرن ، مع أن كلاهما كان كاثوليكي العقيدة (١) . ولم يلبث أن انقسم نصارى الموصل الكاثوليك أنفسهم في مطلع القرن التاسع عشر الى ثلاثة أحزاب ألتف كل منها حول أسرة قوية (٢) ، فكان ذلك انعكاسا للروح العائلية المتمكنة في الحياة الاجتماعية للمدينة .

ورغم ظهور كل هذه الخلافات ، فان عملية تحول نصارى العراق الى الكثلكة بقيت مستمرة باطراد في المدن العراقية طيلة عهد المماليك ، فتحول معظم النساطرة الى المذهب الجديد ، ولم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت النسطورية قد انقرضت من العراق تماما (٣) ، كما تحول جانب كبير من اليعاقبة الارثوذكس الى الكثلكة (٤) ، وزاد عدد الأرمن الكاثوليك بشكل ملحوظ (٥) .

(١) عزيز بطرس : كتاب الرعاة (اخبار أبرشية آمد) ص ٢٢ (مخطوط)، ويوسف السمعاني : كتاب كافة الآباء الجثالقة (مخطوط)
و Badger, G. P.: The Nestorians, 1, P. 152.
(٢) ذخيرة الأذهان ج ٢ ص ٣٩٤ .
(٣) ماتييف وماريوحنا : تاريخ الآثوريين ج ١ ص ١٦ ومابعدها
و Luke, H. C.: Mosul and its Monirieties, P. 15.
ولم يتبق من أتباع هذا المذهب خارج العراق سوى أتباع جبليين قليلين يخضعون لكرسي بطريركي وراثي في قرية قوجانس في سنجق حكاري من ولاية وان التركية وهؤلاء هم الذين جاءوا الى العراق في أعقاب الحرب العالمية الاولى وعرفوا باسم (الآثوريين)
(٤) ذخيرة الأذهان ج ٢ ص ٣٤٨ وحنا نوسى الموصلي : تنوير الأذهان ص ٤٢ .
(٥) صائغيان : تاريخ الأرمن الكاثوليك ص ١٧ .

ولم يواجه الولاة المماليك في بغداد هذه الحركة المتنامية بسياسة عامة محددة في حين وجد حكام الموصل من الجليليين أن مصلحة ولايتهم تقضي بمساندتها باعتبارها تؤدي الى الحد من نفوذ بطريرك القوش النسطوري المحتمي بأمراء بهدينان المجاورين (١) .

على أن لتدهور العلاقات العثمانية ـ الفرنسية ، اثر احتلال الفرنسيين مصر عام ١٧٩٨م دورا هاما في تغير السياسة العثمانية العامة ضد التبشير الكاثوليكي . وهو التبشير الذي طالما تمتع بحماية فرنسا ورعايتها (٢) . ففي هذا العام انتهز الأرمن الارثوذكس حدوث حريق في كنيستهم . مدعين بأن الكلدان (الكاثوليك) هم الذين احرقوها ، ولما وشوا بهم لدى الوزير سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ـ١٨٠٢) عرض على الكلدان دفع غرامة باهظة ، أبوا أن يدفعوها أو لم يتمكنوا من دفعها ، فأمر حينئذ بأن تنهب كنيستهم وتهدم ، وأن تودع كتبها الدينية في القلعة الداخلية (ايج قلعة) . وفي هذا يذكر القنصل الفرنسي ببغداد Rausseau أنه كان للكاثوليك أيضا كنيسة خاصة بهم ، غير أنها هدمت قبل بضع سنوات لحسد غير الكاثوليك لهم . فبدسائسهم وهداياهم وهباتهم الى أرباب المناصب العالية استطاعوا ان تأمر الحكومة بتخريب تلك الكنيسة وهدمها (٣) وفي الموصل ، ألقى محمد باشا

---

(١) عماد عبد السلام: الموصل في العهد العثماني ص ٣٤٥ .

(٢) Miller, W.: The Ottoman Empire and its Successors, P. 5.

(٣) بابو اسحق : كنائس نصارى بغداد ، البحث السابق ، نقلا عن Rausseau: Description du Pashalik de Baghdad.

الجليلي القبض على بعض الكاثوليك بتهمة " الفرنجة " ، أي الميل الى فرنسا عـــدوة الدولة العثمانية ، بل أن يوحنا هرمزد مطران الموصل ، نفسه ، لم ينج مـــــن الاعتقال (١) . وتمكن بطريرك اليعاقبة الارثوذكس من الحصول على فرمانات وأوامـــر تقضي باستعادة كنائس السريان (أي اليعاقبة الكاثوليك) وأديرتهم ، فكان لـــه مـــا أراد (٢) .

بيد أن نكسة الكثلكة هذه ، لم تستمر الا فترة محدودة ، فقد انتهت آثارها حـــال ترك الفرنسيين مصر . وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر تمكن المتكثلكون مـــن استعادة كل ما فقدوه أثناء الأزمة المذكورة ، واتخذت قيادات الطوائف الدينية المحليـــة موقفا دفاعيا ازاء هذا المد الكاثوليكي المتزايد ، اذ لم تكن ثقافتها التقليديـــة بقادرة على رد هذا المد بمثله ، وكان لموقف فرنسا الرسمي المؤيد لنشر الكثلكة لدى الباب العالي دوره الأساسي في حماية البعثات التبشيرية وتشجيعها دائما (٣) .

وفي السنوات الأخيرة من عهد المماليك واجه التبشير الكاثوليكي أول تحد حقيقـي له ، حينما بدأ المبشرون البروتستانت الانجليز نشاطهم في المدن العراقية كمظهر من مظاهر اهتمام بريطانيا المتزايد في شؤون العراق . ورغم ما بذلته السلطـــــات البريطانية من جهود في سبيل دعم هذا النشاط في مواجهة أعمال المبشريـــن

---

(١) يوسف غنيمة : بطاركة الكلدان (مجلة النجم ج ٢ (عام ١٩٣٠) ص ١٠٨ .
(٢) أفرام عبدال : اللؤلؤ النضيد في تاريخ دير مار بهنام الشهيد ص ٧٧ .
(٣) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٦ .

الكاثوليك من الفرنسيين (١) ، فان التبشير البروتستانتي بقي ضعيفا محدود

حتى سقوط حكم المماليك ، ويبدو أن لموقف داود باشا المعادي للنفوذ البريطاني

أثره في تجميد نشاط اولئك المبشرين ، الى أدنى حد . ويشير جروفز (٢) ، وهو أول

المبشرين البروتستانت وطليعتهم في العراق ، الى الصعوبات الجمة التي كان

يواجهها في سبيل نشر دعوته بين نصارى بغداد ، ويبدو أنه كان يحاول التأثير

أولا على الاقليات النصرانية المرتبطة مصالحها بالمؤسسات التجارية والاقتصادية

البريطانية ، وخاصة الأرمن ، الذين كانت أعمالهم التجارية الواسعة قد صيرتهم

وكلاء للشركات التجارية البريطانية في الهند وأوربا (٣) . ولقد نجح جروفز فعلا في

افتتاح مدرسة للصبيان تدرس الأرمنية ، الى جانب اللغتين الانجليزية والعربية

وكان يزمع انشاء مدرسة أخرى مثلها للبنات (٤) ، الا أن النشاط البروتستانتي لم يأخذ

مظهرا جادا الا بعد نهاية حكم داود باشا ، وانفتاح العراق على النفوذ البريطاني

في عهد الولاة العثمانيين التالين .

ويمكننا ان نستنتج من ظاهرة النشاط التبشيري هذه ، مدى ما كانت تتمتع به

الطوائف النصرانية في العراق من استقلال في ادارة شؤونها الداخلية . ويذكر احد

---

(١) Alexander, C.; Baghdad. Bygone Days, P. 227.

(٢) مبشر بروتستانتي انجليزي ، امتهن الطب ، واستوطن بغداد لنشر مذهبه بين سكانها ، وكتب يومياته بعنوان : Journal of Residence at Baghdad London, 1832.

(٣) انظر الفصل الثاني ، عند الحديث عن طبقة التجار .

(٤) Groves, A. N.: Op. Cit., P. 53.

الآباء اليسوعيين الفرنسيين (وكان قد مر ببغداد سنة ١٦٧٥) أن في بغداد حرية كاملة لكل فرقة من الفرق الدينية في ممارسة شعائر معتقدها [1] ويشير دوبريه الى أن نصارى بغداد يتمتعون بقسط وافر من الحرية يتحسر عليه النصارى واليهود في أرجاء الامبراطورية العثمانية الاخرى [2] . ويؤكد فسوك (وقد زار العراق في منتصف القرن التاسع عشر) على هذه الحقيقة ، فيشير الى ان نصارى بغداد يمارسون عباداتهم بحرية فائقة " وهذا شيء تميزت به بغداد منذ القديم " [3] .

ولا تشير المصادر الى أية فتنة حدثت بين المسلمين والنصارى طيلة عهد المماليك ، بل تعاون الطرفان غير مرة في أعمال عامة ذات سمة وطنية . ففي سنة ١٧٣٣ تولى أرمني بصري ، يدعى يعقوب أمير جان ، قيادة نصارى البصرة وبغداد وغيرهم من الغرباء الموجودين يومئذ في البصرة ، للدفاع عن هذه المدينة في أثناء حصار نادر شاه في ذلك العام [4] . وفي نفس التاريخ أيضا ، شارك نصارى الموصل مواطنيهم من المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ضد الحصار الفارسي لها بقيادة نادر شاه [5] ، فكان أن كافأ والي الموصل آنذاك الحاج حسين باشا الجليلي الطوائف النصرانية باستحصاله على موافقة الباب العالي على تجديد كنائس الولاية [6] .

---

(١) صائغيان : تاريخ الأرمن الكاثوليك عن Lettres édifiantes et curieuses, Tome III, P. 242.

(٢) Duprè : Voyage en Perse, V. II, P. 176.

(٣) فوك : عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة . ص ١٢٦ .

(٤) تاريخ الأرمن الكاثوليك ص ٤٦

(٥) الموصل في العهد العثماني ص ٣٣٠ .

(٦) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٨٩ و Fiey, J.: Mossoul Chretienne, P. 57.

على أن مشاركة نصارى المدن العراقية في الأحداث الداخلية التي كانت تشهدها الحياة العامة بقيت ضعيفة الى حد كبير ، اذ لم يؤثر عنهم دور ملحوظ في الصراعات السياسية والاجتماعية بين القوى المختلفة في مدنهم آنذاك ، ولم ينضموا الى طرف من الأطراف المتنازعة رغم أهميتهم الاقتصادية الكبيرة . وبسبب السمة الدينية القوية للتنظيمات الاجتماعية ، فانهم بقوا خارج تلك التنظيمات ، مع أن كثيرا منهم كان يمتهن حرفا مختلفة كالنجارة والحياكة والبناء وأمورا أخرى ذات طابع انتاجي أو تجاري .

وليست ثمة معلومات محددة عن مدى مشاركة نصارى المدن العراقية في الحياة الاجتماعية داخل تنظيمات الأصناف الحرفية ، وان كان من المعروف أن الانخراط في المهن الاسلامية مباح لغير المسلمين (١) ، وان بعض أهل الذمة في المدن العثمانية الأخرى كانوا يشكلون أصنافا حرفية خاصة بهم ، تدخل ضمن الهيئة العامة للتنظيمات الحرفية الاسلامية (٢) . وحمل بعض النصارى المهاجرين الى المدن العراقية خبرات بلادهم في الحرف والصناعات ، فكان أول من أدخل طريقة صناعة الخبز الافرنجي المعمول بالفرن (٣) ، ماروني حلبي قدم الى بغداد في اوائل القرن التاسع عشر وبلغ من مهارته في عمله " بحيث ان ولاة بغداد وكبارها والقناصل والفرنج الموجودين

---

(١) ماسنيون ، لويس : الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية . مجلة المورد العراقية ٣ (بغداد ١٩٧٣) ص ١٦ ــ ١٧ .

(٢) أوليا جلبي سياحتنامه سي ج ١ ص ٥٥٥ و ٦٠٥ .

(٣) وهو المعروف عند العراقيين بـ " الصمون " (وهو الفينو عند المصريين) ، وما زال معروفا بهذا الاسم في المدن العراقية حتى يومنا هذا .

فيها ماكانوا يشترون من غيره ، ولا يأكلون خبزا الا من خبزه " (١) ، وقد تعلم منه هـــذه المهنة بعض نصارى بغداد . واحتكر نصارى مدينة في الشمال ، هي راونـــدوز صناعة نسيج الاكياس المستعملة في كبس ورق التبغ الذي تنتشر زراعته حوالي المدينة (٢) واشتهر نصارى الموصل بالحفر على الرخام ، وهو مادة أساسية في مباني هذه المدينة وكان اخوانهم في مدن شقلاوه (٣) وكوى (٤) يحترفون حياكة النسيج البلدي الذي يتخذ من فلاحو تلك النواحي ملابسهم (٥) .

واتجه كثير من النصارى في المدن العراقية الرئيسة الى ميادين التجارة والمـــال فأصابوا فيها من النجاح ما جعلهم -على ما لاحظ الرحالة صموئيل ايفـــــرز Samuel Evers سنة ١٧٧٩م (٦) - مستحوذين على التجارة في البـــلاد ويظهر أن معظم التجار النصارى الموسرين كانوا من أرمن استانبول المهاجرين . وتقوم ثروتهم على تجارة الأحجار الكريمة والشال مع ايران والهند (٧) . ويذكر جون آشـــر John Ussher الذي زار الموصل في منتصف القرن التاسع عشر ، ان معظـــم تجار المدينة من الأرمن " الذين يظهر ان مقدرتهم في التجارة ، قد جعلتهـــم

---

(١) نرسيس صائغيان : الأسر المنقرضة . مجلة نشرة الأحد ١/١٢١ .

(٢) Edmonds,C.J.:Kurds Turks and Arabs, P. 80.

(٣) شقلاوه : بلدة في شرق الموصل على طريق اربيل ، اشار اليها ياقوت باســم (شقلاباذ) . معجم البلدان ٣/٣٥٥ .

(٤) كوى : بلدة في سهل شهرزور ، من أعمال اربيل .

(٥) Hay, W.: Two years in Kurdistan, P. 90

(٦) Evers,S.:Journal Kept on A Journey from Bassora to Baghdad, P. 52.

(٧) Rausseau, J.P.: Op. Cit., P. 11, 12.

ينتشرون فى أنحاء الشرق حتى فى أبعد القرى وأوعرها طرقا " (١) . ومن البيوتات التجارية الأرمنية التى نهضت فى أواخر القرن الثامن عشر : آل مرادجا ، وآل صوفيالى وآل مراديان (٢) ، وكان لكل منها ثروة كبيرة لا يستهان بها (٣) .

واستطاع عدد من النصارى أن يتولى مناصب ذات أهمية فى ولاياتهم فكان الياس الحلبى الكاثوليكى صرافا لدى والى الموصل الحاج حسين باشا الجليلى (٤)، وكان زكريا الصائغ موظفا مهما لدى الوالى نفسه ، ووصف بأنه " مسموع الكلمة عند الباشا " (٥) ، وعرف بطرس بن الياس جبران البغدادى بالطمغجى ، لانه " كان من كبار الموظفين فى الدائرة التى كانت تعرف بالطمغة " (٦) ، وهى من ادارات الضرائب الرئيسية فى الولاية (٧) . هذا فضلا عن تولى العديد منهم وظائف قريبة من الولاة ذوات اهمية عملية خاصة ، فكان منهم رئيس طباخى الوالى ، وكبير تجاره وكبار خدمه (٨)

---

(١) Ussher, J.: Journey from London to Persepolis, P. 397.

(٢) وعميد هذا البيت : اوهنيس مراديان ، هو اول من ادخل فى بغداد تلقيح الجدرى ، وذلك بعد أن أذاع جنذ اكتشافه لهذا اللقاح فى عام ١٧٩٨م .

(٣) تاريخ الأرمن الكاثوليك ص ١٥ ـ ١٦ .

(٤) الصائغ : تاريخ الموصل ج ٢ ص ٢٨٩ ويعقوب سركيس : مباحث عراقية ج ٢ ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠ و Sestini; Op. Cit., P. 147.

(٥) تسران : خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية ص ١٣٢

(٦) مجلة نشرة الأحد (بغداد ١٩٢٢) ص ٢٠٢ .

(٧) تفرض ضرائب الطمغا على المهن والحرف . انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة .

(٨) بطرس نصرى الكلدانى : ذخيرة الأذهان ج ٢ ص ٢٣٠ والموصل فى العهد العثمانى ص ٢٥٠ .

ويمكننا أن نستنتج من وصف رحالة فرنسية لملابس نساء النصارى في القرن التاسع عشر ، مدى ماكانت تعيش به أسرهن من بحبوحة وسعة ، فقد كن ، جميعا ، يرفلن بالحرير الفاخر المقصب بأسلاك الذهب والفضة ، ويرتدين المخمل ، ويفرقن أنفسهن بالحلى الذهبية والجواهر النفيسة " بحيث أن مخزن أكبر كنيسة لا يستطيع أن يضاهيها ، واكثر هذه الحلى هي أطواق ذهب غالية ، وزنارات (نوع من الحلى) وأسورة وأقراط وخواتم تغطى أجسام النساء ، وهن يتفاضلن فيما بينهن بعدد وكثرة تلك الحلى " (١) .

ولم تكن الضريبة على النصارى ، شأنهم في ذلك شأن اليهود ، لتتجاوز الحد الشرعي لمقدار ضريبة الجزية الاسلامية ، فكانت تجبى بحسب النسبة الشرعية القديمة فالغنى يدفع أربع " دوكات " (٢) عن كل رأس ، ومتوسط الحال يدفع " دوكين " ويدفع الفقير " دوكه " واحدة ، ويحصل لقاء ذلك على ورقة أو وصل يحتفظ به طول السنة لكي لا يدفع مرة أخرى (٣) . وعلى الرغم من أنه كان يوجد في حكومة الولايات العراقية موظفون مختصون بجباية هذه الضريبة (٤) ، ولهم رئيس يدعى " أمين الجزية (٥)

(١) ديولافوا : رحلة مدام ديولافوا الى كلده - العراق سنة ١٨٨١ ص ٧٨-٧٩ .
(٢) الدوكه Ducat عملة تضرب في البندقية ، وكانت قيمتها تختلف بين عشرة دوكات و ١٢ فرنكا . ويذكر نيبرافهم كانت تساوى عملة عثمانية ذهبية معروفة في الموصل باسم "زرمحبوب" (انستاس الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ١٧٥) .
(٣) عماد عبد السلام : الموصل في العهد العثماني ص ٣١٤ .
(٤) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, Vol.II, I.264.
(٥) عبد الباقي العمري : نزهة الدنيا في مدح الوزير يحيى ص ٢٤٠ (مخطوط) .

فانه كثيرا ماكانت تلك الوظيفة تترك لمن يتولاها بالالتزام ، من ذلك أن التزام جزية البصرة كان من اختصاص أسرة آل الحيدرى العلمية الشهيرة ببغداد (١) .

وتشير التقديرات المختلفة لعدد النصارى ، الى أن هذا العدد كان فى زيادة مطردة طيلة عهد المماليك وماتلاه من عهود أيضا • كما تظهر تلك التقديرات أن معظم النصارى كانوا يستوطنون الموصل وأطرافها ، بحيث كانوا أهم طائفة فيها بعد المسلمين • فى حين تزداد كثافة اليهود فى بغداد وانحائها بالنسبة الى النصارى فيها (٢) ، وهذا يعنى أن توزيع الطوائف كان يخضع ، الى حد ما ، الى الوضع الجغرافى للبلاد (٣) .

وكانت المدن الرئيسة - ابان عهد المماليك - تمد المجال الطبيعى لاستيطان النصارى ، مثل بغداد والموصل والبصرة وأربيل وكركوك • ولم يكن ثمة فلاحين منهم الا فى ريف الموصل وطريق شهرزور القديم ، فى حوالى مدينتى أربيل وكركوك ، حيث كانوا يدخلون فى حماية القبائل الكردية أو فى حماية ملاك الأراضى الزراعية من أهل المدن (٤) • ومن تلك المستوطنات الرئيسية مثلا : بلدة ألقوش (٥) ، التى وصفت سنة

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدرى : عنوان المجد ص ١٦٦ •

(٢) Atiyyah, C.R.: Iraq. A Political Study, P. 33.

(٣) وهذا يشبه ماكان عليه التوزيع الجغرافى للسنة والشيعة فى العهد نفسه •

(٤) Hay, W. R.: Op. Cit., P. 89.

(٥) ألقوش : بلدة قديمة عامرة تبعد عن الموصل مسافة ٣١ ميلا من شمالها وكانت مركزا للبطريركية الكلدانية بين سنتى ١٥٠٤ و ١٨٣٠ م (تمران خلاصة تاريخية ص ١٤٧) •

١٨٢٢م بأنها قرية يبلغ عدد بيوتها نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من الكلدان [1] ، وتل أسقف [2] ، وهي بلدة كان يبلغ عدد سكانها (١٨٠٠) نسمة أغلبهم من النصارى الكلدان [3] ، وتلكيف [4] ويبلغ أهلها زهاء ثلاثة آلاف بيت من النصارى [5] ، ومنها ايضا بلدة " قره قوش" وكرمليس وبرطلي في شرقي الموصل [6] ، وكوى وشقلاوة وعينكاوه وأرموطه في المنطقة القريبة من أربيل [7] .

وتختلف التقديرات في شأن عدد نصارى المدن العراقية ابان عهد المماليك ، فبينما يشير أحصاء رسمي يرقى الى أواخر القرن السادس عشر ، الى ان عددهم هو ٣٥٠ر٤ نسمة [8] ، يذكر دوبريه Dupré في أواسط القرن الثامن عشر ، أن عدد الأسر النصرانية في عهده كان لايزيد على ستين أسرة أي نحو ثلاثمائة

---

(١) عزيز بطرس : كتاب الرعاة (أخبار أبرشية الموصل) ج ٦ ص ٨ (مخطوط) وكوركيس عواد : أثر قديم في العراق دير الربان هرمزد ص ٨٩ .
(٢) تل أسقف : بلدة في شمال الموصل ، على بعد ٢٠ ميلا منها .
(٣) كوركيس عواد : تحقيقات أثرية تاريخية ، بلدانية في شرقي الموصل (مجلة سومر ٧ (١٩٦١) ص ٥٣ .
(٤) بلدة قديمة ، من أكبر واقدم قرى الموصل ، تبعد عنها مسافة ٩ أميال شمالا .
(٥) رحلة المنشي البغدادي ص ٨٠ .
(٦) انظر عن هذه القرى : ياسين العمري : منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ص ١٢٧ ــ ١٦٨ وعواد : تحقيقات أثرية تاريخية . سومر ١٧ (١٩٦١) ــ ٥٣ ــ ٦٩ والموصل في العهد العثماني ص ٢٠ ــ ٢٤ .
(٧) يذكر هاي أن عدد النصارى في هذه القرى بلغ في أوائل القرن العشرين نحو ٤٠٠٠ نسمة ، منهم ٢٥٠٠ في عينكاوه Hay, W.: Op. Cit., P. 87
وانظر Howel, T.: Voyage en Retour de L'Inde, PI. 50-51
(٨) Barkan, O.L.: Research on the Ottoman Fiscal Surveys (In: Studies in the Economic History of Middle East) P. 171

شخص [1] ، ويبدو أن كلا الاحصائين تعوزه الدقة اذ يذكر احصاء مؤرخ في سنة ١٧٥٣م ، قام به الآباء الكرمليون ببغداد ، أن عدد الكاثوليك وحدهم كان يزيد على ٧٠ أسرة ، أو خمسمائة شخص ، فضلا عن غير الكاثوليك منهم [2] . وقدر عددهم في منتصف القرن التاسع عشر بنحو ٢٦٨ اسرة ، مكونين على النحو الاتي : ٨٠ أسرة من الأرمن ، ٦٠ أسرة من السريان اليعاقبة ، ١٢٠ أسرة من الكلدان [3] . ويبدو أن عددهم استمر في الزيادة السريعة ،حتى قدر في أواخر القرن المذكور بـ ٢٣٠٠ نسمة [4] ، وكان عددهم في سنجق بغداد (بغداد وأعمالها) نحو سبعة آلاف شخص ، يتألفون من ٢٠٠ر٢ أرمني أرثوذكسي ، و ١٠٠٠ أرمني كاثوليكي و ١٠٠ أرمني بروتستانتي ، و ٦٠٠ر١ كلداني كاثوليكي ، و ٢٠٠ر١ سرياني و ٥٠ يوناني ، و ٨٠٠ لاتيني . هذا في حين بلغ مجمل عدد سكان السنجق نحوا من أربعمائة ألف نسمة [5] .

أما البصرة [6] فكان عدد النصارى فيها يقدر – ابان القرن السابع عشر – بثلاثة آلاف بيت ، ويتبعون مطرانية محلية خاصة بهم ، ولهم فيها ثلاثة كنائس [7] ، وقدر

---

(١) Duprè : Voyage en Perse, Vol. II, P. 173.

(٢) مجلة نشرة الأحد ١ (بغداد ١٩٢٢) ص ٢٠٠ .

(٣) سعاد العمري : بغداد كما وصفها السواح الأجانب ص ٨٥ .

(٤) عن أحصاء مؤرخ سنة ١٣١١ هـ . محمد رؤوف الشيخلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة ومابعدها ج ١ ص ٨٣ .

(٥) Cuinet,V.:La Turquie d'Asie, Tome III,P.17.

(٦) لايشير الأحصاء الذي نقله Barkan (تقدمت الاشارة اليه) الى وجود نصارى في البصرة ، في أواخر القرن السادس عشر ، ومن الراجح أن سبب هذا هو الاغفال ، او نقص المعلومات .

(٧) عزيز بطرس : كتاب الرعاة (أخبار أبرشية البصرة) ج ٨ ص ٤ (مخطوط) .

عددهم فى أواخر القرن التاسع عشر بنحو ٢٢٥٠ نسمة ، أكثر من نصفهم من أتبـاع الكنائس القديمة ، والباقون كاثوليك (١) ، فى الوقت الذى بلغ فيه سكان المدينة زهـاء ١٨٫٠٠٠ نسمة .

ولم تكن هناك ، فى المدن العراقية ، أحياء مغلقة يقطنها النصارى دون غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى ، الا أن هذه المدن عرفت نوعا من التجمعات النصرانيـة داخلها ، دون أن تكون ثمة حدود قاطعة تفصل الأحياء التى تسكنها عن سواها من الأحياء المجاورة . فكان فى بغداد - مثلا - اكثر من تجمع سكنى نصرانى ، يقـع احدها فى منطقة الميدان ، قرب القلعة الداخلية ، حيث يقيم معظم الارمن (٢) ، ويقع التجمع الثانى فى محلة سوق الغزل ، فى قلب المدينة ، ويمتد هذا حتى يتصـل بتجمع آخر فى محلة واحد راس القرية ، من أحياء المدينة الجنوبية (٣) .

وفى البصرة ، تجمع قسم كبير من النصارى فى قرية العشار على ساحل شط العرب (٤) وتجمع نصارى الموصل حوالى الارسالية الدومنيكية ، فصار ذلك الحى أهم تجمعاتهم فى المدينه وأكبرها . وفى مدينة صغيرة هى السليمانية ، نجد ان معظم نصـارى المدينة كانوا يقيمون فى حى واحد من أحياء المدينة (٥) ويمتهنون بعض أعمـال

---

(١) Cuinet,V.:Op.Cit. Tome III, PP. 220-221.

(٢) خريطة التكوين الطائفى لبغداد فى القرن التاسع عشر فى ملاحق الرسالة .

(٣) Jones,F.: Selection from Record.., PP. 312p329.

(٤) عزيز بطرس : المصدر السابق ج ٨ ص ٤

(٥) Edmonds,C.J.:Kurds Turks and Arabs, P. 80.

النسيج الضرورية للمنطقة (١) ، على أن هذا الحي لم يكن خاصا بأولئك النصارى وحدهم ، بل يشاركهم فيه المسلمون أيضا .

وعلى الرغم من أن معظم المزارعين النصارى في مناطق أربيل والسليمانية (سهل شهرزور) كانوا يخضعون - بحكم ظروفهم الاجتماعية - للقبائل الكردية المسلمة من حولهم ، فانهم كانوا يعاملون - على ما لاحظ بعض الرحالين - بشيء كبير من الرحمة والاحترام (٢) ، ولم يكن الرأي العام للسكان يقر وقوع أي اعتداء عليهم (٣) . وقد تمتع مزارعو " شقلاوة " (٤) النصارى الذين يمارسون عملهم في منطقة قبلية محضة بمعاملة ودية للغاية ، دون أن يتدخل أحد في شؤونهم ، مستفيدين من حماية الزعامات القبلية الموجودة في المنطقة .

وكانت صلات المصاهرة ترتبط دوما بين المسلمين والنصارى ، حيث لم يجد الأولون أي بأس من التزوج من مواطناتهم النصرانيات ، فارتقت بذلك أسر نصرانية عديدة السلم الاجتماعي لتلك المدن بسبب صلات المصاهرة الجديدة بينهم وبين الأسر العريقة في المنطقة (٥) ، وكانت المشاهد المقدسة لدى النصارى ، المنسوبة الى حواريي المسيح ، تلقى قدرا كبيرا من احترام المسلمين أيضا ، فمسلموا الموصل ونصاراها كانوا يجلون مشهدي النبي يونس (يونان) ، وجرجيس (جورج) على حد

---

(١) Ibid.& Hay , W.: Two years in Kurdistan, P. 90

(٢) Hay, W.: Op. Cit., I. 89.

(٣) بلدة قريبة من أربيل

(٤) Ibid., P. 90.

(٥) Ibid., PP. 90 - 91.

سواء ، باعتبارهما حماة المدينة ورعاتها. ويزور المسلمون ضريحا منسوبا الى القديس شمعون الصفاء في الكنيسة المعروفة باسمه في الموصل تبركا (١) . وكان مسلموا بلدة "عين كاوه" (٢) يزورون بنفس القدر من الاحترام بعض القبور المنسوبة الى الحواريين في بلدتهم (٣) . ولم يكن من المسموح به أن يدخل النصارى مساجد المسلمين وأماكنهم الدينية الأخرى البته ، وهو أمر كان يؤدي الى مضايقات جمة لأولئك الرحالين الذين ساقهم تطفلهم الى القيام بمثل ذلك الأمر (٤) . أما الأماكن التي تتميز بصفتها الاسلامية والنصرانية معا ، مثل المشهد المنسوب الى "الخضر الياس" ببغداد فكان يسمح للنصارى بزيارتها والتعبد فيها ، لقاء رسوم معينة يدفعونها للموكلين بحفظ تلك الأماكن (٥) .

وكان من المحظور على النصارى ، شأنهم في ذلك شأن أهل الذمة الآخرين ، اقتناء الرقيق الأبيض ، ولهم في مقابل ذلك ، اقتناء العبيد السود وقيل انهم منعوا أيضا في عهد داود باشا آخر ولاة المماليك من ركوب الخيل أو البغال أو الحمير أثناء

---

(١) أحمد بن الخياط : ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء ص ٥١ .

(٢) بلدة بالقرب أربيل .

(٣) Hay, W.: Op. Cit., P. 91

(٤) رحلة تافرنييه ص ٦١

و Evers,S.:Journal Kept on a Journey from Bassora, to Baghdad, P. 49.

و Loftus,W.K.: Travels and Researches,II,P. 66.

(٥) من مساجد بغداد القديمة . ذكر تافرنييه عند زيارته لبغداد في منتصف القرن السابع عشر "ان النصارى يزورون مزارا يبعد عن المدينة نحو ربع ساعة هناك معبد على اسم ولي يسمونه خضر الياس اذا ارادوا الدخول فيه دفعوا الى الاتراك الذين بيدهم المفتاح شيئا من الدراهم" انظر رحلة تافرنييه ص ٥٨

تنقلهم فى المدينة (١) . وأنهم لم يسمح لهم بلبس العمائم الخضر ، ويباح لهم لبس ماطاب لهم من ألوان أخرى (٢)٪.

اليهـــود :

تمتع اليهود فى العراق ، فى ظل الحكم العربى الاسلامى ، بالأمن والاستقـــرار ، فزاولوا اعمالا تجارية ومالية متنوعة ، وانتشروا فى المدن والقصبات بحثا عن مجـــالات أخرى للاتجار بالمال والمراباة به . ويبدو أن أعمالهم هذه لم تدعمهم يتركون المـــدن فى فترات الاضطراب السياسى التى شملت العراق بعد سقوطه على يد المغول ، فقد تمكنوا - بوساطة المال - من التعامل مع الغزاة والفاتحين ، فكان فى القرن السادس عشر يهود مستوطنون المدن العراقية الرئيسية ، ويتمتعون بنفس حقوق سائر السكـــان فى مجال الملكية والتجارة (١) .

= ومحمد خلوصى الناصرى : تكملة مساجد بغداد ، الورقة ١٦٨ (مخطوط) وحواشى انستاس الكرملى على الكتاب الأخير .

(١) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Mesopotamia, Vol. I, I. 277.

(٢) كانت العمائم الخضر والبيض خاصة بالمسلمين فقط ، واللون الأخضر هو سمـــة الاشراف منهم . انظر : فواك : عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة ص ١٣٢ .

(١) أوليا جلبى سياحتنامه سى ج ٤ ص ٤٢٢ و Barkan, O.L.: Op.Cit., F.171 و Teixeira, F.: The Travels of ..., F. 84.
وتشير المصادر التاريخية الى أن سياسة الشاه عباس الأول فى الانعام على الغرباء ساعدت جماعات اليهود على الاستئثار بالتجارة والاغتناء منها ، والاستقرار فـــى المدن العراقية أثناء احتلال قواته لها (١٥٨٧-١٦٢٩) ويذكر بولاى لوكـــوز أن عدد جيش السلطان مراد الرابع الذى توجه الى بغداد كان يبلــــغ =

وقد شجع النشاط الاقتصادي الملحوظ ، الذي شهده العراق ابان عهد المماليك كثيرا من اليهود على الهجرة الى المدن العراقية ، اذ تظهر احصاءات السكان المختلفة أن زيادة كبيرة قد طرأت على عدد اليهود في هذا العهد ، فبعد أن قدر عددهم ببغداد في مطلع العصر العثماني بنحو ستمائة نسمة[1] ، نجد أن هذا العدد ازداد في مطلع القرن الثامن عشر ليتراوح في تقديره بين ١٣٠٠ و ٣٠٠٠ أسرة[2] وبعد ان خلت احصاءات القرن السادس عشر من أي ذكر لليهود في البصرة[3] . نجد انهم يبلغون في النصف الاول من القرن التاسع عشر نحو ٥٠ ــ ١٠٠ بيتا[4] . وفي الوقت نفسه ، ارتفع عدد يهود الموصل من ٤٠٠ شخص في القرن الثامن عشر[5] ، الى حوالي ٧٥٠ ــ ١٠٠٠ شخص[6] . وبلغ عددهم في السليمانية الى نحو ٣٠٠ بيتا[7]

= ١٥٠,٠٠٠ رجل ، بينهم عشرة آلاف يهودي من كتبة وسعاة ورؤساء جيش انظر غنيمة : نزهة المشتاق ص ١٦١ ــ ١٦٣ .

(١) Barkan, O. L.: Op. Cit., P. 171

(٢) نزهة المشتاق ص ١٧٢ وسعاد العمري : بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٨٥ .

Olivier, G.: Voyage dans l'Empire Ottoman, Vol. IV, P. 268 و

Buckingham, J.R.: Travels in Mesopotamia, Vol. II, P. 428 و

ورحلة المنشي البغدادي ص ٢٤ .

(٣) Barkan, O. L.: Op. Cit., P. 171

(٤) Buckingham, J.B.: Travels in Assyria, Media, Persia, Vol. II, P. 154.

ونزهة المشتاق ص ١٧٣ .

(٥) مذكرات دومنيكو لانزا ص ١٤ .

(٦) Dupré, A.: Voyage en Perse, P. 120.

و Olivier, G.: Op. Cit., Vol. II, P. 355.

و Buckingham, J.B.: Travels in Mesopotamia, II, P. 34.

(٧) Badger, G.P.: The Nestorians, P. 84 و رحلة المنشي البغدادي ص ٥٩ .

في الحلة خمسين بيتا [1] . وكانت في الجبال الكردية بعض قرى يسكنها اليهود المتكلمون بالآرمنية ، وبعضهم كان يخضع لنفوذ رؤساء العشائر الكردية المجاورة [2] .

وتمكن اليهود ، بسبب امساكهم بعصب المال ، من النفوذ الى بعض المناصب الحساسة في حكومات ولاياتهم ، وفي المؤسسات المالية على الأخص ، وفي بيوت الأعيان [3] ، فتولى غير واحد منهم منصب " صراف باشي " (رئيس الصرافين) في سراي ولاية بغداد ، وكان بعضهم ملتزما من أصحاب السلطان في الولاية ، ومثال ذلك أن ساسون بن صالح ، رئيس الصرافين في عهد والي بغداد سعيد باشا كان ملتزما من والدة الوالي نفسه [4] ، وقد تمتع بسلطان واسعة على بني قومه [5] . وكان لاسحاق اليهودي بعض التأثير على قيادة المماليك ببغداد [6] . واستغل أولئك اليهود مناصبهم الدقيقة وعلاقاتهم بيهود استانبول في احداث المؤامرات وتدبير الاحداث بما يخدم مصالحهم ومصالح طائفتهم . واستفحل أمر هذه المؤامرات في عهد سعيد باشا وداود باشا ، آخر ولاة المماليك ، الى درجة أن أصبحت تهدد مصير الولاة أنفسهم من ذلك أن يهوديا يدعى عزرا ، انتقم من سعيد باشا لعدم تعيينه رئيسا لصرافيه

---

(١) نزهة المشتاق ص ١٧٣ . وللمقارنة ، انظر احصاءات كوينه في اواخر القرن التاسع عشر

Cuinet, V.: La Turquie d'Asie, Tome III, P. 17-313.

(٢) Luke, H.C.: Mosul and its Minorities, P. 14.

(٣) Rausseau: Op. Cit., P. 12

(٤) عباس العزاوي : العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٢٣١ – ٢٣٢ ؛

(٥) غنيمة : نزهة المشتاق ص ١٦٧ .

(٦) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد ص ٥٦ – ٥٧ .

بأن استغل منصبه كمشرف على ضرب النقود ببغداد ، فضرب النقد باسم سعيد وأنفذ شيئا منه الى أخيه الصراف في استانبول ، فكان هذا سببا في عزل سعيد باشا وتحديد اقامته ، على أساس أن ضرب النقود بغير اسم السلطان يعد خروجا على الدولة وتمردا على سيادتها [1] • وساهم اسحق رئيس صرافي داود باشا في تشجيع داود على قتل صادق أفندى ، مبعوث الباب العالي اليه ، فكان هذا العمل سببا في اثارة سلطات استانبول ضده ، وتحركها بعد ذلك - لاسقاطه [2] • ولعب يهود آخرون دورا غير شريف في الأزمة بين داود باشا والمقيم البريطاني " ريتش Rich حيث كانوا عونا للأخير في أعماله الرامية الى بسط نفوذ بريطانيا على العراق [3] •

أما في الموصل ، فقد انتهج الجليليون سياسة ابعاد اليهود عن تولي المناصب المالية والصيرفية في حكومتهم ، مفضلين الاعتماد على بيوتات النصارى المثقفة في تصريف مثل هذه الأمور • ومن ثم ، لم نسمع خلال فترة حكمهم عن يهودي شغل منصبا في الولاية • على أن ذلك لم يمنعهم - بأية حال - من ممارسة أعمال تجارية واسعة دون أن يضايقهم أحد [4] •

وعلى الرغم من تمتع قسم من اليهود بهذا القسط من الثراء وممارسة النفوذ ، فان الغالبية العظمى من بني جنسهم بقيت تعيش عيشة وسطا أو في فقر مدقع أحيانا

---

(١) سليمان فائق : مرآة الزوراء ص ٥٢ وتاريخ المماليك الكوله مند ص ٤٧ •
(٢) تاريخ المماليك الكوله مند ص ٥٦ ونوار : داود باشا ص ١٤٠ •
(٣) نوار : المصدر نفسه ص ١٤٠ •
(٤) غنيمة : نزهة المشتاق ص [illegible] •

فكان منهم صغار التجار والدلالون وباعة المواد الغذائية (١) . وفي المدن الصغرى ، مثل أربيل وكويسنجق ، كان اليهود يحترفون مهنا أكثر تواضعا ، كالصياغة والدباغة وتقطير الكحول والحياكة ، فضلا عن مهن حقيرة أخرى (٢) .

ويعد " الحاخام باشي " (رئيس الحاخامين) الرئيس الحقيقي لطائفته ، فهو الذي يتولى ادارة أمورها المختلفة ، ويمثلها أمام الحكومة ، يساعده في ذلك مجلس ملي ، يتشكل من عدد من وجوه الطائفة ، كما يرأس الطائفة بعد رئيس الحاخامين " الناسي " (٣) ، ولصاحبه نفوذ كبير على بني قومه ، وقد تولى هذا المنصب أحيانا بعض كبار الصرافين (٤) .

ولقد كان لليهود ، في المدن العراقية التي استوطنوا فيها ، أحياؤهم الخاصة بهم ، فكان لهم في وسط بغداد حي صغير عند جامع الخلفاء القديم ، عرف بمحلة التوراة (٥) ، مارسوا فيه أعمالهم بحرية (٦) . وأخذ هذا الحي بالتوسع في القرن التاسع عشر حتى ضم اليه أجزاء من الأحياء المجاورة (٧) ، وكانت في شمالي الحي المذكور

(١) فوك عربستان ص ١٤٣ . وانظر Heude, W.: A Voyage up the Persian Gulf, P. 182

(٢) Hay, W.: Two years in Kurdistan, P. 87.

(٣) الناسي : كلمة عبرية معناها السامي ، وقد منح هذا اللقب لرؤساء اليهود في القرون المتأخرة بدل لقب (رأس الجالوت) القديم .

(٤) نزهة المشتاق ص ١٦٧ .

(٥) Rousseau, L.J.: Description du Pachalick de Baghdad, P.12 واحمد سوسة : أطلس بغداد ص ٢٠ (خريطة محلات مدينة بغداد) .

(٦) Teixeira, P.: The Travels ..., P. 84.

(٧) ماسنيون ، لويس : تعليقات على لهجة بغداد العربية ص ١٠ ـ ١١ .

سوق اختصت باليهود ، تباع فيها المواد الغذائية المختلفة . وهذه الأحياء - حتى عهد قريب - تعد أقذر أحياء المدينة واكثرها اتساخا .(1) وفي أربيل كان لليهود حي خاص يسكنونه ، ويمارسون فيه أعمالهم ، يقع في آخر حدود المدينة(2) ، كما كان لهم في الموصل حي عرف بمحلة اليهود ، وردت أخباره في القرن السادس عشر(3)

وكان من نتيجة التسامح والتساهل الذي عاش اليهود في ظله ابان العهود الاسلامية ، أن كثرت معابدهم في المدن العراقية الرئيسية ، فكان في بغداد ، في منتصف القرن التاسع عشر ، تسعة كنس ، ومدرسة دينية . وكان في الموصل ، في الوقت نفسه ، كنيس واحد ومدرسة(4) ، هذا بالاضافة الى بعض المزارات الدينية خارج المدن ، مثل قبر العزير (عزرا) على دجلة ، قرب بلدة " العمارة "(5) وقبر ذي الكفل (حزقيال) الى الجنوب من الحلة ، مع أن الأخير يقع في مسجد اسلامي قديم له مكانته لدى المسلمين (6) . ورغم هذا ، فان الاسرة العربية التي تتولى ادارة المسجد والاشراف عليه ، كانت تسمح لأولئك اليهود بزيارة المكان دونما أي مقابل(7) .

---

(1) عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ص ٥٥ .

(2) Edmonds, C. J.: Op. Cit., P. 80

(3) سجلات ولاية الموصل . دفتر ٦٦٠ لوحة ٢٧ .

(4) غنيمة : نزهة المشتاق ص ١٧٤ .

(5) مدينة تقع الى الجنوب من بغداد ، بينها وبين البصرة . وكانت حول موقد العزير قرية صغيرة يسكنها أعراب المنطقة ، وردت اخبارها في عهد المماليك انظر : Rich, Cl: Narrative of a Residence in Koordistan, Vol. II, P. 73

(6) يشتهر هذا المسجد بمئذنته الفخمة الشامخة ، وهي من منشآت العهد المغولي الايلخاني في العراق .

(7) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, PP. 216 - 217.
وانظر : Rich, C.: Narrative of Journey Site of Babylon in 1811, P. 45.

الصابئـــة :

يعـد الصابئة من الفرق الدينية المهمة في جنوبي العراق ، وخاصة في منطقـة المستنقعات والاهوار المعروفة بالجزائر (البطائح) ، وقد تميزت هذه الفرقة بتقاليدها وعاداتها ولغتها وسحن المنتمين اليها عن غيرها من سكان تلك الانحـاء ، ويعتمـد دين الصابئين على عبادة الاله الواحد ، والايمان بكتبهم المقدسة ، ونبوة يحيـى (يوحنا) بن زكريا ، وأمور أخرى مثل احترام النجوم واستقبال نجم القطـب ، وتكريم الكواكب السيارة ، وتعرف لغتهم بالمندائية [1] ، وهي لغة سامية ذات قواعـد وحروف خاصة [2] ، ونظرا لتقديسهم الشديد للماء فانهم يختارون مواطنهم عنـد ضفاف الانهار ، أو في المدن الواقعة عليها . وهم — على ما يرى بعض الباحثين — شعب غريب نزح الى هذه البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من عادات وتقاليد [3] .

ويرأس هذه الفرقة جماعة مختارة من رجال الدين يتدرجون في مراتبهم ومنزلتهم [4] ، الا ان اهمية هؤلاء روحية محضة ، ليست لها سمة زمنية ، وهو ما أدى الى ابتعـاد الصابئة في العراق ، طوال تاريخهم عن أي نشاط متميز في المجالات العامـة ،

---

(١) يعرف صابئة جنوبي العراق بالمندائيين ، ولغتهم هذه مقدسة ، يتعلمهـا رجال الدين فقط .

(٢) انظر : دراور ، الليدي : الصابئة المندائيون ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان روفي (بغداد ١٩٦٩)

(٣) عبد الرزاق الحسني : الصابئون في حاضرهم وماضيهم ص ٣٥ و ٤٠ — ٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٦ — ٨٣ .

وخاصة فيما يتصل بالحياة الفكرية أو السياسية ، أما نشاطهم الاجتماعي فقد بقي يتسم بروح انطوائية واضحة ، منعزلة عن الحياة الاجتماعية للطوائف الاخرى .

وبسبب انتشار مواطن الصابئة في مساحة من جنوبي العراق ، وفي بيئات وعرة متباعدة ، فقد اختلف الرحالون والكتاب في تقدير عددهم ابان العصر العثماني وخاصة في عهد المماليك . وكان بعض الرحالين قد اشار ، في منتصف القرن السابع عشر ، الى وجود عدد كبير منهم في مدينة البصرة والقرى المجاورة لها ، وبعض مدن عربستان (الاحواز) قدروه بنحو خمسة وعشرين ألف عائلة [1] ، وهو عدد كبير اذا ما قورن بما ذكره رحالة آخر ، بعد ذلك بقرن تقريبا ، حيث أشار الى ضآلة عددهم البالغة [2] . وقدر بكنجهام ، الذي زار بعض مواطنهم في أوائل القرن التاسع عشر ، عددهم بنحو ألف عائلة ، منهم ثلاثون عائلة في مدينة البصرة ، ومائة في بلدة "القرنة" عند ملتقى نهري دجلة والفرات ، الى الشمال من البصرة ، وكانت ثمة أسر أخرى في بلدة "سوق الشيوخ" مقر مشيخة قبائل المنتفق على الفرات [3] .

ويبدو أن محاولات تبشيرية كاثوليكية ، جرت ، منذ اواخر القرن السادس عشر لنشر الكثلكة بين الصابئة ، فان عددا من أولئك المتنصرين زاروا روما في مطلع القرن السابع عشر لتشجيع الكنيسة الكاثوليكية على مد مجال نشاطها ليشمل مواطنيهم ايضا ،

---

(١) رحلة تافرنييه ص ١٠٢ .
و Della Valla, P.: Op. Cit., P. 247.
(٢) Niebuhr, K.: Op. Cit., II, P. 181
(٣) Buckingham, J.: Travels in Assyria, Media, Persia, II, P.158

باعتبارهم احدى الفرق النصرانيـة الضالة ، وزاعمين انهم يدعون بنصارى القديـس يوحنا (١) ، ولقد شاعت هذه التسمية فعلا فى المحافل التبشيرية الاوربية ، ووجهت بعض البعثات الكاثوليكية جهودها الى هذا الغرض ، والظاهر انها أصابت نجاحا ، حتى قيل ان الاب باسيل البرتغالى مؤسس الرسالة الكرملية فى البصرة قد اجتـذب وحده بضعة آلاف من الصابئة الى النصرانية الكاثوليكية ، وتبعه فى مسعاه هـذا آخـرون (٢)

ويبدو أن هذه الجهود كانت تلقى — رغم نجاحها أحيانا — عقبات جمة ، دفعت ببعض الرحالين الاوربيـن فى القرن التاسع عشر الى الاعتراف بفشل " قسوس الموصـل (الكاثوليك) ورهبان البروتستانت بمواعظهم الطويلة ، وجهودهم الجبارة التى بذلوها طوال سنوات عديدة أن يتركوا اى اثر محسوس فى عقائدهم وعاداتهم المتغلغلة فى نفوسهم تغلغلا عجيبا " (٣)

وكانت مهن الصابئة تنحصر — على مالاحظ معظم الرحالين — فى بعض الصناعـات الضرورية الدقيقة ، التى اشتهروا باتقانها ، مثل صياغة الذهب والفضة ، والمجوهرات والتكفيت بمادة " الميناء " (٤) ، اما فى مواطنهم الريفية ، حيث تسود البيئـة

(١) Budge, W.: By Nile and Tigris, P. 165.

(٢) Della Valle, P.: Op. Cit., P. 247.

(٣) رحلة مدام ديولافوا ص ٢٦ .

(٤) الميناء ، اسم معرب عن الفارسية يطلق على اكاسيد معدنية تصهر بمادة زجاجيـة ، وتزين بها الحلى وأوانى الذهب والفضة ، وتنحصر هذه الصناعة — حتى اليوم — بابناء الطائفـة الصابئية ، واساليبها معدودة من أسرارهم الخاصة بهم .

القبليـة ، فكانوا يحترفون ايضا اعمال الحدادة وصناعة الاسلحة الجارحة ، والزوارق الخشبيـة والتجارة ، مما يشكل احدى أهم الخدمات التي تحتاجها القبيلة فـي نشاطاتها العسكرية والمعيشية (١) . وليست ثمة معلومات عن طبيعة علاقتهم بحكومـة المماليك ، أو عن صلاتهم بحكومات المدن المحلية الاخرى ، سوى أنهم كانوا يدفعون الجزيـة شأنهم في ذلك شأن أهل الذمة من النصارى واليهود (٢) .

ولقد استرعت عادات هذه الطائفة وتقاليدها الشائعة اهتمام الرحالين الذين مروا بمواطنهم في خلال العصر العثماني ، وخاصة فيما يتعلق بطقوس الزواج والدفن ، وتصورهم للحياة بعد الموت ، واعتقاداتهم المتعلقة بالانبياء ، وصلاتهم وصومهم .. الخ . فيذكر تافرنييـه أن للصابئة ثلاثة أعياد رئيسية ، أحدها في الشتاء ومدته ثلاثـة أيام ، والثاني في حزيران (يونيو) ومدته خمسة أيام ، والثالث في آب (اغسطس) وأمده ثلاثـة أيام ، ويعرف الاخير بعيد مار يوحنا (٣) .

وهم على ما يذكر بكنجهام ، لا يتميزون على سائر السكان العرب بزي خاص بهم (٤)، بيد أنهم – ولأسباب دينية – ينفرون من اختيار اللون الازرق في ارديتهم (٥). وللصابئة

---

(١) رحلة تافرنييـه ص ١٠٢ – ١٠٣ .
و Blunt, A.: Bedouin Tribes of the Euphrates, II, P. 202.
والحسني : الصابئون ص ١٢٨ – ١٢٩ .
(٢) ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد ص ٨٧ .
(٣) رحلة تافرنييـه ص ١١٢ .
(٤) Buckingham, J.: Op. Cit., II, P. 157.
(٥) رحلة تافرنييه ص ١١٥ وانظر : الحسني : الصابئون ص ١٣٩ .

أهتمام شديد بالتطهر والنظافة ، حتى يبلغ هذا حد المبالغة والتزمت في كثير من الاحيان [(١)] ، فعندما يحتضر احدهم ، أو يعرض مرض الموت ، يحمله ذووه الى قبره وهو ما زال حيا ، تجنبا لحمل جثته عند وفاته ، التي هي في رأيهم على جانب كبير من النجاسة [(٢)] . وفيما عدا هذه العادات الغريبة ، فان الصابئة ، كما لاحظت ديولافوا " يتميزون بشيء كثير من سمو الخلق وكرم الطباع حتى ليضرب بامانتهم وصدقهم المثل في تلك البلاد " [(٣)] .

ثانيا : عادات السكان وتقاليدهم

الاسرة :

يبدو ان الاسر الارستقراطية في البلاد ، لم تكن تميل ، بحكم تقاليدها ، الى تعدد الزوجات الا نادرا ، فلم يكن ولاة المماليك غير زوجة واحدة ، او زوجتان في الاحوال القليلة [(٤)] . وكان ولاة الموصل من آل الجليلي يتبعون مثل هذا التقليد ، في الوقت الذي جرت فيه عادة الطبقات الوسطى في المدن على الزواج باربع ، بحسب

(١) يذكر بكنجهام ان تطرفهم في طهارة طعامهم تشبه ما هو موجود لدى الطائفة البرهمية في الهند
Buckingham,J.:Op.Cit., II, I. 158.
ورحلة ديولافوا الى كلده - العراق ص ٢٤ - ٢٥ .
(٢) رحلة ديولافوا ص ٢٥ والحسني : الصابئون ص ١٣٢ - ١٣٦ .
(٣) رحلة ديولافوا ص ٢٦ .
(٤) مثل سليمان باشا ، اول ولاة المماليك ، وعمر باشا ، وسليمان باشا الكبير ، وسليمان باشا الصغير .

أولادهن بسبب اسرافهن الشديد فى اطعامهم (١) ، فى حين كانت نساء الطبقـات الدنيا من المجتمع ، يعانين من ظاهرة كثرة وفيات الاطفال بسبب سوء التغذية ورداءة البيئة وعدم الوقايـة من الامراض ، وكان معظم اهتمام الام ينصب على محاولة اطالـة اعمار اطفالها بمختلف الوسائل البدائية (٢) ، وأن تأتى لزوجها بأكبر عدد مـن الذرية ، ولهذا فكان كثيرا ما ينتهى بها المطاف الى الدراويش والعرافين ومدعـى الخوارق ، فتغدق عليهم بالمال ، وقد تلجأ الى مشاهد مقدسة ، تطلـب منها ما تريد ، وتمنح خدمها ، وهم كثيرون ، ما يكفى لتحقيق ذلك (٣) .

وكانت التقاليد تحتم على المرأة ، عند وفاة احد افراد أسرتها ، وخاصة زوجهـا ، أن تظهر من حالات الجزع والالم ما يجنبها لوم معارفها وتقريعهم ، وذلك بأن تكشف رأسها " وتحل شعرها وترسله على اذنيها ، وتسود وجهها بسخام القدور ، وتصنع حركات غريبة تستثير ضحك الغرباء بدلا من دموعهم . ويحضر جمع الاقارب والاصدقاء والجيران الى دار الميت ، ويمكثون هناك الى ميعاد تشييع الجنازة ، وفى ذلك الوقت تتزاحم النسوة الى اظهار حزنهن ، وذلك بلطم خدودهن ، والعويل كالمجانيـن ، ويبدأن فجأة بالرقص على صوت نقارة كالتى يحملها اصحاب الطبول والمزامير ، وتبقـى

---

(١) Ibid., P. 224.

(٢) فوك : عربستان ص ١٣٠ .
وقد سجل الأب أنستاس ماري الكرملي كثيرا من تلك الوسائل الغريبة ، فى كتابه " مزارات بغداد " الذى الفه باللهجة العامية البغدادية سنة ١٩١٣ .

(٣) مزارات بغداد ص ٢ و ٤٤ و ٤٦ و ٥٠ و ٥٥ و ٦٠ و ٦٣ و ٧١ ، مخطوط) .

النسوة ينقرن عليها نحو ربع ساعة . ومن جارى عاداتهم فى المآتم ، أن تندب احداهن الميت ، فيجبنها الباقيات بعويلهن وولولتهن التى تسمع من بعيد .. وعندما يحمل الجثمان الى القبر ، يتقدمه رهط من الفقراء حاملين الاعلام التى تنتهى عصيها فى اعلاها بأهله ، وهم يندبون بألحان محزنة طول الطريق . ولا يباح للنساء مرافقة الجثمان ، لأنه لا يخول لهن الخروج من الدار الا فى ايام الخميس ، حيث يقصدن للصلاة على الميت" (١) .

ويشكل المماليك عنصرا مكملا هاما فى حياة الأسر العراقية ، اذ لم تخل بيوت الطبقات المترفهة من أشخاص مملوكين ، قد اشتروا من أسواق النخاسة ، أو ورثهم رب الدار او ربته من اسرته ، ويقوم هؤلاء - عادة - بأمور الخدمة المنزلية ، كالطبخ ، وخدمة الضيوف ، واعداد القهوة وغلايين التبغ .. الخ . وقد لاحظ بعض الرحالين الاوربيين ان مستوى أولئك المماليك المعيشى والاجتماعى حسن للغاية (٢) ، فاذا ما أخلص مملوك فى خدمة سيده لمدة اثنى عشر شهرا أو اكثر ، فانه ضمن عدم بيعه ثانية فى الاسواق . ومهما أساء هذا المملوك ، فان سيده - رغم أن حياته بيده - لا يلجأ الى القسوة معه الا نادرا ، وأقصى عقوبة ينزلها به هى طرده من خدمته ومنزله ، أما اذا عامل سيد مملوكه بقسوة بالغة ، فسرعان ما يؤنبه جيرانه على ذلك "ويحضونه على التفكير مليا فى أن هذا العبد هو انسان مثله من نفس جنسه" (٣) .

---

(١) رحلة تافرنييه ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) Ives,E.:Op.Cit.,P.285 & Fraser,J.B.:Op.Cit.,II,P.277.

(٣) وفوك : عربستان ص ١٨٧ .
Ives,E.: Op. Cit., P. 285.

ويحتق المملوك في مناسبات عديدة ، فاذا ما أخذ الى مكة ، فانه يحتق حالاه واذا ما أولد سيد مملوكته ولدا ، فلا يكتفي بعتقها وحسب ، بل يكون لها ولولدها نصيب من ميراث الأب [1] . بل قد يحرم بعضهم ابنه من ميراثه ، بينما يعطي ثروته لعبده مختارا ، تاركا لابنه حصة ضئيلة من تركته [2] . وقد يصبح العبد موضع ثقة سيده وكاتم اسراره ، اكثر مما قد يتاح لغيره ، وذلك بسبب ارتباط مصيره به وتعلقه بأمره [3] .

وكان ولع السكان باقتناء العبيد السود شديدا للغاية ، حتى بلغ عدد أولئك العبيد في البصرة نحو ثلث عدد السكان [4] ، وكانت شوارع بغداد تكتظ بهم على نحو لافت للنظر [5] ، واغلب هذا النوع من المماليك مجلوب من زنجبار ومدغشقر عن طريق مسقط [6] .

---

(١) عربستان ص ١٨٨ .

(٢) Ives, El: Op. Cit., P.285

(٣) Ibid.

(٤) بيير دي فوصيل : الحياة في العراق منذ قرن ص ١١ عن وثيقة مؤرخة سنة ١٨٤٠ .

(٥) Fraser, J.B.: Op. Cit., I, P. 277.
وفوك : عربستان ص ١٨٨ .

(٦) Ibid.
ودي فوصيل : المصدر السابق والصفحة .

المـــــرأة :

لقد اختلفت حياة المرأة الاجتماعية بحسب اختلاف وضعها بين المدينة والريــف والبادية ، وتبعا للطبقات الاجتماعية التى تنتمى اليها ، فشاركت المرأة فى الريـف رجلها فى مجالات عمله كافة ، مثل "تهبيش" القمح [1] ، واستخلاص الزبد مــن الحليب ، أو جمع العلف للحيوانات ، أو الاحطاب والاغصان للوقود ، ومثل طحن الحنطة أو الشعير بمطاحن تدور بالاذرع ، ورعى المواشى ورعاية حيوانات الاســـرة [2] ، بل كن يؤدين أعمالا اكثر مشقة مثل رفع المياه من الابار والانهار ، واستعمالها فــى السقى ، وهو ما أثار شفقه بعض الرحالـين أحيانا [3] .

وفى الباديـــة ، كان لكل من النساء فى الاسرة عملها الخاص ، كتهيئة الوقـــود وطحن الحبوب ، ونقل الماء ، والخبز ، والطبخ ، فى حين لا يجد الرجل البدوى ، نظرا لطبيعـــة حياته الاقتصادية ، سوى ممارسة الغزو دفاعا عن اسرته وقبيلته ، أو الراحـــة والتحدث فى اوقات السلم [4] .

---

(١) التهبيش هنا : فصل الحبوب عن قشرتها .

(٢) Grant, A.: The Nestorians, P. 210

ونيكيتين ، باسيـل : الاكراد ص ٨١ ــ ٨٢ .

(٣) Ives, E.: Op. Cit., P. 256.

(٤) فوصيل : الحياة فى العراق منذ قرن ص ٦٣ ــ ٦٤ .

أما في المدن ، فكانت نساء الطبقة الدنيا ، والوسطى أحيانا ، يمارسن نشاطهن في صناعة الغزل المنزلي ، حيث كان الغزل من أهم مهام ربة البيت ، حتى اعتبر المجتمع الموصلي ، الذي يعتمد في اقتصاده على هذه الصناعة ، أن عدم معرفة المرأة بالغزل عيب لا يغتفر في تربيتها المنزلية [١] ، بل كانت هناك في مصانع النسيج نساء يعملن في هذه المهنة الشاقة [٢] ، وكان من المحتمل أن يقتسم الجنسان العمل فيعمد الرجال الى غزل الصوف بالمنازل بينما تقوم النساء بغزله بالدولاب [٣] .

ولما لم تكن ثمة ضرورة لقيام نساء الطبقات العليا من المجتمع بمثل هذه النشاطات الاقتصادية ، فقد انصرفن الى مزاولة شؤونهن النسوية الخاصة ، مثل الافراط في اقتناء الملابس المختلفة ، والمجوهرات ، والتدخين ، وتناول القهوة ، أو الثرثرة مع الخدم والدلالات اليهوديات اللواتي يأتين الى البيوت لبيع الاقمشة ، والقيام ، بصفة مستمرة ، بزيارات جماعية لبعضهن البعض ، فيجتمع في بيت مضيفتهن عدد كبير من النساء يتألف من الزوجات ، والاخوات ، والعمات والخالات ، وبناتهن ، والمملوكات والخدم والاطفال والمربيات . ويشترك الجميع – في آن واحد – في حديث صاخب تتخلله الضحكات ، وقد يشارك في تلك الاجتماعات مغنيات وراقصات يستدعين لادخال البهجة الى نفوس الحاضرات [٤] . ولا تختلف نساء المماليك من السكرجيات

---

(١) عبد الخالق خليل الدباغ : معجم امثال الموصل العامية ص ٨٠ .
(٢) ياسين العمري : الدر المكنون (مخطوط) .
(٣) Texeira, P.: The travels, P. 83.
(٤) Fraser, J.B.: Op.Cit., I, PP. 285-286.
ورحلة ديولافوا الى كلده ص ٥٨ .

والشركسيات ، عن سواهن من نساء الطبقة العليا من المجتمع ، الا بجمالهن الباهر الذى كان ضربا للامثال [1] ، فى حين تقل نسبة هذا الجمال لدى الاخريات طرديا بحسب انخفاض مستواهن الاجتماعى [2] .

على ان حياة مترفة كهذه لم تكن تخلو — ايضا — من اعمال خيرية نافعة ، فعرف عن بعض نساء الطبقة الارستقراطية اهتمامهن الشديد بانشاء المؤسسات الدينية والثقافية ، كالمساجد والمدارس ودور الكتب ، ووقف الاوقاف الكافية عليها ، من ذلك ان عادلة خاتون بنت احمد باشا ، وزوجة سليمان باشا أبى ليلة ، أول ولاة المماليك ، شيدت ببغداد مسجدا كبيرا عرف باسمها [3] ، ومدرسة دينية للحنفية والشافعية ، ووضعت لهذه المدرسة نظاما متقنا [4] ، كما انشأت — ايضا — عددا من الخانات التجارية فى بغداد وغيرها من المدن ، ودارا باتصال المحكمة الشرعية ، خصصتها لسكنى قضاة بغداد ، ورممت مساجد ومنشآت اخرى فى مدن عراقية مختلفة [5] وقامت نساء اخريات باعمال مشابهة ، فشيدت منورة خاتون ، زوجة سليمان باشا

---

(١) وما زال العراقيون يصفون المرأة الجميلة بالكرجية ، والشركسية ، حتى اليوم

(٢) Ibid, P. 223 & Olivier, G.A.: Voyage dans L'Empire Ottoman Vol. II, P. 392.

(٣) ويعرف هذا المسجد بالعادلية ، او بجامع عادلة خاتون ، وهو قريب من المحكمة الشرعية ببغداد ، وسط المدينة .

(٤) وقفية جامع العادلية (مخطوط) والدروبى : البغداديون ص ٣٢١ .

(٥) Niebuhr, K.: Voyage en Arabie, II, P. 215

الصغير مسجدا جامعا ببغداد والحقت به مدرسة [1] ، وانشأت نابي خاتون زوجة سليمان باشا الكبير ، ونازلده خاتون زوجة علي باشا ، مساجد ومدارس اخرى [2] .

وشملت ظاهرة اهتمام نساء الطبقة العليا بانشاء مثل هذه المؤسسات نساء اخريات من غير طبقة المماليك ، فقامت عائشة خاتون بنت علي الكبير القادري ، نقيب اشراف بغداد ، بانشاء مدرسة كبيرة سنة ١٨١١م/١٢٢٦هـ ، ووقفت عليها خزانة كتب نفيسة [3] ، واكتفت اخريات بوقف الاوقاف الكثير على المؤسسات القائمة فعلا ، امثال عائشة خاتون بنت عبد اللطيف الكتخدا ، وخديجة خاتون الرواف ، ومريم خاتون بنت عبدالله [4] ، وغيرهن .

وفي الموصل ، شاركت نساء آل الجليلي بأعمال كثيرة في هذا المجال ، فانشأت رابعة خاتون بنت اسماعيل باشا جامعا ومدرسة نسبا اليها ، وشاركت حليمة خاتون أم سليمان باشا الجليلي ، وحمراء خاتون ، في بناء جامع الزيواني ومدرسته سنة ١٧٧٩م/١١٩٣هـ ، وانشأت زوجة الغازي أمين باشا مسجد المقبرة وشيدت عائشة خاتون أم محمود باشا بن محمد باشا الجليلي جامعا ، وأوقفت عليه

---

(١) محمود شكري الآلوسي : مساجد دار السلام بغداد . ص٥١ (مخطوط)
(٢) ابراهيم الدروبي : البغداديون ص ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥٢ و ٣٥٣ .
(٣) الدروبي : الباز الاشهب ص ٤٤ ـ ٤٦ . ولقد اندثرت هذه المدرسة تماما بسبب الغرق الشامل الذي تعرضت له بغداد سنة ١٨٣١م/١٢٤٦هـ ، والطاعون الذي داهمها في الوقت نفسه . عماد عبد السلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج ١ ص٢٩ .
(٤) البغداديون ص ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥٤ .

الاوقاف ورتبت ولدها محمود متوليا عليه سنة ١٧٩٧م/١٢١٢هـ ، واشتركت فـرد وس خاتون بنت يحيى أغـا مع زوجها حسن باشا الجليلي في بناء المدرسة الحسنية سنـة ١٨٠٤م/١٢٢٩هـ ، كما ساهمت نساء اخريات بأعمال خيرية مشابهة (١) .

ولعبت بعض نساء المماليك ادوارا هامة في توجيه السياسة العامة للبلاد ، فكـان لعادلة خاتون مجلسا عاما ، تنظر فيه ، عن طريق بعض مماليكها ، في العرائض المرفوعة اليها ، بل بلغ بها الامر ان تمنح لاتباعها من كبار الموظفين عصابات حريريـة يعصبون بها رؤوسهم لتمييزهم عن موظفي الباشا الاخرين . وكانت تستطيع ، بمـا تدبره من مؤامرات ، أن تتخلص من اي موظف مهما ارتفع مقامه ، وتولي من تشاء اي منصب تريد (٢) . وكانت " نابي خاتون " ام سعيد باشا بن سليمان باشا الكبير ، تحتفظ لنفسها بالكلمة النافذة في مقدرات الولاية ، فتعزل من تشاء ، وتولي من تشـاء ، ولها في ذلك حاشية وأتباع (٣) .

ازيـاء السكـان :

واستلفتت ازياء السكان وارديتهم التفات معظم الرحالين الاجانب الذين زاروا العراق ابان عهد المماليك . وتدل الاوصاف المديدة التي سجلوها لهذه الازياء انها كانت

(١) مجموعة وقفيات الموصل (مخطوطة) ، ونيقولا سيوفي : مجموع الكتابات المحـررة على ابنية مدينة الموصل ص ١١ و٢٥ و٣٩ و٤٠ و٥٤ و٥٨ و٦٤ و١١١ و١١٧ .

(٢) Niebuhr,K.:Op.Cit., PP. 255 - 262.
Heude, A.: A Voyage up the persian Gulf, P. 150.
Huart,C.:Histoire de Bughdad, PP. 155-156.

و

(٣) سليمان فائق : تاريخ المماليك الكوله مند ص ٤٣ .

تتميز بالتنوع الشديد في اشكالها ، وألوانها ، واثمانها ، وذلك كانعكاس طبيعي لكثرة الفئات القومية والدينية ، وتعدد الطبقات الاجتماعية ، في المجتمعات العراقية آنذاك ، فملابس الاغنياء غيرها ملابس الطبقات الوسطى والفقيرة ، واردية أهل المدن عموما لا تشبه تلك التي يرتديها أبناء البادية والريف ، فضلا عن أنه كان لكل طائفة ازياءها التي تتميز بها غيرها من الطوائف الاخرى .

وكنتيجة للاختلاف الشديد في درجات الحرارة بين صيف البلاد وشتائها ، فقد اختلفت ايضا ملابس سكانها اختلافا كبيرا بحسب الفصول .

ووصف لنا الرحالة التركي أولياء جلبي ملابس اعيان بغداد ووجهائها بأنها تتكون ، شتاء ، من فرو السنجاب والسمور (١) ، وأنواع اخرى من الفرو الثمين ، في حين تتألف صيفا من عباءة صوفية بيضاء ، أو من ملابس مصنوعة من قماش الجوخ (٢) . ويلاحظ تكسيرا أن سكان بغداد نظيفون ، يلبسون الملابس النظيفة (٣) .

ويتألف زي رجل الطبقة العليا من المجتمع ، كما يشير آيفز ، من أنواع شتى من الملابس ، فهو يرتدي قميصا فضفاضا ، عليه صدريتان الواحدة فوق الاخرى ، ثم سترة ثالثة واسعة مبطنة بالحرير ، كما يرتدي ايضا سروالين من قماشين مختلفين ،

---

(١) السمور : حيوان بري يشبه ابن عرس ، لونه مائل الى السواد ، شاع استعمال فرائه في نوع من الملابس يشبه "الفرجية" ، وصار خلع السلطان هذا الرداء على كبار موظفيه وولاته يعد تشريفا كبيرا لهم ، ومن مراسيم تجديد بقائهم في الحكم (انظر دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب . ترجمة الدكتور اكرم فاضل ص ٢٠٩) .

(٢) اوليا جلبي سياحتنامه سي ج ٤ ص ٤٢٠ .

(٣) Teixeira, P.: The travels of Pedro Texira, P. 64.

فوقهما تنوره مفتوحة ، بحزام من الصوف الفاخر المطرز بالذهب والفضة ، وينتعل — فى آن واحد — خفين معا ، يخصص احدهما للخروج فقط (١) . ولا يختلف لباس الموظفين العثمانيين الرسميين ، عن سواهم من ابناء الطبقة العليا ، الا فى غطاء الرأس ، ففى الوقت الذى يلبس فيه ابناء تلك الطبقة ، كغيرهم من سواد الشعب ، العمائم ، على اختلاف انواعها والوانها (٢) ، نجد ان الموظفين يلبسون قبعات من قماش يبلغ ارتفاعها قدما أو اكثر ، ويلفون حولها قطعة من القماش الثمين (٣) .

ويشترك الجميع ، على ما لاحظ فوك ، فى تفضيلهم للألوان الزاهية ، والاقمشة الفاخرة ، فى ملابسهم ، مما كانت تستورده اسواق المدن العراقية ، من الهند والشام وأوربا ، فضلا عن ما تقدمه الصناعة المحلية من منسوجات فاخرة (٤) .

ولقد اشتهر المماليك ، كطبقة عسكرية حاكمة ، بعنايتهم الفائقة بأزيائهم الجذابة ، الملفتة للنظر بأناقتها وألوانها . فكانوا ، على ما لاحظ اكثر من رحالة ، يرتدون أجمل الملابس وابهاها ، ويتزينون بالاسلحة النفيسة وهم يتبخترون على جيادهم العربية

---

(١) Teixeira,F.: The travels of Pedro Texira, P. 64.

(٢) Ives, E.: Op. Cit., P. 286.
و Buckingham,J.:Travels in Mesopotamia, Vol.II,P.184 & Travels in Assyria,Media,II,P.149.

(٣) افاض آيفز فى وصفه لهذه الاغطية (Ives,E.:Op.Cit.,P.286)

(٤) وكانت الاقمشة المستوردة من انجلترا ترى — ابان القرن التاسع عشر — فى ابعد المدن العراقية وأوعرها طرقا . وقد لاحظ روس ، الذى زار مدينة العمادية ، فى اقصى المنطقة الجبلية من العراق ، ان اقمشة ما نشستر وجلاسكو وحرير دمشق تباع بوفرة فى اسواقها . انظر : Ross,H.J.: Letters, P. 108.

الاصيلة . ويذكر فريزر أن هذا المنظر الاخاذ قد اختفى بزوال طبقة المماليك نفسها ، فلم ير الناس بعدهم الا فرقا عسكرية سيئة الهندام ، افقدتها ارديتها نصف الاوربية ، هيبتها التقليدية المعروفة (١) .

ولم يكن لباس نساء الاتراك والمماليك من الكرجيات والشركسيات بأقل فخامة وأناقة من ملابس أزواجهن ، اذ ليس هناك - كما يؤكد فريزر - ما هو اكثر روعة وبهاء في اللون والمادة من لباس السيدات التركيات في بغداد . وتتألف هذه الملابس من قمصان حريرية ملونة فضفاضة ، محلاة بالذهب والفضة ، وصدارا مزينا ، وسترة مبطنة بأنفس انواع الفراء ، وسراويل عديدة مصنوعة من الحرير الملون الجذاب ، وطرابيش حمر مزينة بالحرير المذهب ، وكميات هائلة من اللؤلؤ والمجوهرات الثمينة وسلاسل الذهب ، يحلين بها اعناقهن وآذانهن وحتى اصابع اقدامهن ، مما يضفي عليهن منظرا اخاذا باهرا (٢) .

أما ازياء السواد الاعظم من السكان ، فكانت تدخل فيما يمكن ان يسمى بالزي العربي التقليدي ، وهو ما يشبه ملابس القبائل البدوية الى حد كبير ، وكان من هذه الملابس ما تغلب عليه الاناقة والفخامة ، وقد سجل الرحالة ديلا فال ، عند مروره بمدينة عانة على الفرات ، اعجابه الشديد بملابس اهلها التي تشبه ملابس البدو ، فهم كانوا يلبسون الحرير ، وعباءاتهم خلابة الالوان ، ولهم مناطق جميلة ، ويحملون الاسلحة

---

(١) Fraser, J.B.: Travels in Koordistan, Vol.I, P.225.

(٢) Ibid., PP. 280 - 283.

الفاخرة وغيرها ، ويعتبرون أن ملابسهم هذه ، هي اجمل ملابس رآها من قبل (١). ولا يقتصر ارتداء هذا الزي على البدو فحسب ، بل يشاركهم في ذلك قسم كبير من الفلاحين (٢) ومن تجار المدن ، وان كانت مواد الملابس تختلف ، من حيث الثمن ، بين كل فئة واخرى (٣).

وبينما تبالغ نساء الطبقات العليا والوسطى في المجتمع ، عند خروجهن من بيوتهن ، باتخاذ الحجاب ولبس العباءات الزرق المنفرة ، فان نساء الطبقة الفقيرة من العرب يخرجن من دون حجاب ، ويشم أذرعهن ووجوههن بالوشم الازرق ، ويصبغن شفاههن باللون نفسه ايضا ، وقد يحلين مناخرهن ، في حالة كونهن متزوجات بأزرار ضخمة من الذهب والفضة (٤).

الاعياد والمناسبات الاجتماعية :

وتعد الاعياد والمناسبات الدينية من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العراق ابان العصر العثماني ، فهي مناسبات شعبية يشترك فيها الجميع داخل المدينة ، وخارج

(١) Della Valla, P.: The Travels.., P. 266.
(٢) Ibid.
(٣) Buckingham, J.: Op.Cit., Vol. II, P. 184
Travels in Assyria, Media, Persia, Vol.II, P.146
و Fraser, J.B.: Op.Cit., Vol. I, PP. 228 - 229.
(٤) Ives, E.: Op. Cit.
و Keppel: From India to England, Vol. I, P. 140
وكوك : بوستان أو بغداد الف ليلة وليلة ص ١٣٢ .
ودي غوسبيل ، بيير : الحياة في العراق منذ قرن ص ٤٤ .
وانظر : وليد الجادر : الملابس الشعبية في العراق ص ٢٦ - ٣٢ .

ريفها ايضا ، ويشارك فيها الشعب والحكام على حد سواء ، وغالبا ما شكلت المدفعية والموسيقى العسكرية " المهترخانة " أهم وسيلة للاعلان عن تلك المناسبات ، من ذلك ما كان يحدث عند التثبت من روئية شهر رمضان ، وهلال العيدين ، او أن يتخذ من زيارة الاضرحة المشهورة والصلاة في مساجدها مظهرا للاحتفال بتلك المناسبات [1] ، وخاصة في الايام الاخيرة من شهر رمضان ، حيث تضاء تلك المساجد بالمصابيح ، وتزين مآذنها بمصابيح اخرى تبقى موقده حتى النهار التالي [2] ، وفي ليالي مثل هذه المناسبات تكتسب المدن العراقية مظهرا خلابا وموحا غير عادي ، فتوقد القناديل الكثيرة في دروب الاسواق ، وفي المقاهي في بغداد ، وتضاء الشواطي نهر دجلة حتى تبدو المباني القائمة على تلك الشواطي ، وكأنها شعلة من نور [3]. بل يعمد كثيرون الى وضع القناديل في أوان ، يرسلونها على صفحة الماء فتبعث مزيدا من البهجة في النفوس [4] .

وتتدفق الحشود المحتفلة في الشوارع والاسواق وهي في احسن ازيائها ، فتتعالى اصوات المرح في كل مكان ، وتحتشد الميادين العامة بأناس من مختلف الطبقات ، حيث توقد النيران والقناديل ، وتمارس عندها النشاطات الترويحية

---

(١) مجهول : القوانين السلفية ص ٦ ـ ٨ (مخطوط) .
(٢) Buckingham, J. S.: Op. Cit., II, P. 430
(٣) Ibid., P. 434.
(٤) Ibid.

من غناء وموسيقى ورقص ، مما كان يثير اعجاب الرحالين الاوربيين الذين كانوا يمرون بالمدن العراقية ابان تلك المناسبات [1] .

وفي صباح اول يوم من ايام العيد تعزف فرقة " المهترخانة " الحانها ، وتطلق مدافع السارى احتفالا وايذانا ببدء الاحتفالات ، ويستمر العزف طيلة ايام العيد [2] وفي الوقت نفسه يأمر الوالي بمنح عطايا العيد الى سائر موظفيه واتباعه والى قراء المساجد وخدمها وغيرهم [3] .

وفي الايام التي تعقب العيد ، وبخاصة في فصل الربيع ، يخرج سكان المدن ، في احتفالات شعبية اخرى ، الى ارياف مدنهم وارباضها القريبة ، لزيارة مقامات الاولياء والصالحين المتناثرة هناك ، وفي الواقع ، فان مثل هذا الزيارات الجماعية لم تكن في اغلب الاحيان الا مبررا دينيا لدوامة المرح والاجازة التي يستروحها الناس بعد ايام العيد ، وفرصة للخروج على أسر القيود الاجتماعية السائدة داخل مدنهم [4] . من ذلك ان معظم اهل بغداد ، والحلاقين منهم خاصة ، كانوا يذهبون لزيارة ضريح الصحابي سلمان الفارسي في بلدة " سليمان باك " قرب اطلال " المدائن "

---

(١) Ibid., PP. 431 - 434.

(٢) القوانين السفية ص ٦ (مخطوط) .

(٣) المصدر السابق ص ٨ .

(٤) عزيز الحجية : بغداديات ج ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .

على طريق الهدية " [١] . ومن تلك الاحتفالات ايضا ، خروجهم لزيارة مقام الشيخ قضيب البان الموصلي خارج أسوار الموصل ، حيث ينتشر الناس حوله في الاماسي ويقضون وقتهم في الالعاب وركوب الخيل والمباريات وغير ذلك [٢] .

الرياضة والتسلية :

وكان لاحتفالات الفروسية أهمية كبيرة ، حيث تخصص خارج المدن اماكن لممارسة هذه الرياضة . ففي بغداد ، عرفت الارض الفضاء الواقعة خارج باب المعظم وهو باب المدينة الاعلى ، بميدان العبد ، وكانت تجري فيه عروض فروسية شائقة [٣] وفي البصرة ، كان هناك سهل فسيح في جنوب البلدة يؤدي الغرض نفسه ، فيجتمع فيه البصريون ايام الجمع لممارسة العاب الفروسية وركوب الخيل ، في الوقت الذي يقوم آخرون بأعمال البيع والشراء [٤] .

وكانت لعبة " الجريد " [٥] من احب الالعاب الى الطبقة العليا من المجتمع ، وقد شجعها ولاة المماليك ومارسوها باعتبارها لعبة عسكرية الطابع ، من شأنها

---

(١) أمين العمري : منهل الاولياء ج ٢ ص ٧٢ .
(٢) سعيد الديوه جي : جوامع الموصل ص ٢٦٣ .
(٣) عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ص ١٢٠ .
(٤) Tiexeira, P.: The Travels .., P. 35.
(٥) الجريد : هو السعف . واللعبة شبيهة جدا بلعبة التحطيب المعروفة في ريف مصر ، الا انها كانت تمارس بجدية اكبر ، باعتبارها تدريب على المبارزة الحقيقية .

تدريب لاعبيها على فن الضرب والمبارزة . وكان في بغداد اكثر من ميدان مخصص لهذه اللعبة ، يجتمع فيه الكبراء والاعيان كل اسبوع (١) . أهمها الميدان الواقع خارج اسوار المدينة ، في اعلى بابها الشمالي (٢) ، وميدان آخر كان موقعه في آخر حدود العمران في الجانب الغربي من بغداد (٣) ، عند مقبرة الشيخ معروف الكرخي هناك . وكانت العادة قد جرت بأن يخرج الوالي وكبار موظفيه ومماليكه واتباعه الى تلك الاماكن ، حيث يتبارزون بالعصي حينا ، ويجلسون لتناول القهوة والتبغ حينا آخر (٣)

وتعد لعبة الشطرنج والنرد من الالعاب المنتشرة بين مختلف مستويات السكان وثمة لعبة تعرف بـ " المنقلة " ويبدو أنها كانت من ألعاب العامة دون غيرهم ، حيث تلعب في المقاهي ، وفي الساحات المكشوفة المحيطة بالسوق (٤) .

وشاعت في هذا العهد ظاهرة المجالس الادبية في بيوت الفئات المثقفة من المجتمع ، وكانت هذه المجالس تضم اليها اناس من مختلف الطبقات الاقتصادية ، لا يجمع بينهم الا حب العلم والادب والمناقشة ، وكثيرا ما تحولت هذه المجالس

---

(١) Niebuhr,K.:Op.Cit., II, P. 246.

(٢) Buckingham,J.S.: Opl Cit., II, P. 177.

(٣) Niebuhr,K.: Op. Cit., II, P. 255.

(٤) فوك : عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة ص ١٣٤ .

الى ندوات فكرية ، أو تصبح مجالا لحل المشاكل الاجتماعية [1] . كما شاعت هذه الظاهرة فى مدن العراق الاخرى ، فكانت فى الحلة مثلا ، مجالس منتشرة يأوى اليها الناس فى اوقات فراغهم يسمرون فيها ويقضون فيها خصوماتهم ، ويدبرون فيها شوؤنهم العامة [2] .

الغناء والموسيقى :

أما أسباب التسلية البيتية ، فهى الغناء والرقص وتلاوة القصص . وكان المغنون المشهورون يؤدون فنهم ايضا فى الاماكن العامة ، وخاصة فى المقاهى التى يؤمها الرواد كل مساء ، ليطربوا الى اصوات مغنيهم المفضلين [3] . ويبدو ان عهد المماليك كان عهد ازدهار لهذا الضرب من الفن ، فان تراجم المغنين المعروفين لا ترتقى الى اقدم من العهد المذكور ، بعضهم كان من المماليك اصلا ، فابراهيم نجيب بك ابن

(١) ابراهيم الدروبى : البغداديون اخبارهم ومجالسهم ص ٥ وما بعدها . ويصف كاتب بغدادى هذه المجالس فى عهده (اواخر عهد المماليك) فيقول " ومن مجالسهم ومجموعاتهم الممثلة لحياتهم وحياتهم ، وما تنزع اليه نفوسهم ، وما يجرى فى نواديهم ، ويدور فى خلدهم ، وهذه تلخص فى تشطير ابيات ، أو تعريبها من الفارسية الى اللغة العربية ، أو من التركية اليها ، او تحويل الابيات العربية الى موال وزهيرى (نوع من النظم) ، او تشطير العربى القديم ، او القول حديثا ، او التقريض حتى للقصائد ، وبعض الرسائل التافهة او الالغاز او حلها " . ثم يذكر ان اول من اخذ يطرق القضايا الاجتماعية الهامة فى هذه المجالس هو السيد محمود شهاب الدين الآلوسى ، صاحب تفسير روح المعانى والمؤلفات العديدة الاخرى (١٨٠٢ - ١٨٥٣م / ١٢١٧هـ) منبها الى " الامر الكبير .. والخطر الجسيم (مجموعة عبد الفتاح الواعظ - مخطوط) .

(٢) يوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة ج ١ ١٢٤ .

(٣) Fraser, J.B.: Op.Cit., Vol. I, P. 230.

بكر بك (المتوفى سنة ١٨١٨م/١٢٣٤هـ) كان كرجي الاصل ، فهو ابن اخي عمر باشا والي بغداد ، وقد اشتهر بغنائه وموسيقاه (١) ، ومن مغني هذا العهد ايضا الملا حسن البابوججي (المتوفى ١٨٤٠م/١٢٥٦هـ) وكان حرفيا متواضعا الا انه نال شهرته في الغناء والطرب (٢) ، وعنه اخذ الغناء كبير مغني العراق في القرن التاسع عشر ، رحمة الله بن سلطان اغا المعروف بـ " شلتاغ " (المتوفى سنة ١٨٧١م/١٢٨٨هـ) ، والذي تنسب اليه طائفة من التجديدات والاساليب المبتكرة في فن الغناء العراقي التقليدي المعروف بـ " المقام " (٣) .

وفي الموصل ، كثر ناظموا الموشحات الدينية من شعراء وأدباء وغيرهم ، ووصف عدد من كبار رجال الصوفية بحسن الغناء ، واتقان الموسيقى ، والخبرة في الايقاع والنغمات وبلغ الامر حدا ان اعتبر الالمام بالموسيقى من المستلزمات الضرورية للرجل المثقف (٤).

---

(١) جلال الحنفي : المغنون البغداديون والمقام العراقي ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٤) محمد صديق الجليلي : التراث الموسيقي في الموصل (مجلة التراث الشعبي البغدادية ج ٨ (١٩٦٤) ص ٩٠٨) .

الخاتمـــــة

تناولت الرسالة دراسة الحياة الاجتماعية خلال الفترة التى حكم فيها المماليك ولايات بغداد والبصرة وشهرزور ، وخضعت لهم فيها ـ بنسب متفاوتة ـ امارتا بابان وسوران فى شمالى العراق ، كما ارتبطت بهم سياسيا حكومة الجليليين فى الموصل .

وقد توسطت هذه الفترة زمنيا ، المدة التى خضعت فيها الولايات والامارات الـتى يتشكل منها العراق الحالى ، للسيادة العثمانية ، الا أن هذه الوحدات تميزت خلال ذلك العهد ، بحكومات محلية ، اتجهت الى الاستقلال الذاتى عن السلطة المركزيـة العثمانية ، فى نفس الوقت الذى زاد فيه ارتباطها بحكومة المماليك فى بغداد ، فكانـت تلك الفترة تمثل ـ فى الواقع ـ مرحلة أساسية من مراحل بناء العراق الموحد الحديث.

وعلى الرغم مما اعتور الحياة السياسية فى تلك الولايات من اضطراب وصراعات مستمـرة فقد شهدت هذه الفترة تطورا واضحا من النواحى الحضارية ، وخاصة فيما يتصل بالحيـاة الاجتماعية ، لم تكن تعرفه البلاد من قبل .

وكانت الفترة التى سبقت عهد المماليك قد شهدت غلبة القوى الريفية والبدوية علـى المدن ، وكان ازدياد أهمية القبيلة على حساب المدينة يشكل مظهرا لغلبة المجتمعـات البسيطة على المجتمعات المعقدة المتعددة الطبقات والمسؤوليات ، وهو أمر أدى الـى تدهور مستمر فى اهمية المدينة العراقية وانحطاطها . ولعبت ظروف أخرى مثل الحـروب

العثمانية الفارسية على أرض العراق ، وأهمال تنظيم الرى ، وكثرة النزاعات القبلية أدوارا مختلفة فى اضعاف كيانات المدن وتقليص مجالاتها الحيوية .

وكان عهد المماليك هو أول عهود النمو التى شهدتها مدن العراق منذ نهاية العصور الوسطى ، فقد أدى النشاط الاقتصادى والاستقرار السياسى المتنامى فى هذه الفترة ، الى ازدياد تجمع السكان حول المراكز الادارية والتجارية فضلا عن تجمعاتها حول المراكز القبلية . وساعدت هذه العوامل على ظهور سمات خططية مشتركة شملت معظم مرافق المدن المهمة ، مثل القلاع والسرايات والأسواق والمساجد والدور والميادين العامة . فكان انتقال السلطة فى المدينة من القلعة الى السراى ينم على الطبيعة المدنية الجديدة للحكم . وكان انشاء الأسواق وتخصصها يدل على تعاظم الحركة التجارية ، فى حين دل تكوين المدينة من " محلات " ذات مسؤوليات ادارية مستقلة ، على مدى تأثر الادارة المدنية بنظام الملل العثمانى ، وبالتنظيم القبلى على حد سواء .

ولقد انقسم المجتمع داخل المدن الى طبقات اجتماعية متعددة يقف على رأسها المماليك باعتبارهم طبقة حاكمة ذات ملكيات اقتصادية واسعة . ويلاحظ فى هذا الصدد أن تحول المماليك الى وضعهم الاجتماعى كطبقة اقتصادية متميزة كان يمثل مرحلة متأخرة من تاريخهم ، فقد هيء المماليك ، أول الأمر ، ليكونوا فئة ادارية وعسكرية مدربة فى خدمة الولاة ، الا أنهم تمكنوا من الاستحواذ على السلطة تماما

مشكلين طبقة حاكمة حقيقية استطاعت أن تكسب اليها تأييد قطاعات مهمة من طبقـات المجتمع الأخرى ، وأن يحوزوا على ملكيات زراعية وعقارية واسعة ، وأن يستثمروا أموالهم في مجالات اقتصادية شتى ، جعلتهم أغنى طبقات المجتمع وأكثرها ثراء .

وفضلا عن هذه الطبقة ، فان ظهور طبقة الأسر الحاكمة في العراق كان يعد أهم سمات هذا العهد وأبرزها . وقد اختلفت هذه الأسر عن المماليك بأنها محلية محضة ذات تراث عريق ، وأن نهوضها للسلطة جاء نتيجة لأهميتها الاجتماعية والاقتصاديـة بعكس الحال بالنسبة للمماليك الذين لم يكونوا ، قبل تاريخ توليهم الحكم ، طبقـة أو جزءا من أيـة طبقة مالكة .

ولقد تولت هذه الأسر سلطاتها نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية مختلفة ، فبينما وصل الجليليون في الموصل الى السلطة معتمدين على أهميتهم المالية والتجارية فـي المدينة ، تمكن البابانيون في شهرزور من الانتقال من دور الزعامة القبلية الى طـور الامارة الاقطاعية المستقرة ، وجمع العباسيون بين الصفتين القبلية والاقطاعية ، وتمكنت أسر أخرى ، مثل آل عبد الجليل في الحلة ، والملالي في النجف ، من الصعود الى السلطة عن طريق التزام ضرائب الأرض الزراعية ، أو بالتزام جبي الضرائب من زوار المراقد الدينية .

وازدادت أهمية العلماء في عهد المماليك ، حيث أصبحت المدن مركز جذب لفئـات عديدة من القرى والأرياف لم يجد النابهون منهم سوى العلم مجالا للارتقاء الاجتماعـي . واستطاع العلماء التقرب الى طبقة المماليك ، ومارس عليهم بعضهم تأثيرا قويا ، بـل

شكل بعضهم زعامات عامة لتحقيق أهداف سياسية • وكانت ثروة هذه الطبقة فى نجوة من خطر المصادرة ، ونجح بعض العلماء فى تكوين سلالات حاكمة ، وكانت ثرواتهم تستند الى مصادر متنوعة أهمها رواتبهم الرسمية والوقفية وملكياتهم الزراعية التى تنامت فى هذا العهد بصورة واسعة •

وكان التجار يؤلفون فى أحيان كثيرة طبقة مقربة الى المماليك وذلك باعتبارهم الممول الرئيسى للحكومة • وقد تمتعوا لقاء هذا بامتيازات مالية واقتصادية هامة ، حتى اصبحوا مصدرا أساسيا للتراكم الرأسمالى فى البلاد • وكان لهم اسهام واضح فى الحياة الاجتماعية والثقافية ، بل انهم لعبوا أدوارا مختلفة فى توجيه الحياة السياسية بما يتلائم مع مصالحهم •

وكانت الهجرة فى المدن ، سعيا وراء الرزق ، تشكل عاملا هاما فى زيادة حجم طبقة العامة وتعاظم نشاطها • ولقد امتهن أبناء هذه الطبقة مهنا عديدة مختلفة وكانت لهم تجمعاتهم وزعاماتهم فى أحياء خاصة بهم ، ومارسوا تأثيرهم على الحياة السياسية فى المدن ، وكثيرا ما تدخلوا فى شؤون الحكم مناصرة لوال ضد آخر أو مدافعة عن قيادة معينة • بل أنهم استطاعوا فى بعض المدن ممارسة السلطة على نحو سافر أحيانا •

أما فى الريف ، فكانت القوة الرئيسية هناك تتمثل فى الزعامات القبلية القوية • وكانت هذه الزعامات قد نجحت فى الفترة السابقة لعهد المماليك ، فى اقامة اتحادات قبلية ضمت اليها العديد من القبائل الصغيرة • وكان سبب قيام هذه الاتحادات يكمن

شكل بعضهم زعامات عامة لتحقيق أهداف سياسية • وكانت ثروة هذه الطبقة فى نجوة من خطر المصادرة ، ونجح بعض العلماء فى تكوين سلالات حاكمة ، وكانت ثرواتهم تستند الى مصادر متنوعة أهمها رواتبهم الرسمية والوقفية وملكياتهم الزراعية التى تنامت فى هذا العهد بصورة واسعة •

وكان التجار يؤلفون فى أحيان كثيرة طبقة مقربة الى المماليك وذلك باعتبارهم الممول الرئيسى للحكومة • وقد تمتعوا لقاء هذا بامتيازات مالية واقتصادية هامة ، حتى اصبحوا مصدرا أساسيا للتراكم الرأسمالى فى البلاد • وكان لهم اسهام واضح فى الحياة الاجتماعية والثقافية ، بل انهم لعبوا أدوارا مختلفة فى توجيه الحياة السياسية بما يتلائم مع مصالحهم •

وكانت الهجرة فى المدن ، سعيا وراء الرزق ، تشكل عاملا هاما فى زيادة حجم طبقة العامة وتعاظم نشاطها • ولقد امتهن أبناء هذه الطبقة مهنا عديدة مختلفة وكانت لهم تجمعاتهم وزعاماتهم فى أحياء خاصة بهم ، ومارسوا تأثيرهم على الحياة السياسية فى المدن ، وكثيرا ما تدخلوا فى شؤون الحكم مناصرة لوال ضد آخر أو مدافعة عن قيادة معينة • بل أنهم استطاعوا فى بعض المدن ممارسة السلطة على نحو سافر أحيانا •

أما فى الريف ، فكانت القوة الرئيسية هناك تتمثل فى الزعامات القبلية القوية • وكانت هذه الزعامات قد نجحت فى الفترة السابقة لعهد المماليك ، فى اقامة اتحادات قبلية ضمت اليها العديد من القبائل الصغيرة • وكان سبب قيام هذه الاتحادات يكمن

بالدرجة الأولى ، في رغبة القبائل المكونة لها الى الدفاع عن مواطنها ومراعيها ونفوذها ازاء القبائل النجدية والسورية التي لم تكن تفتأ عن الهجرة الى أطراف العراق وبواديه .

وكانت أهم تلك الاتحادات القبلية التي عاصرت عهد المماليك ، اتحاد قبائل بني لام في حوض دجلة الأوسط والأسفل ، واتحاد قبائل المنتفق في حوض الفرات المقابل . واستطاع هذان الاتحادان أن يؤلفا أكبر القوى الضاغطة على السلطة المركزية في بغداد ، وشكلا في الوقت نفسه قطبين رئيسيين التفت حول كل منهما جماعة من القبائل والعشائر ، مما أسهم في تشكيل الخريطة القبلية في العراق آنذاك .

ولقد ارتكزت علاقة المماليك بالقبائل على ناحيتين أساسيتين ، أولاهما ارهاب القبائل وردعها بالقوة العسكرية كلما تمردت على المدن ، وثانيهما ترغيبها في التوطن والاستقرار بمنحها الأراضي والمراعي . وكانت هاتان السياستان تؤديان الى هدف واحد ، هو تفتيت وحدة القبائل واضعاف عصبيتها ، الا أن المماليك اضطروا ، نتيجة توالي الهجمات الوهابية في أوائل القرن التاسع عشر ، الى محاولة تكتيل القوى القبلية العراقية من جديد لتقف حاجزا في وجه المد الوهابي المتزايد .

ورغم المظهر الأبوي الذي كانت تتسم به الحياة الاجتماعية للقبيلة ، الا أن هذه القبائل عرفت نوعا من التكوين الطبقي ، يتلاءم مع أحوالها الاقتصادية والاجتماعية فكانت القبائل المنزعة للاتحادات تشكل طبقة لها قيمها وتقاليدها القائمة على ممارسة الرعي والتنقل والغزو واحترام الروح العسكرية . أما القبائل المزارعة فتؤلف طبقة أخرى

أدنى مرتبة من سابقتها ، وهى تؤدى لقاء تمتعها بحمايتها نسبة كبيرة من انتاجهـا الزراعى ، هذا فضلا عن وجود طبقات اجتماعية أخرى أدنى منزلة مثل تلك العشائر والفئات التى تمارس صيد الأسماك والصناعات الحرفية ، ومثل العبيد الأرقاء، وغيرهم .

وقد نشطت التنظيمات الاجتماعية للسكان فى عهد المماليك نتيجة للحيوية التى اتصفت بها الحياة الاجتماعية نفسها . وكانت تلك التنظيمات قد أمست ممثلة لمصالح الطبقات الدنيا من المجتمع ، فنقابات الاشراف تحولت مهمتها من العناية بالمتحدرين من سلالة الرسول (ص) الى العناية بفئات عديدة من طبقات العامة ، مستندة فى ذلك على أسس اجتماعية مختلفة روحية صوفية ، أو علمية فقهية ، او اسرية قبلية ، فناوءت الولاة احيانا وشاركت فى السياسة العامة .

اما الطرق الصوفية فقد اتخذت شكل تنظيمات اجتماعية شعبية ، فزالت بعض الطرق التى لم تعد متوائمة مع العصر ، وتقوت طرق أخرى ، أهمها القادرية والرفاعية، وكان للنهضة الفكرية التى عمت المدن العراقية فى أوائل القرن التاسع عشر دورها فى ظهور الطريقة النقشبندية كتنظيم اجتماعى قوى له موقف متميز من قضايا عصره .

وضمت " الاصناف " طوائف الحرفيين فى المدن ، وكانت لها علاقة قوية بالتنظيمات الصوفية لتأثرها بتعاليم " الفتوة " القديمة . ولقد كفل المجتمع لأعضاء الصنف نوعا من الحماية القانونية ، وجعل لكل صنف دستور تلتزم به . غير أن الاصناف لم تستطع تولى أية سلطة سياسية بسبب تمكن التجار من حجبها عن الحياة العامة .. لذا فقد بقى

نشاطها منحصرا فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية . ومن ناحية أخرى ، فقد عكست التنظيمات القبلية والدينية طلمها على الأصناف ، فكان لكل مجموعة دينية أو قبيلة ، حرفها الخاصة بها .

ولقد تميز عهد المماليك أيضا بظهور حركات اجتماعية داخل الطوائف الدينية أدت الى تكوين طوائف جديدة ، كما تميز فى الوقت نفسه بظاهرتين اجتماعيتين هامتين الأولى تشيع القبائل العربية فى الجنوب ، والثانية انضمام نصارى الكنائس القديمة الى الكنيسة الكاثوليكية وخاصة فى شمالى البلاد .

ومن الظواهر الاجتماعية البارزة فى هذا العهد عدم حدوث أية نزاعات تذكر بين الطائفتين الاسلاميتين الكبيرتين ، الشيعة والسنة . كما لم تحدث نزاعات بين المسلمين من جهة ، وبين النصارى من جهة أخرى رغم تعايشهم فى أحياء متجاورة دائما ، بل كانت مظاهر التعاون والمشاركة فى الوطن واضحة طيلة هذا العهد ، وقد تعاون الجميع عند الاخطار الخارجية التى كانت تداهم بلادهم .

اما اليهود فكانوا يقيمون فى أحياء مغلقة ، ويمارسون أعمالا مالية ترتكز على الصيرفة والربا ، فى حين كان الصابئة يحتكرون ممارسة بعض الحرف والصناعات التقليدية الموروثة .

وكانت للحياة فى هذا العهد مظاهرها الاجتماعية الطريفة مما يمكن ملاحظته فى المناسبات العامة والاحتفالات والمواسم الدينية العديدة ، وفى تقاليد الاسرة والحياة النسوية والازياء وغير ذلك .

أولا : الوثائـــــق

١) سجلات الدولة العثمانية ، المعنونة Tapu Defteri محفوظـــة في Basvekalet Arsiv Dairesi في استانبول - تركية . ومن السجلات الخاصة بولايات العراق عدة نسخ مصورة محفوظة في مكتبات الجامعات العراقية ، وفي المكتبة القادرية ببغداد . وهذه السجلات هي :

ثلاثة دفاتر خاصة بولاية البصرة أرقامها ٥٣٤ ، ١٠٢٢ ، ٢٨٢

ثلاثة دفاتر خاصة بولاية بغداد ارقامها ٣٨٦ ، ١٠٤٩ ،

ودفتران خاصان بولايـــة الموصل ارقامها ١٩٥ ، ٦٦٠ .

وترتقي هذه السجلات الى القرن السادس عشر الميلادي ، ومعظمها وضع في عهد السلطان سليمان القانوني ، فاتح العراق ، وهي تبحث في طبيعـــة ملكية الارض ، وشؤون الاوقاف ، وكميات الضرائب المفروضة على الملكيات الزراعيـــة والعقاريـــة في تلك الفترة .

٢) سجلات الدولة العثمانية الخاصة بولاية دياربكر .

وترتقي هذه المجموعة من السجلات الى القرن الثامن عشر ، وهي تحتوي علـــى أنواع من الشكاوى و "المرضحالات" والبيانات المرفوعة من مدن عثمانية مختلفـــة الى المسؤولين العثمانيين ، مثل قضاة بغداد وماردين ودياربكر ونقيـــب القسطنطينية . وعلى الرغم من ان المجموعة تتعلق من حيث تصنيفها بولايـــة دياربكر ، الا انها تحتوي على عدد كبير من البيانات الخاصة بولاية بغـــداد وشهرزور ، واغلبها يتصل بالمنازعات على ملكية الاراضي الزراعية والمراعي . وهذه السجلات مصورة على المايكروفلم ومحفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

٣) دار الوثائق القومية والتاريخية في القاهرة . محافظ عابدين المرقمة ٢٣٤ ، ٢٣٥ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٦ و ٢٥٠ و ٢٥٧ و ٢٦٦ و ٢٦٧ . تتضمن هذه المحافظ وثائق تكشف عن الاوضاع العامة في العراق في أواخر عهد المماليك ، وبعض معلومات تلك الوثائق يتصل بالحالة الاجتماعية والاقتصادية آنذاك .

٤) مجموعة وقفيات بغداد .

وتتضمن هذه المجموعة نسخ لعدد من الوقفيات الشرعية على مساجد بغداد ومدارسها ومعاهدها الدينية مما وقفه ولاة المماليك وأعيان المدينة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، جمعها كاتب الاطروحة ، وهي محفوظة في مكتبته الخاصة .

٥) مجموعة وقفيات الموصل .

تتعلق بالمساجد والمدارس وخزائن الكتب (المكتبات) التي انشأها الجليليون في الموصل ، جمعها المرحوم محمد الجليلي وتوجد منها نسخة لدى الدكتور محمود الجليلي في الموصل اطلع عليها المؤلف .

٦) مجموعة الوثائق القادرية .

وتشتمل على جميع الحجج الشرعية والوقفيات والاعلامات والوثائق والفرمانات العثمانية الخاصة بنقابة الاشراف ببغداد ، وتولية الأوقاف المدينة على مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وأقدم هذه الوثائق يرتقي الى القرن السادس عشر الميلادي ومعظمها كتب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أي في الفترة التي حكم في اثنائها الولاة المماليك . وتوجد هذه المجموعة من الوثائق في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد .

ثانيـــا : المخطوطـــات

١) الآلوسى ، محمود شكرى : أخبار بغداد وما جاورها من البلاد .
مصور محفوظ فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد .

٢) الآلوسى : مساجد دار السلام بغداد .
محفوظ فى مكتبة المتحف العراقى برقم ١١٢٠ .

٣) الآلوسى ، نعمان خير الدين : حديقة الورود فى مدائح ابى الثناء محمود .
مصور فى مكتبة المجمع العلمى العراقى . المجلد الثانى .

٤) بطرس ، عزيز : كتاب الرعـــاة .
(الاجزاء الخاصة بأبرشيات بغداد ، الموصل ، العمادية ، البصرة ، آمد) مخطوط بخط مؤلفه فى مكتبة الدراسات العليـــا بكلية الاداب ــ جامعـــة بغداد .

٥) البغدادى ، أحمد بن درويش على : كنز الاديب من كل فن عجيب .
خمسة مجلدات . نسخة المرحوم عباس العزاوى المحفوظة فى مكتبـــة المتحف العراقى .

٦) البغدادى ، محمد بن غانم : مجمع الضمانات فى مذهب الامام الاعظـم أبى حنيفة النعمـــان .
محفوظ فى مكتبة الأوقاف ببغداد .

٧) الهندنيجي ، صفاء الدين عيسى : جامع الأنوار في تراجم الوجوه والأعيـــان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلدان .
مخطوط في مكتبة المتحف العراقي .

٨) الجليلي ، عثمان بك : دين الله الغالب على المفكر المبتدع الكاذب وهو فـي الرد على الشيخ خالد النقشبندي مجدد الطريقة النقشبندية فـي العراق في القرن الثامن عشر .
مخطوط مصور في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

٩) الحيدري ، ابراهيم فصيح : المجد التالــد في مناقب مولانا خالد .
محفوظ في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد .

١٠) الخادمي ، محمد : شرائـط النقشبندية .
محفوظ في مكتبة جامعة القاهـرة .

١١) الدروبي ، ابراهيم بن عبد الغني : أخبار قضاة بغداد .
نسخة بخط مؤلفها لدى أسرته ببغداد .

١٢) الرحبي ، محمد بن عبد الرحمن : بهجة الأخوان في ذكر الوزير سليمان .
نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

١٣) السمعاني ، يوسف لويس : كتاب كافة الآباء الجثالقة أعني بطاركة الكلـــدان والنساطرة .
يوجد هذا المخطوط في المكتبة المركزية في الموصل برقم ٩١/٢٧ وصفحات مرقمة بالسريانية .

١٤) السويدي ، عبد الرحمن : السنين الشداد من تاريخ بغداد .
مخطوط بخط مؤلفه في المكتبة القادرية ببغداد ، وهو يبحث في تاريخ الفتن الناشبة ببغداد في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر للميلاد) .

١٥) السويدي ، عبدالله : النفحة المسكية في الرحلة المكية .
والكتاب في وصف رحلة المؤلف وتطوافه في المدن العراقية وغيرها في النصف الاول من القرن الثامن عشر . محفوظ في مكتبة المتحف العراقي برقم ١٦٧ عزاوي .

١٦) السويدي ، محمد أمين : دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم .
وهو في الرد على كتاب عثمان الجليلي المتقدم ، وفيه دفاع عن الشيخ خالد النقشبندي وتفصيلات مهمة عن حياته واتباعه وطريقته والكتاب محفوظ في مكتبة دار التربية الاسلامية ببغداد .

١٧) شمعداني زاده : مرأى التواريخ .
المجلد الثاني يحتوي على تاريخ الدولة العثمانية من سنة ١١٦٧ الى ١١٩١ هـ ، فهو يغطي الفترة الاولى من حكم المماليك .
مخطوط في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٧٥٨١ تركي)

١٨) الشيخلي ، صباح ابراهيم : الأصناف الاسلامية في العصر العباسي نشأتها وتطورها . رسالة ماجستير غير مطبوعة قدمت الى كلية الآداب — جامعة بغداد .

١٩) الصديقى ، مصطفى بن كمال الدين : كشط الصدا وغسل الران فى زيارة العراق وما ولاه من البلدان .

مخطوط محفوظ فى مكتبة جامعة كمبردج تحت رقم ٩٢٧ ومنه نسخة مصورة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد . ويتضمن مشاهدات الرحالة الصديقى فى العراق عام ١٧٢٦م/١١٣٩هـ .

٢٠) العزاوى ، عباس : التكايا والطرق فى العراق .

نسخة بخط مؤلفها فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد .

٢١) العشارى ، حسين بن على : ديوان العشارى .

نسخة بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف ووليد الاعظمى ، وهى قيد الطبع فى ديوان الاوقاف ببغداد . وفى الديوان وصف دقيق لكثير من الاحداث الاجتماعية والسياسية الهامة فى العراق فى القرن الثامن عشر .

٢٢) العمرى ، عبد الباقى : نزهة الدنيا فى مدح الوزير يحيى .

وهو محفوظ فى مكتبة المتحف العراقى ببغداد برقم ١٤٠٦ .

٢٣) العمرى ، عصام الدين عثمان بن على : الروض النضر فى تراجم فضلاء العصر .

محفوظ فى مكتبة الاوقاف ببغداد برقم ٩٢٨ .

٢٤) العمرى ، ياسين بن خير الله : الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون .

وهو تاريخ مرتب على السنين من الهجرة الى عام ١٢١٦هـ/١٨٢١م وفيه أخبار مفصلة عن الولايات العراقية ابان عهد المماليك .

وتوجد نسخة منه فى المكتبة الوطنية فى باريس تحت رقم ٤٤٤٩ .

٢٥) العمري ، ياسين : السيف المهند فيمن اسمه أحمد .
وتوجد نسخة منه مخطوطة لدى السيد سعيد الديوه جي في الموصل ، كان قد نقلها الدكتور محمود الجليلي عن نسخة المؤلف .

٢٦) العمري ، ياسين : قرة العين في تراجم الحسن والحسين . توجد منه نسخة لدى الدكتور محمد صديق الجليلي في الموصل ، ولدى الاستاذ سعيد الديوه جي قطعة منقولة عنها اعتمد على المؤلف .

٢٧) العمري ، ياسين : الدر المنتثر في تراجم فضلاء القرن الثالث عشر .
منه نسخة في مكتبة المرحوم عباس العزاوي المحفوظة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد .

٢٨) العمري ، ياسين : عنوان الشرف .
وهو كتاب ضخم في التراجم ، يشتمل على طائفة من تراجم العراقيين في العهد العثماني . منه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني برقم ٥١٣٨ وعنها نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

٢٩) الغرابي ، أحمد بن عبدالله : عيون أخبار الاعيان .
وهو مرتب على السنين ، وفيه جملة من أخبار العراق في القرنين السابع عشر والثامن عشر . منه نسخة في مكتبة باريس الوطنية برقم ٦٦٧٧ ، وعنها نسخة مصورة في مكتبة عباس العزاوي المحفوظة في مكتبة المتحف العراقي .

٣٦) مجهـول : تراجم آل الشاوي .

يبحث في تاريخ آل الشاوي ، زعماء قبيلة العبيد في القـرن التاسع عشر . كتبه أحد البغداديين سنة ١٩١٩ ، وهـو محفوظ في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب ـ جامعـة بغداد برقم ١٩٦ .

٣٧) مجهول : روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار .

والكتاب يتضمن عرضا تاريخيا ، مرتبا على السنين ، لولايـتي بغداد والموصل في عهد الولاة المماليك . نسخة مصورة بخـط مؤلفها في مكتبة المتحف البريطاني ، منها نسخة لدى كاتـب الرسالـة .

٣٨) مجهول : نزهة الاخوان في وقعة بلد المقتول العطشان .

يشتمل على معلومات مفصلة عن تاريخ النجف في اواخر عهـد المماليك ، وخاصة ظروف مقاومتها لجيش داود باشا آخـر المماليك . محفوظ في مكتبة المتحف العراقي برقم (٢٠١٠ عزاوي) .

٣٩) مجهول : مجموعة خطية فيها بعض الأخبار المتعلقة بأحداث ولاية بغداد في عهد المماليك .

محفوظة في المكتبة القادرية ببغداد .

٤٠) مجهول : ببغداد . القوانين السلفية .

محفوظ في مكتبة يعقوب سركيس الكائنة في المتحف العراقـي برقم ١٤٥ .

٤١) محمد صادق بن حسن آل بحر العلوم : الدرر البهية في تراجم رجال الامامية .
فيه جملة من تراجم العلماء الشيعة في القرن التاسع عشر .
نسخة لدى مؤلفها في مدينة النجف . اطلع عليها كاتب الرسالة .

٤٢) محمد نافع أفندي آل المصرف : مجموعة خطية .
تتضمن وثائق رسمية ترتقي الى عهد سليمان باشا أول ولاة المماليك وتتعلق بالاوضاع القبلية في عهده .
نسخة محفوظة في مكتبة عباس العزاوي المحفوظة في مكتبة المتحف العراقي .

٤٣) الناصري ، محمد خلوصي : تكملة مساجد بغداد .
وهو تكملة لكتاب مساجد دار السلام بغداد الذي ألفه محمود شكري الآلوسي . محفوظ بخط مؤلفه في مكتبة المتحف العراقي برقم ١١٢٠ .

٤٤) الواعظ ، عبد الفتاح : مجموعة خطية .
تتضمن بعض الاحداث المتصلة بتاريخ العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ثالثاً : المصادر التركية المطبوعة

١) أولياء جلبي ، محمد ظلي بن درويش : أولياء جلبي سياحتنامه سي .
أربعة مجلدات . استانبول ١٣١٤ هـ .

٢) أميري ، علي الاميري : تذكرة شعراء آمد .
المجلد الاول . استانبول ١٣٢٨ .

٣) جلبي زاده ، اسماعيل عاصم : تاريخ جلبي زاده .
والكتاب يعد ذيلا لتاريخ راشد (أستانبول ١٢٥٣) .

٤) جودت ، أحمد : تاريخ جودت .
١٢ جزءا . (استانبول ١٣٠٢ هـ) وهو تاريخ عام للدولة العثمانية من ١١٨٨ الى ١٢٤٢ هـ .

٥) خورشيد باشا : سياحتنامه حدود .
طبع حجر استانبول . وهو دراسة لمناطق الحدود العثمانية الايرانية ولطبائع الاهالي ومحال سكنهم وانتاجهم الزراعي والصناعي

٦) راشد ، محمد . تاريخ راشد . استانبول .

٧) سامي ، شمس الدين : قاموس أعلام .
أستانبول ١٣٠١ هـ .

٨) شاني زاده ، محمد عطاء الله : تاريخ شاني زاده .
استانبول ١٢٩١ هـ .

٩) عزى ، سليمان : تاريخ عزى .

(استانبول ١١٩٩ هـ) وهو تاريخ عام للدولة العثمانيـــــة
مرتب على السنين من ١١٥٧ الى ١١٦٥ هـ)

١٠) عينتابلى ، أحمد عاصم : تاريخ عاصم

استانبول بدون تاريخ . وهو تاريخ الدولة العثمانية من سنة
٢٢٠٢ هـ الى عهد السلطان مصطفى الرابع .

١١) لطفى ، أحمد : تاريخ لطفى . استانبول ١٢٩٠ هـ .

١٢) محمد ثريا : سجل عثمانى ياخود تذكرة مشاهير عثمانية .
٤ مجلدات (استانبول ١٣٠٨) .

١٣) واصف ، أحمد : محاسن الاثار .
استانبول ١٢١٩ .

رابعـاً : المصادر العربية المطبوعة

١) ابن الغملاس : ولاة البصرة ومتسلموها .
بغداد ١٩٦٢ .

٢) ابن المعمار ، محمد بن أبي المكارم : كتاب الفتوة .
حققه د . مصطفى جواد و د . محمد تقي الهلالي و د . عبد الحليم النجار واحمد القيسي .
بغداد ١٩٥٨ ــ ١٩٦٠ .

٣) ابو طالـب خان : رحلة ابي طالب خان الى العراق وأوربه سنة ١٢١٣ هـ /١٧٩٩م .
كتب الأصل بالفارسية ومنها ترجم الى الانجليزية والفرنسيـة ، ومن الاخيرة عرب الدكتور مصطفى جواد هذه الرحلة المهمـة .
بغداد ١٩٦٩ .

٤) الاثري ، محمد بهجـة : أعلام العراق .
القاهـرة ١٣٤٥ هـ .

٥) الاثري : محمود شكري الآلوسي وآثاره اللغوية .
القاهرة ١٩٥٨ م .

٦) الأحسائي ، محمد بن عبد الله : تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديـم والجديـد .
دمشـق ١٩٦٣ .

٧) أحمد سوسة : أطلس بغداد تاريخي وجغرافي .
بغداد ١٩٥٢ .

٨) أحمد بن الخياط : ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء .
حققه السيد سعيد الديوه جي . الموصل ١٩٦٦ .

٩) الأخرس ، عبد الغفار : مجموعة عبد الغفار الأخرس في شعر عبد الغني آل جميل .
حققها وقدم لها عباس العزاوي . بغداد ١٩٤٩ .

١٠) الآصفي ، محمد مهدي : مدرسة النجف وتطور الحركة الاصلاحية فيها .
النجف .

١١) الأعظمي ، علي ظريف : مختصر تاريخ البصرة .
بغداد ١٩٢٧ .

١٢) أفرام عبدال : اللؤلؤ النضيد في تاريخ دير ماربهنام الشهيد .
الموصل ١٩٥١ .

١٣) الآلوسي ، علي علاء الدين : الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر . تحقيق جمال الدين الآلوسي وعبد الله الجبوري .
بغداد ١٩٦٧ .

١٤) الالوسي ، محمود شكري : المسك الاذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر .
بغداد ١٣٤٥ هـ .

١٥) الآلوسي ، محمود شكري : مساجد بغداد وآثارها .
هذبه ونشره محمد بهجة الاثري .
بغداد ١٣٤٦ هـ .

١٦) الآلوسي ، محمود شهاب الدين : غرائب الاغتراب ونزهة الالباب .
بغداد ١٣٢٧ هـ .

١٧) الانصاري ، أحمد نور : النصرة في أخبار البصـــرة .
بتحقيق الدكتور يوسف عز الدين .
بغداد ١٩٦٩ .

١٨) بابو اسحق ، روفائيل : أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية .
بغداد ١٩٦٠ .

١٩) بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق .
بغداد ١٩٤٨ .

٢٠) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية .
عربه عن التركية حمزة طاهر .
القاهـــرة .

٢١) الباززي ، حامد : البصرة في الفترة المظلمة .
بغداد ١٩٦٩ م .

٢٢) باش أعيان ، عبد القادر : البصرة في أدوارها التاريخيـــة .
بغداد .

٢٣) البدليسي ، الأمير شرفخان : شرفنامه .
ترجمها عن الفارسية محمد علي عوني .
القاهرة ١٩٥٨ .

٢٤) البكري ، عادل : تاريخ الكوت .
بغداد ١٩٦٧ .

٢٥) بيهم ، محمد جميل : فلسفة التاريخ العثماني .
بيروت ١٩٢٥ .

٢٦) التادفي ، ابن بحر : قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر .
القاهرة .

٢٧) تافرنييه ، جان بابتست : العراق في القرن السابع عشر كما وصفه تافرنييه .
ترجمة عن الفرنسية كوركيس عواد وبشير فرنسيس . بغداد ١٩٤٤ .

٢٨) تسيران ، الكاردينال أوجين : خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية .
ترجمة عن الفرنسية سليمان الصائغ .
الموصل ١٩٣٩ .

٢٩) توتل ، فرديناند : وثائق تاريخية عن حلب .
بيروت ١٩٥٨ .

٣٠) جاكسون : مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٦٧ .
تعريب سليم طه التكريتي .
بغداد ١٩٧٠ .

٣١) الجادر ، وليد : الملابس الشعبية في العراق .
بغداد ١٩٧٠ .

٣٢) جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب .
ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .
جزآن . القاهرة ١٩٧١ .

٣٣) جعفر باقر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها .
النجف ١٩٥٨ .

٣٤) الجلالي ، محمد الباقر : موجز تاريخ عشائر العمارة .
بغداد .

٣٥) الجلبي ، داود : مخطوطات الموصل .
بغداد ١٩٢٧ .

٣٦) الجلبي : كلمات فارسية في عامية الموصل .
بغداد ١٩٦٠ .

٣٧) الحجية ، عزيز : بغداديات .
جزآن . بغداد ١٩٦٧ – ١٩٦٨ .

٣٨) الحسني ، عبد الرزاق : العراق قديما وحديثا .
صيدا – لبنان ١٩٥٨ .

٣٩) الحسني : الصابئون في حاضرهم وماضيهم .
صيدا – لبنان ١٣٨٧ هـ .

٤٠) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي .
بيروت ١٩٦٢ .

٤١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث .
القاهرة ١٩٣٨ .

٤٢) الحصري ، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية .
بيروت ١٩٦٥ .

٤٣) الحلواني ، أمين بن حسن : خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ١١٨٨ ـ
١٢٤٢ هـ ، وهو مختصر كتاب مطالع السعود بطيب أخبار
الوالي داود لعثمان بن سند البصري الوائلي .
تحقيق محب الدين الخطيب .
القاهرة ١٣٧١ .

٤٤) الحنفي ، جلال : المغنون البغداديون والمقام العراقي .
بغداد ١٩٦٤ .

٤٥) الحنفي : الصناعات والحرف البغدادية .
بغداد ١٩٦٦ .

٤٦) الحويزي ، عبد العلي بن رحمة الله : النفحة المرضية في السيرة المرضية .
(نشر الاقسام التاريخية منه الشيخ محمد الخال بعنوان تاريخ
الامارة الافراسيابية) بغداد ١٩٥٧ .

٤٧) الحيدري ، ابراهيم فصيح : عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة
ونجد . بغداد .

٤٨) الخاقانی ، علی : شعراء الحلة أو البابليات .
النجف ١٩٥١ .

٤٩) خالفين ، ن . أ . : الصراع على كردستان .
ترجمة الدكتور عثمان ابو بكر . بغداد ١٩٦٩ .

٥٠) الخانی ، عبد المجيد بن محمد : الحدائق الوردية فی حقائق أجلاء النقشبندية
دمشق ١٣٠٨ هـ .

٥١) خصباك ، شاكر : الاكراد دراسة جغرافية اثنوغرافية .
بغداد ١٩٧٢ .

٥٢) الخليلی ، جعفر : موسوعة العتبات المقدسة .
بيروت ١٩٦٦ .

٥٣) الخونساری ، محمد باقر : روضات الجنات فی تراجم العلماء والسادات .
طبعة حجرية فی ايران .

٥٤) الدباغ ، عبد الخالق خليل : معجم امثال الموصل العامية .
الموصل ١٩٥٦ .

٥٥) داور ، الليدی : الصابئة المندائيون .
ترجمة نعيم بدوی وغضبان روں .
بغداد ١٩٦٩ .

٥٦) الدروبی ، ابراهيم بن عبد الغنی : البغداديون ، أخبارهم ومجالسهم .
بغداد ١٩٥٨ .

٥٧) الدروبي : الباز الاشهب . بغداد ١٩٥٥ .

٥٨) درويش باشا : تقرير مقدم الى لجنة الحدود العثمانية الايرانية سنة ١٨٥٣ .
بغداد ١٩٥٣ .

٥٩) الدملوجي ، صديق : امارة بهدينان أو امارة العمادية .
الموصل ١٩٥٢ .

٦٠) الدوري ، عبد العزيز : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي .
بيروت ١٩٦٩ .

٦١) دونلدسن ، دوايت : عقيدة الشيعة .
تعريب ع.م. مصر ١٩٤٦ .

٦٢) الديوه جي ، سعيد : جوامع الموصل في مختلف العصور .
الموصل ١٩٦٣ .

٦٣) رافق ، عبد الكريم : بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني .
دمشق ١٩٦٨ .

٦٤) الراوي ، عبد الجبار : البادية .
بغداد ١٩٤٧ .

٦٥) رايس ، تامارا : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم .
ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي . بغداد .

٦٦) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي .
ترجمه الدكتور محمد زكي حسن وآخرون . جامعة فؤاد الاول
القاهرة ١٩٥١ .

٦٧) زبير بلال اسماعيل : اربيل في ادوارها التاريخية .
النجف ١٩٧١ .

٦٨) زيادة ، نيقولا : الحسبة والمحتسب في الاسلام .
بيروت ١٩٦٣ .

٦٩) الساعدي ، حمود : الخزاعل .
النجف .

٧٠) سالنامه ولاية بغداد ١٢٩٨ هـ . مطبعة الولاية ـ بغداد .

٧١) سالنامة ولاية البصرة ١٣٠٩ هـ . مطبعة الولاية ـ البصرة .

٧٢) سالنامة ولاية الموصل ١٣٠٨ هـ . مطبعة الولاية ـ الموصل .

٧٣) سركيس ، يعقوب نعوم : مباحث عراقية في التاريخ والاثار وخطط بغداد .
جزآن ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ .

٧٤) السعدي ، رشيد بن داود : غاية المراد في الخيل الجياد .
فيه مباحث عن القبائل العراقية المهمة في القرن التاسع عشر .
بمبي ـ الهند ١٣١٤ هـ .

٧٥) السعدي ، هاشم : جغرافية العراق الحديثة .
بغداد .

٧٦) سليمان فائق بن طالب كهية : مرآة الزوراء في تاريخ الوزراء .
ترجمة عن التركية موسى كاظم نورس . ونشره بعنوان " تاريخ بغداد "
بغداد ١٩٦٢ .

٧٧) سليمان فائق :
تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد . ترجمة عن التركية محمد نجيب الارمنازي .
بغداد ١٩٦١ .

٧٨) سليمان فائق : تاريخ المنتفق : ترجمة محمد خلوصي الناصري .
بغداد ١٩٦١ .

٧٩) سون : رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين .
ترجمة فؤاد جميل .
بغداد ١٩٧٠ .

٨٠) السويدي ، محمد امين : سلاسل الذهب في معرفة قبائل العرب .
القاهرة .

٨١) السهروردي ، عبد المحسن : نجاة الناس بكلمة الاخلاص .
نشره محمد صالح السهروردي . بغداد ١٣٤٥ هـ .

٨٢) السهروردي ، محمد صالح : لب الألباب .
جزآن بغداد ١٣٥١ هـ .

٨٣) سيوفي ، نيقولا : مجموع الكتابات المحررة على ابنية مدينة الموصل .
حققها ونشرها وذيل عليها سعيد الديوه جي .
بغداد ١٩٥٦ .

٨٤) شابرول ، ج ٠ دى : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحديثين ٠
وهو جزء من كتاب وصف مصر ترجمة زهير الشايب ٠
القاهرة ١٩٧٦ ٠

٨٥) شاكر مصطفى سليم : الجبايش دراسة انثروبولوجية لقرية فى أهوار العراق ٠
بغداد ١٩٧٠ ٠

٨٦) شبر ، جاسم : تاريخ المشعشعيين وتراجم اعلامهم ٠
النجف ١٩٦٥ ٠

٨٧) الشبيبى ، محمد رضا : مذكرات ٠ نشرت متسلسلة فى مجلة البلاغ البغدادية
السنة ١٩٧٤ ٠

٨٨) الشهرابانى : تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها أيام وزارة المرحوم داود
باشا ٠
تحقيق الاب انستاس مارى الكرملى ٠
بغداد ١٩٣٦ ٠

٨٩) الشيخلى ، محمد رؤوف السيد طه : مراحل الحياة فى الفترة المظلمة
وما بعدها ٠
جزآن ٠ البصرة ١٩٧٢ ٠

٩٠) الصائغ ، سليمان : تاريخ الموصل ٠
جزآن : القاهرة ١٩٢٨ وبيروت ١٩٤٠ ٠

٩١) صائغيان ، دير نرسيس : تاريخ الأرمن الكاثوليك فى العراق ٠
بيروت ١٩٤٤ ٠

٩٢) الصيادى ، محمد أبو الهدى : الطريقة الرفاعية .
عنى بنشره محمود السامرائى الرفاعى . بغداد ١٩٦٩ .

٩٣) الطويل ، توفيق : التصوف فى مصر .
القاهرة ١٩٤٦ .

٩٤) العباسى ، محفوظ عمر : امارة بهدينان العباسية .
الموصل ١٩٦٩ .

٩٥) العباسى ، محى الدين : تاريخ بغداد .
مخطوط نشر نبذا منه الشيخ محمد صالح السهروردى : جريدة العراق البغدادية يونيو ١٩٣٠ .

٩٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى .
القاهرة ١٩٦٩ .

٩٧) عبد الرزاق عباس حسين : نشأة مدن العراق وتطورها .
القاهرة ١٩٧٣ .

٩٨) العزاوى ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين الاجزاء ٤ ــ ٨
بغداد ١٩٥٣ ــ ١٩٥٦ .

٩٩) العزاوى : تاريخ النقود العراقية .
بغداد ١٩٥٩ .

١٠٠) العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية .
بغداد ١٩٥٩ .

١٠١) العزاوي : ذكرى أبي الثناء الآلوسي .
بغداد ١٩٥٨ .

١٠٢) العزاوي : تاريخ الأدب العربي في العراق .
الجزء الثاني . بغداد ١٩٦٢ .

١٠٣) العطية ، وادي : تاريخ الديوانية قديما وحديثا .
النجف ١٩٥٤ .

١٠٤) علاء موسى كاظم نورس : حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ ـ ١٨٣١م .
بغداد ١٩٧٥ .

١٠٥) العلاف ، عبد الكريم : بغداد القديمة .
بغداد ١٩٦٠ .

١٠٦) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني . فترة الحكم المحلي .
النجف ١٩٧٥ .

١٠٧) عماد عبد السلام : الآثار الخطية في المكتبة القادرية . الجزء الاول .
بغداد . ١٩٧٤ .

١٠٨) العمري ، أمين بن خيرالله : منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء .
تحقيق السيد سعيد الديوه جي . جزآن .
الموصل ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .

١٠٩) العمرى ، عماد هادى : بغداد كما وصفها السواح الاجانب .
بغداد ١٩٥٤ .

١١٠) العمرى ، ياسين بن خيرالله : منية الادباء فى تاريخ الموصل الحدباء .
تحقيق سعيد الديوه جى .
الموصل ١٩٥٣ .

١١١) العمرى ، ياسين : غرائب الاثر فى حوادث ربع القرن الثالث عشر .
نشره الدكتور محمد صديق الجليلى .
الموصل ١٩٤٠ .

١١٢) العمرى ، ياسين : غاية المرام فى تاريخ محاسن بغداد دار السلام .
بغداد ١٩٦٧ .

١١٣) العمرى ، ياسين : زبدة الآثار الجلية فى الحوادث الأرضية .
بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف .
النجف ١٩٧٤ .

١١٤) العنيسى ، فلاح ياسر : تاريخ بنى أسد .
البصرة ١٩٧١ .

١١٥) عواد ، كوركيس : أثر قديم فى العراق دير الربان هرمزد .
الموصل ١٩٣٤ .

١١٦) غرايبه ، عبد الكريم : مقدمة فى تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ ـ ١٩١٨ .
دمشق ١٩٦٠ .

١١٧) الغلامي ، محمد : الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد .
تحقيق محمد رؤوف الغلامي . الموصل .

١١٨) الغلامي ، رؤوف : العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي .
الموصل ١٩٤٢ .

١١٩) غنيمة ، يوسف : نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق .
بغداد ١٩٤٨ .

٢٢٠) غنيمة ، يوسف : تجارة العراق قديما وحديثا .
بغداد ١٩٢٢ .

١٢١) فارس ، عبد الجبار : عامان في الفرات الاوسط .
النجف ١٣٥٣ هـ .

١٢٢) فوصيل ، بيير دي : الحياة في العراق منذ قرن . ترجمة الدكتور اكرم فاضل .
بغداد ١٩٦٨ .

١٢٣) الفياض ، عبدالله : مشكلة الاراضي في لواء المنتفك .
بغداد ١٩٥٦ .

١٢٤) فيلبي ، جون : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
ترجمة عمر الديراوي .
بيروت .

١٢٥) قاسملو ، عبد الرحمن : كردستان والاكراد .
بيروت ١٩٧٠ .

١٢٦) القرماني ، أحمد : أخبار الدول .
طبعة حجرية في بغداد .

١٢٧) القزلجي ، محمد : التعريف بمساجد السليمانية .
بغداد ١٩٣٨ .

١٢٨) كحالة ، عمر رضا : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة .
دمشق ١٩٤٩ .

١٢٩) الكرملي ، أنستاس ماري : النقود العربية وعلم النميات .
القاهرة ١٩٣٩ .

١٣٠) الكعبي ، فتح الله بن علوان : زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر .
بغداد ١٩٢٤ . وهو في تاريخ البصرة في عهد آل افراسياب .

١٣١) الكليدار ، محمد حسن آل طعمة : مدينة الحسين .
كربلاء ١٩٦٩ .

١٣٢) الكليدار ، عبد الجواد : تاريخ كربلاء وحائر الحسين .
النجف ١٩٦٧ .

١٣٣) الكليدار ، عبد الحسين آل طعمه : بغية النبلاء في تاريخ كربلاء .
بغداد ١٩٦٦ .

١٣٤) كوتلوف ، ل . ن : ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق .
ترجمة الدكتور عبد الواحد كرم .
بغداد ١٩٧١ .

١٣٥) الكوفى ، محمد بن جود : نزهة الغرى فى تاريخ النجف .
النجف ١٩٥٢ .

١٣٦) كوبرلى ، محمد فؤاد : قيام الدولة العثمانية .
ترجمة أحمد السعيد سليمان .
القاهرة ١٩٦٧ .

١٣٧) لانزا ، دومنيكو : الموصل فى الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومنيكو لانزا .
ترجمة روفائيل بيداويد .
الموصل ١٩٥٣ .

١٣٨) لطفى باشا : قانون بنى عثمان المعروف بآصف نامه .
بيروت ١٩١١ .

١٣٩) لوريمر ، جون غوردون : دليل الخليج (القسم التاريخى)
ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر .
الدوحة ١٩٦٧ .

١٤٠) ليسترنج ، غى : بلدان الخلافة الشرقية .
ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد .
بغداد ١٩٥٤ .

١٤١) الطائى ، أنور : الاكراد فى بهدينان .
يبحث فى تاريخ امارة بهدينان العباسية فى العمادية شمالى العراق .
الموصل ١٩٦٠ .

١٤٢) ما تييف وماريوحنا : تاريخ الاثوريين ٠
ترجمة أسامة نعمان ٠ بغداد
بغداد ١٩٧٠ ٠

١٤٣) ماسنيون ، لويس : تعليقات على لهجة بغداد العربية ٠
ترجمة د ٠ اكرم فاضـــل ٠
ابغداد ١٩٦٢ ٠

١٤٤) مجـــهول : الكنز المختار في اكتشـاف الارض والبحار ٠
مالطــة ١٨٣٣ ٠

١٤٥) محمد امين زكي : تاريخ السليمانـية ٠
ترجمة عن الكردية الملا جميل الروزبيانـي ٠
بغداد ١٩٥١ ٠

١٤٦) محمد أمين زكي : تاريخ الدول والامارات الكرديـــة ٠
ترجمة محمد علي عوني ٠
القاهرة ١٩٤٨ ٠

١٤٧) محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان ٠
ترجمة محمد علي عوني ٠
القاهرة ١٩٦١ ٠

١٤٨) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ــ ١٩١٤) ٠
القاهـــرة ٠

١٤٩) محمد انيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى .
القاهرة ١٩٦٢ .

١٥٠) محمد حسن آل ياسين : تاريخ المشهد الكاظمى .
بغداد ١٩٦٧ .

١٥١) محيى الدين ، عبد الرزاق : الحالى والعاطل ملحق أمل الامل .
النجف ١٩٧١ .

١٥٢) مدام ديولافوا : رحلة مدام ديولافوا الى كلده ـ العراق .
ترجمها عن الفارسية على البصرى .
بغداد ١٩٥٨ .

١٥٣) المرادى ، محمد خليل : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر .
٤ أجزاء .
القاهرة ١٢٩١ هـ .

١٥٤) مرتضى نظمى زاده : كلشن خلفا .
ترجمة موسى كاظم نورس .
النجف ١٩٧١ .

١٥٥) مصطفى جواد وأحمد سوسه : دليل خارطة بغداد المفصل .
بغداد ١٩٥٨ .

١٥٦) مصطفى جواد وناجى معروف واخرون : بغداد .
اصدرته جمعية المهندسين العراقيين .
بغداد ١٩٦٩ .

١٥٧) المنشى ، محمد بن أحمد الحسيني البغدادي : رحلة المنشي البغدادي سنة
١٢٣٧ هـ ــ ١٨٢٢ م .
ترجمها عن الفارسية عباس العزاوي .
بغداد ١٩٤٨ .

١٥٨) المكرياني ، حسين حزني : موجز تاريخ امراء سوران .
ترجمة عن الكردية محمد الملا عبد الكريم .
بغداد .

١٥٩) المكي ، العباس بن علي : نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس .
وهي رحلة قام بها المؤلف في القرن الثامن عشر ، ووصف فـــي
اثنائها مدن العراق الواقعــة على طريقـــه .
جزآن النجف ١٩٦٧ .

١٦٠) الناصر ، عبدالله : تاريخ السعدون .
النجـــف ١٩٤١ .

١٦١) النبهاني ، محمد خليفة : التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية .
القاهـــرة ١٣٤٢ .

١٦٢) الندواني ، عبد الكريم : تاريخ العمارة وعشائرها .
بغداد ١٩٦٦ .

١٦٣) نرسي ، حنا : تنوير الاذهان في بعض حقائق تاريخ السريـــان .
الموصـــل ١٩٢٦ .

١٦٤) نصرى ، بطرس : ذخيرة الاذهان فى تواريخ المشارقة والمغاربـــة السريان
الموصل ١٩١٣ .

١٦٥) نوار ، عبد العزيز سليمان : داود باشا والى بغداد .
القاهرة ١٩٦٨ .

١٦٦) نوار : تاريخ العــراق الحديـث .
القاهــرة ١٩٦٨ .

١٦٧) نوار : المصالح البريطانية فى انهار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤ م
القاهرة ٢٩٦٨ .

١٦٨) نيكيتيـــين ، باسيل : الاكراد ، اصلهم ، تاريخهم ، مواطنهم ،
بيروت ١٩٦٧ .

١٦٩) الوائلى ، ابراهيم : الشعر السياسى العراقى فى القرن التاسع عشر .
بغداد ١٩٦١ .

١٧٠) الواعظ ، مصطفى نور الدين : الروض الازهر فى تراجم آل السيد جعفر عــنى
بنشره والزيادة عليه ابراهيم الواعـــظ .
الموصـــل ١٩٤٨ .

١٧١) الوردى ، حمودى : عالم التكايـا ومحافل الذكر .
بغداد ١٩٧٣ .

١٧٢) الوردى ، على : دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى .
الجـزء الاول . بغداد ١٩٦٧ .

١٧٣) هاشم جواد : مقدمة في كيان العراق الاجتماعي .
بغداد ١٩٤٦ .

١٧٤) الهاشمي ، طـه : مفصل جغرافية العراق .
بغداد ١٩٢٠ .

١٧٥) الهيتي ، رشاد الخطيب : هيت في اطارها القديم والحديث .
الجزء الاول . بغداد ١٩٦٦ .

١٧٦) اليعقوبي ، محمد علي : البابليات .
النجف .

١٧٧) يوسف عز الدين : الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر .
القاهرة ١٩٦٥ .

١٧٨) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) . مواد متعددة قبل :
" تيمار " و " انكشارية " و " تنظيمات " و " ترك " وغيرها .

خامسا : الابحاث المطبوعة

١) أرملة ، اسحاق : الطائفة السريانية والقنصلية الفرنساوية في بغداد مجلة الشرق ٢٤ (بيروت ١٩٢٦)

٢) بابو اسحق ، رفائيل : كنائس نصارى بغداد . مجلة سومر ٢٠ (بغداد ١٩٦٤) .

٣) الجليلي ، محمد صديق : التراث الموسيقي في الموصل . مجلة التراث الشعبي - بغداد المجلد ١ للسنة ١٩٦٤ ج ٨ .

٤) الدخيل : سليمان : سوق الشيوخ . مجلة لغة العرب المجلد ٢ السنة ١٩١٢ .

٥) الدخيل : عشائر سوق الشيوخ . مجلة لغة العرب المجلد السابق .

٦) الدوري ، عبد العزيز : الاصناف والحرف الاسلامية . مجلة القضاء . بغداد المجلد ١٠ السنة ١٩٥٢ .

٧) الديوه جي ، سعيد : سور الموصل . مجلة سومر العراقية السنة ٣ (١٩٤٧) .

٨) الديوه جي : قلعة الموصل في مختلف العصور . مجلة سومر السنة ١٢ (١٩٥٦) .

٩) السهروردي ، عبد الرحمن : نبذة من تاريخ حوادث بغداد وهي مراسلات
جرت بين المؤلف وبين داود باشا والي بغداد .
نشرها حفيده محمد صالح في مجلة المرشد ببغداد .
السنة ١٩٢٩ .

١٠) صائغيان ، فرنسيس : الاسر المنقرضة . مجلة نشرها الأحد .
بغداد المجلد الاول ١٩٢٩ .

١١) عماد عبد السلام رؤوف : جامع الخاصكي في بغداد .
جريدة البلد .
بغداد بتاريخ ١٩٦٦/١/٢٠ .

١٢) رؤوف : السيد سلطان علي دفين بغداد .
جريدة البلد . بتاريخ ١٤ و ١٩٦٦/٨/١٥ .

١٣) رؤوف : تاريخ جامع السراي .
جريدة البلد بتاريخ ١٩٦٦/٩/١٩

١٤) رؤوف : مسجد السيف القديم .
جريدة البلد بتاريخ ١٩٦٦/١١/١٠ .

١٥) رؤوف : جامع الخاتون في بغداد .
جريدة البلد بتاريخ ١٩٦٧/١/١٧ .

١٦) رؤوف : مسجد نعمان الباججي .
جريدة البلد بتاريخ ١٩٦٧/٣/٧ .

١٧) رؤوف : سقاية الشيخ عبد القادر الكيلاني .

جريدة التآخي – بغداد بتاريخ ٢٦/٨/١٩٦٨ .

١٨) رؤوف : سقاية جامع الشيخ عمر السهروردي .

جريدة التآخي بتاريخ ٢٣/٩/١٩٦٨ .

١٩) رؤوف : محمد أمين السويدي عالم بغداد ومؤرخها وأديبها .

مجلة المورد – بغداد المجلد العدد ٣ السنة ١٩٧٢ .

٢٠) رؤوف : بعض العملات المستعملة في الموصل وأقيامها في العهد العثماني .

مجلة المسكوكات التي تصدرها مديرية الآثار العامة العراقية

١٩٧٤ .

٢١) المزاوي ، عباس : خلفاء مولانا خالد .

مجلة المجمع العلمي الكردي –

بغداد مجلد ٢ عدد ٦ السنة ١٩٧٤ .

٢٢) عواد ، كوركيس : ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية .

مجلة سومر العراقية ، المجلد ٩ السنة ١٩٥٣ .

٢٣) عواد ، كوركيس : تحقيقات بلدانية أثرية في شرق الموصل .

مجلة سومر ، المجلد ١٧ السنة ١٩٦١ .

٢٤) غنيمة ، يوسف رزق الله : بطاركة الكلدان في الجيل التاسع عشر

ابحاث متسلسلة في مجلة النجم الموصلية عام ١٩٥٣ .

٦٥) ماسنيون ، لويس : الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية .
ترجمة أكرم فاضل مجلة المورد
بغداد المجلد ٣ السنة ١٩٧٣ .

٦٦) ناجي معروف : خطط بغداد أو طبوغرافية بغداد
مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد .
المجلد ٤ السنة ١٩٦١ .

Lewis, B.: Islamic Gulds,
(in Economic History Review, Vol. VII)

----

1 - Al-Feel, Muhammed R.: The Historical Geography of Iraq Between the Mongolian and Ottoman conquests 1258 - 1534, Nejef 1965.

2 - Alexander , C.: Baghdad Bygone Days, London 1929.

3 - Attiyyah, Chassan : Iraq 1908 - 1921 A Political Study, Beirut 1973.

4 - Aublé, Emile : Baghdad. Paris 1917.

5 - Badger, J.: The Nestorians, London, 1852.

6 - Berkes, N.: The Development of Secularism in Turkey, Canada 1964.

7 - Bonné, A.: State and Economics in the Middle East, London 1948.

8 - Buckingham, J.: Travels in Mesopotamia,
London 1827.

9 - Buckingham, J.: T rovels in Assyria, Media,
Persia, London 1830.

10 - Budge, W.: By Nile and Tigris,
London 1920.

11 - Chesney, R. A.: The Expedition of the Survey
of the Rivers Euphrates and Narrative
Tigris in the years 1835/37,
London 1850.

12 - Chiha, H.: Porovence de Baghdad. Son Passé,
son Présent son Avenir,
Le Caire, 1908.

13 - Cook, M. A. (Ed.): Studies in the Economic
History of the Middle East,
London, 1970.

14 - Corancez, L. A.: Histoire des Wahabis depuis leur origine jusqu' à la fin de 1809, Paris, 1810.

15 - Cowper, S.: Through Turkish Arabia, London , 1894.

16 - Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961.

17 - Cuinet, Vital: La Turquie d' Asie Géographie Administrative, Paris, 1894.

18 - Della Valla, Pitro: The Travels of Sig Pitro Della Valla into East-India and Arabia Deserta, London 1665.

19 - Dickson, H. R. P.: The Arab of the desert, London 1947.

20 - Dupré, A.: Voyage en Ferse, fait dans les
Années 1807, 1808 et 1809,
Paris, 1819;

21 - Edmonds, C. J.: Kurds Turks and Arabs,
Politics, Travels and Research in
North-Eastern Iraq,
London, 1957.

22 - Evers, Samuel: A Journal kept on journey
from Bassora to Baghdad in the
Year 1779,
London, 1784.

23 - Fiey, J.: Mossoul Chretinne,
Beyroth, 1960.

24 - Fraser, K.: Travels in Koordistan,
Mesopotamia,
London 1840.

25 - Gibb and Bowen: Islamic Society and the West,
London, 1965.

26 - Grant, A.: The Nestorians.

London 1841.

27 - Groves, A. N.: Journal of Residence of Baghdad,

London 1832.

28 - Hammer, J.: Histoire de L'Empire Ottoman,

Paris 1835 - 43.

29 - Hay, W.: Two years in Kourdistan,

London, 1921.

30 - Harsluck, F. W.: Christianity and Islam

under the Sultans,

Oxford, 1929.

31 - Heude, A.: Voyage up the Persian Gulf, and

Journey Overland from India to

England in 1817,

London 1819.

32 - Hogarth, D. G.: Arabia, Oxford 1922.

33 - Hoskins, H.: British Routes to India,
London 1928.

34 - Hourani, A. H. & Stern, S. M. (eds): The Islamic City,
Oxford , 1970.

35 - Howel, Thomas: Voyage en Retoure de L'Inde par terre,
Paris 1788.

36 - Huart, C.: Histoire de Baghdad dans les temps modernes.
Paris, 1901.

37 - Ives, E.: A Voyage from England to India,
London 1760.

38 - Jones, F.: Selection from the Record of Bombay Government,
Bombay 1854.

39 - Keppel, G.: Personal Narrative of a Journey..

by Bassorah, Baghdad 1824.

London, 1827.

40 - Layard, H.: Discoveries in Ruins of Nineveh

and Babylon,

London 1853.

41 - Layard, H.: Autobiography and Letters from

His Childhood,

London, 1903.

42 - Lewis, B.: The Emergence of Modern Turkey,

Oxford, 1962.

43 - Lockhart, L.: Famous Cities of Iran,

London. 1939.

44 - Loftus, W. K:: Travels and Researches in

Chaldea, Susiana, in 1849 - 52.

London, 1857.

45 - Longrigg, S. H.: Four Centuries of Modern
Iraq,
London, 1952.

46 - Lorimer, J. G.: Gazetteer of the Persian
Gulf, Oman & Central Arabia,
Culcutta, 1951.

47 - Luke, H. C.: Mosul and its Minorities.
London. 1925.

48 - Lutsky, V.: Modern History of the Arab
Countries.
Moscow, 1969.

49 - Mignan, R.: Travels in Chaldea,
London, 1829.

50 - Miller, W.: The Ottoman Empire and its
Successors 1801 - 1927.
London, 1966.

51 - Muller, S.: En Syrie avec les béduins,

52 - Niebuhr, K.: Description de L'Arabia, faite
sur des observations propres,
Paris, 1776.

Niébuhr, K.: Voyage en Arabie,
Paris, 1776.

53 - Nijholt, L.: Voyage en Russie, au Caucase et
en Perse dans la Mesopotomie, le
Kurdistan,
Amsterdam 1872 / 75.

54 - Olivier, G. A.: Voyage dans L'Empire Ottoman,
L'Egypt et la Perse,
Paris 1807.

55 - Otter, M.: Voyage en Turquie et en Perse,
Paris 1748.

56 - Ouseley, W.: Travels in various countries of the East, More particularly Persia, 1810, 1811 and 1812. London, 1819.

57 - Rauwolff, L.: Intinerary into the Eastern Countries, as Syria, Palestine, or the Holy Land, Armenia, Mesopotamia, Assyria, Chaldea, London, 1693.

58 - Rich, C.: Narrative of a Residence in Kurdistan and on the Site of Ancient Nineveh, London, 1835.

59 - Rich, C.: Narrative of Journey Site of Babylon in 1811, London.

60 - Ross, H. J.: Letters of H. J. Ross 1837 - 1857,
London 1902.

61 - Rausseau, L. J.: Description du Pachalick de Baghdad,
Paris, 1809.

62 - Porter, K.: Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient Babylonia during the years 1817 - 1820.
London, 1822.

63 - Thévenot, M. D.: Relation d'un Voyage fait au Levant.
Amesterdam 1727.

64 - Tiexeira, Pidro: The Travels of Sig. Pidro Tiexeira,
London, 1902.

65 - Sestini; Voyage de Constantinople a Bassora,

Paris, 1800.

66 - Ussher, J.: Journey from London to

Persopolis,

London, 1865.

67 - Welsted, J. R.: Travels to the City of the

Caliphs, Along the shores of the

Persian Gulf and the Mediterranean,

London, 1840.

68 - Wilson, A.: Persian Gulf an Historical Sketch

from the Earliest Times to the

Beginning of the Twenteth Century,

London, 1954.

69 - Wood, A. C.; A History of the Levant Company,

London, 1935.

70 - Yale, W.: The Near East. A Modern History

Michigan 1958.

71 - Zwemer, S. M.: Arabia, The Ordale of Islam,
London, 1900.

72 - Encyclopeadia of Islam.

73 - Islam Ansiklopedisi . Istanbul 1945.

74 - Index Islamicus 1900 - 1955 . by J. D.
Pearson Cambridge,
England 1961.

-------oooOooo-------

الخرائـــط والملاحـــــق

مدن العراق المهمة فى عهد المماليك .

الملحق رقم (١)

ولاة بغداد من ١٧٠٤ الى ١٨٣١

حسن باشا ١١١٦ – ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ – ١٧٢٣م

احمد باشا بن حسن باشا ١١٣٦ – ١١٤٧هـ/١٧٢٣ – ١٧٣٤م

(مؤسسا نظام المماليك)

اسماعيل باشا والي طرابزون ١١٤٧ – ١١٤٨هـ/ ١٧٣٤ – ١٧٣٥م

محمد باشا ١١٤٨ – ١١٦١هـ/ ١٧٣٦ – ١٧٤٧م

احمد باشا (ثانية) ١١٤٩ – ١١٦١هـ/ ١٧٣٦ – ١٧٤٧م

احمدباشا والي ديار بكر ١١٦١ – ١١٦١هـ/١٧٤٧ – ١٧٤٧م

محمد باشا الصدر السابق ١١٦١ – ١١٦٣هـ/١٧٤٧ – ١٧٤٩م

حكومة المماليك

سليمان باشا أبو ليلة ١١٦٣ – ١١٧٧هـ/١٧٤٩ – ١٧٦١م

علي باشا ١١٧٦ – ١١٧٧هـ/١٧٦٣ – ١٧٦٣م

عمر باشا ١١٧٧ – ١١٨٩هـ/١٧٦٣ – ١٧٧٥م

امين باشا الجليلي ١١٨٩ – ١١٨٩هـ/١٧٧٥ – ١٧٧٥م

مصطفى باشا الاسبيناقجي ١١٩٠ – ١١٩٠هـ/ ١٧٧٥ – ١٧٧٦م

عبدي باشا ١١٩٠ – ١١٩٠هـ/١٧٧٦ – ١٧٧٦م

(من غير المماليك)

عبدالله باشا ١١٩٠ – ١١٩٢هـ/١٧٧٦ – ١٧٧٨م

حسن باشا	١١٩٢ ـ ١١٩٤هـ/١٧٧٨ ـ ١٧٧٨م
سليمان باشا الكبير	١١٩٤ ـ ١٢١٧هـ/١٧٨٠ ـ ١٨٠٢م
علي باشا	١٢١٧ ـ ١٢٢٢هـ/١٨٠٢ ـ ١٨٠٧م
سليمان باشا الصغير	١٢٢٣ ـ ١٢٢٥هـ/١٨٠٨ ـ ١٨١٠م
عبدالله باشا	١٢٢٦ ـ ١٢٢٨هـ/١٨١٠ ـ ١٨١٣م
سعيد باشا بن سليمان باشا الكبير	١٢٢٨ ـ ١٢٣١هـ/١٨١٣ ـ ١٨١٦م
داود باشا	١٢٣١ ـ ١٢٤٧هـ/١٨١٦ ـ ١٨٣١م

الملحق رقـــم (٢)

وقفيــة داود باشـــــا (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل جنته وقفا على عباده المؤمنين ووزع رحمته رفقا بالطائعيـــن والعاصين وابرز ما اجرته الارادة بايدي قدرته وأحكم ما أظهرته على وفق حكمته فخلـــق الانسان اشرف الموجودات وميزه بمزايا على البريات وملكه من الدنيا ما هو الانفع له والاخرى ووعده ان زهد فيها ان يتحفه خيرا منها في الاخرى واستخلصه لعبادته واصطفاه وكلفـــه بما اختار له وارتضاه فبذلك أرسل فيه من نوعه الرسل مبشرين ومنذرين وهادين الى معالم الحق الواضح المستديم . وكان منهم واسطة العقد وبيت الحمد امامهم الافضـــــل ومقتداهم الاكمل الاخر بعثا وارسالا والاول مجدا وافضالا خاتم خزانة الارسال فاتح ابواب الكمال . اعمهم ارسالا واتمهم اتوالا وافضلهم بلاغا واسرعهم ابلاغا واقواهم برهانـــــا وافصحهم بيانا . فقام باعباء الرسالة حتى اودى قمصا لقابس وجمع نفسه على تمهيـــد طرق العدالة فلله دره من حابس . فعمت رسالته الاسود والاحمر وبلغت دعوته الاصفـر

---

(١) مجموعة وقفيات بغداد (مخطوطة) . وتكشف هذه الوقفية عن مصادر الثروة لداود باشا اخر الولاة المماليك . كما تبين أنواع الاستثمارات المالية التي كانت لطبقـــة المماليك . وهي — كما تظهر الوقفية — موزعة بين الملكيات الزراعية الكبيرة والملكيات العقاريـــة المتعلقة بأعمال التجارة . كالخانات والاسواق والدكاكين . وفضـــلا عن ذلك فانها تبين مرتبات العلماء والمدرسين وسائر العاملين في المؤسســـات الوقفيـــة الدينية والثقافيـــة .

والاكبر . اللهم فصل عليه وعليهم صلاة موقوفة على ارواحهم مزينة لاشباحهم وعلى آلـــه وآلهم واصحابه واصحابهم الذين وقفوا نفوسهم على اتباع الحق ونصرته وتشييد ركن الديـن ورفعته وعلى التابعين وتابعيهم الى يوم الدين .

اما بعد فيقول العبد المفتقر الى عفو رب العباد ابراهيم بن محمد افندى القاضـى فى مدينة السلام بغداد (١) : ان حضرة ولى النعم وعميد الزور والنقم الوزير الكبير والبدر المنير ابو الفتوحات الناصر لدين الله داود باشا والى بغداد لما علم ان الوقف من اشـرف الطاعات واجل القربات حتى تصور الله تعالى نيل البر عليه كما نص عليه المفسرون فقـــال عز وجل " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " ولذلك سمع هذا الخطاب المعنـــون بالصواب ابو طلحة رضى الله عنه دبت فيه اريحية الطاعة . فانخطر من بين الجماعة وبادر الى وقف احب امواله اليه اعنى برحاء حديقة له مشهورة وجنة له معمورة ووقف سيدنا عمـــر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ارضا بخيبر اصابها بأمره صلى الله عليه وسلم وهو اول وقف وقف فى الاسلام . ثم جرى على سنته الخاص والعام . ووقف صلى الله عليه وسلم امـوال مخيريق التى اصابها فى السنة الثالثة . وقال صلى الله عليه فيما رواه مسلم فى صحيحه : اذا مات مسلم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به اوولد صالح يدعو لـــه . والمراد بالصدقة الجارية الوقف باتفاق اكثر العلماء الاعلام والائمة هداة الاسلام . وجـاء عن جابر رضى الله عنــه : انه ما بقى من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم احد له مقدرة

---

(١) عين هذا القاضى ببغداد سنة ١٩٢٦ (١٢٤٢ هـ) بموجب الفرمان المؤرخ شوال من العام نفسه (ابراهيم الدروبى : قضاة بغداد ص ٢٢٤ مخطوط) .

حتى وقف احب اليه ان يقتفى سنة سيد المرسلين وينخرط فى سلك الواقفين الصالحين نهض جامعا ومدرسة واتضمن فى الجانب الشرقى من مدينة السلام بغداد فى محلة الحيدرخانة ووقفهما ووقف عليهما اوقافا يأتى ذكرها وذلك فى سنة ١٢٤٤ هـ وكتب وقفية ذلك مختومة بخواتيم قضاة بغداد (١). وقد دونت بحروفها والفاظها فى الدفترخانة.

وقد شرط فيها شروطا متعددة من جملتها ان شرط لنفسه الادخال والاخراج والزيادة ، والنقصان والتغيير والتبديل ولما كان هذا الشرط جائزا قد صرح بجوازه جماعة من فقهاء السادة الحنفية القائلين بأن شرط الواقف كنص الشارع منهم صاحب الواقعات ، فانه نقل عن قاضيخان انه قال اجمعوا على أن الواقف اذا شرط الاستبدال لنفسه فى اصل الوقف يصح الوقف ويملك الاستبدال ، ومنهم صاحب در المختار فى شرح تنوير الابصار حيث قال : وجاز جعل غلة الوقف والولاية لنفسه عند الثانى وعليه الفتوى ، وجاز شرط الاستبدال به أرضا أخرى انتهى . ومنهم خير الدين فى فتاواه فانه قال فيها : سئل فيما اذا وقف رجل وقفه على نفسه ايام حياته ثم من بعده على اولاده الموجودين يومئذ وسماهم وعلى من يحدث له من الاولاد الذكور والاناث بينهم على الفريضة الشرعية ثم من بعدهم على اولادهم ابدا ما تناسلوا . وبعد الانقراض الى جهة بر متصلة وشرط شروطا من جملتها انه شرط لنفسه الادخال والاخراج والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل كما بدا له وان تناهى له ذلك او تسلسل شرط الصحيح معتبر فله الادخال والاخراج الى

---

(١) وكان داود باشا قد وقف على جامعه ومدرسته عددا من الوقفيات فى تواريخ مختلفة ، ثم وحدها واضاف عليها فى وقفيته الاخيرة هذه .

اخر ما قال . وقال الطرسوسي في انفع الوسائل : اما استثناؤه في ان يزيد متى رأى زيادة وان يخرج من صدقته متى شاء اخراجه منها وان يدخل فيها من يشاء فيه ادخالـه فيها وينقص من شاء ان ينقصه منها مما كان جعله له فقسد جوز هذا من اجاز الوقف من اصحابنا ومن غيرهم ان شاء الله تعالى الى غير ذلك من النصوص . اراد حضرة الواقـف الوزير حفظه العلى الكبير في سنة ١٢٤٣ الالف ومائتين وثلاثة واربعين من هجـــرة سيد المرسلين ، زيادة في الوقف وتغييره فاشترى دورا ملاصقة للجامع المذكور والمدرسة فادخله فيها وخلط الجميع وعمرها جامعا كبيرا وعمر فيه مدرستين وحجرا لطلبة العلـــم ، فعند ذلك ابقى حضرة الوزير المشار اليه اسبغ الله تعالى نعمه عليه ما وقفه سابقا علـــى وقفيته ووقف ما الحقه اخرى من العقارات وجعل العمل على هذه الوقفيـة الاخيرة ، فان رأى الناظر في هذه الوقفين شيئا مغايرا لما في الوقفية الاولى فيجب عليه ان يتبع ما في هذه الوقفية ولا يعبأ بما في الوقفية الاولى ، وكذلك الكلام في جميع الوقفيات الاتية والعقارات الموقوفة اولا واخرا هي القهوة الواقعة في سوق الحيدرخانة في الجانب الشرقي من مدينـة السلام بغداد مقابل الجامع المذكور المحدودة بالطريقين العامين ودار الملا عثمـــان امام جامع الوزير بن عبد الرحمن الجوهري والغرف ملك ولي اغا ابن عبدالله — والتسعة عشر دكانا المتصلة بالجامع المذكور المحدودة به وبابه والطريقين العامين والاحد عشـر دكانا والقهوة والبزارة (١) المقابلات للدكاكين الملاصقات للجامع المذكور والمحدودات بالطريقين العامين ودكان مصطفى بك الربيعي ودار امين آغا الجادرجي ودار معروف اغا السلاحدار

---

(١) موضع خزن البذور .

سابقا ابن عبد الله . والدكانان الواقعان في سوق الحيدرخانة الملاصقان المحدودان بالطريقين العامين وبدكان الحاج محمد بن اوسته ابراهيم وبدار احمد اغا بن محمد آغا وبدار كتخدا بغداد . والدكانان المقابلان للدكانين المذكورين المحدودين بالطريق العام وبالطريق الخاص الشهير بدربونة (١) الشفتالي وبقهوة محمود افندي بن ملا محمد ينكجري افندي سابقا وبدار ابناء استاذ معروف . والدكان الواقع في سوق الحيدرخانة ايضا المحدود بالطريق العام وبالطريق الخاص وبدكان ايتام الحاج مصطفى وبدار يوسف النصراني . والقهوة الواقعة قرب الدكان المذكور المحدودة بالطريق العام وبالطريق الخاص وبدكان حسين بن علي وبدار محمد بن خلف وقطعة الارض المقابلة للقهوة التابعة لها المحدودة بالطريقين العامين وبدار حبيب اغا بن عبد الله من الطرفين . والدكان الواقع قرب خان جغان (٢) مقابل سوق الصياغين المحدود بملك نابي خاتون والدة المرحوم سعيد باشا والي بغداد سابقا وببابه وبالطريق العام والخان والعلوة (٣) والسبعة دكاكين الواقعات في سوق قاضي الحاجات التي هي من محلات الجانب الشرقي من مدينة السلام بغداد . اما الخان فمحدود بملك سيمون الذمي ولد شمعون وملك شهاب بن حسين وملك اروني الذمي وبالطريق العام وقد اشتمل على سبعة وعشرين حجرة منها تحتانية ومنها فوقانية وعلى اواخير (٤) وطارمات (٥) وبئر معينة مائي . واما العلوة

---

(١) الدربونة : تصغير كلمة : درب .

(٢) خان جغان : هو الخان الشهير الذي شيده والي بغداد جغاله زاده سنان باشا سنة ١٦٢٩ م (٩٩٩ هـ) في عهد السلطان مراد الثالث ، وقد هدم هذا الخان في سنة ١٩٢٩ (بمقتوب سركيس : مباحث عراقية ج ٢ ص ٥٩) .

(٣) العلوة : هي موضع بيع المنتجات الزراعية بالجملة .

(٤) اواخير : جمع آخور وهي كلمة تركية معناها اسطبل .

(٥) الطارمة : هي السقيفة .

المحدودة بقهوة ساره خانم بنت المرحوم سليمان باشا وبالطريق العام وبالخان المذكور من الاوشين ومشتملة على سرداب ومخزن وطارمة وبئر معين . اما السبعة دكاكين المتلاصقات ومحدودات بالخان المذكور وبالعلوة وبباب الخان والطريق العام . ودكان ودكة الواقعات في سوق الخفافية الذي هو من جملة اسواق الجانب الشرقي من مدينة السلام بغداد المحدودات بالدكان الموقوف على جامع على افندى وبدكان وقف حضرة الوزير الواقف وبالطريقين العامين . والدكان الواقع في سوق الاطرقجية من اسواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدود بدكان مصطفى بن محمود وبدكان محمود بن عبد الكريم وسوق الخياطين وبالطريق العام . والدكان الواقع في سوق الاطرقجية ايضا المحدود بدكان محمد اغا بن حسين أغا الخرمتلي وبدكان وقف القيلانية والجامع المذكور وبالطريق العام . والدكان في سوق الاطرقجية ايضا المحدود بدكان صالح اغا باش كاتب الجمرك وبدكان معصومة خاتون بنت عبد الله وسوق الخياطين وبالطريق العام . والدكان الواقع في سوق الدنكجية من اسواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدود بدكان فيض الله بن عبد الله وبدكان درويش اغا القائمقام وملك عمر بن عبد الله وبالطريق العام والدكان الواقع في سوق الدنكجية ايضا المحدود بدكان احمد بن الحاج اسبر وبدكان درويش بدر بن احمد بدر وبدكة ناحوم اليهودى وبالطريق العام . والثلاث دكاكين المتلاصقات الواقعات في سوق الزنجير من اسواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدودة بباب خان جغان المحدود وبخان جغان وبالطريق العام . والدكان الواقع في سوق الشورجة من اسواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدود بدكان محمد أمين افندى مدلج زاده وبدكان عبد النبي اليهودى وبدار الياهو اليهودى

والطريق العام . والدكان الواقع في سوق المرجانية من أسواق الجانب الشرقي من بغداد المحدود بدكان عبداللطيف أغا بن احمد أغا اسماعيل كهيه زادة وجامع مرجان وبابــــه والطريق العام . والدكة التي تحتها مخزن المقابلة للدكان المذكورة المحدودة بدكان الحاج عبدالله بن الحاج مصطفى افندي ودكان مصطفى بن صالح وملا سليمان والطريــق العام . والدكان الواقع في سوق العطارين من أسواق الجانب الشرقي من بغداد المحدود بالطريق الخاص اولا وثانيا وثالثا بدكان محمد امين اغا الطوبال ورابعا بالطريق العـــام . والدكان الواقع في سوق العطارين ايضا المحدود بدكان السيد عيسى ودكان اسحـــاق اليهودي والطريق العام . والدكان الواقع في سوق رأس القرية من أسواق الجانب الشرقي من بغداد المحدود بدكان حسين بن الافغاني ومخزن ياسين اغا محضر اغا بن عبدالرحمن ودكان وقف المسجد والطريق العام . والدكان الواقع في سوق الخفافين من اســـواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدود بدكان نعمان بك الشاوي ودكان عثمـــــان اغا بن الحاج خضر الاعظمي وسوق الزنجير والطريق العام . والدكانان اللذان تحتهما مخزنان واقعان في رأس الجسر الشرقي المحدود دكان بباب الجســر القديمة ودكان محمــد جلال وجامع الآصفية والطريق العام . والدكان الواقع في سوق الجوقجية من اســـواق الجانب الشرقي من مدينة بغداد المحدود بدكان وقف جامع الوزير ودكان عمر اغا ميـــــر اخور زاده ودار ايتام يعقوب اغا باش اغا اللاوند سابقا (١) والطريق العام والدكـــــان

---

(١) اللاونـــد : اسم فرقة عسكرية محليـــة .

الواقع عند باب الخان المقابل لسوق الصياغين المحدود بخان عبدالله اليهودي ودكان وقف الوزير والطريق العام . والدكان الواقع في سوق البزازين المحدود بدكان الحاج مهدي قزازباشي سابقا . ودكان محمد امين اغا الطوال وخان الزرور والطريق العام . والدكان الواقع في سوق الشعر باقيه المحدود ودكان الحاج ميرزا خان التبريزي ودكان الحاج محمد جلال وخان الابريسم والطريق العام . والدكان الواقع في سوق بكر المحدود بدكان وقف الرسول صلى الله عليه وسلم ودكان علي بن الحاج عبدالله القره غولي والطريق العام من الطرفين . والدكان الواقع في السوق المذكور المحدود بدكان الشيخ عبد القادر الكيلاني وجامع مرجان ودكان الحاجة فاطمة والحاجة زينب بنتي الحاج ابراهيم والطريق العام . والدكان الواقع في سوق التمر والمخزن واللاحق به المحدودان بخان التمر وبابه ودكان حسين اغا ابن الحاج يوسف اغا ايتمكجي باشي سابقا والطريق العام . والدكان الواقع في سوق البزازين المحدود بخان الزرور ودكان الحاج خليل عرموش والطريق العام . والقهوة الواقعة في سوق الميدان المحدودة بملك ابراهيم اغا ابن النفطجي . وملك الحاج عمر اغا طويل زاده وخندق قلعة المدينة والطريق العام . ونصف علوة المخضر ونصف القهوة ونصف الخان المخضر المشتركات مع ورثة مصطفى الخليل الواقعات في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد قرب رأس الجسر المحدودات بالطريق العام وعلوة محمد الطاهر الجبوري وخان اسماعيل اغا ابن وهيب وسوق البطلجية وملك ورثة مصطفى الخليل . والدكان الواقع قرب المصبغة في الجانب الشرقي من بغداد المحدود بالطريق العام . النافذ الى الدجلة العظمى والطريق العام الاخر ودار المصبغة . وقشلة اوتوزيش (١) المشتمل على ايوان وثلاث حجر وكرخانة (٢) خبز . والدكان المتصل

(١) اوتوزيش : اسم فرقة انكشارية كانت مقيمة ببغداد .
(٢) الكرخانة : كلمة معناها دار الصناعة وهي هنا بمعنى الفرن .

بالدكان المذكور المحدود بالدكان المزبور . ودكان سيد حميد البوبرجي وشـــارع السوق المشروط من اجارتها خمسمائة قرش الى مصارف جامع حبيب العجمـــى (١) وذلك بان يعطى منها مائة قرش الى مدرسه وخمسين قرش الى امامه وخمس وثلاثين قرشـــا الى موءذنه وخمس وثلاثين قرشا الى خادمه وخمس وثلاثين قرشا الى الذى يملىء الاباريـــق والباقى من الخمسمائة قرش المذكورة يصرف الى القناديل والشيرج والاباريق والحبـــال والحصران والدلو وغير ذلك من المصاريف . والذى يبقى من الايجار بعد الخمسمائـــة يضم الى اوقاف جامع الحيدرخانة . والدكان الواقع فى سوق البزازين المحدود بدكـــة الوقف الراجعة الى الحاج صالح بك نجل المرحوم سليمان باشا (٢) وبدكان السيـــد احمد بن السيد على وبالطريق العام . والدكان الواقع فى سوق القبلانية المحـــدود بدكان الوقف الراجع الى الحاج صالح بك ودكه ودكان المذكور وبالطريق العام . والقهوة والعلوة الواقعتان قرب سوق الشورجة المشتركة مع احمد اغا بغداد اغاسى (٣) مناصفـــة المحدودتان بجامع الخلفاء وبالطريق العام . من اطرافها الثلاثة . ونصف العلـــوة المشتركة مع المفتى الواقع فى سوق الشورجة المحدودة بعلوة عمر اغا وبدار يوسف عاشـــور وبالطريقين العامين . والدكان الواقع فى سوق الدفتردار المحدود بدكان الحاج مظفـــر ابن عبدالله وبدكان درويش بك بن الحاج احمد بك وبدار المرحوم عبدالله باشا وبالطريق العام . والاربع دكاكين المتلاصقات الواقعات فى سوق السراجين المحدودات بدكان محمد

---

(١) من المساجد القديمة فى الجانب الغربى من بغداد .

(٢) هو سليمان باشا الكبير والى بغداد .

(٣) بغداد آغاسى ، أى اغا بغداد ، هو رئيس الانكشارية ببغداد .

اغا ابن محمود افندي خزينة دار سابقا عبد الرحمن بن الحاج احمد بك والسراي الخارج المنسوب الى حسن قوللي ببغداد والطريق العام . والدكان الواقع في سوق باب الاغا المحدود بقهوة الهرواني ملك الحاج عبد الغني القرانجي ودكان وقف الامام الاعظم وعبدار رستم اغا بن عبد الله والطريق العام . والدكانان الواقعان في سوق صبابيغ الآل المحدودان بدكان الحاج جواد آغا والطريقين العامين . والدكان الواقع في سوق البزازين قرب سوق العجمي من اسواق الجانب الشرقي من بغداد المحدود باسكلة[1] السيد حسين بن الملا محمد والطريقين العامين والدكة الواقعة في سوق الخفافين المحدود أولا بالدقاقخانة وثانيا وثالثا ورابعا بالطريق العام . والبستان والكردان[2] المشهوران بالقريجات الواقعان غربي قصبة الامام الاعظم المحدودان بكرد الثعالبة المنسوب الى السيد احمد مفتي الحنفية سابقا . والدجلة العظمى وكرد ابراهيم اغا التفلجي ومزرع احمد افندي الطبقجلي مفتي الحنفية سابقا والطريق العام . والبستان الشهيرة ببستان الجديدة الواقعة في قرية الجيزان من قرى نهر الخالص المحدود ببستان الجديدة وبستان التوت والقرية المذكورة ونهر تحت والطريق العام . والبستان الشهيرة ببستان القصر الواقع شرقي قصبة الامام الاعظم المحدودة بالدجلة العظمى وبستان سليمان بك نامق زاده ووقف ساقية الشيخ شهاب الدين السهروردي وبستان الملا رجب ابن سليمان والطريق العام . وارض المزرع المحدودة

---

(١) الاسكلة : هي موضع بيع الخشب وخزنه .
(٢) الكردان : مثنى كرد وهو آلة رفع المياه من النهر .

بالبستان المذكورة المشتملة على نخلتين وارض البسيطة ونصف البساتين المشتركتين مع الملا سليمان الواقعتين في طريق ابي صيدة الكبيرة المحدودة اولاهما وهي المشهورة ببستان الحاج صالح ونهر الاحمر وبستان الحاج عيسى بن عبدالله وبستان الحاج صالح بك وبستان الحاج حسن بن فهد وثانيهما المشهورة ببستان الحاج نور بن الوشيدية والطريق العام والساقية وبستان الياس بن خضر والخيط وعشر عشر الجيه جي المحدود بأرض الحليمة وتل جاش ابي راسين وخان ازاد وبالدجلة العظمى وثلث عشر عشر الزعفرانية المحدود بارض قوارة المتصلة بالدجلة الى شاطئ جبال الدين ومن اسكلة المخلط الى ارض الناصرية وما بينهما ديالى وبارض الخرابية وتل محمد الى درب النخالة والى تلول بخش . واربعة اسهم وربع سهم من اصل اثني عشر سهما من جميع اراضي نهر قرية اللجمة الواقعة في مقاطعة البوجيل المحدودة اولا بطريق القرية الذي بين توث الحاج يعقوب والشطيطة ويقرب منها الى المهد الذي بين الثلاث سدرات الكائنات في الارض البسيطة وهي ارض عيارة ديوان والحد الثاني ينتهي الى شطيطة سود مصطفى وسلطان وثالثا من الحدود ويوازي الشطيطة من الجهة الشرقية التي تهد على نهر الصخرية الى برايز نهر جرجيس عند طريق الامام والرابع منه الى نهر السوق بالعالي . وثلاثة اسهم وثمن السهم من اصل اثني عشر سهماً من جميع ارض نهر قرية الغواضر الواقع في مقاطعة الدجيل المحدود بنهر جالية بلد ونهر بني سعد وبارض الزاوية وبالدجلة العظمى . وسهم واحد من اصل عشرة اسهم من جميع الارض الواقعة في ناحية الدجيل المتصلة بارض غواضر المشهورة بارض الموح المحدودة بالجرف الذي ينتهي اليه مثلوع نهر الغواضر غربا . وبارض العبار جنوبا وبارض بني سعد شرقا وبالجرف ايضا قبلة . والخان الواقع في بلد

اربيل المحدود بدكاكين صالح النجار وبدكاكين الحاج عبد الله بك وبدكاكين الكبابجي . والبستانان الواقعتان في قرية الهاشمية وناحية الخالص المحدودة احداهما بملك ناصر والطريق العام . وملك ابراهيم بن حسين وملك محسن بن سليمان وثانيهما بالطريق العامة وملك عبد القادر بن حسين اغا . والرحى الواقعة في قره تبة بطريق زنكباره . ونهر صارجق رحى عمر اغا وبأرض المزرع الراجعة للميري ونهر الرحى المذكورة من الطرفين . وعقر النهر المعروف بابي دبس الواقع في مقاطعة المحمودية المحدود اولا بنهر ابي عوسج وثانيا ارض مقاطعة المحمودية وثالثا الارض الشهيرة بارض الحيرة ورابعا التلسول في اراضي الاسكندرية . والتسع بساتين الاولى بستان كوت وشهيب والبستان الثانية بستان ابراهيم وظاهر وثامر . والبستان الثالثة الشهيرة ببستان كاظم وحمادي . والبستان الرابعة بستان خضر ومحمد وخلف اولاد عابد والبستان الخامسة بستان زوير وناهض وطارش . والبستان السادسة المسماة بستان جابد وابيه حسين حمد الله . والبستان السابعة بستان مظلوم وحاجم . والبستان الثامنة بستان جاسم الدجيلاوي وعكرش . والبستان التاسعة بستان غالي ومحمد . وقفت الجميع وقفا صحيحا شرعيا خالصا لوجه الله تعالى على الجامع المذكور المسمى بداودية وجعل الوزير الواقف التولية على الوقف والنظارة عليه ابدا بنفسه ايام حياته وشرط ان تؤجر هذه العقارات باجر مثلها سنة واحدة ويبدأ من غلتهما بعمارتها وعمارة الجامع المذكور ثم بمصارف الجامع والمدرسين الذين فيه . ثم يعطى من الغلة في كل سنة الفان وثمانمائة وعشرون قرشا من القروش الرائجة البغدادية وظائف للمدرس والخطيب والواعظ وللامام ولخدام الجامع والمدرسين منها للمدرس ثلثمائة قرش وللخطيب مائتا قرش وللواعظ مائة قرش وللاماميين اربعمائة قرش لكل امام مائتا قرش . وللقراء

الاربع الذين يقرؤون القرآن فوق المحفل يوم الجمعة اربعون قرشا لكل واحد منهم عشرة قروش • وللمؤذن الذى يؤذن ويبلغ فوق المحفل يوم الجمعة ثلاثون قرشا • وللمؤذنين الاربعة يؤذنون فى اوقات الصلوات الخمس مائتان وخمسون قرشا لكل مؤذن اثنان وستون قرشا ونصف قرش • ولمعيد درس الوعظ ثلاثون قرشا وللممجد الذى يمجد الله تعالى ليلة الجمعة ويومها وليالى شهر رمضان اربعون قرشا • ولمن يحافظ كتب المدرسة مائة قرش ولمن يشعل القناديل ويصلح حالها خمسون قرشا ولمن بيده مفاتيح ابواب الجامع ويكنس داخل الجامع مائة وخمسة واربعون قرشا ولمن يناول السيف للخطيب يوم الجمعة ويأخذه منه بعد انتهاء الخطبة ثلاثون قرشا ولكناس الجامع الخارجى مائة قرش وللابريقى الذى يملأ الاباريق ماء للمتوضئين ثمانون قرشا • ولمن يناول الماء للشاربين من الماء المسبل للشرب خمسون قرشا • ولمن يرش ارض الجامع بالماء خمسون قرشا • وللسقاء الذى يأتى بماء الجامع فى كل يوم عشرة قرب ثلثمائة وستون قرشا • ولمن يأتى بقناديل الجامع وينورها ثلاثون قرشا ولمن يأتى بالاباريق للجامع خمسة وعشرون قرشا • وللمعمار الذى يتعهد الجامع ويعمل فيه ما يحتاج اليه من الترميم خمسون قرشا • ثم اذا فضل شىء من الغلة بعد العمارة والمصارفات فالفضلة له ادامه الله تعالى ينتفع بها فى سائر وجوه الانتفاعات من غير مشارك له فى ذلك ولا منازع له فيما هناك • ثم جعل التوليه والنظارة من بعده الى الارشد فالارشد من اولاده واولاد اولاده واولاد اولاد اولاده • وهكذا ما تناسلوا وتعاقبوا •

وشرط حفظه الله تعالى ان يأخذ المتولى الذى شرطت له التوليه من فضلة الوقف وظيفة توليه الف قرش ويكون فى الباقى كاحدهم فى الاستحقاق وشرطا أن تكون فضلة الغلة

من بعده بعد التعمير والمصارفات لاولاده الذكور والاناث للذكر مثل حظ الانثيين ما داموا
موجودين فى قيد الحياة لا يستحق احد من اولادهم منهم فى فضلة الوقف شيئا فان انتقل
احد منهم من دار الفناء الى دار البقاء وخلف اولادا ذكروا فقط او اناثا فقط او مختلفين
واحدا او اكثر وخلف اولاد ابن كان قد توفى قبله واولاد بنت كانت قد توفيت قبله فيرجع
نصيبه فقط الى اولاده واولاد ابنه وبنته الموجودين حينئذ للذكر مثل حظ الانثيين وان انتقل
احد منهم ولم يخلف ولدا ولا ولد ولد ولا اسفل من ذلك فيرجع نصيبه الى اخوته واخواته
المشاركين له فى الاستحقاق بللذكر مثل حظ الانثيين . واذا انتقلت ولم تخلف اولادا سواء
كان لها زوج ام لا فيرجع نصيبها الى اخوانها واخواتها المشاركين لها فى الاستحقاق
للذكر مثل حظ الانثيين . ثم اذا انتقل اولاد حضرة الواقف الصلبيون باجمعهم والعياذ
بالله تعالى فترجع فضلة غلة الوقف الى اولاد اولاده الذكور والاناث للذكر مثل حظ الانثيين
وأولاد اولاد أولاده الذين توفى أبائهم قبل استحقاقهم فيشاركون مع اعمامهم واخوانهم
للذكر مثل حظ الانثيين . وشرط ان يكون اولاد البنات داخلين فى الاورد مشاركين
لاولاد الابناء فى الاستحقاق حتى انه لو خلف الابن بنتا وخلفت البنت ابنا يكون لابن البنت
سهمان ولبنت الابن سهم واحد . وشرط ان يكون الحكم فى هذه الطبقة الثانية كالحكم
فى الطبقة الاولى على الوجه المشروح . وان انقرضت الطبقة الثانية جميعها والعياذ بالله
تعالى يكون الحكم فى الطبقة الثالثة كالحكم المشروح فى الطبقة الاولى وهكذا ما تناسلوا وتعاقبوا
على الوجه المشروح . وشرط حضرة الوزير الواقف ان يدخل فى جملة اولاده الموقوف
عليهم امهات اولاده ان يكن كالبنات فى الاستحقاق ويكون حكمهن فى جميع الطبقات
كحكم البنات ما دمن موجودات فى قيد الحياة وشرط ان من تزوجت من امهات اولاده فليس

لها نصيب فى الوقف المذكور ثم ان انقرضت الذرية باجمعهم والعياذ بالله تعالى وبقى من امهات الاولاد واحدة او اكثر فيعطى من الغلة للباقى من امهات الاولاد ما كن يأخذن مع الذرية والباقى يعطى للمعتقين والمعتقات والمدبرين والمدبرات واولادهم واولاد اولادهم وهكذا ما تناسلوا وتعاقبوا للذكر مثل حظ الانثيين الذين هم من مماليك حضرة الواقف المشار اليه ومماليك اولاده واولاد اولاده وهكذا . وشرط ان يكون المتولى من هؤلاء الارشد فالارشد ، وان المتولى بعد ان يأخذ الوظيفة المشروطة يكون كاحدهم فى الاستحقاق فى فضلة الوقف ، ثم اذا انقرض المعتقون والمعتقات والمدبرون والمدبرات ولم يبق منهم احد ولا من نسلهم احد يكون الوقف راجعا الى العلماء وطلبة العلم والصلحاء الذين يسكنون فى الجوامع والمدارس ويكون امر التولية راجعا الى حاكم الشرع الشريف يختار واحدا من العلماء الامناء وينصبه متوليا على الوقف المذكور . ثم ان حضرة الوزير الواقف المشار اليه وكل محمد اغا ابن محمود افندى خزينة كاتبى سابقا وجعله متوليا للمخاصمة وسلمه العقارات الموقوفة فقبضها قبض امثالها ثم وكل حضرة الوزير الملا محمد نجيب بان موكله حضرة الوزير رجع عن الوقف المذكور مدعيا بانه غير لازم عند الامام ابى حنيفة اذ الوقف عنده كالعارية جائزة غير لازمة فيرجع عنه لان الوقف عنده حبس العين على ملك المالك فلا يلزم اذا كان غير محكوم به فطلب ارجاع العقارات الى ملك موكله . فنازعه محمد اغا الوكيل الآخر مدعيا لزومه محتجا بقوله الامامين ان الوقف لازم وان لم يحكم القاضى بلزومه لان الوقف عندهما حبس على ملك الله تعالى وصرف منفعة الوقف على من احبه الواقف والفتـــوى على قولهما كما صرح بذلك فقهاء الحنفية ، فحكمت بصحة الوقف ولزومه

وعدم جواز الرجوع معلوم بالخلاف الجاري بين الائمة الاشراف فصار وقفا مؤبدا وحبسا مخلدا بحيث لا يباع ولا يوهب ولا يعار ولا يقسم ولا يملك ولا يملك ، فمن بدله من بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم . وكان ذلك في غرة شهر رجب الاصب الواقع في السنة الثالثة والاربعين غب الالف والمائتين للهجرة النبوية .

نمقه الفقير اليه عز شانه
ابراهيم بن محمد القاضي بمدينة بغداد

Scanned by CamScanner

الملحق رقم (٣)

وقفية السيدة عائشة خاتون
على ذريتها من آل عبد الجليل بك
أمراء الحلة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وقف رحمته على الطائعين من العباد ، وجنى مغرفته على المخلصين من أولياء الزهاد . والصلاة والسلام على الشافع المشفع يوم التناد ، وعلى آله واصحابه الذين نصروا الدين الحنيف .

وبعد ، فقد بادرت السيدة عائشة المذكورة (٢) وقررت في حال صحتها وكمال عقلها ورشدها قائلة : اني قد وقفت وحبست وابدت جميع البستانين الواقعين في محلة الوردية في الجانب الشرقي من مدينة الحلة المعروفة بالخسروية والمزيدية ، وجميع أرض

(١) عاصرت هذه الاسرة عهد المماليك تقريبا ، وتبين هذه الوقفية طبيعة استثماراتها المالية ، باعتبارها نموذجا للاسر المحلية الحاكمة في المدن ، حيث نلاحظ ان هذه الاستثمارات محصورة في مجالين رئيسيين : الملكيات الزراعية الكبيرة ، والعقارات المتصلة بالحركة التجارية ، مما يوضح مدى التشابه في الاسس الاقتصادية بين طبقة المماليك وطبقة الاسر الحاكمة المعاصرة لها .

(٢) هي عائشة خاتون بنت عبد الله ، وكانت زوجة لسلطان بك بن الحاج يوسف بك مؤسس الاسرة . وعبد الجليل ابنها هو الذي نسبت اليه الاسرة المذكورة فيما بعد ، وقد تولى حكم الحلة فترة من الزمن .

المزرع الخارجة عنهما ، وجميع الثالثة عشر دكانا مع نصف السقف المظلل لها مع القهـــوة والحلوة المتصلين بهما والمشهورة بحلوة السيف ، على ولدها عبد الجليل بك بن سلطان بك ثم من بعده على ابنته آمنة خاتون ، وعلى أولادها وأولاد أولادها نسلا بعد نســل ، وطلبت تسجيل الوقف بشرائطه وضوابطه . وبعد الترافع بالوجه الشرعي حكم القاضــــي بصحة الوقف ولزومه وسجله في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٩ .

وفي صدر الوثيقة كتب القاضي المذكور بخط يده العبارة التالية : حكمت بصحة الوقف ولزومه بخصوصه وعمومه عالما بالخلاف الجاري بين الائمة الاسلاف وانا الفقير اسماعيل القاضي بمدينة بغداد المحمية .

نمقه الفقـير اليه عز شأنـه

عفـي عنـه

اسماعيل القاضي بمدينة بغـداد

الملحـــق رقــم (٤)

حجة شرعية بشأن استبـــدال قســـم
من الاراضي الموقوفة على الاسرة القادرية (١)
بعقارات تجاريـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان باعث الكتاب السيد سلطان افندي القادري نقيب الاشراف ، قد استبدل بموجب توليته على اوقاف السيد الشيخ شمس الدين القادري (٢) القسم المشتمل على الارض البيضاء الواقعة باتصال الباب الشرقي من مدينة بغداد دار السلام بالدكاكين والقهوة الصغيرة الواقعات في محلة عز الدين ببغداد ، حيث ذكر النقيب والمتولي المشار اليه بأن بدل ايجار الارض البيضاء هو عشرون قرشا روميا ، وان بدل ايجار الدكاكين والمقهى يساوي مائة وعشرون قرشا روميا وهي اكثر من ذلك البدل بخمسة اضعاف ، وعند الكشف ظهر من اخبار المسلمين الثقاة الخالين من الغرض صدق ما ذكره وبسطه المتولي المشار اليه ، وبناء عليه ، وبالنظر لتحقق المنفعة والمصلحة للوقف ، فقد حكمت بصحة هذا الاستبدال ، وانا

---

(١) الوثائق القادرية (مخطوطة) وهذه الوثيقة مسجلة في السجل التاسع من سجلات المحكمة الشرعية ببغداد تحت الرقم ٣٢٧ . وهي تبين اتجاه المستثمرين الى العقارات ذات الطابع التجاري في تنمية اموالهم ، كالدكاكين والمقاهي ، بدلا عن الاراضي الفضاء ، حيث اخذت قيمة تلك العقارات تتضاعف بسرعة ، في اواخر عهد المماليك ، كنتيجة لازدياد الحركة التجارية ونشاط طبقة التجار في المدن العراقية آنذاك .

(٢) ترتقي وقفية الشيخ زين الدين الى سنة ٩٧٨ هـ ، وتتضمن مساحات كبيرة من الاراضي والمزارع والجداول والعقارات في الريف والمدن اوقفها على ذريته ، وعلى تعمير جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد . وهي مسجلة في سجلات المحكمة الشرعية ببغداد تحت رقم ٦٣ .

الفقير اليه عز شأنه رجبى زاده عبد اللـــه رشدى القاضـــى بمدينة بغداد المحروســـة .
حرر وجرى فى الخامس من ذى القعدة سنة ١٢٣٣ هـ .

الملحق رقم (٥)

وقفية خديجة خاتون على آل الرواف ببغداد وستة مساجد في بغداد والبصرة (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اوقف الواقفين الواثقين على مناهج الخيرات لسلوك مناهج المبرات، ووفق العالمين باحاسن الطاعات والصلاة على محمد النبي الكريم وعلى آله واصحابه الغر الميامين . وبعد فاني قد وقفت وابدت وحبست ثلاث قطع البساتين الواقعة خارج الباب الشرقي من بغداد تحد الاولى نهر دجلة وبستان احمد افندي النائب وبستان مهدي الشطاع بن حسين والطريق العام . وتحد الثاني بالطريق العام وبستان احمد افندي النائب وبستان خليل بن محمد البستاني المستجدة وتحد الثالثة وهي البستان المستجدة بمزرع احمد افندي النائب ومزرع السيد مهدي المذكور والمزرع الذي هو تبع لهذه البساتين الثلاثة ، ووقفت ايضا الدار الواقعة ببغداد محلة النقاشين التي هي عبارة عن دار الحرم والديوانخانه المحدودة بالطريق العام ودارنا حوش الآخور والحمام

---

(1) مجموعة وقفيات بغداد (مخطوطة) والواقفة هي السيدة خديجة خاتون بنت عبد الله زوجة الحاج محمد جلبي الرواف ، من آل الرواف ، الاسرة المعروفة في عهد المماليك. وتبين هذه الوقفية ما كانت تملكه الاسرة المذكورة من عقارات زراعية تشتمل على عدة بساتين خارج بغداد . وفي الوقفية تفصيلات مهمة عن رواتب فئات مختلفة مثل المؤذنين والائمة والخدم ... الخ ، كما تبين اهتمام الواقفة بتخصيص الرواتب الكافية لمماليك اسرتها المعتقين وذريتهم .

ومطبخنا الخارجي ودار مريم شقيقة الواقفة وحد الحرم بدار مريم المذكورة ودار محيى الدين وعبد القادر افندى ابني صبغة الله ودار الحاج محمد الاعظمى ودار الجوخجى ودار يونس ودار موشى اليهودى وقفا صحيحا شرعيا على نفسها ومن بعدها يكون الوقف والتولية الى زوجها الحاج محمد الرواف وعلى من سيولد له من نسله وعقبه . واذا انقرضوا تصرف غلة الوقف على المساجد الستة ، خمسة في بلد بغداد وواحد في الزبير من ناحية البصرة ، يحد الاول وهو المسجد المسمى مسجد السادة الواقع في الطريق بين الطاق الاظلم وسوق السنك ودار الملا عبد الفتاح بن عبد الله الحنفي ببغداد ودار خميس الصباغ بن جويد ونجدية مملوكة زوجة كريم ودار اولاد محمد سعيد الدباغ . ويحد المسجد الثاني وهو المسجد المسمى مسجد النعمان بالطريق العام والخاص ودار ربيعة ورثة الشيخ جمعة الكوكوكي الدباغ والسيد عبد الله الزرقلوني ودار ورثة الحاج فارس الدباغ ويحد الثالث وهو مسجد ظهير الدين الواقع في محلة خان الحيات والطريق العام من الطرفين ودار سبتي بن حسين كليب ودار ورثة الحاج خميس العماري . ويحد الرابع وهو مسجد دكاكين حبوب وهو صغير بالطريق الخاص ودار صالح البقال ودار الشيخ رجب ودار الحاج بكر والى وحمد السعيدى . ويحد المسجد السادس وهو مسجد الرواف الواقع في الزبير بسوق البزازين والطريق العام ودار على النجار ودار على الحساوى . والمتولى على هذه الاوقاف بعد الانقراض للاعلم والاصلح من علماء بغداد يصرف نماء الوقف في كل سنة اولا على خدام المساجد المذكورة ، يعطى للامام في مسجد السادة الاول مائة وخمسين قرش رايج بغداد ، وللمؤذن مائة قرش رائج بغداد ولساقى الماء خمسين قرش رائج بغداد وللشمع والقناديل والحصران اربعين قرش رائج بغداد . ويعطى لكل مسجد

من مسجد النعماني ومسجد ظهير الدين ومسجد دكاكين حبوب مائتين واربعين قرش رايج بغداد، تصرف على الائمة والمؤذنين والخدمة وللحصر والاباريق وينفق ايضا من غلة هذا الوقف خيرات للواقفة كل يوم ختمة قرآن تماما في كل سنة اربعمائة قرش رائج بغداد وللاضحيات الثلاثة في كل سنة خمسين قرشا رايج بغداد واحدة للواقفة والثانية لزوجها الحاج محمد الرواف والثالثة على روح عنبر وياقوت معتقي زوجها الحاج محمد الرواف وعلى ما تناسل منهما وان يعطى لكل واحد منهما في السنة خمسمائة قرش رائج بعد وفاتهما على نسلهما بالسوية بلا ترتيب بعد الانقراض يرجع هذا المبلغ وينفق ايضا من ثمر البساتين الثلاثة خمسمائة قرش رايج بغداد في كل سنة على الفقراء والمساكين ، والناظر على المتولي العالم والمعتقات او نسلهما ان عدما او عدم نسلهما فالصلحاء من أهل بغداد هو الناظر وله في كل سنة من نماء هذا الوقف مائتا قرش رايج بغداد والفضلة تصرف على تعمير المساجد والبساتين والديوانخانه والحرم ، ويشترى من الفضلة بعض الدكاكين ويضاف على الوقف (1) ، فاطلب تسجيل تقريري بالوقف المذكور والحكم بصحته وفق شروطه وبعد الترافع بالوجه الشرعي حكم القاضي بصحة الوقف وكتب بخطه ، في صدر كتاب الوقف ما نصه : حكمت بصحة هذا الوقف ولزومه بخصوصه وعمومه عالما بالخلاف الجاري بين الائمة الاسلاف حكما شرعيا وسجل ذلك في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة الشريفة سنة ١٢٣٦ في السجل ١٦ والصحيفة ٤٧ والعدد ١١٢ وانا الفقير اليه عز شأنه الحاج خليل رشدي القاضي بمدينة بغداد المحروسة .

---

(1) يلاحظ هنا اعتماد الواقف في تنمية وقفه على العقارات ذات الطابع التجاري داخل المدينة ، بدلا من الاراضي الزراعية خارجها .

الملحق رقم (٦)

فرمان يتضمن تولية السيد رمضان الكيلاني على الاوقاف القادرية ومقدار ما يستوفيه عن مثل اجر عمله (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

ان السيد عبد الرحمن المتصرف بمشيخة اوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره العزيز الكائنة في بغداد بيومية قدرها اقجتين بالتولية والنظارة بلا تعيين قد توفى وبقى محله خاليا والخدمة اللازمة معطلة ، وعليه فان من ارباب الاستحقاق رافع هذا التوقيع الرفيع الشأن الخاقاني السيد رمضان زيد فضله قدم عريضة الى ديوان بغداد طالبا فيهما توجيه الجهات المذكورة اليه لانه مستحق لها، وعلى هذا فان الجهات الموقومة قد توجهت الى السيد رمضان المرقوم بيورلدي (٢) لدى والي بغداد الدستور المكرم والمشير المفخم نظام العالم وزيرى سليمان باشا (٣) ادام الله تعالى اجلاله بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٢١٦ باعتبارها من محلول المتوفى المزبور ، وقد اعطيت الضبطة اللازمة مختومة وممضاة من قبل

---

(١) الوثائق القادرية ، وهذا الفرمان مسجل في المحكمة الشرعية ببغداد سجل ٨ ، وقد ترجم الى العربية بصفة رسمية ويتضمن مقدار الراتب اليومي لمتولي الاوقاف القادرية من حاصل تلك الاوقاف .

(٢) البيورلدي ، اصطلاح تركي ، يراد به الامر الصادر عن الوالي دون السلطان .

(٣) والي بغداد سليمان باشا الكبير .

خزينة بغداد بذلك ، وعلى هذا فقد اصدرت فرماني لاعطاء البرات (١) واظهرت مزيد عنايتي الشاهانية بحقه ، وموجب امري السلطاني المؤرخ ٢٥ رجب الشريف سنة ١٢١٦ اعطيت براتي الهمايوني وامرت ان يتصرف السيد رمضان المومى اليه بالجهات المذكورة من حلول المتوفى المومى اليه وان يقوم باداء الخدمة ويأخذ الخمسين اقجه المعينة لوظيفة المشيخة المذكورة يوميا من حاصلات الاوقاف المذكورة ويتصرف بها فليعملوا هكذا وليعتمدوا الى علامتي الشريفة

تحريرا في ١٢١٧ .

يعمل بموجبه . وبعد التسجيل بمحله تبقى بيده بموجب بيورلدي في ١٨ صفر سنة ١٢١٧ . سليمان باشا والي بغداد .

---

(١) اي البراءة وهي المرسوم .

الملحق رقم (٧)

الفرمان الذي حصل عليه السيد علي افندي نقيب الاشراف من السلطان محمود خان العثماني المحتوي على جميع الاوقاف القادرية مع بيان المخصصات التي تصرف على المدرس والامام والخطيب والفقراء والدراويش والعائلة الكيلانيـــة . (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب . ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى . والي بغداد ومتعلقاته الحالي وزيري الحـــاج محمد نجيب باشا ادام الله تعالى جلاله . واقضى قضاة المسلمين واولى ولاة الموحدين معدن الفضل واليقين رافع اعلام الشريعة والدين وارث علوم الانبياء والمرسلين المختص بمزيد عناية الملك المعين . مولانا قاضي بغداد زيدت فضائله . ليكن معلوما لديكما انه بمقتضى منطوق قطعة واحدة من الاجمال الخاقان المستخرج من دائرة الدفتر الخاقاني العامرة والموصولة بالتوقيع الرفيع الهمايون ان القرى المعروفة بقصارى وارزتية وعبد الرزاق ومرتنيـــه

---

(١) الوثائق القادرية . وهذه الوثيقة مسجلة في السجل الاول من سجلات المحكمة الشرعية تحت الرقم ١٦ . وهي باللغة التركية . وقد ترجمت الى العربية بصفة رسمية سنة ١٩٣٥ وتبين الوثيقة المصادر الجديدة لثروة نقباء بغداد في القرن التاسع عشر . ومعظمهـــا قرى زراعية منتشرة في انحاء شتى من شمال العراق وجنوبه . كما تقدم تفصيلات هامة عـــن انواع الرسوم المستحصلة من تلك القرى والتزام جبايتها . وايرادات نقابة الاشـــراف ومصروفاتها . فضلا عما تبينه من مقادير رواتب موظفي جامع الشيخ عبد القادر الكيلانـــي ومستخدميه والفقراء والدراويش والاسرة القادرية .

وجبة والمزرعة المعروفة بحزية والتي كانت جميعها مقيدة وقفا باسم زين الدين القادري وتوابعه تحت المحل المدرج فيه اوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره العزيز الكائنة في سنجاق العمادية وفي ناحية بغداد في الدفتر العتيق كان قد حكم بوقفيتها منذ سنين عديدة على ان تبقى مالكانتها لهم وعند تحريرها مجددا قيدت في الدفتر الى الوقف على الوجه المقرر والمشروح اعلاه . وان مقاطعة بويه خانه (١) ومحصول البساتين والحنطة والشعير التي يبلغ يكونها مع غيره ٢٧٢٦٤ آقجه المدونة تحت فرق ومحصول نفرات (الافراد) وقرية جديدة التابعة لناحية قرية بغداد . وان مقاطعة بويه خانة ورسم خانة شمار (٢) والحنطة الهالغ يكونها مع غيره ١٦٤٩٠ اقجه المدرجة تحت نفرات مع قرية قصيبة التابعة لناحية طريق خراسان والحاصل مع المالكانة . وان رسم خانة شمار ومقاطعة بويه خانه والحنطة والشعير التي يبلغ يكونها مع غيره ٢٢٦٩٠ اقجه المدرجة تحت نفرات افراد مع قرية دوره التابعة ايضا لناحية خريسان وحاصلها . وان مالكانة القرية المذكورة ثلث هو في تصرف الشيخ زين الدين القادري وثلثان في تصرف الحاج جلال علاقة بنسد بمقتضى الدفتر العتيق . اما في الوقت الحاضر ففي تصرف ورثة الشيخ زين الدين القادري عن اصل قدره تسعة اسهم . وخمسة اسهم في تصرف سيف الدين فعشرة اسهم . وان الشعير ومحصول البساتين ورسم التغار (الوزن والكيل) التي يبلغ مجموعها مع غيره ٣٠٧٩ اقجة المدرجة تحت قرية محاول التابعة ايضا لناحية طريق خراسان وحاصلاتها وان مالكانة

---

(١) البويه خانه : هي المصبغة .

(٢) هو رسم تعداد البيوت او الاملاك .

هذه القرية هي في تصرف الشيخ زين الدين القادري واخوانه من اولاد وفقا للدفتر العتيق ، وكذلك رسم تعداد الخانات (خانة شمار) ومحصول البساتين والحنطة والشعير التي يكون مجموعها مع غيرها ٢٥٨٣٠ أقجة والمدرجة تحت النفرات والجماعات مع قرية ابو صيدا وحاصلها التابعة جميعها الى ناحية طريق خراسان ومع ما لكانة القرى المذكورة التي هي في تصرف الشيخ زين الدين القادري باعتبار ثلثين وفي تصرف مير افندي باعتبار ثلث واحد وفقا للدفتر العتيق ، وكذلك مزرعة رقبة زهيرات التابعة ايضا لناحية طريق خراسان والواقعة بقرب ابو صيدا فهذه محصول ديوانيتها يعود الى الوقف ، ثم ان النفرات والجماعات الداخلة في محصول القرية المذكورة والتابعة ايضا لناحية طريق خراسان مع رسم تعداد الخانات ورسم سرتخار (1) والحنطة والشعير البالغ يكون مع غيره ٦٩٩٦ أقجه والمدونة تحت قرية المنصورية وحاصلها وكذلك مالكانة القرية المذكورة فثلث منها في تصرف ورثة الشيخ زين الدين القادري وثلثان في تصرف كل من سلطان بن الشيخ علي خليفة ومعتوق بن الشيخ عبد الله وفقا للدفتر العتيق ، اما في الوقت الحاضر فثلثان في تصرف زين الدين الحاج مكدي وعوض لبن حسين وفقا للحجج الشرعية ، وكذلك محصول البساتين على شلب ورز ودخن وحنطة وشعير ورسم سرتخار واليكون مع غيره البالغ ٥١٣ أقجه وما كانت القرية المدرج جميعها تحت قرية الشيخ دقلي التابعة لناحية طريق خراسان وحاصلها ، فهذه هي في تصرف اولاد الشيخ عبد القادر الكيلاني وفقا للدفتر

---

(1) اي رسم الكيل .

المتيق وكذلك رسم تعداد الخانات ورسم سرتفار الكيالية والحنطة والشعير البالغ يكون مع غيره ٦٧٩٧ اقجه مع مالكانة القرية المدرج جميعها تحت نفرات مع قرية ايضا قصارى وحاصلها التابعة لناحية طريق خراسان فهذه في تصرف الشيخ زين الدين القادرى وفقا للدفتر المتيق وكذلك رسم تعداد الخانات ورسم الحنطة والشعير البالغ مع غيره ٢٥١٤٨ اقجه ، ومالكانة القرية المدونة تحت نفرات وجماعات مع قرية رازقية وحاصلها التابعة لناحية طريق خراسان فهذه ثلثان منها في تصرف الشيخ زين الدين القادرى وباقى الشركاء وثلث في تصرف مير افندى وفقا للدفتر المتيق ، اما في الوقت الحاضر ففى تصرف عوض بن حسين يعقوبى وفقا للحجة الشرعية وكذلك رسم تعداد الخانات ورسم سرتفار كيالية ورسم الحنطة والشعير البالغ جميعا مع غيره ٧٦٣٤ آقجه ، ومالكانة القرية المدوية تحت نفرات مع قرية عبد الرزاق وحاصلها التابعة ايضا لناحية طريق خراسان فانها جميعا في تصرف اولاد الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره وفقا للدفتر المتيق ، وكذلك رسم الحنطة والشعير ورسم سرتفار البالغ جميعا مع غيره (٦١٩) آقجه مع مالكانة القرية المدرج كلها تحت قرية (رقة رحبه) وحاصلها التابعة ايضا لناحية طريق خراسان فهى في تصرف اولاد الشيخ عبد القادر الكيلانى و وايضا مقاطعة بويه خانه ومحصول البساتين ورسم تعدد الخانات ورسم الحنطة والشعير البالغ كلها مع غيرها (٦٢٣١٣) آقجه مع مالكانة القرية المدونة جميعا تحت نفرات مع قرية برقانية وحاصلها التابعة لناحية مهروت فان الثلثين منها وقف باسم الشيخ شهاب الدين السهروردى وربع واحد في تصرف ورثة كتخدا فلاح وسهم واحد (١٢) سهم فهو في تصرف مولانا شمس الدين بن عبد الله وفقا للحجة الشرعية وقد دون في تحت ذلك بان حصة الوقف تبلغ (٢١٤٠) اقجه

اما حصة الآخرين فتبلغ (١٠٦٨) اقجه . ثم ان وسم الحنطة والشعير ورسم سرتفار الكيلانية التي تبلغ جميعا مع غيرها (٢٧٨٤) اقجه المدونة تحت هذا العنوان وهو خان الحاج وجيه التابع لناحية مهروت ومزارعة تزرع من الخارج والحاصل مع مالكانة وكذلك وسم تعداد الخانات ورسم سرتفار ورسم الحنطة والشعير البالغ جميعا مع غيره (٣٧٢٥٤) اقجه مع المالكانة القرية نفسها المدونة تحت تعبير (نفرات) مع قرية ابي جسرا وحاصلها التابعة لناحية مهروت . فهذه جميعها هي في تصرف اولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره وفيها اسهم اولاد الشيخ شرف الدين والشيخ محمد علي والشيخ علاء الدين وفقا للدفتر العتيق . وايضا فان رسم الحنطة والشعير ورسم سرتفار البالغ جميعا مع غيره (٢١٥٠) اقجه المدونة تحت عنوان نهر الشيخ الآخر المعروف بمزرعة نهر عزبة التابع لناحية مهروت وحاصلها مع مالكانة المزرعة المذكورة في تصرف الشيخ زين الدين القادري وفقا للدفتر العتيق . ثم ان رسم الحنطة والشعير البالغ يكون مع غيره (٣٩٠٠) اقجه المدونة تحت مزرعة نهر حرحش وحاصلها التابعة لناحية قرية بغداد فهذه عدا ما جرى في الماضي تسجيل ولاية بغداد ووجد مقدما عجز يبلغ (٢٥٧٦٠) اقجه في اوقاف حضرة القطب الصمداني الشيخ عبد القادر الكيلاني صدر عندئذ حكم شريف لاتمام ذلك العجز من جهة مناسبة . وعلى اثر ذلك صدر الفرمان بالحاق كل من قرية ابو صيدا الواقعة في ناحية طريق خراسان والتي هي من الخواص الهمايوني وقرية الحاج وجيه التابعة لناحية مهروت ومزرعة حرحش الموجودة في ناحية قرابة على اساس التحرير السابق المتضمن زيادات لكل منها بالاوقاف المذكورة (اي اوقاف الشيخ عبد القادر الكيلاني) وقد جرى فعلا تسجيل هذه على اساس الوقفية والوجه

المشروح اعلاه فى الدفتر كما اشير فيه انه قد قيد على عين الصورة فى الدفتر العتيق ايضا

وفى نفس بغداد مبلغا قدره (٢٤٣٨) اقچه المحصول اجور الدكاكين و (٣١٠٠)

اقچه عن محصول البساتين و (٧٠٠) اقچه عن محصول قيمة دفن القبور و (٦٠٠٠)

اقچه عن محصول النذور اليكون وقدره (١٦٢٣٧) اقچه البالغ جميعا (٢٦٨١٩٩) اقچه

اما المصروف فجهة التوليـة فى اليوم (٤٠) وجهة الخطابة فى اليوم (٢٠) وجهـة

الامامة فى اليوم (٧) وجهة تربة دار محافظ القبر فى اليوم (٥) مع الجهات السائرة

البالغة فى اليوم (٣٠٢) وفى السنة (١٠٦٩٠٨) اقچه وذلك لاجل الماكولات

اليومية ولايام العيدين ولرمضان وليلة الجمعة وليلة الرغائب وليوم عاشوراء وقيمة اللحـم

اليومى فخمسة عشر الف اقچـه فى السنة الواحدة والحنطة المطلوبة للخبز والمعيشـة

وقدرها (١٥٠) طغارا وقيمتها (٧٤٠٠) اقچه وقيمة الرز فى السنة تبلغ (١٢٠٠٠)

اقچه وقيمة الملح فى السنة تبلغ (٣٦٦) اقچه واليكون للجميع مع غيره يبلغ (٥٤٩٦٦)

اقچه فهذه الامور قد جرت قيدها على انفراد فى دفتر الاوقاف وفى قلم التحرير . ثم ان

قريـة جلبى التابعة لناحية خراسان وقرية نحيسة التابعة لناحية خراسان . وقرية ابوصيدا

التابعة لناحية خراسان هى تلك القرى المعروفة باسم الوقف النهير والقريـة من مقاطعـة

خراسان التابعة للمجموعة من اوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلانى . وعدا ذلك فـان

قرية بروانه حمدانية وليكان والنهر الصغير المسمى بساقية روال وقرية عواشق وقرية هـور

والنهر الصغير المسمى دامخة وقرية زهيرات ومحل الزرع فى اراضى الشوكة وقرية ابو صيدا

الكبرى وقرية ابو صيدا الصغرى ونهر سامر وساقينه محرورة ونهر شيخى وساقية ونهـر

ابو كرمه والنهر الصغير المسمى طلق ونهر صغير اخر يدعى شاهين فهذه القرى والانهر

تعطى بالالتزام كلها معا وانها محدودة من الجانب العلوى بمقاطعة حنهس ومن الجانب السفلى بنهر قبه المملوك من قبل محمد الصارى كتخدا كهيه ، ومن الجانب الغربـــى نهر ديالى ، ومن الجانب الشرقى بنهر خراسان ، وان بدل التزامها مع المائلات يبلغ (٨٠) الف قرش ومن جملة الانهار المتفرقة الواقعة ضمن مقاطعة خراسان والمتعلقـــة باوقاف المشار اليه فان عن مال التزام قرية رازتيات (١٠) الاف قرش وعن مال التـــزام نهر الشيخ واراضى الرحبة (٣٥٠٠) وعن ساقية احيمو وشاوش (١٢٥٠) وعن نهر خوالص وخرابة فى السنة ٥٩ الف ويبلغ مجموع التزات (١٤٧٥٠) قرشا وان بـــدل التزام نهر ابو جسره الواقع فى ناحية مهروت المتعلق بالاوقاف المذكورة يبلـغ (١٢٥٠٠) قرشا . أما بدل التزام نهر برقنية فيبلغ ، (٣٢٥٠) وان مجموع واردات السا قيـــة المسماة بنهر الشيخ والتى يقال انها متهدمة فى الوقت الحاضر فيبلغ (٣٥٧٥٠) قرشا وان بدل التزام قريتى موسكاه وميزة من نفس الاوقاف الواقعة فى ضمن سنجاق العماديـــة فيبلغ (٢٥٠٠) قرشا وان الواردات الغير المعلومة المشروطه وقفا لتكية الشيخ عبد العزيز قدس سره العزيز عن قرية زلكه وقرية بير سفنى التابعة لناحية زاخو وان مجموع واردات الاوقاف الواقعة فى العمادية البالغة قدرها (٢٥٠٠) قرشا ومن جملة متفرق اوقاف المشار اليه اراضى كوجك تاجى الواقعة بقرب قصبة الكاظمين وهذه يبلغ بدل التزامها (٣٥٠٠) قرشا ، وان بدل الالتزام السنوى لنهر خاتم وقزاق فيبلغ (٥٢٥٠) قرشا وان المجموع السنوى الموجودة فى نفس بغداد الفان فالمجموع يبلغ (١٥١٥١) قرشا وعليه يصبح مجموع واردات القرى والانهار المندرجة اسماوءها اعلاه (١٤٣٧٥٠) قرشا وان الوظائف

(اى المرتبات) التى تعطى للذوات الكرام من السلالة الطاهرة المذكورة تكون كما يلى سنويا : الى السيد مراد (٧) آلاف قرش سنويا ، والى السيد على (٣٧٥٠) قرشا سنويا ، والى المرأة (علوية) ابنة اخ النقيب المرحوم السيد محمود عشرة آلاف قرش سنويا والى ابنته المرحوم السيد رمضان (٣٥٠) قرشا سنويا والمجموع هو (٢١٦٥٠) قرشا سنويا . اما الوظائف (اى المرتبات) العائدة للخدام الذين يخدمون الروضة المقدسة فتكون على هذه الطريقة : مبلغ (١٦٢٥) قرشا سنويا للواعظ والخطيب والمدرس ومبلغ (١٢٥٠) قرشا سنويا للامام الحنفى و ٢٥٠) قرشا سنويا للامام الشافعى و (٢٥٠) قرشا سنويا لشيخ الحلقة (١٥٠٠) قرشا سنويا الى كاتب الروضة الشريفة ، (٢٥٠٠) قرشا الى الفراش والخدام وغيره الموجودين فى الروضة المقدسة ، (٥٠٠) قرشا سنويا الى السيد اسماعيل البرزنجى فالمجموع (٧٨٧٥) قرشا ومجموع الوظائف هو (٢٩٤٧٥ قرشا واما الباقى وقدره (١١٤٢٧٥) قرشا فيصرف منه على الذوات الكرام من السلالة الطاهرة للشيخ المشار اليه ، والى الخدام الموجودين فى العتبة العلوية بقدر ما يكفى يوميا لهم ولاهلهم ولافراد عائلاتهم وان يعطى رغيفين من الخبز وما عونا من الشوربة لكل واحد من الفقراء والدراويش وابناء السبيل الذين يتواردون من الغرب والهند والسند وبخارى والافغان ومن سائر الممالك الاسلامية والذين لا يقل عددهم دائما عن ستمائة شخص ويصرف ايضا على الترميمات والتعميرات المقتضية للجامع والتربة الشريفين وهذه العمارات مدونة فى القطعة الواحدة المضاة والمختومة من دفتر الواردات مع الفرمان العالى المتعلق بها و محفوظة كلاهما بعباراتها فى ادارة الدفتر الخاقانى العامرة ثم ان الانهر المعروفة بدوره وبلوى ومخيسة والاراضى المسماه

بالمنصورية وابو خرابه الواقعة ضمن ناحية خراسان التابعة للاوقاف الموبوطة والمشروطـه للجامع والقبر العزيز المشار اليه (اى الحضرة الكيلانية) كانت هذه ايضا من جملـــة الاوقاف الشريفة الا ان السيد محمود النقيب السابق لبغداد افرز هذه الاملاك من الاوقاف المذكورة واجرى معاملة فراغها باسم شخص من اهالى بغداد يدعى محمد سعيد واخيـرا تبين شرعا ان الاراضى المذكورة هى من موبوطات الاوقاف المتعلقة بالجامع الشريـــف وبقى الضعيف للحضرة الكيلانية وعندما جـرت المرافعة بين المرحوم محمد سعيد وبـين المتولى والقائمقام الحالى نقيب الاشراف السيد على زيد صلاحه الذى هو من اولاد العزيز المشار اليه ظهر ان القسم الاميرى من الاراضى المذكورة هو مخصص لتعمير وترميم الجامع الشريف والعتبة المنيفة للحضرة المشار اليها وكذلك لاجل اطعام الطعام للفقراء فيهمـــا ، وان المرحوم محمد سعيد قد افرز مقطوع الجزئى من الوقفية من غير حجة شرعية لديه وهكذا تبين انه قد استولى على تلك بصورة فضولية فعليـة اقام المتولى المومااليه السيد علـــى دعوى طالبا ضبط وارجاع تلك الاراضى الى الوقف الكيلانى كما كانت سابقا ، وان المرحـوم محمد سعيد وان ادعى هو ايضا ان الاراضى المذكورة لم يجر فيها زرع او حرث ما وانمـــا قد جرى التصرف فى القسم الميرى منها بصورة المقطوع بعد ان افرزت من الوقفية ، ولمـا كان القسم الميرى من الاراضى المذكورة خصص منذ سنين عديدة لترميم وتعمير الجامـــع والعتبة الشريفة للحضرة الكيلانية ولاجل اطعام الطعام للفقراء ، وبما ان الاراضى المذكورة هى اراضى معمورة تزرع وتحرث من القديم وان كلا من الجامع المذكور والعتبة المقدســـة العتيقة هما فى حاجة الآن للترميم والتعمير ، وبما انه قد استخبر انه سيكون من الانفع والاولى من كل الوجوه لو ان مقطوع القسم الاميرى من تلك الاراضى يعاد ثانية الى جهــة

اوقاف الحضرة المشار اليها . ولما كانت قد تأيدت هذه الجهة بالحكم الشرعي ايضا فقد اقتضى ان يصدر امري الشريف بتثبيت هذا الامر على الوجه المشروح اعلاه، ولكن وأن كنتم بذلك أنت بصفتكم واليا هناك وصدر بذلك ايضا اعلام شرعي من قبل قاضي بغداد السابق حفيد آل اليشقجي مولانا عبدالله راشد زيدت فضائله الا انه بناء على عدم وجود اسماء صريحة للاراضي المنازع فيها في سجلات الدفتر الخاقاني فقد اقتضى لاجل البت بامر هذه الاراضي بصورة نهائية ان تعينوا هيئة امينة من ممثلي الادارة والشريعة لتذهب بصحبة الطرفين المتخاصمين لمعاينة وتحديد ومسح الاراضي المذكورة للتحقق بصورة قطعية ما اذا كانت هذه الاراضي هي في الحقيقة واقعة ضمن حدود القرى والاراضي المسجلة اصلا في الدفتر الخاقاني وقفا من الاوقاف المستقلة للحضرة المشار اليها اي انها واقعة ضمن حدود معلومة في محل اخر مستقلا عن باقي اوقاف الحضرة الكيلانية وبعد اجراء هذه التدقيقات يجب ان تقدم الى حضورنا الايضاحات والتفصيلات اللازمة بهذا الشأن لنصدر قرارا عنها . فلذا ووفقا لامري الشريف الصادر من محاسبة الاوقاف فقد اجري التوقيع حسب الشرع الشريف بين ممثلي الطرفين وامين دائرة الشرع وبحضور بعض ذوي الحياد من ارباب الوقوف ومن اهالي القرى المجاورة . وتفصيل الدعوى هو أن متولي الاوقاف الكيلانية السيد علي زيد صلاحه قد ادعى وقفية هذه الاراضي المنازع فيها وارجاعها الى الاوقاف الكيلانية ثانية وهذه تفصيلها :

نهر الدورة : محدود من جهة بنهر مزيد ومن جهة اخرى بنهر عبد الحميد ومن جهة ثالثة بنهر دوره ومن جهة رابعة باراضي هويجية ابو الصخول .

نهر جلهمي : محدود من جهة بنهر ديالى ومن جهتين بنهر شاهين من الاوقاف الكيلانية ومن الجهة الرابعة قنطرة ديالى .

قرية المخيسة ، محدودة من ثلاث جهات باراضي ابو كرمه وعلوان والمورر من نفس الاوقاف الكيلانية اما الجهة الرابعة بشط ديالى .

نهر المنصورة : محدود من جهة بنهر جلطارة ومن الجهة الثانية بنهر باب الدرب اما الجهتين الباقيتين منه فمحدودتين بلجمه وجاووش من الاوقاف الكيلانية .

نهر خرابة المعروف بنهر الشيخ محدود من جهة بنهر خراسان ومن جهة اخرى بنهر قبه واما الجهتين الباقيتين منه فباراضي القبه والرحبة من الاوقاف المذكورة .

الاراضي المعروفة بالمقطوع فمحدودة من ثلاث جهات بمساتين واراضي قرية زهيرات العائدة للاوقاف المذكورة واما الجهة الباقية فمحدودة باراضي الشوكة العائدة ايضا للاوقاف الكيلانية .

أما المدعى عليه محمد سعيد المذكور فهو ايضا اقر واعترف بكون هذه الانهر والاراضي الخمسة كانت راجعة للاوقاف الكيلانية وانه قد افرزها وضبطها وتصرف بها بلا موجب ، كما انه قد استولى على الاراضي المعروفة بالمقطوع واستصدر بها براءة عالية خلافا للواقع وقد اقر وشهد جميع الحاضرون من اهالي القرى بعائدية الانهر والاراضي المذكورة للاوقاف الكيلانية على الوجه المشروح اعلاه فقد تقرر وفقا للحكم الشرعي اللاحق بهذا الشأن ان تعاد هذه الانهر والاراضي المفصلة اعلاه الى الاوقاف الكيلانية ثانية كما كانت في السابق .

ولما كان النقيب السابق لم يهتم كثيرا بتعقيب خيرات الذات المشار اليها فعلى القائمقام او النقيب الحالى ان لا يحصر واردات هذه الاوقاف لنفسه انما يجب عليه ان يصرف كامل ما يقتضى لتعمير وترميم العتبة المشار اليها ولاطعام الطعام للستمائة فقير ودرويش من الهنود والافغان وغيرهم ممن يسكنون تلك العتبة المباركة • وكذلك صرف ما يقتضى على الخدام الذين يقومون بما ينبغى من الخدمات فى الروضة الطاهرة ، ويجب ان يعتبر امرنا هذا اقوى حجة للجهة الوقفية لكيلا يبقى بعد هذا مجال لاجراء افرازات وحالات اخرى كما حدثت هذه المرة • وجوابا على العريضة المكتوب محضرها باللغة العربية وعلى الاعلام الشرعى المتضمن المعلومات اللازمة فقد ارسل صورة من القيد المصدق على صحته والمحتوى على حساب المحصولات السنوية للاوقاف المارة الذكر • وكذلك استنسخت القيودات اللازمة وحولت الى جانب نظارة اوقافى الهمايونية لتثبيت وتصحيح الاوقاف المذكورة فى سجلات دفتر خانتى العامرة مجددا ليصبح سندا قويا لهذه الاوقاف الكيلانية وذلك بعد ان ثبت وتحقق وتدقيقها على تلك الصورة ، واقر واعترف المرقوم محمد سعيد ايضا بذلك ، ولما كان اعطاء وارسال قطعة واحدة من الاجمال الخاقانى اى كل من محاسبة الاوقاف والى جهة الاوقاف والمذكورة مما يوافق ارادتى العلية ، كما ان الاقتراح اللازم باجراء ما ينبغى لذلك قد قدم الى من قبل الناظر الحالى لاوقافى الهمايونى دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم وزيرى السيد محمد حسيب باشا ادام الله تعالى اجلاله قبل هذا وصدرت ارادتى الملكية بذلك فيقتضى وفقا لاوامرى الملكية الهمايونية ان يجرى مجددا قيد هذه الاراضى فى دفترخانتى العامرة فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة الشريفة سنة ١٢٦٠ هـ • ولما كانت ارادتى العلية تقضى ان يجرى العمل على الوجه المبين اعلاه فقد ارسل الى دائرة

الوقف امرى الشريف هذا علنيا وأوكد وانبه بلزوم العمل بموجب هذا الامر الجليل القدر الذى صدر من ديوانى الهمايونى . والآن ولما كان الوالى المشار اليه هو أنت فعليك ان تعلم بان ارادتى هذه وفرمانى العالى الشان هذا قد صدر عندما تطلعون على مندرجات هذا الفرمان ان تحتنوا وتصرفوا ما بوسعكم لتنفيذه بحذ فيره وذلك بان لا يجوز فيما بعد اعطاء المجال لافراز شيء ما من الاراضى والاوقاف الكيلانية المذكورة يحافظ الجامع والروضة الشريفة فى حالة معمورة على الدوام وذلك باجراء التعميرات والترميمات المقتضية له . وكذلك ليكن معلوما لكم بانه من مطلوباتى الملكية ان يعتنى فى امر تأمين الاسباب والضرورات اللازمة لاستكمال الخدمات المطلوبة للحضرة الشريفة وان يؤمن ايضا لاطعام الطعام للفقراء والدراويش والزوار الآخرين الذين يأمون الحضرة . ان اوامرى هى انه عندما يصل اليكم فرمانى الشريف هذا ان تعملوا وتتحركوا وفقا لمقتضاه وامتثالا بمضمونه الواجب الطاعة وعليكم ايضا ان تعتمدوا على صحة علامتى الشريفة هذه .

حرر فى اوائل شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦١

السلطان العثمانى

فهرس المحتويات

الصفحة

الفصل الثالث

القبائل والريف

الفصل الرابع

التنظيمات الاجتماعية

الفصل الخامس

طوائف السكان وعاداتهم وتقاليدهم

أولا : طوائف السكان

الصفحــــة